LETTERS FROM EGYPT

رسائل من مصر

Lady Lucy Duff-Gordon

ليدي دوف جوردون

ترجمة: إبراهيم عبد المجيد

أدب الرسائل

الترجمة الكاملة للرسائل، مع ذكريات ابنتها جانيت روس، ومقدمة لجورج ميريديث





Lady Duff Gordon

رسائل من مصر

ترجمة: إبراهيم عبد المجيد

الإشراف العام:
زياد إبراهيم

المراسلات:
الدور الأرضي شقة 1
71 ب حدائق الأهرام - البوابة الأولى (بوابة خوفو) - ميدان الرماية - طريق الفيوم - الجيزة - جمهورية مصر العربية

البريد الالكترونى:
ziad.meguid@gmail.com
Baitelyasmin@gmail.com

تليفون:-
00201110094625

00201016685583

اسم الكتاب:
رسائل من مصر
تأليف: ليدي دوف چوردون
ترجمة: إبراهيم عبد المجيد

الناشر:
بيت اليـاسمين للنشر والتـوزيـع
المدير التنفيذي: فاطمة الحلواني
تـدقيق لغوي: حـازم أبـو المجـد

رقم الإيداع:
2019/ 13870
الترقيم الدولى:
978-977-817-190-7

الطبعة الأولى لبيت الياسمين 2020.

العنوان الأصلي
رسائل ليدي دوف چوردون من مصر

Lady Duff Gordon’s Letters from Egypt

مع ذكريات ابنتها جانيت روس، ومقدمة لچورچ ميريديث عن الطبعة الإنجليزية المنشورة عام 1902 وتضم كتابَيْ: "رسائل من مصر 1865"، "الرسائل الأخيرة من مصر 1875"، مع إضافة الرسائل الناقصة من الطبعة الأخيرة التي أصدرها حفيدها چوردون ووتر فيلد عام 1969. وبهذا تكون هذه هي الترجمة الكاملة للرسائل.

تمهيد

لن أتحدث هنا عن ليدي دوف چوردون أو لوسي دوف چوردون أو "لوسي أوستِن" كما كان اسمها عند الولادة، لن أتحدث عنها ككاتبة ومترجمة عظيمة في تاريخ الأدب الإنجليزي وكيف كان إنجازها العظيم من الكتب على الرغم من سنوات عمرها القليلة 1821-186، فستجدون الحديث عنها وافيًا في المقدمة التي كتبها الشاعر والروائي الإنجليزي جوروج ميريديث لهذه الطبعة، وبعدها في كلمة ابنتها جانيت روس التي كتبتها في ذكراها. سأتحدث عن الكتاب والرسائل أو الخطابات. لقد صدر مِن قبلُ كتاب للدكتور أحمد خاكي عن الهيئة المصرية العامة للكتاب عام 1976 بعنوان "رسائل من مصر - حياة لوسي دوف چوردون في مصر 1862-1869" وصدر عام 2012 كتاب "رسائل من مصر - ليدي دوف چوردون.. المرأة التي أحبت مصر" للأستاذ ماجد محمد فتحي عن دار سطور. اعتمدَ د.أحمد خاكي على طبعة أصدرها حفيدها مستر چوردون ووتر فيلد عام 1969، وهو بالمناسبة كان صحفيًّا ومراسلًا في فرنسا وفي مصر وله كتب عن كليهما، وُلد وعاش بين سنتي 1903-1987 الكتاب الأول -لأحمد خاكي- هو دراسة قيمة للرسائل وليس ترجمة لها حول قضايا كبرى وردت فيها مثل قضية الدين وصورة الحياة الاجتماعية والاقصادية والسياسية وسياسة الحكم ذلك الوقت وموقف المصريين وموقف أوروبا.. إلخ. الكتاب الثاني ليس ترجمة لكل الرسائل التي جاوزت مائة وثلاثين رسالة.

لكن لم يكن ذلك هو سبب ترجمتي للكتاب.. كان هناك أكثر من سبب، الأول أنني كنت أنهيت كتابة رواية بعنوان "السايكلوب" صدرت عن دار مسكلياني في تونس الآن،.. وأحسست -كالعادة بعد أن أنتهي من كتابة رواية- بفراغ حولي وعدم. فكرت في أن أعود إلى أيام الشباب حين كنت أقوم بعُروض لكتب إنجليزية في الصحف العربية وأترجم بعض فصولها، بل ترجمت ثلاثة كتب

ونشرتها متفرقةَ الفصول بصحف عدة ولم تكن هناك إنترنت ذلك الوقت لأعود إليها ولم أعد أذكر حتى أسماء الصحف، وضاعت مني أصول ترجماتها مع الزمن والانتقال في الحياة من مكان إلى مكان، كتابٌ واحدٌ فقط هو "مذكرات عبد أمريكي" لفريديرك دوجلاس الذي احتفظتُ به وكان السببُ أنني لم أنشره فصولًا هنا أو هناك.. بل نشرته في بيروت في "سلسلة ذاكرة الشعوب" عام 1989 عن مؤسسة الأبحاث العربية ثم بعد ذلك في مصر. قلت لنفسي "لا أريد أن أنظر حولي.. وفي الوقت نفسه لا أستطيع أن أكتب رواية جديدة، لقد خرج مافي روحي وأحتاج إلى وقتٍ للاحتشاد لرواية جديدة كالعادة.. لماذا إذن لا أعود إلى ترجمة أي كتاب أنشغلُ به عن الفراغ والعدم وعن الحياة البائسة من حولي؟". وضعَتْ المصادفة أمامي الصديقةً العزيزة سالي سليمان الناشطة الأثرية وصاحبة مدونة "البصَّارة"، اقترَحَتْ عليَّ هذا الكتاب ليترجمه أحدٌ لدار "بيت الياسمين" التي يرعاها ابني زياد. جاءت المصادفة في وقتها.. وقررتُ أن أترجم أنا الكتاب. أردت أن أبتعد به كثيرًا عما حولي.. فهل حدث؟ أبكاني الكتاب أكثر من مرة وأمتعني غاية المتعة وأنا أرى الحياة البسيطة للمصريين خالية من كل تعصب بين الأديان وهو ما افتقدناه فيما بعد منذ السبعينيات اللعينة في القرن الماضي.. وأنا أرى الغائب في كثير من كتب التاريخ والمؤرخين عن الظلم الجبار الذي عاناه الشعب المصري تحت حكم الخديوي المستنير إسماعيل! أبكاني وأنا أرى المشاعر المتدفقة من الخدم الأطفال والكبار.. العبيد والأحرار.. وتعلقهم الرائع بهذه السيدة العظيمة. وأنا أرى محبة المصريين للوسي دوف چوردون التي بلغت عنان السماء وهم يبتهلون من أجلها في مولد سيدي أبو الحجاج في الأقصر وفي غيره من الموالد مثل مولد سيدي عبد الرحيم القناوي، وأنا أرى المصريين يرون في هذه السيدة ملاذًا لهم في الحياة ولا يعترفون بغيرها مبعوثًا للإنسانية في أعظم صورها. كيف أحب المصريون هذه السيدة كل هذا الحب.. السبب بسيط جدا؛ إنها هي التي

جاءت إلى مصر من إنجلترا بعد نصيحة أن تعيش في بلد دافئ إذ أصابها السل ولم يكن له علاج ذلك الوقت. جاءت إلى مصر بعد أن ذهبت من قبل إلى كيب تاون في منطقة رأس الرجاء الصالح ولم تكن متوافقة معها. جاءت إلى مصر عام 1862 وتوفيت ودفنت في مصر عام 1869. خلال هذه السنوات سكنت في الأقصر في "بيت فرنسا" التابع للسفارة الفرنسية وكانت تنتقل منه إلى القاهرة والإسكندرية وإلى لندن أيضًا، ناهيك برحلاتها إلى أسوان والنوبة وعودتها. وَجَدَتْ الأمراض متفشية بين المصريين والطاعون البَقَري متفشيًّا بين الحيوانات فقامت بدور الحكيمة للمصريين من أمراض مثل الدوسنتاريا والربو وغيرها وكان علاجها إياهم بالأعشاب.. ألم يكن هناك أطباء في مصر؟ كان هناك أطباء.. لكن المصريين لا يثقون بطبيب الحكومة ويرون أنه سيقتلهم، لا يثقون بأي شيء من قبل الحكومة، وهكذا صارت هي المنقذ الوحيد لهم في الأقصر أو "طيبة" اسمها القديم.. وغيرها من البلاد التي حولها وذاع صيتها فيها. ماذا كان يفعل المصريون مقابل ذلك؟ ليس الدعاء لها بالصحة فقط والسلامة لكن هدايا من كل شيء.. لحم وزبد وخضر وفاكهة وبيض وفطير وكل ماكانوا يملكونه أو يفعلونه.. ولم يكن ذلك كل شيء فقد التقت بشخصيات نادرة بينهم مثل الشيخ يوسف أبو الحجاج (واعظ مسجد أبو الحجاج) الذي بلغ ثلاثين عامًا وكان دارسًا في الأزهر وإلى جانب الوعظ كان كاتبًا للقنصلية الإنجليزية ومعلمًا للقرآن الكريم، وشخصيات أخرى كثيرة أحبت هذا الوطن حبًّا جمًّا وكانت على درجة من العلم والثقافة بما يستحق أقصى احترام، مثل الدكتور عثمان إبراهيم والحكيمباشي علي أفندي وجمع من شيوخ البلد وشيوخ قبائل العبابدة وهكيكيان بيك الأرمني الذي يقول عنه أحمد خاكي إنه يُنسب إليه دخول زراعة اليوسفي في مصر. أما خدمها فعمر أبو الحلاوة على رأسهم.. وصِبية من العبيد أحبتهم وأحبوها إلى درجة مذهلة فضلًا على بحارتها الذين يعملون على "دهبيتها" بعد أن امتلكت "دهبية". حين تقرأ ما يقوله الشيخ

يوسف أبو الحجاج في كل القضايا الاجتماعية والدينية ترى أنك أمام طه حسين المجهول أو رفاعة الطهطاوي. في الكتاب حفاوة رائعة بالطبيعة المصرية ووصف فني عالٍ لمفرداتها الصغيرة وظواهرها الكبيرة.. زراعة أو عمارة وغيرها.. وفي الكتاب قضايا ما تزال تنفجر بيننا للأسف.. فهي ترد على من يقولون إن الشعب المصري لا يدار إلا بالعصا.. بنعم، ليس هو وحده لكن أي شعب يمكن أن يدار بالعصا ما دام من يستخدمون العصا لا تتم محاسبتهم! ترد على من يقولون إن المسلمين لا يحبون الاقباط بأن هذا لا وجود له ولم تشاهده.. وتقدم الأدلة الحقيقية والروحية من حكايات واقعية أو أسطورية ستراها بين يديك في رسائلها. وتجسد لنا قضايا غابت عن الكثير.. مثل من يدفع ثمن التقدم الذي يقوم به الخديوي إسماعيل.. إنه الشعب الفقير الذي فُرضت عليه ضرائب رهيبة على كل شيء.. على الرجل والمرأة والخفر والأولاد والحمار والحصان والجمل والبيع والشراء وحتى العاهرات اللواتي ارتبطت الضريبة بجمالهن من أجل أن يبني عاصمته الخديوية ذات الطراز الفرنسي، مما جعل الفلاحين يهجرون الأراضي ويعم الخراب البلاد. ترد على من قالوا بأنه كانت بداية الحياة الديموقراطية بإقامة مجلس للنواب أو دستور للبلاد بما يفعله الخديوي وجنوده في الناس من سرقة ونهب وضرب وتعذيب يصل إلى تفجير بطون الحوامل من النساء وحمل الرجال على العمل سُخرةً في القناة وغيرها أو خدمة عسكرية فضلًا على الديون الخارجية، ولم يكن أرخص من الإنسان المصري. باختصار لم تكن مصر لأهلها بل كانت للأجانب من الشركس والأتراك والعائلة الخديوية وكل ما كان يفعله في القاهرة التي عرفت بالخديوية من تقدم عمراني دفع ثمنه أهل الريف فلاذوا بالفرار إلى الصحراء. تقول إن هذا الحاكم الذي تراه أوروبا مستنيرًا خرب البلاد ولم تتوقع له مستقبلًا جيدًا. ومن العجب أن المصريين اليائسين جعلهم حبهم لها يطلبون إليها أن تكون صوتهم في الصحافة الأوروبية، بل ويطلبون إليها أن تتدخل إنجلترا وتحكم

مصر وتُخلِّص الشعب من ظلم الأتراك، واللطيف أن الحكومة وجهت تهمة التخابر مع الخارج إلى أحد أهل الصعيد وكان التخابر المزعوم مع الهند.. فقالت ساخرةً "لماذا الهند التي لا يعرفها هنا أحد! لماذا لم يقولوا فرنسا أو إنجلترا!"، وعندما حدث تمرد قاده درويش اسمه أحمد الطيب حل خراب لا مثيل له بإشراف مباشر من الخديوي فقتل المئات وبُقرت بطون النساء الحوامل وبيعت الفتيات في أسواق النخاسة وزُج بالرجال الذين لم يتم قتلهم إلي العمل سخرةً أو المنفي في "فازوجلو" في السودان، وتم تخريب قُرًى كاملة مذكورة طبعًا هنا بالاسم والأعداد من الضحايا وطريقة القتل التي كانت أشبه بالتسلية لرجال الباشا!

ومن أبرز مافي الكتاب -بعيدًا عن السياسة والاقتصاد والعادات الاجتماعية- محاولتها الربط دائمًا بين الأصل الفرعوني وبين العقيدة المسيحية حين دخلت مصر وبين العقيدة الإسلامية، فهي ترى الأولياء المسلمين تجلياتٍ للقديسين المسيحيين ولغيرهم في التوراة ولآمون والآلهة المصرية القديمة، بل تفعل ذلك مع الأنبياء أيضًا.. فالرسالة واحدة. هذه ملحوظة هامة في رسائلها فلا شيء مُنبَتُّ الصلة عما قبله. إن دراسة الشرق والغرب تأخذ مساحة كبيرة من حديثها والعبادات والأديان والأساطير والحكايات.. كما تلقي الأضواء على من كتبوا عن الشرق عامة ومصر خاصة من الرحالة والمكتشفين وكيف سطحوا الأمور أو كانوا متعصبين ضد المصريين ولا تستثني أحدًا تقريبًا غير إدوارد وليم لين. كما يأتي الحديث كثيرًا على بعثات اكتشاف الآثار ذلك الوقت وأثريين أجانب مشاهير مثل بيلزوني وماريت باشا.. وكيف كانت تتم سرقة الآثار أيضا.

إن حكاياتها عن العبيد الصغار فاتنة وحكاياتها عن النساء لا أروع، أجل.. تحتل المرأة المصرية -جسدًا وروحًا- مكانة تكاد تصل إلى درجة القداسة عندها في وصفها لسلوكها أو ملابسها أو حفلات زواجها أو جسدها أو رقصها في الحفلات. ومع الحكايات سترى كل شيء مجسدًا ويمكن لك في لحظات أن تتحدث مع

الشخصيات التي تتحدث هي عنها، فهي تتحرك في قلبك كما كانت تتحرك في قلبها.

هذه الرسائل صورة إنسانية عالية القيمة للحياة الحقيقية لمصر وللمصريين أيضا. هي تسميهم "العرب" لكني حرصت أن أترجم كلمة عربي بكلمة مصري، إلا في فقرات قليلة كانت تتحدث فيها عن القبائل في الصعيد وأثر العرب عليهم منذ دخلوا مصر أو حديثا عاما، ولا يخلو الكتاب من خفة دم وروح الدعابة التي يتمتع به المصريون وتمتعت بها هي أيضًا، كما لا يخلو من تصوير الجانب الأسطوري والخيالي من فهم المصريين للحياة. هذه الرسائل التي تجاوزت المائة والثلاثين هنا كاملة اعتمدتُ فيها على الطبعة الأقدم، الأولى التي صدرت عام 1902 والتي شملت طبعتين سابقتين هما: "رسائل من مصر" عام 1865، و"الرسائل الأخيرة من مصر" عام 1875. ورأيت أن الرجوع إلى هذه الطبعة هو الأفضل لأنها منشورة من قِبل ابنتها والكتاب الأول منها منشور في حياة كاتبتها.. ولقد حرصت على استكمال الرسائل من أكثر من طبعة بينها طبعة حفيدها چوردون ووترفيلد التي نشرها عام 1969 حتى تكون كلها بين يديك، ولقد لاحظت مثلاً في طبعة حفيدها أنه ضم بعض الرسائل إلى بعضها وفصل بعضها عن بعض. كان معنيًا أن يجد عنوانًا لمضمون الرسائل. لم أشأ أنا أن ألخص الرسائل في عنوان، وترجمتها كما نشرت في الكتب الأولى كما قلت. ما أضافه حفيدها هي رسائل بعضها يتعلق بأحداث أسرية آثرت الطبعات الأولى تفاديها. لماذا لم أجمع كل عدد من الرسائل تحت عنوان كما فعل حفيدها؟ لأني أردتها كما كتبتها متتابعة في الزمن حتى لا آخذ القاريء إلى أي معنى مباشر وأتركه يعيش الحالة كما كتبتها لوسي دوف چوردون. قد يكون ما فعله حفيدها مفيدًا للقاريء الأجنبي.

وقبل أن أتركك لتعرف من هي صاحبة الرسائل ثم تقرأ الرسائل لتعرف مصر والمصريين.. أقول لك إنني لم أعطِ هنا أمثلة على ما أقول لأنها بين يديك في الرسائل ولا أريد أن أطيل الحديث في

المقدمة فالكنز الرائع بين يديك وأحب أن أنوه بأنك أحيانًا قد تجد تكرارًا في بعض ما حملته الرسائل والسبب أنها تكتب إلى زوجها وإلى أمها وقليلًا لابنتها جانيت روس أو ابنها موريس أو ابنتها ريني، ولا يكون الوقت طويلًا بين رسالة وأخرى فتجدها تحكي عن الظاهرة أكثر من مرة، ولم أفكر باختصار الرسائل حرصًا على أن تكون كاملة كما كتبتها هي -بعبلها يعني كما نقول- لتعكس روحها كما كانت.. فرحها وحزنها. قال عنها چورچ ميريديث "لقد كتبَتْ كما كانت تتكلم"، ومن ثم حاولت أن تكون الترجمة سهلة ولم أمشِ وراء البيان في التعبير بقدر ما حرصت على الحفاظ على الصورة بأسهل طرق الكتابة كما فعلت هي التي كتبتْ كما كانت تتكلم. إن المتعة التي ستخرج بها من هذه الرسائل تجمع بين متعة الحكي ومتعة الفن ودقة الفكر والمعرفة، فلديها قدرات رائعة على التصوير للمكان والأرواح ومتعة الفهم للمصريين وعاداتهم وما يحل بهم من أفراح وأتراح وتاريخ من الدراسة للشرق والغرب . لقد كانت أصعب الرسائل على روحي هي رسائلها الأخيرة وهي تقترب من الموت وتبدي قوة رائعة على الحياة وإيمانًا عميقًا بالنهاية المحتومة وحبًّا لا مثيل له لمن حولها من مصريين استغنت بهم عن أهلها بل وعن العالم، كم كانت عظيمة هذه السيدة لوسي دوف چوردون وكم كانت جديرة بما لقبها به المصريون البسطاء غير الملوثين "البشوشة".. "الشيخة".. "الست".."نور على نور".

والآن إلى مصر.. مصر بكل تجلياتها من قهر الحكام وثورات الشعب وصبره.. مصر بعظمائها المجهولين والمعروفين.. مصر الأرض والنيل والصحراء والمساجد والكنائس والآلهة والأنبياء والزرع والجبال والوديان والطيور والحشرات والشمس والقمر.. مصر التي طوال التاريخ ترفع وجهها للسماء ساخرة من كل جبار أثيم.. مصر التي لا يكرهها إلا كل بطّال غرور.

إبراهيم عبد المجيد[1]

المقدمة

چورچ ميريديث

رسائل السيدة دوف چوردون بمثابة مدخل لشخصيتها.. لقد كتبت كما كانت تتكلم، وهذه ليست دائمًا سمة الرسائل الخاصة، فالقلم هنا مجرد آلة رسمية لذلك. إن القراء الذين يعتادون صوتها أكثرَ سرعان ما سيتأكدون أنها لمخاطبة العامة لم تضع حبكة لرسائلها، ولا اصطنعت إيقاعًا للفوز بتصفيق جميع الأوربيين، ومع ذلك يمكن أن تتملكها الرغبة في الإطراء، وأن تقول عن الغرور الذي يترتب على ذلك إن عدم الإحساس به غير إنساني.

كانت خفة روحها لسان حال الطبيعة. لقد ورثت عن أبيها العقل المتزن وأخذها ضميرها لتحمل على نفسها كما تحمل على العالم، ومن ثم كان سؤالها "هل نحن أفضل كثيرًا؟" عندما كان يحوم شخص غريب الأطوار أمام المارة. إنها لم تدرس "جوتة" عبثًا. ولا المخلوق الساذج جدًّا الذي هو بشكل عام منبوذ عن كل شفقة افتقر إلى الحصول على كلمة تسامح منها، ودائمًا كانت هناك ضرورة للضحك لأن موليير أيضًا كان في خزانتها.

كانت مرجعًا للجميع ولم تكن قطُّ خادعة للأرواح المسكينة من المسيحيين والمسلمين الذين كانت حكاياتهم عن البؤس والظلم تحركها لخدمتهم كصديقة. لقد وجد فيها المصريون تجليًا للإنسانية، وهذه صورة لها بالإضافة إلى الجانب الآخر الساخر سهل الانزعاج.

لقد تأملتْ بوضوح أهل النيل، وعلى الرغم من أن رؤيتها لهم كانت عاطفية.. رأتهم يعيشون وسط خطايا عميقة، وكانت سعادتها في تفسير فلسفي لسلوكهم، فسبب ما هم عليه هو أنهم ليسوا في المكان الأفضل.

لقد كان العمل الذي قامت به من أجلهم هو العمل الأكبر لبلدها بمنح هذه المخلوقات المرتعشة فوق الأرض الجامدة برهانًا على

أن امرأة إنجليزية مسيحية يمكن أن تكون صديقتهم الرقيقة النافعة، والأم الرؤوم لهم على الرغم من حالة عدم الثقة القوية بالأجانب أو بمختلفي الديانة.

كان التعاطف يستيقظ سريعًا في صدرها مع كل ضحايا سوء الحظ، ولم يكن التساهل وراء ذلك بل معرفة جذور الشر عند الجناة والمخربين وفي مواجهة الحكام الطغاة وقسوة المجتمع الشائعة، كانت في حرب مفتوحة في وقت كانت بطولة البسطاء أو المستضعفين غير شائعة.

وفي كل الأشياء المثيرة للنقاش كانت الوحدة في الفكر المتزن مع القلب الحي واضحة تفتح الطريق لفيضان مشاعر الشفقة، كانت لها مقاييس عملية لتحقيق هدفها في المساعدة. كانت تشك في استخدام العاطفة في تحريك الطغاة أو الجموع لعمل الشيء المراد عمله، أكثر من ذلك.. كانت لا تثق بالخطابات البلاغية وذات النكهة البرلمانية أو الشرعية أو الأدبية، مؤمنة بأن الحقائق الواضحة هي المقنِعَة في أي قضية وهي الصحيحة، وأن تلك البلاغة محل شك لكونها غطاء للشخص الضعيف. هل هذا يخفف العيوب أو يوقد النار بسرعة؟

فقط في حالات الإلحاح الشديد تكون هناك جاذبية للعاطفة الخاصة بقيمة الكسب ليوم واحد، وهكذا لم تُجبَر قَطُّ على التعبير عن رأيها، على الرغم من أن مشاعرها قد تكون في حالة انفعال كما أنها تمتلك الحس والفن الأدبي.

إنها تكتب من بيتها في أعالي النيل و"في هذا البلد يرى الشخص كم هو جميل تجلي الطبيعة أكثر من أي درجة من التعبير الفني الغامض في لوحات أفضل الفنانين". إنها بابتعادها عن التزويق الأدبي، صورت لنا واقع المصريين والأقباط كما لم يفعل غيرها من قبل بأسلوبها غير المصطنع الذي يلمس القلوب. فلم تكن تضفي أوراق الذهب على معارفها كي تجعلهم يلمعون كما يقول هوراس والبول عن مدام دي سيفينيه[2]، فمن خلال كتاباتها كانوا بالفعل يلمعون من الداخل ببريق لامع بشكل معقول

للملاحظ وأكثر مصداقية من إضفاء الذهب، لم تكن تغالي في تجميل الشخصيات.

كانت تكره صيغ التفضيل حين تكون واجبًا لإنتاج تأثير ملحوظ، ولم يكن الأداء الأدبي الذي يمكن أن تستمتع به -كما هو الحال مع أيٍّ منا- يؤثر بقوة في تصوير امرأة تدعوهم شخصيتها بقوة، ففرديتها أقوي من الألقاب. إن قراءة جملة من المديح -وهو نوع شائع من المبالغة- يجمد طلعتها، وإذا فشل ذلك في تحريك زوايا شفتيها فالحقيقة الكبيرة في الأمر تُظهر الظل الكوميدي على الجدار من الخلف. ذلك الشيطان الذي يسكن المديح الإنساني تم صده بما تتبناه من سلوك من الغريزة والتجارب.

بالنسبة إليها كان معروفًا لكل القريبين منها أنها لا يمكنها المديح زيفًا أو دون رقة حين تقلل من شيء، وعلى الرغم من ذلك فاللعب الدائم للفكاهة قد يجذبها خارج حدودها إلى التمجيد أو التقليل، لكن حين تتشتت التفاهات عن الرجال أو الأشياء.. وتوضع الحواجز أمام التبصر العقلاني كان ذلك يتطلب الكلمات الكبيرة التي تستطيع أن تنطقها بما يشبه السُلطة ورباطة الجأش.

في شبابها كان جمالها مشعًّا.. حواجب سوداء فوق بشرة لامعة ورأس مثل رأس رجل روماني وملامح سلالة يونانية، باستثناء الجدار اليوناني الكلاسيكي للأنف المنبثق من الجبين.

النساء غير المتحمسات يملن أكثر إلى الانتقاد، والانتقاد باستقلال لعضو من جنسهن بشكل خاص، قالوا إن دخولها إلى مرقص أخذ الأنفاس.. المقارنات الشعرية تجري تحت ثقل النثر، لكنها حين تظهر حقيقة من تقاريرها تكون مشابهة لـسيلين Selene[3] تمخر بين السحب.

وأكثر من ذلك.. كانت السفينة الرائعة غنية بالبضائع.

تدربت على يد عالم كبير بين مجتمع العلماء، مالكة ميلًا إلى الانضباط والدقة، ومع لسان يميل إلى الانضباط خطت إلى العالم مسلحةً بأن تكون ضوءًا له. لقد أخذت طريقها بين جحافل من

المعجبين المعتادين سابحة بجسارة.
حملتها شخصيتها الفلسفية المازحة بسهولة فوق الموج أو في الأعماق في طريق امرأة تستهدف حقها لتكون حاكمة عادلة مستقلة معتمدة على قواعد سلوكها البسيطة وتجليات عقلها.
أجنبي شهير كان يناقشها وجها لوجه في موضوع مجرد، نزل على ركبته بشكل مفاجئ محتجًّا ومهزومًا، وفي ذلك الوضع ربَّتَتْ هي على رأسه بينما يستمر موضوع النقاش من قِبَلها هي السيدة المُحبة للخير، حتى أجبره هذا العلاج الخاص لألمه وتعبيره المتسم بالتوسل على أن يقف ويعيد مشاركته الخاصة بفم الممتن الضاحك.
إن الضحك كسلاح دفاعي لامرأة جميلة يكون غالبًا أفضل ما يمكن استدعاؤه لإعادة الرجال المتضرعين إلى رشدهم.. وهكذا يكونون سهلي الإدارة حين تجتمع الكوميديا مع الفروسية للاستجابة، ويستسلمون لأفروديت ويتم سحبهم من أهدافهم العظيمة، وتحويلهم إلى مؤيدين سعداء، أو بعبارة أخرى "أصدقاء سريعين".
كانت السيدة دوف چوردون تمتلك الكثير من الأصدقاء الأوفياء من جميع البلاد، ومن ناحية أخرى.. كان لديها أيضًا عددٌ من منتقديها الذين عذرتهم، ماذا تكون المرأة دونهم! وإذا كانت تسيء للتقاليد -وهذه حالة سابقة لزمانها- فهي لا تتوانى أبدًا عن اتخاذ المناسبة المطلوبة لتصوير الأشياء بأسمائها الصحيحة.
يمكن لها أن تُعرب عن امتنانها لعدم موافقتهم على تقديم نفسها بأسلوب مشابه للرجال، وتطلق أحكامًا في الشؤون العامة مثل الرجال، وكانت تفضل مزاملة الرجال وكانت تدخن، كان طبيبها قد ألمح إلى ضرورة الامتناع عن التدخين أو التقليل منه لعلاج التهاب الحلق الذي يسببه نفخ التبغ، لقد جربت السيجار وأحبت ذلك، ودخنت منذ ذلك اليوم في كرسي مكتبتها وعلى ظهور الخيل حيث لم ترَ أي ضرر في فعل ذلك، لم يكن للرأي تأثير كبير عليها فترى الخوف من التدخين مثله مثل ذبابة

الصيف التي تحوم حول شخص لديه مروحة.
لقد تضايق الفلاحون في البداية بشدة من مشهدها -تصرفاتها- لكنهم دائمًا تذكروا أعمالها الرقيقة والدردشة الحميمة لسيدة غريبة الأطوار وغفروا لها، هي التي كانت تُرى وهي تتحدث بألفة مع المتشردين في الطرقات وبابها مفتوح حتى للكلاب الضالة.

كان البيت المضياف في إشِر [4] Esher يرحب ليس فقط بالرجال والنساء المتميزين من الطبقات العليا لكن أيضًا بالعامة ومتواضعي الحال، وكانوا يبتهجون في لقاءاتها معهم وتعرف كيف تحمي الصامتين الذين يشعرون بحساسية وغير قادرين على الانضمام للمناقشة، وتستجيب وجوههم على الأقل لمظهرها المشرق عندما يتم التطرق لشيء ما يستحق الذكر، كانت ضحكتها تهز المحيطين، وكانت تلقي التحية باستخدام الألفاظ المحببة للأذن، وطريقتها الخاصة في سرد الحكايات كانت موجزة ومرتبطة بتفاصيل الموضوع الذي تتحدث فيه وكانت لا تحاول أن تحدث تأثيرًا يشبه الفجوة الهائلة في الهواء بعد انفجار البارود، كانت هادئة ومقنعة، هادئة ثابتة في الجدل ومالكة لزمام الأمور ولا تحول الجدال إلى مبارزة إذ إن الجدليين هم أكثر عرضة لتحويل الجدل إلى معركة، وعندما كان يحرز أحدهم نقطة قوية ضدها كانت تعطي له ما يستحق من مرتبة الشرف كعدو نبيل، فهي لم تكن في تعاملها معهم كرئيسة الصالون تنظم مقاعد، بل كانت رفيقتهم، أيْ واحدة من المجموعة.
كانت السيدة الحاكمة في كل نقاطها متساوية معهم أكثر من مجرد لاعبة كروت رابحة.
في إنجلترا خلال فترة شبابها حين كانت تتمتع بالصحة كان هناك منزل واحد يمكن للرجال والنساء أن يتحدثوا فيه، وحين أُطفئ هذا المنزل جَبْرًا ذهب النور عن بلدنا، لقد أشار البريق المميت للجلد إلى مرض سرعان ما قادها إلى المنفى لتموت فيه. لوسي دوف چوردون كانت من النساء اللاتي لا يقابلهن الرجال طويلو العمر إلا مرة أو مرتين في العمر كله.

***

للذكرى

ولدت لوسي دوف جوردون Lucie Duff Gordon في 24 يونيو 18 وكانت الطفل الأول لجون وسارا أوستِن، لقد ورثت جمال وذكاء والديها وكان جون أوستِن مؤلفًا قانونيًّا وبلاغته الكبيرة محل احتفاء ومن أعماله.. "مجال علم الفقه بمعناه المحدد" Province of Jurisprudence Determined

ولقد اعتاد لورد بروجهام[5] Lord Brougham أن يقول عنه إنه لو كان جون أوستِن في صحته لكان الأولى بالقضاء مني ومن ليندهيرست..

لقد التحق جون أوستِن في أول حياته بالجيش وكان في صقلية تحت قيادة اللورد ويليام بينتِنك. Lord William Bentinck لكنه سرعان ما ترك الخدمة غير الملائمة له إلى عالم المحاماة، في عام 1819 تزوج سارا، الإبنة الصغرى لجون تايلور من مدينة نورويتش -مدينة في الجنوب الشرقي لنهر التيمز- وأخذا منزلًا في ميدان الملكة بمدينة ويستمنستر قرب جيمس ميل James Mill مؤرخ الهند البريطانية وإلى جوار جيرمي بنتام Jeremy Bentam الذي كان السيد أوستِن تلميذه. هنا ربما يمكن القول إن الفلسفة النفعية للقرن الثامن عشر قد وُلدت.حديقة جيرمي

بنتام صارت ملعبًا لميل الصغير[6] ولوسي أوستن. موقف العربات صار جيمنيزيوم وأرضُ الزهور تخللتها أسوار وممرات.. لقد نمت الفتاة نشيطة ذات إحساس بالأصالة والاستقلال.

في عام 1826 ذهبت عائلة أوستن إلى ألمانيا، كان قبلها قد تم تعيين السيد أوستن أستاذًا للقانون المدني في جامعة لندن الجديدة وكان يرغب في دراسة القانون الروماني تحت رعاية نيبور وشليجل Niebuhr and Schlegel في مدينة بون. لقد كتبت

السيدة أوستِن إلى السيدة جروت Mrs Grote[7] "إن طفلتنا العزيزة هي الفرحة العظيمة لنا ولقد كبرت رائعة وهذا أسعد

شيء في العالم، لغتها الألمانية جميلة جدًّا، إنها تفسر لأبيها في فرح وبراءة.. الرب يمنع أن أحضر ابنة هنا.. لكن في عمرها الحالي أنا سعيدة جدًّا كونها معي هنا وبإرسالها إلى المدرسة لتعلم الكتابة وعلوم الحساب والجغرافيا وطبعًا اللغة الألمانية".

عادت لوسي إلى إنجلترا وقد صارت عذراء ألمانية صغيرة بضفائر طويلة على ظهرها، تتحدث الألمانية كلغتها الأصلية ولديها أساس جيد من اللغة اللاتينية، لقد كتبت أمها إلى أختها السيدة ريف Reeve تقول "إن جون ميلJohn Mill هو دائمًا ابني وصديقي الأعز الذي يتعامل مع لوسي بشغف ويمكن أن يفعل أي شيء معها، وهي تبدو دائمًا وحشية ثائرة ومستقلة وتعرف الكثير. إنها تقرأ كل شيء وتكتب الشعر الألماني، تتخيل وتصنع عوالم غريبة زِيًّا ولغةً وموسيقا وكل شيء، وتتحدث معهم في الحديقة لكنها رغم ذلك -وهذا يدعو إلى الحزن- مهملة في مظهرها.

لوسي الآن تذهب إلى الدكتور بيبر الذي لديه خمسة تلاميذ صبيان وطفله الصغير؛ تدرس اليونانية التي كان والدها مشتاقًا للتشبع بها جدًّا. وكشيء مخطط له حتى لو كنا بقينا في إنجلترا فلن نفقد سنوات عدة.. لدي رغبة تامة حقًّا في أن تتشبع هي بها وأن أدفع بكل ما سبق من تعليمها إلى الحاضر، الشيء الرئيسي هو تأمين استقلالها في علاقته بعقلها أو أمام الظروف. إنها أنيقة ولافتة للنظر ومليئة بالحيوية"

منذ وقت مبكر ولوسي أوستِن تمتلك أسلوبًا صحيحًا وحيويًّا وإحساسًا جميلًا باللغة كان موروثًا أكثرَ مما كان مكتسبًا أو مخططًا له، وبالإضافة إلى هذه الصفات تجد تيارًا رائعًا من الفكاهة في كتاباتها يتقطر من أفكارها الرئيسية. وبهذه الخصال التي اكتسبتها ندرك كيف تطورت حين نعرف من كانوا يترددون على منزل عائلة أوستن من الرجال والنساء المشاهير. كانوا عائلة ميل وعائلة جروت وعائلة بوللر وعائلة كارلايل وعائلة ستيرلينج وسيدني سميث ولوتريل وعائلة روجر وجيرمي بنتام ولورد جيفري من بين الأكثر حميمية لوالديها[8] إن "تودي" كما

كانوا ينادونها كانت المحبوبة المفضلة الكبرى لهم، وكانت لا تتوقف عن سؤالهم والنقاش معهم، كما قالت إن أمها لم تمنعها قطُّ من ذلك ولم تقل لها "لا أعرف الإجابة" عن أي سؤال أو " كُفّي عن الأسئلة".

في عام 1834 تراجعت صحة السيد أوستِن فذهب مع زوجته وابنته إلى بولونيا. صار للسيدة أوستِن أصدقاء كثيرون من بين صيادي السمك وزوجاتهم. لكن الإنجليزية الجميلة -كما كانوا يدعونها- صارت بطلة حين تحطمت السفينة أمفتريت Amphitrite التي كانت تحمل سجينات من النساء إلى بوتاني باي Botany Bay، لقد ظلت الليلة كلها على الشاطئ وسط عاصفة شديدة وأنقذت حياة ثلاثة من البحارة الذين سبحوا فوق بقايا الانفجار من السفينة واندفعت إلى البحر لإخراج امرأة إلى الشاطئ. لوسي كانت مع أمها وأظهرت نفس الشجاعة التي ميزتها في سنواتها المقبلة.

خلال إقامتها في بولونيا قابلت لأول مرة الشاعر الألماني هاينرش هاينه Heinrich Heine. كان يجلس خلفها في استراحة الفندق وسرعان ما اكتشف أنها تتحدث الألمانية بامتياز فقال لها إنها حين تعود إلى إنجلترا عليها أن تخبر أصدقاءها بأنها قابلت هاينريش هاينه. وكان سعيدًا حين سألته: "ومن هاينريش هاينه؟"، واعتاد الشاعر والطفلة أن يمضيا الوقت معًا. كانت تغني له أغنيات إنجليزية قديمة وهو يحكي لها قصصًا عن الأسماك وعرائس البحر وأرواح الكائنات المائية مع العازف الفرنسي العجوز الضاحك مع الكلب مجعد الشعر الذي يستحم ثلاث مرات في اليوم. وكلها حكايات معجونة بالخيال وأحيانًا بالضحك ودائمًا محركة للعواطف، خاصة حين قدمت له عرائس البحر التحية من بحر الشمال، ثم تلا قصيدة من قصائده شديدة الفتنة.

"عندما أمر بمنزلك صباحًا
يسعدني حبيبتي الصغيرة
أن أراكِ جوار النافذة"

إلى آخر القصيدة..

وكان هذا يعني لها من مشهد عينيه أنه لن ينساها.

بعد ذلك بعامين اختير السيد أوستن مفوضًا ملكيًّا ليبحث قضايا المالطيين، صحبته زوجته لكن المناخ الحار لم يكن جيدًا لفتاة صغيرة ومن ثَمَّ أرسلت لوسي إلى مدرسة في بورملي.

كانت منتعشة مع المدرسة لما ينقصها من معارف أساسية. صارت تكتب

كثيرًا وهي في الخامسة عشرة وتتراسل غالبًا مع السيدة جروت وأصدقاء آخرين لوالديها.

في السادسة عشرة صممت على التعميد في الكنيسة وأصبحت تابعة لكنيسة إنجلترا. كان والداها وأقاربها من طائفة الموحدين الذين ينكرون عقيدة الثالوث.

كان اللورد مونتياجل Monteagle هو كفيلها وكان ذلك دَيْنًا له وسببًا في تأثيره عليها هو وعائلته الذين كانت لوسي قريبة جدًّا منهم رغم أفكارها الراديكالية ومن ثم تبعته وأخذت هذه الخطوة.

حين عادت عائلة أوستِن من مالطا عام 1838 بدأت لوسي تظهر في العالم.. كثير من الأصدقاء القدامي احتشدوا حول العائلة وأصدقاء جدد كثيرون من بينهم السير ألكساندر دوف چوردون الذي قابلته هي لأول مرة في منزل لانسداون. كانت تُتْرَكُ وحيدة كثيرًا لانشغال أمها الكبير بالعمل في الترجمة والكتابة لبعض الدوريات وتمريض زوجها، وهكذا فالصغيران -هي والسير ألكساندر- كانا يمشيان في الخارج كثيرًا وحدهما، يومًا ما قال لها السير ألكساندر "آنسة أوستِن.. هل تعرفين أن الناس يقولون إننا سنتزوج؟"، وفي ضيق من طريقته الفظة كانت تتجه لإجابة حادة لكنه أضاف "هل يمكن أن نجعلها حقيقة؟"، وبشكل مباشر وبكلمة واحدة أجابت "أجل" وهكذا صارا مرتبطين.

قبل زواجها ترجمت كتاب "الأساطير اليونانية" للكاتب نيبور، وقد نُشر برعاية أمها.

في السادس عشر من مايو 1840 تزوجت لوسي أوستِن

بالسير ألكساندر دوف چوردون في كنيسة كينسينجتون القديمة وظل الشهود القليلون يتحدثون بابتهاج كبير عن جمال العروسين.. أخذا منزلًا في ميدان الملكة بويست منستر يحمل رقم 8 مع تمثال للملكة آن Anne في أحد أركانه وسرعان ما جذبت الموهبةُ والجمالُ والأصالةُ مجتمعةً -مع غياب التكلف تمامًا لدى السيدة دوف چوردون- دائرةً كبيرةً من الأصدقاء: لورد لانسداون، لورد مونتياجل، مدام نورتون، ثاكيراي، ديكينز، إيليوت واربورتون، تينيسون، توم تايلور، كينجليك، هنري تايلور، وآخرين كثيرين غرباء عن المنطقة انجذبوا إليهم يبحثون عن القرب من عائلة دوف چوردون. أتذكر وأنا طفلة صغيرة ليبولد رانك Leopold Ranke يصعد وينزل من المرسم ويتحدث بحدة مازجًا بين الإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والإسبانية وبينها دائمًا فقرات لاتينية.. كنت أظنه مجنونًا.

حين هرب مسيو. جويزو[9] M. Guizot من فرنسا بعد اندلاع الثورة الفرنسية كان أول ترحيب وعشاء له في ميدان الملكة .

الطفل الأول ولد عام 1842 وسرعان ما بدأت السيدة دوف چوردون ترجمتها لـ" ساحرة العنبر" The amber Witch لويلهلم ماينهولد عن الألمانية و"فرنسي في الجزائر" عن الفرنسية "the French in Algiers". ثم كتاب فيورباخ "المحاكمات الإجرامية الشهيرة" Remarkable Criminal Trials التي لاقت نجاحًا كبيرًا، ومعًا ترجم أبي وأمي كتاب "ذكريات منزل براندينبرج" لليبولد فون رانكه "Memoirs of the House of Brandenburg" و"مشاهد من الحياة الألمانية" Sketches of German Life الرواية الشهيرة لليون دي وايلي وظلت رواية "ستيللا وفانيسا" Stella and Vanessa غير معروفة في فرنسا حتى ظهرت الترجمة الإنجليزية لأمي فلاقت بسرعة نجاحًا عظيمًا فأعلن ليون دي وايلي أنه مدين تمامًا للسيدة دوف چوردون.

في خطاب للسيدة أوستِن من فيللا اللورد لانسداون الجميلة في رتشموند التي أعارها إلى عائلة دوف بعد المرض الحاد لأبي

ذكرت أمي حسن البخيت.
"الولد الأسود الذي كان أطول من أطولنا وشيئًا فشيئًا كان يظن أنني سيدة عظيمة وهو الوصيف العظيم". حسن كان شخصية بارزة في المكان.

ذات ليلة ونحن عائدون من حفل مسرحي وجدت أمي الولد الصغير جالسًا عند عتبة الباب، لقد طرده سيده في الخارج لأنه كان مهددًا بالعمى بينما عليه أن يذهب عادة بالرسائل إلى ميدان الملكة . لقد وجد طريقه كما قال ليموت في عرين سيدة بيضاء. لقد شفيت عيناه وصار عبد أمي المفضل وصديقي في اللعب الذي كان يسبب الرعب للكاتب الأمريكي مستر هيليارد Mr: Hilliard أتذكر كيف كنت غاضبة حين تساءل "كيف للسيدة دووف أن تترك زنجيًّا يلمس طفلتها؟" بينما كانت تنادينا إليها وتقبلني أولًا ثم تقبل حسن.

منذ سنوات سألت صديقنا العزيز كينجليك Kinglake عن أمي وحسن وتلقيت الخطاب التالي:

"هل أستطيع أنا يا عزيزتي جانيت! كيف أثق بنفسي لأتحدث عن جمال وجه أمك حين رأيتها أول مرة؟ ملامحها الكلاسيكية.. توازن رأسها وجيدها.. فخامتها.. بشرتها الصافية، ذلك الذي يجعل من يراها لأول مرة يعدها تمثالًا للجمال ويسميها الآخرون بالساحرة التي تمتلك الجمال الجبار بينما هي أيضًا شديدة الذكاء، حادة أحيانًا في النقاش لا تضعف قوتها حتى بمقارنتها بعرائس البحر، كل هذا يلمس فقط السطح الجميل، فالقصص التي قيلت لي من قبل أمك العزيزة نفسها تشرح بعمق رقتها مع المخلوقات البشرية التي في مأزق أو معاناة.

حسن كان نوبيًّا، وكما يشير اسمه فهو مسلم وصل إلى مِلكية مبعوث إنجليزي ربما تسلمه من تاجر عبيد، وهكذا لم يكن يتكلم الإنجليزية جيدًا ولا له لكنة أجنبية لكنه كان دائمًا مستعدًا بجمل وعبارات مستخدمة بين المسيحيين التقاةِ ويحب -حين يستطيع- أن يطبقها كوسائل فخر ومجد لسيده أو سيدته

المحبوبة، ومن ثَمَّ-على سبيل المثال- إذا لم تكن الأسرة في البيت وجاء زائر ينادي يومَ الأحد يخبره حسن بأن السيد ألكساندر والسيدة دوف چوردون في الكنيسة من أجل الخدمة المقدسة. كان لأمك القدرة الكافية لتمارس الرقة المسيحية في ظروف قد ينكمش فيها الناس الأخيار ويتراجعون، حين عرفت أن "ماري" المعروفة للأسرة صارت في ورطة لأنها لم تتحوط عند الزواج حققت أمك الأمان للبنت بأخذها كخادمة لها، وقبل هذه الخطوة جمعت مَن في المنزل وأعلنت للخدم أنهم لايجب أبدًا أن يقولوا كلمة غير طيبة لماري بسبب انفصالها.

إن حسن مسكين صغير مثل حبة لكن يمتلئ بفكرة الفخر بجنسه ويتصور أن من واجبه أن يكون المتحدث عن أهل البيت، وطبقًا لهذا يقدم القليل أمام الخدم الطوال الأنيقين الأصحاء، لقد وعد بِاسمه واسم بقية الخدم أن يكون مطيعًا طاعة كاملة لسيدته، لكنه يرفع يديه أمام رأسه ويضيف هذه الكلمات "أي درس لنا جميعًا يا سيدتي؟". وحين ولادة الابن الصغير أعلن حسن بانتصار لجميع السائلين "لقد حصلنا على ولد" وبعض أحاديثه الحلوة كانت ذات مساء حين حضر الأمير لويس نابليون - الإمبراطور الأخير لفرنسا فيما بعد- العشاء بشكل مفاجئ فقال حسن وهو يعلن جاهزية العشاء "من فضلك سيدتي.. لقد جريت خارجًا واشتريت لحوما وأوز على شرف المنزل"

رغم أني كنت في السادسة لكنني أتذكر بوضوح أعمال العمال وحركة الميثاقيين عام 1848[10] كان لدى المهندس ويليام بريدجيز آدامز والصديق القديم لعمي الأكبر فيليب تايلور ورشة في ضاحية بو BOW في لندن وساعدت أمي في البدء بعمل مكتبة للرجال تعقد فيها لقاءات وتناقش السياسة معهم، كانوا يحبونها وكانت حين يتكلم الناس عن خطر محتمل تبتسم وتقول "رجالي سيعتنون بي ويبحثون عني"، وفي مساء التاسع من أبريل أقيم حفل كبير للرجال الأقوياء الأنيقين في ملابسهم في منزلنا وتناولوا عشاءهم وخطب فيهم توم تايلور Tom Taylor واقترح

تبادل الأنخاب والهتاف، وفي النهاية خطبت آمي أيضًا ودعت رجالها بـ"متطوعي چوردون".. وبدأت صيحات الترحاب عاليًا فأدهشت الجيران الذين اعتقدوا لأول وهلة أن العمال من حركة الميثاقيين Chartists غزوا المناطق المحيطة الهادئة بالميدان.

إلى السيدة أوستِن التي كانت ذلك الوقت في باريس كتبت ابنتها في العاشر من أبريل:

"أمي العزيزة:
وجدتُ الوقت بالأمس فقط لأكتب إليكِ إذ كانت يداي مشغولتين بخدمة ضيوفنا، لم أتمنَّ قطُّ أن أرى أربعين رجلًا أفضل ممن كانوا هنا الليلة الماضية، وبينما الجميع في هدوء كان عشاؤنا شرائح من اللحم البارد وخبز وبيرة.. مع الأغاني والأنخاب والعواطف مثل (لنصعد أعلى السطح الذي نحن أسفله) و(الحرية.. الإخاء.. المساواة)، ثم توزع الجميع في مجالس مختلفة حتى الخامسة من صباح اليوم حين بدؤوا العودة إلى بيوتهم. خلال الحفل كان هناك رجلٍ بوليسٍ مصدومٌ من الدهشة. توم تايلور Tom Taylor كان متحدثًا رئيسيًّا، قدم خطبًا قصيرة وحكى قصصًا وجعل الجميع في حالة من الفرح الجميل. وجاء ألِيك Alick إلى البيت من دوريته واستُقبل بكثير من الفرحة والتعاطف، لم يعد هناك رعب عند أحد بعد هذه السهرة السارة، وإذ إن أحدًا لن يحصل على بِنس واحد سنرسل الكتب إلى المكتبة أو إلى المدرسة وكل جيراننا مشتاقون للمساهمة.
سأرسل أربطة عنق كعلامة مميزة لـ"متطوعي چوردون"
إنني أرفق خطابًا من ألكساندر ويليام كينجليك عن باريس سوف يمتعك، أصدقاء الأمس قرروا بالإجماع أن لويس بلانك Louise Blanc سيناسب "مقعد الكسلان" نحن صف واحد رغم التوقف عن إظهارٍ حشدنا القوي، حتى إنني أفكر في أن حدَّادًا من برمنجهام أنيقًا يصل طوله إلى ستة أقدام لم يسمح بالطعام

أو الشراب ولا حتى النوم في البيت قد فرّقهم"

***

استقر السيد والسيدة أوستِن في "واي بريدج" في كوخ كثير الغرف، ولقد قضينا أكثر من صيف معهما، المنزل كان باردًا ورطبًا وعزيزنا حسن مات عام 1850 إثر تورم الرئة، دائمًا أُعزي صحة أمي السيئة إلى البرد المتواصل الذي أصابها هناك. أستطيع أن أرى وجهها الأبيض الجميل وهي تنحني على صدر حسن المسكين تدفئه.. وهذا ما ترفضه الخادمة الجديدة بحركة من رأسها "لا يا سيدتي.. لا أستطيع لمسه"، والاحتقار الذي يبدو على وجهها للخادمة يلين ويتحول إلى تعاطف كبير حين تنظر إلى أسفل.. إلى خادمها النوبي الصادق.

في عام 1951 صار لأبي بيت في إشِر عُرف ببيت "جيوش چوردون" تهادى إليه أصدقاؤنا.. في خطاب كُتب ذلك الوقت إلى سي جي بايلي -الذي صار سكرتيرًا لحاكم موريشيوس- قدمت السيدة دوف چوردون أول علامة تحذير حول صحتها.

"أخشى أن تراني تغيرت كثيرًا منذ مرضي، أبدو نحيفة جدًّا، مريضة.. عجوزًا.. يتحول شعري إلى الرمادي، وهذا صعب لامرأة في الثلاثين. أستمرُّ في حبي لإشِر كثيرًا جدًّا ولا أعتقد أننا يمكننا أن نملك مكانًا أفضل، إن كينجليك قد أعطى لأليك المُهرة كستنائية اللون الأنيقة ومن ثم يركبها جيدًا ونحن نركبها سعداء، إنني أعبِّر عن فرحة كبيرة بفكرة عودتك التي لا يتعاطف معها أصدقائي إلا "أليك". يتحدث فيليب وميلليس وديكي دويل في غيرة وتوم تايلور يُتَأْتِئ بشيء عن المنافسة المكروهة وفي الوقت نفسه يرسل إليك الجميع تحياتهم"

ذات صيف كان ماكولاي في إشِر حيث صار لأخيه غير الشقيق منزل قريبٌ منا، كان يشارك أمي الإعجاب بروايات الآنسة أوستِن[11] وتعوَّدَا الحديث عن شخصياتها الروائية كما لو كانوا أصدقاءَهما الأحياء، وإذا تواجد بالمصادفة جدي أوستِن يجري

الحديث بسرعة واشتعال.. فالثلاثة يتحدثون في تنافس وبلاغة وحماس.
حين ذهبت أمي إلى باريس في صيف عام 1857 شاهدَتْ "هاينريش هاينه" مرة ثانية. بينما كانت تدخل غرفتها في الفندق تعجب قائلًا "أوه! ما يزال للوسي العينان العسليتان الواسعتان!" وتذكر كل صغيرة وكل الناس الذين كانوا في الحانة في بولونيا.
كتبت أمي إلى اللورد هوفتون:
"من جانبي.. بصعوبة تكلمت معه" وكان اللورد هوفتون قد طلب إليها أن ترسل إليه بعض ذكرياتها عن الشاعر الذي يريد أن يضمه في دراسته.. وأكملت أمي:
"صدمت لظهوره.. لقد تمدد على أحد المقاعد الكبيرة واختفى جسده فبدا مثل طفل، انغلقت عيناه وبدا الوجه متعبًا جدًّا وفقد حميمية الوجه الألماني المرسوم عادة من قِبل الفنانين القدماء.
كان صوته ضعيفًا وكنت مندهشة من حركاته وهو يتكلم، وبدا بوضوح أن عقله هو ما يحيي جسده"
لقد رغب هاينه في أن يعطي أمي نسخةً من كل أعماله ووضع قائمة لتنظيمها وأعطاها تصريحًا مجانيًّا لأن تختار ما تشاء وما يسرها من بينها، وكان يتوق بشدة إلي أن تترجم بعضها نثرًا وهذا ضد فكرتها عن خصوصية قصائده، ولتسعده ترجمَتْ مسرحية (المنصور)[12] وعدة قصائد قصيرة شعرًا وكانت هذه أفضل ترجمة عرفتها أنا.
وبعد قضائها شتاءين في فنتنور ذهبت أمي مبحرة إلى رأس الرجاء الصالح لكن في عودتها اقتنعت لسوء الحظ بالذهاب إلى Eaux Bonnes
في جنوب غرب فرنسا في خريف عام 1862 مما ضرَّها كثيرًا، ومن ثم ذهبت إلى مصر حيث المناخ الجاف يمكن أن يوقف المرض لبعض الوقت. إن الذكريات التالية التي كتبتها السيدة نورتون في جريدة التايمز تقدم صورة جيدة لها أكثر مما يمكن أن أكتب، فالامرأتان الجميلتان الموهوبتان كانتا صديقتين محبتين،

والرثاء عميق للوسي دوف چوردون أكثر منه لكارولين نورتون.
"للذكرى" هي الجملة المختصرة في واجهة ملايين القبور قبل أن يتعلم تينيسون الحديث الحزين راثيًا صديقه المتوفَّى بكل أشكال الأسف، سيكون الحزن لموت امرأة شهيرة جدًّا هي الليدي دوف چوردون من قِبل كل من عرفوها، وبهذا الإحساس بالفقد سيستمرون في رثاء سيدة كان نجاحها كمؤلفة متكافئا مع بهجة صحبتها الخاصة.
لقد استمدت من والديها القدرات العقلية التي اختبرتها بنبل في حياتها، لقد انتهى عملها في قمة مجد حياتها بسبب عجز الصحة السابق لأوانه، ولقد فشل المنفى الطويل الذي اختارته من أجل مناخ أفضل في أن يوقف الموت الذي تنبأ به الأطباء رغم أنه ساهم في تأخيره، لذلك المنفى نحن ندين بالأعظم من إسهاماتها الأدبية لبلدها "رسائل من رأس الرجاء الصالح" و"رسائل من مصر"، والأخيرة أكثر إمتاعًا وتأثرًا بالحياة المعيشة.. مثل وصف الناس الذين تعيش بينهم ومشاعرها بمصيرٍ أفضلَ لهم والامتزاج الكامل لأفعالها واهتماماتها بهم. كانت المستقرة بينهم وليست المسافرة، وليس كما فعلت السيدة هيستر ستانهوب Hester Stanhope
التي كانت تصوراتها الخيالية غير المكتملة عن الحكم والاستعلاء لإدهاشنا، كانت السيدة دوف چوردون على العكس تحتفظ بصراحة القلب والرغبة في أن تكون خادمة لمتابعيها دون أنانية أو غرور في تعاملها معهم، لا حاجة إلى تملقٍ منهم ولا إلى تحية من جانبهم، كان معروفًا أنه في "طيبة" في أكثر من رحلة لها كانت تمر بين النساء مهللات بالفرح ويرفع الناس فروع الأشجار والثياب في طريقها على طريقة الاستقبال المسيحية القديمة في الإنجيل في حياة الشرق، كان مصدر شعبيتها هي الروح الرقيقة الحرة التي بها تصرفت في كل المناسبات وبصفة خاصة مع أولئك الذين اعتبرتهم ضحايا الحكومات القذرة وقوانين الاضطهاد، كانت تقول لنفسها "إن شفقة الإنسان تصبح ألمًا

كبيرًا حين يجلس مثلي بين الناس ويرى ما يتحملون، ومن بين الأوربيين والمسيحيين فمن يمكن أن أغفر لهم هم أولئك الذين يمكن أن يساعدوا في كسر هذه الشدائد الصعبة". ومرة ثانية "هل ما أقوم به يثير اهتمام بلدي بمعاناتهم! إن بعض التصورات لقيمة الرأي العام في إنجلترا قد تم اختراقها حتى هنا"، لقد عاشت السيدة دوف چوردون في مصر متعاطفة ومساعدة ومعالجة لأمراض الناس ومعلمة لأطفالهم ومتعلمة للغة، وفي مصر ماتت تاركة ذكرى لعظمتها وخيريتها لم تفعلها امرأة أوربية مثلها في هذا البلد، إنه مثير أن نقتفي أثر أمنياتها العظيمة في الحياة وفي صحة جيدة كما جاء في خطاباتها لزوجها وأمها ليريا كيف وهي بعيدة عنهما تألقت زهرتهما بالأماني والصبر والامتثال لإرادة الله. يرحل الأمل وتبدأ بشجاعة في مواجهة المحتوم، وحينها تأتي نهاية كل شيء. الإعلان القوي الرقيق من ناحيتها باعتقادها أنه لن تكون هناك لقاءات أخرى لكنه القبر سينفتح لاستقبالها في بلد أجنبي.

***

"أليك الحبيب..

لا تفكر في القدوم إلى هنا ما دمت تفزع من المناخ، حقًّا إنه مؤلم لي أن أتركك من جديد، وكما هو حاصل أستطيع أن أنتظر صابرة حتى النهاية بين أناس طيبين ومحبين بما يكفي لأن تكون مرتاحًا بينهم دون ثمن كبير لألم الرحيل، إن مغادرة الأقصر مشهد محزن لأنهم لا يستطيعون أن يفكروا في رؤيتي مرة أخرى، إن رقة الناس مؤثرة من أول القاضي الذي أعد مقبرتي بين عائلته من الفلاحين الفقراء"

هكذا كانت الكلمات الرقيقة الهادئة التي قَدّمَتْ بها لموتها، إن هؤلاء الذين يتذكرونها في شبابها وجمالها قبل المرض وقبل أن يغير الزمن من وجهها ويحني جسمها.. هؤلاء لا بُدَّ أنهم وجدوا تناظرًا غريبًا بين الروح والجسد في هذا الثبات الإسبرطي الشجاع الذي أهَّلهَا لأن تكتب ذلك الوداع الأخير بهدوء شديد.

حتى النهاية كان تفكيرها من أجل الآخرين ومن أجل الخدمات التي تستطيع أن تقدمها لهم، وفي هذا الخطاب الخاص جدًّا.. الذي كُتب وهي على حافة الموت.. تتكلم بتحية وسعادة عن مرافقها المحبوب عمر، كان عمر قد تم تقديمه إليها عن طريق حارس القنصل العام الأمريكي عام 1862 حين رافقته في الإسكندرية وتمنى لها الخير في الحياة على نهر النيل.. "سعالي سيئ لكن عُمر يقول إنني سأنتهي منه وآكلُ كثيرًا حين أرى التمساح".

عمر لم يستطع مفارقتها، وكان واحدًا من الأحداث الأخيرة في حياة هذه المرأة الإنجليزية المتفتحة أن قامت بزيارة ذهبية -أو القارب النيلي- لأمير وأميرة ويلز.

وكانت خدمة عمر الصادقة لسيدته التي تموت قد كوفِئَت بطريقة نادرًا ما يحلم بها، وعلقت السيدة دوف على ذلك قائلة "عمر يرسل لكَ شكره العميق من القلب ويتمنى أن يظل القارب مسجلًا في القنصلية باسمك كحماية له في استخدامه والمنفعة به، الأمير اختاره ترجمانًا له لكنه كان بائسًا حزينًا؛ كل نجاحه لا يعزيه في فقدِ الأم التي وجدها في العالم. كذلك بكى محمد بحدة في الأقصر وقال "بائس أنا وأولادي بؤساء وكل الناس بؤساء".. وقبَّل يديَّ بمحبة.

وطلب الناس في "إسنا" أن يلمسوني من أجل البركة وأرسلَ كلٌّ منهم خبزًا وزبدة وخضراوات ولحم ضأن، كانوا كرماء جدًّا أكثر من أي وقت وأنا لم أعد ذات فائدة لهم، إذا عشت إلى سبتمبر سأذهب إلى إسنا حيث الهواء أكثر ليونة ويكون سعالي أقل. أود أن أموت بين أهلي في الصعيد أكثر مما أود أن أموت هنا، هل يمكن أن تشكر الأمير من أجل عمر أم أكتب أنا له؟ لقد كان الأكثر محبة ورقة هو والأميرة أيضًا، لقد كانت الفتاة الأعظم التي رأيتها في سلوكها البسيط ولا تحاول أن تتعالى بالمدنية كما يفعل المكابرون، كانت تسأل أسئلة بريئة وتنظر إلى من أمامها من القلب بعينيها الصافيتين المخلصتين اللتين تجذبان القلوب كلها.

كان هناك تقدير لديهما أكثر مما رأيت عند الآخرين وكان سلوك الأمير محترمًا لا متباهيًا، كان مهذبًا ويملك أيضًا العينين الصادقتين اللتين تجعلان الإنسان يتأكد أنه ذو قلب طيب. كان المراكبية الخاصون بي فخورين بشرف العبور به في قاربنا وبالغناء له، لدي مُغَنٍّ رائعٌ في القارب."

سيظل حضورها مذكورًا وفراقها مبكيًّا عليه إلى زمن طويل بين الأصدقاء العاديين في منفاها.. الفقراء.. المرضى.. المحتاجين والمضطهدين، لقد تباهت في أحد خطاباتها من بلاد النيل بأنها كانت شعبيةً جدًّا ومعروفةً جدًّا وكانت تمارس عملها كـ"حكيمة" أو طبيبة، وبأن أحد الشراكسة كان يجلس مع مريض إنجليزي يموت ويعتني هو به لأنها قامت بتمريض زوجته.

إن صورةَ الشركسي جالسًا مع المريض الإنجليزي لأن سيدة إنجليزية اعتنت بتمريض زوجته مؤثرةٌ للغاية ولها ما يوازيها في خطاب إسكتلندية عجوز معروفة لكاتبة هذه الملاحظة وكان ابنها قد مات في جزر الهند الغربية بين الغرباء.

قالت "كانوا خيِّرين جدًّا معه حتى إني تعهدت رغم مرضي المستمر بأني سأفعل أفضل ما أستطيع في ذكرى هذا الغريب"، في ذكراه! من سيقول إن بذور الرأفة التي أتت من هذه السيدة الإنجليزية التي نتحدث عنها وعن أعمالها قد نمت في التربة الشرقية القاحلة؟ أو أي خُبز قد زرعته على شاطئ النيل وسوف يتم العثورعليه مرة ثانية؟ الخير يأتي من قِبل الشر ومؤكد أن مرضها ومعاناتها أتيا بالخير الكثير لجميع من في منطقة تأثيرها.

إن أعمال السيدة دوف چوردون المطبوعة كثيرة، كان تعليمها الألماني رائعًا وكانت لها ميزة الترجمة من تلك اللغة الصعبة مشاركةً مع زوجها، إن رانكه ونيبوهر وفيورباخ ومولتكه وغيرهم يدينون بتقديمهم لقرائنا الإنجليز لمهارة وموهبة قلمها، كانت أيضًا دارسة كلاسيكية لا تباريها امرأة في زماننا باستثناء مدام سومر فيل ومدام براوننج[13] بأسلوبيهما المختلفين الممتزجين بمعرفة واسعة وقدرات طبيعية كبيرة، لقد كانت ابنة السيد

أوستِن الأستاذِ المعروفِ جيدًا في فلسفة التشريع وزوجتِه الموهوبة سارة أوستِن التي كان اسمها معروفًا لآلاف القراء ونبوغها الاجتماعي ما يزال يذكر بإعجاب كبير من الجيل الحالي.

لقد ورثت السيدة لوسي دوف چوردون الأفضل في ذكاء وصفات والديها وكان لها إلى جانب ذلك روحٌ كريمة وتعاطف واسع مع الإنسانية بشكل عام دون تصنيف أو طائفية مما يثبت صدقها كما صدقت عبارة الإنجيل "لأهلِ الأرضِ لغاتٌ كثيرةٌ ولأهلِ السماءِ لغةٌ واحدةٌ".

كان العامان الأخيران من حياة أمي معركة طويلة مع المرض القاتل، وكنا قد علمنا بقدوم أخي في الشتاء الأخير لكن بِناءً على رغبتها عاد إلى المنزل مبكرًا في الصيف لاستكمال دراساته، وكنا ذاهبَينِ أنا وأبي لنراها حين أتتنا أخبارُ موتها في القاهرة في 14 يوليو 1869. كانت رغبتها أن تدفن بين "أهلها" في طيبة.. لكنها حين عرفت أنها لن ترى الأقصر ثانية أعطت أمرًا بأن تدفن بأسرع ما يمكن في مقابر القاهرة. إن عظمة موهبتها وجمالها وقوتها وبلاغتها غير العادية لا يمكن نسيانها بسهولة، لقد تحملت ألمًا كبيرًا وتحايُلًا عظيمًا للغياب عن زوجها وابنتها الصغيرة أورانيا وأصدقائها العديد وبلا أي شكوى، وأي عزاء صغير لها التقطَتْهُ من مساعدة جيرانها المصريين الفقراء الذين أحبوها حتى العبادة ولم ينسَوْا قطُّ -كما أخبروني- السيدةَ العظيمة التي كانت خيرًا عظيمًا لهم.

***

إن الجزء الأول من رسائل السيدة دوف چوردون من مصر قد نشر بواسطة شركة Messrs ،Macmillan and Co في مايو عام 1865، بمقدمة لأمها السيدة أوستِن التي قامت بمراجعة الرسائل وكانت مجبرةً على حذف الرسائل التي تشير إلى ما يضايق أمي ويسبب عدم الراحة في حياتها في مصر. قبل نهاية العام كان الكتاب قد طبع ثلاث طبعات، وفي عام 1875 كان الكتاب الذي يحتوي "الرسائل الأخيرة من مصر" وأضيفت إليه "رسائل من

رأس الرجاء الصالح" التي كانت قد طبعت من قبلُ عام 1864 مع "ذكرياتي" عن أمي التي كتبتها بنفسي وظهرت الطبعة الثانية عام 1876.

الآن أنشر رسائل أمي كما كُتبت حاذفةً فقط ما يختص بالأمور العائلية الخاصة التي لا تفيد الجمهور.

"چانيت روس"[14]

رسائل من مصر

- 1 -

ميناء لجهورن - إيطاليا - 13 أكتوبر 1862[15]

سمعت كثيرًا عن سحر مالطا وجمال القاهرة في مثل هذا الموسم من السنة.. ما جعلني أقرر السفر إلى القاهرة. وصلنا إلى هنا مساء أمس، كان لدي الوقت لأذهب إلى مدينة "بيزا" حيث برجِها الشهير. أمضيتُ يومًا ممتعًا في طقس رائع، كان اليوم يومَ عيد واحتفال، وما أمامك من عروض لجذب نقودك أمر يستحق. قال لي سائس العربة في بيزا "أوه يا سيدتي العزيزة.. لقد ضحينا نحن أيضًا بتعريفة الركوب!"، لقد جذب انتباهي بملابسه الجميلة وتحدث عن كيف صارت لديه النية أن يفوز ببعض المتع مع حبيبته وأنه سيترك كل شيء ليشاهد معها معالم المدينة تحت الشمس، قال ذلك بطريقة جذابة لا تُقاوَم. كان المراكبي الذي أوصلني إلى الشاطئ متحسرًا لأن الظلام يحل علينا وبدا خائفًا من احتمال تغير الجو وأن يجنح قاربه في الميناء بفعل الرياح. توسل إليَّ بحق الله أن أعطيه خمسة فرنكات أو أربعة فرفضتُ بحسم فراح يرجوني أن أعود معه في الصباح التالي ولا أذهب مع غيره. كانت الكاتدرائية الكبرى ونافورة التعميد ومقابر القديسين عالمًا جديدًا بالنسبة إليَّ، والبرج المائل يخطف القلب بالمسرّة والحب بشكل فريد. إن لوحات أندريا ديلسارتو[16] وحدها تستحق الرحلة. لم أبتهج من قبلُ مثل الآن وأنا أرى الناس حولي في غاية الوسامة يبعثون علي السرور والفرح. كان المناخ من قبلُ في مارسيليا صعبًا، ومنذ سافرت بالبحر شعرت باختلاف كبير. لم تكن لديَّ فكرة أنه سيصبح حارًّا جدًّا. إنه حولي في البحر الآن أشبه به حول خط الاستواء.. لا نسمة باردة في الهواء. فنان فرنسي أعطاني خطابًا إلى لوتنر بك الطبيب الألماني الذي يرعى الباشا -الخديوي إسماعيل- في

مصر، وإلى آحد النبلاء من السان سيمونيين وهو رسَّام عجوز دخل الإسلام ويعيش في القاهرة القديمة والذي أتمنى أن يرشدني إلى الكثير[17]. سنبحر خلال ساعة أو ساعتين إلى الإسكندرية.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون
الإسكندرية - 27 أكتوبر 1862
ألِيك الحبيب..

وصلت إلى هنا بخير بعد أن قضيت يومًا أستمتع بالعيد في لجهورن، لقد أبحرنا إلى القاهرة خليطًا من البشر.. مغني مقاهٍ فرنسيين وراقصي أوبرا إيطاليين وقنصلًا إسبانيًّا أشبه بدون كيخوته وجزائريين ومصريين وأربع سيدات من الشام لصوتهن ضجة، ورجلًا فقيرًا من باريس يسافر ليغني في القاهرة، لطيف هو لكنه منزعج جدًّا من أهل جنوب فرنسا فيما أنا بينهم أمثل إنجلترا. كنت مرتاحة جدًّا في المركب في حدود ما يسمح به النظام الفرنسي. صارت لي كابينة خاصة وطعام ممتاز وأسرَّة نظيفة رغم صلابتها، كنت منزعجة فقط من صوت تساقط قطرات الماء من البراغي والذي كان مثل عذاب بطيء.

وصلَتْ المُهرة -التي أرسلتَها لجانيت- إلى هنا في حالة طيبة وقيل لي إنها ليست إنجليزية لكنها فَرَسًا بدوية أصيلة تساوي سعرًا كبيرًا هنا. لم أكن معنية بذلك كثيرًا رغم أن المشي مترب حد الخوف وخَيْل جانيت مزعجة، كنت حاولت مرتين ركوب إحداها لكنها كانت ترفس وتجري بين الناس.. وفي اليوم التالي رقد حصان في الشارع ومن ثم -خوفًا من إصابة ركبتي أو الوقوع- طلبت أن يسامحوني عن أي محاولة للركوب.

سأصل إلى القاهرة خلال أيام قليلة، منزعجة من ضوضاء الناس هنا وإزعاجهم بعد ما رأيت من أصوات وأصداء رقيقة لكلام الزنوج في كيب تاون. الجو جميل الآن لكنه ينذر بالمطر، بارد لكنه مشرق قياسًا على غيوم جنوب فرنسا، الفارق في الطقس بين أوروبا وإفريقيا رائع حتى إن مالطا في حاجة إلى صفاء جو مصر لكنها وإن كانت هي الأكثر ضبابًا من كيب تاون فهي ذات جو

جميل من نواحٍ أخرى. كنت مبتهجة في مدينة فاليتا في مالطا التي بدت لي أجمل ما رأيت من مدن في الدنيا؛ كل شيء فيها راقٍ ورقيق وعريق، الآن أنا ذاهبة مع أكبر الفتيات الشاميات سِنًّا إلى حريم سعيد باشا إذ إنها على علاقة وثيقة بهن، ولقد أخبرَتْ الأميرة بأنني كنت رقيقة جدًّا في معاملتها في البحر حين صارت مريضة ومن ثم كانت دعوتي لأرى الحريم. أخاف غرابة الأشياء هنا ووجدت أنه من الصعب تمامًا أن أمضي إلى الأمام دون خادم يستطيع الحديث بالإنجليزية، حارس القنصل الأميركي زكَّى لي شابًّا صغيرًا يسمى عمر أبو الحلاوة فأخذته معي، كان عمر متحمسًا للإبحار في النيل ويفكر لو وجد مركبًا رخيصًا فلن يتأخر عن شرائه، لكن لا أظن أني سأحصل علي حياة أفضل في مدينة شرقية.. فالتراب لا يحتمل والتكدس داخل الغرف ضار جدًّا ولا يوجد شيء من الحياة في الهواء الطلق الذي كان صحيًّا جدًّا في كيب تاون. صار السعال سيئًا لكن عمر يقول إنني سأتخلص منه وسآكل بنهم بمجرد أن أرى تمساحًا!

ذهبت أمس لمشاهدة عدة قصور مع مستر ثاير القنصل الأميركي العام الذي كان رقيقًا خدومًا ومعه هكيكيان بيك.. أيّ رثاثة وبؤس! صبي منهم يذكرك باليانكي العائد من نيويورك وعلق في البحر. طلبت إلى صبي فقير يعمل هناك رغيفًا من الخبز الذي كان مختلطًا بالقذارة والقش وحبوب غير معروفة لي، وكان مما يأكله العمال في القصر نصف المهدم والذي لم يتم إصلاحه بعد. أعطيته ستة بنسات فصار متحمسًا جدًّا ينقل كثيرًا من الأشياء إلي العربة كي يحصل على عملة أكثر. وعلى عكس توقعي لم أجد تسولًا هنا قط.. فقط رغبة في أن أدفع أكثر. لا أستطيع أن ألومَ أحدًا على ذلك فهذا هو حال المجتمع هنا.

حين أجد نفسي منهوبة من الأجانب المسيحيين المتحضرين.. ألن يحاول مصري فقير أن يحصل على فضة قليلة مني؟ الله غفور!

لم تكن الأصوات مزعجة كما توقعت؛ كل واحد كان يصيح عاليًا

بقدر ما يستطيع لكن الإيقاع أعمق وأقل حدة من الإيقاع الفرنسي أو الإيطالي.. لا توجد وجوه مبتسمة ولا سلوك مبهج مثل الذي رأيته في كيب تاون لكن الناس ودودون ووقورون على نحو مدهش، الغلمان يشبهون تمثال الإله الروماني ميركيوري للفنان الإيطالي جون البولوني[18] لهم أقدام إلهية والنساء الصغيرات جذابات جدًّا في ثيابهن الرثة المهلهلة، رأيت بين الرجال البدو اثنين كانا الأكثر وسامة بين من رأيت من قبل، وكذلك أبهجتني الجمال وأشجار النخيل. لكن من الناحية الأخرى الأمر محزن وسوداوي على وجوه الناس وعلى مظهر البلد والقذارة والبؤس المرعب، هنا يقوم الأولاد والبنات الصغيرات بأعمال عمّال البناء الأيرلنديين عندنا.

هكذا صار انطباعي الأول عن أرض مصر، لكن وصف عمر الحماسي للقاهرة والنيل يجعلني أتوقع شيئًا أكثر جاذبية.. إذا وصلنا إلى النوبة فعلينا أن نأخذ هدية من الملح من الخادم شاهين الأحمر اللطيف الذي له شكل ولون الرسوم الهيروغليفية لوالديه بالقاهرة وسيبعث لهما أيضًا معنا بنقود قد يحتاجان إليها، له أخ أصغر يحبه هنا دائمًا في الردهة وتعتبر دكة البواب هي مقعد الدراسة التي لا تتوقف. عجوز أبيض اللحية يعلم شاهين القراءة والكتابة ومعه دائرة مختارة من أصحابه ويبدو لوح الكتابة الأبيض لشاهين مثيرًا جدًّا بالمقارنة لعينيَّ أنا الجاهلة بالعربية.

الأطفال هنا غالبًا يبكون بلا توقف وهيئتهم منفرة، زأر سائس الحمار لأن عمر راح يغير السرج لكن شاهين قام بإسكاته بصفعة قوية -تكفي لتسقط ثورًا- بين سرور الجميع حتى السائس نفسه، ما بدا غريبًا لي فصار بعد أن كان قد لعنني ولعن سرجي محبًّا كبيرًا لي وراح يحتضن قدميَّ وركبتيَّ وهو ما وجدته غير مقبول وغير مرغوب معًا.

في الكوخ أسفل نافذة حجرة النوم امرأة فقيرة تُحْتَضَر لإصابتها بالسل الذي يبدو لي شائعًا جدًّا هنا مما أراه من وجوه وما أسمعه من سعال. طفل رضيع أيضًا مريض بالسل! القلق واليأس

على وجوه الأصدقاء مؤثر جدًّا ومضاد تمامًا لما يقال عن لا مبالاة الشرقيين وقسوة قلوبهم.. إلخ. وجوههم وسلوكهم يظهران إحساسًا مضاعفًا عشر مرات عن عموم الناس في بعض البلاد الأوربية. وما هو غير سارٍّ لي غيابُ ما هو مبهج ومشرق حتى عن الوجوه الصغيرة للأطفال، لا يستطيع شديدو السواد هنا الابتسام الواسع أو الضحك القوي؛ لم أسمع ذلك. تناقض كبير بين تابعي الحاليِّ عمر بعينيه الرقيقتين القلقتين أيضًا وشكله الهادئ.. وسائقي العام الماضي في كيب تاون -تشوسلولا- الذي لا يقدِّم العالم مثله. الشخص قوي البنية من قبيلة الملايا صاحب الابتسامة المشرقة التي تعبر عن الاستقلال بأقصى ما يمكن من وضوح بينما هؤلاء الشباب -عمر وشاهين- أكثر خنوعًا في مظهريهما وتعبيرات جسديهما، مما لا يسرني.

أتأسف أكثر مما أستطيع القول لأنني لم آتِ إلى هنا من قبل خشية أن يكون مستحيلًا تمامًا العيش كما أتمنى بلا تكلفة كثيرة، سأبذل كل جهدي.. تأكد من ذلك، وأنا أجد الجميع محبين ومزعجين للغريب لا يعرفون اللغة ولا بد من خادم فلا أستطيع بأي شكل أن أعيش من دونه. إذا وجدت القاهرةَ مريضةً مثل هذا المكان والقواربَ عزيزةً سأرى ما إذا كنت أستطيع السفر إلى الجزائر، وإذا لم يكن.. فإلى باليرمو. قبِّل لي حبيبتي ريني. التفكير في أنها في الرابعة فقط من عمرها أمر بائس.. فكم قليلا سأراها!

إلى السيدة أوستِن
القاهرة الكبرى - الثلاثاء 11 نوفمبر 1862
أمي الحبيبة..

أكتب إليكِ من قلب الليالي العربية الحقيقية، لعل النبي محمد -الممجد اسمه- يسعد حين يتطلع إلى القاهرة، إنها ذات وجود ذهبي، كل شيء مشرق وشاعري، وأضيف أنا الرقة والرقي. لقد أتيتُ الخميس الماضي بالقطار مع القنصل العام الأمريكي.. وهو شخص أنيق، نزلت في فندق شيبرد الرائع. لا أفعل غير النوم فهكيكيان بيك الأرمني العجوز المتعلم يدبر شؤوني كل يوم مع نائب القنصل الأمريكي لقد ذهبتُ يوم الأحد إلى حفل تعميد طفله واستمعت إلى أغاني "ساكنة" آسرة القلوب، إنها رائعة مثل راشيل[19] وغناؤها مزيج من التعبير الجميل والمشاعر. السيد ويلكنسون -القنصل- من الكاثوليك المشرقيين وزوجته أرمنية وكانا يقيمان احتفالًا كبيرًا. الناس يستمتعون بالطعام في المنزل والشوارع وتعزف الموسيقا العربية والنساء يطلقن الزغاريد. الخدم السود يقدمون الحلوى واللحوم والأراجيل والقهوة ويتصرفون كما لو كانوا أصحاب الحفل وأنا تحت تأثير قوي بأني في حفل زواج نور الدين بابنة الوزير[20] أمسِ ذهبتُ إلى هوليوبوليس مع هكيكيان بيك وزوجته وزرنا سيدة أرمنية قريبة منهم. خادمي عمر يظهر جوهره الذهبي، لقد دبَّر لي مركبًا رائعًا لرحلة نيلية وسيكون تحت إمرتي كلٌّ مِنَ القبطان وموجِّهِ الدفَّة وثمانية رجال وخادم للغرفة بـ25 جنيهًا في الشهر. ذهبت إلى بولاق، ميناء القاهرة، وشاهدت مراكبَ مختلفة وتعجبتُ للطريقة التي يدفع بها المسافرون الإنجليز من أجل نزواتهم وسفاهاتهم؛ مراكبُ شبيهةٌ لمركبي بما فيه من ترجمان ويدفعون من 50 إلى 65

جنيهًا، وأسمع حولي عبارة "سأمتص دماءهم"!

الترجمان يستولي على الفرق لنفسه، مالك المركب سيدي أحمد البربري طلب ثلاثين جنيهًا بينما أنا ألمس صدري وفمي وعيني قائلة له عن طريق عمر "أنا لستُ مثل الإنجليز الآخرين ممتلئةً بالمال وأريد أن أدفع عشرين جنيهًا"، أرانا مركبًا آخرَ بعشرين جنيهًا، سيئ جدًّا فتركته أكررُ الشكر وبحثت بين القوارب الأخرى ورأيت اثنين آخرَين بعشرين جنيهًا لكن ليسا نظيفين وليس بهما قوارب للإرساء. خلال ذلك جاء خلفي سِيدي أحمد وأخبرني بأنني إذا لم أكن في المال مثل الإنجليز الآخرين فإنني مختلفة عنهم في الأدب ولا داعي للارتباك. وكان عليَّ أن آخذ المركب بخمسة وعشرين جنيهًا، لقد كان كل شيء رائعًا في المركب ومناسبًا في الاتساع وفكرت بأن ذلك سيكون له أثر أفضل على حالتي الصحية ومن ثمَّ قلت لسيدي أحمد أن يذهب إلى نائب القنصل الأمريكي ويتعهدَ بكل ما قاله.

مستر ثاير -القنصل العام الأمريكي- أعطاني رسائل إلى كلِّ وكلاء القنصليات التابعين له وإلى تاجرَيْن قبطيَّيْن قابلتهما في الحفل ودعواني لأن أشرفهما بالزيارة في منزليهما. واعتقدَ وكلاءُ القنصل الذين كانوا جميعًا أرمن وأقباطًا أن الجمهورية الأمريكية متجسدة في شخصي.

الطقس طَوال الوقت الآن مثل أغسطس الجميل في إنجلترا، تمنيت أن أتخلص من سعالي السيئ جدًّا، لا بردَ هنا في الليل كما هو في رأس الرجاء الصالحِ والجو صافٍ ومشرق.

لقد اصطحب عمر سالي طَوال اليوم -فيما كنت غائبة- إلى مساجد مختلفة وفي أحدها ترجاها أن تنتظر حتى يصلي. لقد راحا يقارنان بين بلديهما وهما صديقان حميمان، لكنه قلق لكوني لم أساعدها في الحصول على زوج من قبل وأن هذا واجب الشخص حيال "الخادمة الأنثى" التي تعني هنا دائمًا جارية.

من بين كل الأكاذيب التي سمعتها عن الشرق كانت أكبرها أكذوبة أن المرأة تصبح عجوزًا شمطاءَ في الثلاثين من عمرها،

ربما كان هذا بين الفلاحات الفقيرات لكن ليس كما هو في ألمانيا، ورأيت حتى الآن عددًا كبيرًا من السيدات الشرقيات القويات يبدون أنيقاتٍ جدًّا على الأقل يرقن للعين حتى الخمسين من عمرهن، إن "ساكنة" المغنية المصرية في الخامسة والخمسين من عمرها ذات وجه قبيح كما قيل لي "إنها منتقبة ولا يرى الشخص غير عينيها أو لمحات من فمها حين تشرب الماء"، لكن لجسدها شكل الفهد ورشاقته وصوتها فريد في جماله، خشن لكن مثير مثل صوت ماليبران[21]، لقد ظننتها في الثلاثين أو ربما الخامسة والثلاثين؛ حين كانت تغني وترتجل فإن براعتها كانت ساحرة، كنت في حالة مَن سيصيح من قلبه "الله" كما يفعل المواطنون.

يطلق الإنجليز كلمة "عالمة" وأراها كلمة غير مناسبة، وكانت العوالم الثماني اللاتي مع ساكنة والأصغر منها قبيحات جدًّا ولهن صوت البُوم.

كانت ساكنة تعامَل باعتبار كبير وتمامًا كصديقةٍ من قِبل السيدات الأرمنيات اللاتي كانت تخاطبهن بين أغانيها، كانت مسلمة وغنية جدًّا وخيِّرة. كانت تحصل على خمسين جنيهًا على الأقل عن كل ليلة غناء.

يكون سهلًا أن تتعلم العامية المصرية كما يرددها الجميع بمتابعة الحديث والإمساك بالكلمات كما يتم ترديدها، أعتقد أنني أعرف أربعين أو خمسين كلمة إلى جانب "سلام عليكم" و"بقشيش".

الجانب الآخر من الصورة الحلوة كان على العكس محزنًا بما يكفي؛ قصور مهجورة وأكواخ مزدحمة لا تصلح للخنازير، يومًا يجد الإنسانُ غداءه ويومًا آخر لا يجد على الإطلاق كما يقول عمر، ومشاهدة الأطفال صادمة من الطعام السيئ الذي يأكلونه مع قذارة وعمل كثير يقومون به لكن البطن الضامر والعيون الغائمة تكبر في شبان وشابات ناضجين تحت كل الظروف الصعبة، كل الوجوه حزينة أوما يسميه الإسكتلنديون بالكالحة، لكنها ليست

مجرمة وإن كانت خشنة كأصواتهم. الرشاقة كلها في المشي والإيماءات، رشيقون مثل القطط وللنساء نهود كالرمان كما يقول الشعر عندهم.

جاءتنا أمس امرأة بدوية طويلة لتصافحنا وتتعرف إلينا، كانت ترتدي كساءً أبيضَ من الخيش ونقابًا ولا شيء غير ذلك، وسألت مدام هكيكيان أسئلة كثيرة عني ونظرت إلى وجهي ويديَّ لكنها لم تنتبه إلى ثوبي الأنيق الذي تعجب به القرويات كثيرًا، ثم صافحتني كأنها في حضرة أميرِة متمنية لي الصحة والسعادة ثم مضت عبر المقابر مثل شبحٍ فخم. كانت في رحلتها وحيدة وبدا مؤثرًا ومهيبًا أن نراها تتجه إلى الصحراء وقت الغروب مثل السيدة هاجر[22] كل شيء هنا مثلما هو في الإنجيل.. صرخت سالي من القطار "هنا بوعز يجلس في حقل الذرة " [23] يجلس منذ آلاف السنين. وغنت ساكنة مثل مِريام[24]

الأربعاء:

اليوم تم توقيع عقدي من قبل نائب القنصل الأمريكي وقبّل الريّس يدي كواجب متبع وبعدها ذهبت إلى السوق لأشتري ما أحتاج إليه من أوانٍ للطهو، أمضيتُ ساعة. الأواني النحاسية توزَنُ بالأُقَّة والصانع سيزن كل قطعة بميزان رسمي ويضع معها بطاقة بوزنها بعد أن ينتهي أكثر من ألف ليلة، البائع يقارن ملاحظاته معي حول أرقام ما أشتريه وكان سعيدًا مثلي، يدعوني إلى قهوة وأرجيلة من محل مجاور بينما عمر ببراعة يقلل من قيمة ثمن البضائع ويعرض نصف قيمتها، بائع المياه.. السقَّا يقدم كوبًا نحاسيًّا منها.. أشربه وأعطيه أكثر من بنسين، ويقوم بتوزيع ما في قربته من مياه على الزحام من الناس -دائمًا هناك زحام- على شرفي. يبدو أنني فعلت شيئًا تقيًّا. في النهاية تم استدعاء ولد ليحمل عدة المطبخ بينما عمر يرفع إبريقًا كبيرًا التقطه بأربعة شلنات. كان مع الولد حمار ركبتُه كالمصريين بينما حمل الولد كل الأشياء النحاسية على رأسه، ومشينا في موكب

بين المترجمين وغيرهم نسمع لعناتهم لعمر الذي أفسد عليهم العملية كلها لأنه مترجم وطباخ لي.
ذهبت هذا الصباح مع هكيكيان بك إلى جامعين أقدمين، جامع ابن طولون.. رائع نبيل بسيط وزخارفه الأكثر إتقانًا بنقوشه على الحجر والخشب. هذه العمارة الإسلامية جميلة أكثر من عمارتنا القوطية. جامع ابن طولون الآن بيت واسع للبؤساء.. عشٌّ للمعدمين، دخلت ثلاثًا من غرفه، عدة عائلات تركية كانت في غرفة واسعة مقسمة إلى أجزاء بالحصير المعلق على الحبال، في كل منها قطع من السجاد والحصر والرقع اليدوية التي يستطيع الملاك الفقراء جمعها، ومدخل صغير وفرن حجري صغير أيضًا. في ركن من الغرفة مع ثلاث أوانٍ فخارية على الأرض لا أعرف لِكمٍ من الناس، وليس لديهم أي أثاث ولكن كل شيء نظيف ولا رائحة نتنة. ولد صغير أمسك بيدي وأراني أين ينام ويأكل ويطبخ بحركات صامتة معبرة، وإذ كانت هناك نساء فهكيكيان لم يستطع الدخول لكن حين خرجتُ حدثنا رجل عجوز وقال إنهم يحصلون كل يوم على ثلاثة أرغفة وأربعة قروش في الشهر.. ثمانية بنسات لكل بالغ وجلبابٌ كلَّ عام وشُربة عدس في الأعياد. هكذا بيوت الصدقة هنا، زحام قليل من ساكني البيت تجمع حولنا وأعطيتُ ستة بنسات لرجل عجوز أعطاها بدوره إلى أول رجل عجوز ليتمَّ اقتسامها بين الجميع، عشرة أو اثنا عشر على الأقل كانوا عميان أو كسيحين؛ حطم الفقر قلبي وتركنا المكان مع السلامات والأدب كأحسن المجتمعات ثم استدرنا إلى كوخ مصري تحت البواكي الجميلة. انحنيت لأدخل من أسفل الباب فوجدتُ عددًا من النساء مزدحمات بالداخل، هذا الكوخ أكثر فقرًا لأنه لا يوجد به حُصُرٌ أو سجاد أو قطع للفرش، والأسوأ أفران الطهو.. نوع من أوكار الكلاب مقامٌ بالحجارة المكسرة ليناموا بينها وآثار النوم على الأرض الحجرية. ورغم ذلك كان خاليًا من التراب وحلوًا أعطيت المرأة الصغيرة التي أخذتني إلى الداخل ستة بنسات وهنا ظهر الفارق بين الأتراك

والمصريين؛ تقسيم المبلغ آثارَ عاصفة من الضوضاء وغادرنا المصريات الخمس أو الست وهن يتصايحن كالغربان، لكن عليَّ أن أقول إنه لم يستجدِ أحدٌ أو يتوسل على الإطلاق.

الجمعة:

ذهبت اليوم فوق حمار إلى جامع في السوق مبني على ما نسميه طراز "أرابيسك". كان مثل قصر الحمراء رشيقًا جدًّا، القِبلة كانت جميلة جدًّا وبينما أقف معجبة بها أخرج عمر ليمونة من صدره وعصرها على العمود الرخامي لإحدى البواكي، ثم رجاني أن ألعقها فهي تشفي كل الأمراض، الرجل العجوز الذي يشرف على الجامع جذب ذراعي ليجعلني أقوم بهذا الاحتفال العبثي وفكرت بأني سأجبر على أن أفعل ذلك، قاعدة العمود تلطخت بعصير الليمون، بعد ذلك ذهبتُ إلى مقابر الخليفة[25].. واحدة من أكبر المقابر وأجمل القباب لكن أكثرَهَا خرب. كان بها الكثير من المباني النبيلة، كل واحد منها كنز وأثر لكن سقط في التدهور، بعد ذلك -وهذا غريب- ذهبنا إلى إحدى المقابر المرممة بإتقان، تركت الحمار وتردد عمر قليلًا ثم تشاور مع امرأة لديها المفتاح. خلعت حذائي وكانت مكافأتي هي مشاهدة آثار أقدام النبي محمد على حجرين أسودين والمسجد الصغير الأشبه بكنيسة سانت شابيل.

دعا عمر بأدعيته بحماس وحب وخرج يُحيي النبي بصوت عالٍ، لدهشتي كانت المرأة مسرورة جدًّا بالستة بنسات ولم تطلب أكثر. حين ذكرت ذلك لعمر قال إنه لا يعرف إفرنجيًّا دخل الجامع من قبل ولو كان خادم الجامع رجلًا ما تركني دخلت. عدت إلى بيتي عبر شوارع لا تنتهي وميادين من مقابر المسلمين بينها مقابر المماليك، وكان الوقت على وشك المغيب وأنا أفكر في حكاية نور الدين وأتساءل ما إذا كان جنيٌّ يمكن أن يأخذني إلى أي مكان إذا أنفقت ليلة واستقررت في أحد هذه المباني ذات

القباب!
 جاءني صديقي القبطي وقال لي إن أخاه ينتظر وصولي إلى قنا، لا أجد شيئًا غير السلوك المهذب والرغبة في سروري. قاربي اسمه "زينة البحرين" Zint el Bachreyn وأنا أحمل العَلَمَ الإنجليزي وعلمًا أمريكيًّا صغيرًا كإشارة إلى وكلاء القنصل. سنبحر الأربعاء القادم. وداعًا الآن أمي الحبيبة.

- 4 -

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بالقرب من إمبابة

21 نوفمبر 1862

أَلِيك الحبيب ..

انتقلنا إلى المركب أمس وعلى طريقة القوافل الشرقية نقف اليوم في قرية مقابلة للقاهرة. إنه يوم الجمعة ومن ثم يكون غير مناسب ونكون غير محظوظين أن نبدأ رحلتنا فيه، المشاهد فوق النهر شديدة الروعة والإدهاش حافلة بالحركة والحياة، لكن البحارة كانوا سفسطائيين، يرتدون جميعًا ملابس بيضاء جديدة على شرف "ستي" الإنجليزية، وطبعًا كان التعويض مُتوقَّعًا.. يا لهم من بؤساء! إنهم أصحاب سلوك حسن جدًّا لكنهم غارقون في الفقر الذي يبدو واضحًا في أزيائهم، أغنيتهم الهادئة جميلة "يا محمد.. يا محمد" ويرجعونها بنفس الإيقاع، حتى يقول رجل نشيط "يلَّا".. والتي هي تحريف لـ"يا الله" والتي تعني في الحياة "إلى الأمام". ذهب عمر لإحضار بعض الأشياء وكنت أنا أشرح عيوب أن يكون باب الكابينة ونوافذها محطمة وغير ذلك من العيوب لريس المركب بما أملكه من ست كلمات عربية وإشارات خرساء كانت تُفهم وتتم الإجابة عنها بسرعة مدهشة.

كان هواء النيل من الفضاء دافئًا بما يكفي وليس رطبًا كما كان الأمر في الفندق والحي الإفرنجي بالقاهرة، الأزبكية -أو الحديقة العامة- حيث يعيش الإفرنج كانت فيما أعلم بحيرة وما تزال رطبة جدًّا.

سأسافر صاعدة إلى الشلال الثاني بأقصى سرعة وسأعود على مهل، لقد أتى إليَّ أمس هكيكيان بيك ليودعني وترك لي بعض الكتب داعيًا اللهَ لي بأدعية طيبة، كم هو طيب! كنت سأحس بالاكتئاب في القاهرة لو لم يكن هناك حديث مع روح

أعرفها. كنت آشعر بالأسف لأني لم آعرف آتراكًا ولا مصريين ولم تكن هناك فرصة لي كي أرى غير التجار الذين اشتريت منهم أغراضي، لكن ذلك كان مسليًا جدًّا. الشاب الذي اشتريت منه فناجيني كان أنيقًا ذكيًّا ومكتئبًا قليلًا حتى إنني عرفت أنه كان عشيقًا للجارية محظية السلطان. كم وددت لو كنتَ معي لتستمتع بهذا كله مما هو جديد وجميل جدًّا ومألوف، كنتَ ستحب هؤلاء الناس المساكين؛ إنهم أطفال كبار لكنهم أطفال محبوبون.

زرت إحدى القرى هنا فأثار وجودي دهشة كبيرة، وأخذتني بعض النساء إلى بيوتهن وأطلعوني على أماكن نومهن ومطابخهن وأماكن تربية الدواجن وغيرها في البيت، كان هناك رجل يتبعني ويبعد الأطفال عني لكن لا أحد سألني عن بقشيش مما يعني أن الأوروبيين كانوا نادرين هنا. إن العوز الشديد أمر مرعب أن تراه وعلى الرغم من أنه لم يكن كثيرًا لكن الكثير من القذارة التي يتحدثون عنها يعني كثيرًا من الفقر. كانت الأرواح الفقيرة عارية نظيفة بقدر ما ينظفهم ماء وطمي النيل ولم يكن لدي الواحد منهم رداء آخر غير ما يرتديه ولا فراشٌ إلا أرضًا جافة.

محبتي إلى أعزائي، ولا تغضب إذا تأخرَتْ عليك الخطابات. سعالي أفضل الآن.. خمسة أيام دون نوبات سيئة ومن ثم أتمنى أن أكون أفضل. إنها أول راحة لي من فترة طويلة، الشمس حامية وحارة كما هو معتاد في هذه الفترة، الواحد والعشرون من نوفمبر، وكل الأبواب والنوافذ مفتوحة في الكابينة.. نسيم رائع.

إلى السيدة أوستِن

الفشن

الاثنين 30 نوفمبر 1862

أمي الحبيبة..

لقد استمتعتُ تمامًا بالحياة لعشرة أيام وأنا الآن أفضل كثيرًا. بدأت في الأكل والنوم من جديد وقلَّ السعال.

طاقم مركبي كان ممتعًا جدًّا لي، معظمهم رجال من قرب الشلال الأول جنوب أسوان ناعمو البشرة مهذبون مهرة، شخصيات سوداء مرحة، الريس الأسود الصغير كان صورة تامة لطيبِ الخلق وممتلئًا بالمرح يلوح للفتيات بينما نمر على القرى ودائما يبتسم. وقائد الدفة لونه أقل سمرة خفيف الظل دائمًا مرِحٌ شديدُ التقوى. إنه يصلي الفرائض الخمس في اليوم ويصلي على الرسول دائمًا. جُرِح في كاحل إحدى قدميه ومابين الأصابع والكعب في قدمه الأخرى وتقرحت الجروح، غطيتها له بكمادات ثم بضمادات من وبر الكتان ونجحتُ في علاجها فنلتُ إعجابهم وأعلن هو كيف يشعر بالتحسن "الحمد لله.. كتر خيرك كتير يا ستي".

وصار كل واحد يردد "كتر خيرك كتير"، كان أكثرهم أهمية الولد أحمد.. الأكثر بهجة ونشاطًا.. وغد صغير يتحرك في كل مكان له وجهٌ صغيرٌ مثل كلب البحر ويشبه تمثال كيوبيد وجلده في لون القطيفة السوداء، صوته صاخب واضح يُسمع دائمًا من الجميع. كان يطهو للطاقم، يقفز إلى سطح المركب بالحبل ويقدم النصائح في كل المناسبات، يطحن القهوة بطرف عصا حادة في الهاون الذي يمسكه بين قدميه، ويستخدم نفس العصا ليمشي فخورًا بها أمامي ويلوح بها إذا ذهبتُ إلى الشاطئ لدقائق ويأمر الجميع بالابتعاد عن الطريق. "يا أحمد" نداءٌ يتردد طوال اليوم حين يحتاج

أحد إلى شيءٍ و"الوِلْد" دائمًا مستعد للاستجابة. كان المحبب لي هو عثمان.. وكان طويل القامة والأطراف أسود يبدو كأنه قد خرج من رسوم هيروغليفية بردائه وطاقيته وكل شيء. كان عليه قطعتان من الثوب يراهما أي شخص غير متصورين في أناقتهما واحترامهما. (وكما قالت سالي بحق) في ذلك الثوب سرٌّ؛ كان دائمًا في العمل ودائمًا مرحًا لكنه صامت أكثر. باختصار.. كان رجل البحر القادر الواثق ذا اليد المحترمة بامتياز، وكان لدينا الزنكلوني من منطقة قرب القاهرة.. رجل كبير أبيض البشرة وشخص مفيد حكّاء للحواديت لا يكف بالليل ولا ينتهي منها، حكايات مليئة بالنكت المضحكة لطاقم المركب. تمنيت أن أفهم الحكايات التي تبدو رائعة، كلها عن السلاطين والعفاريت عند ذروتها ترتفع الأيادي معجبة "ما شاء الله" أو "آه" كما تستطيعين أن تمدّي فيها. أما بالنسبة إلى النكت فربما كان الأفضل أني جاهلة بها.

كذلك يوجد "شريف" الذي لا يفعل شيئًا غير الضحك والعمل والمجاملة، يساعد عمر بيدٍ وسالي باليد الأخرى، ويبدو مثل طفل أسود عظيم البراءة. بقية الدستة كانوا من ألوان وأعمار مختلفة. بعضهم عجوز تمامًا لكن الجميع هادئون حَسَنُ السلوك.

كان لدينا إما الهدوء التام للرياح وإما الرياح المعاكسة في كل وقت، وكان الرجال يعملون بجهد كبير على جذب المركب بالحبال.

في يوم الجمعة أعلنتُ توقفنا في فترة ما بعد الظهر في إحدى القرى وقت الصلاة ليذهب المسلمون المتدينون إلى المسجد. وهذا كان محل رضا كبير رغم أن خمسة فقط ذهبوا للصلاة.. الريس وقائد الدفة وزنكلوني ورجلان كبيران، الرجال من أعلى النيل لم يكونوا يصلون على الإطلاق وشغَلَ عثمان نفسه بشراء ملح من مركب آخر وقام بتخزينه بعيدًا ليأخذه بعد ذلك لعائلته لأن ذلك كان نادرًا في البلاد أعلى النهر. في بني سويف توقفنا لشراء اللحم والخبز وهي بلدة طيبة يوجد بها جزار واحد يذبح شاة كل يوم، مشيت في الشوارع يسبقني عمر واثنان من البحارة في الخلف يحملان عصوين كبيرتين ويثيران اهتمامًا

كبيرًا. إنها بلدة صغيرة بها قصر تَعِس لسعيد باشا، يوم الأحد توقفنا في "ببا" حيث رأيت كنيسة قبطية كبيرة فذهبت إليها لأرى هل سيدخلونني إياها أم لا، الطريق يمتد أمام بيت شيخ البلد وهناك عند البوابة يجلس بطريرك محاطًا بخدمه وماشيته. على البوابة كانت مرسومةٌ صلبانٌ وأشكال أقرب إلى رموز ديانة ميثرا الفارسية القديمة[26] منها إلى أي شيء مسيحي، لكن جرجس البطريرك كان قبطيًّا وعمدة القرية المسلمة، لقد وقف وأنا أتقدم منه وتقدم يصافحني ثم أمسك بيدي وقال إن عليَّ أن أذهب إلى بيته قبل أن أشاهد الكنيسة وأدخل الحرملك. أمه العجوز التي بدت في المائة من عمرها وزوجته الجميلة كانتا مرحبتين جدًّا بي لكن لأني تركت عمر عند الباب كان على حديثنا أن ينتهي بسرعة وأخذني جرجس خارج حدود منطقة الحريم المقدسة إلى الديوان. قُدمَتْ لنا النرجيلة وشربنا قهوة وضغط عليَّ لأن أبقى عدة أيام لآكل معه كل يوم وأجرب كل ما في بيته؛ أخذت اللبن الذي قدمه وطلبت إليه أن يزورني في المركب قائلةً إن عليَّ أن أعود قبل غروب الشمس وقبل أن يبرد الجو لأني مريضة. المنزل كان مثيرًا.. من منازل الأثرياء لا أستطيع أن أصفه إذا حاولت لكني شعرت بأني أقوم بالتمثيل في العهد القديم. ذهبنا إلى الكنيسة التي تبدو في الخارج مثل تسعٍ من خلايا النحل في صندوق، بالداخل كانت القباب التسع تقوم على أعمدة مربعة أنيقة جدًّا. جرجس كان يقوم بإصلاح شامل لها وذلك سيكلفه كثيرًا كما أعتقد لصيانة وتجديد الخشب القديم الجميل الدقيق معقد الصنع. كانت الكنيسة مقسمة بثلاثة حواجز.. واحدٌ منها أمام القباب الثلاث الشرقية وهي محرمة على الداخلين وتخفي قدس الأقداس. لقد فتح الباب الذي على شكل حدوة حصان لي لأنظر داخلها لكنه قال إن الحريم لا تعبر العتبة، كل شيء كان في فوضى بسبب التجهيزات التي كانت تجري بهمة دون أي اعتبار لأن اليوم يوم الأحد. لكن جرجس أمسك بصرَّةٍ كبيرة وقبّلها وأراني إياها.. ماذا داخلها؟ لا أستطيع التخمين

وترددت في أن أعرف عن طريق مترجم مسلم. إلى اليمين من قدس الأقداس هذا يوجد قبر لوَلِيّ مسلمٍ مغلقٌ تحت القبة المجاورة، هنا دخلنا وقبَّل جرجس الضريح من ناحية بينما عمر يلقي على الضريح السلام من الناحية الأخرى.. مشهد ممتع. كان هناك اهتمام أكبر بحذائي..أكثر مما كان بالجامع. عمر كان يريد أن يلف حذائي بمناديل كما جرى في القاهرة لكن القسيس اعترض وجعلني أخلعها وأمشي على الصخر والتراب بجواربي، كنت أرغب في أن أشهد صلاة الأحد لكنها لا تقام قبل غروب الشمس ويمكن أن أفعلها فيما بعد، فالأحد لا يختلف عن بقية الأيام.

كان الحرملك خلف الحاجز الأبعد من الحاجز المقدس وخلف الحاجز الثالث حيث يوجد أيضًا حوض المعمودية المقدس، المنطقة مغلقة وتبدو إلى حد ما مثل ضريح إسلامي. الحريم كلمة تستخدم هنا مثل الكلمة الألمانية Frauenzimmer لتعني المرأة المحترمة، فجرجس يتحدث عني لعمر كحريم. الأقباط يتزوجون بامرأة واحدة لكنهم يغلقون عليها أكثر من المسلمين، كان الأطفال المسيحيون جميلين جدًّا ليسوا كبقية الأولاد المصريين والرجال لهم مظهر جيد جدًّا، لم يبدُ أنهم يعترفون بي كأخت لهم في العقيدة، فسألوني ما إذا كنا نحن أصحاب العقيدة الإنجليزية نتزوج بإخوتنا من البنين والبنات!

دعاني القسيس لأن أشرب القهوة في منزله القريب وهناك جلست عند البوابة على مصطبة ترتفع قدمين عن الأرض مفروشة بالحصير إلى يسار البوابة، زحام من الأقباط جاؤوا وجلسوا القرفصاء ثم لحق بنا البنّاء الذي يرمم الكنيسة، رجل مسلم مسن جميل نقي ذو لحية كثيفة تحدث عن كيف أن الوليَّ المدفون بكنيسة ببا قد ظهر له ثلاث ليالٍ في القاهرة وأمره بأن يترك عمله ويذهب إلى ببا لصيانة كنيسته، وكيف جاء هو عارضًا أن يفعل ذلك دون مقابل، فقط على الأقباط تحضير المواد المطلوبة. تحدث بفخر واضح كشخص استقبل أمرًا

مقدسًا وكل الأقباط أكدوا قصته وكل منهم كان يشعر بعظمة المعجزة. سألت عمر إذا كان يعتقد أن هذا صحيح ولا يشك فيه، أجاب بأن هذا صحيح وأن البنَّاء الذي عرفه رجل محترم محب للعمل وأضاف جرجس كيف حاول إحضار بنَّاءٍ منذ سنوات لنفس الغرض ولم ينجح. ليس دائمًا ما يقدم القديس الميت كرامات ترضي المسيحيين والمسلمين معًا.. وهنا كان "مؤمن حقيقي" قديم يعمل بجد في هذا المكان المقدس الذي لا يسمحون فيه بدخول مسيحي إنجليزي.

بينما كنا نجلس نسمع كل هذه العجائب اندفعت الشياه والأبقار بيننا عائدة إلى المنزل مع المغيب، القسيس العجوز الجليل بدا مثل أبينا إبراهيم.. وكل المشهد صار رعويًّا وإنجيليًّا حتى شعرتُ تماما كما لو كانت رغبتي في أن أعيش قليلًا في زمن أبعد عن زماننا بعدة آلاف من السنين قد تحققت، أرادوا أن أبقى عدة أيام، وقال جرجس إن عليَّ أن أتوقف في الفشن حيث يمتلك منزلًا جميلًا وحديقة وإنه سيذهب على ظهر الفرس ليقابلني هناك وسيعطيني فريقًا كاملًا من الفلاحين ليسحبوا المركب أسرع. كانت عينا عمر تتحركان بالدهشة وهو يترجم لي وقال إنه يعلم أن الست تستنكر ذلك كما تفعل عادة مع الفلاحين ففي هذا إيذاء لها. أخبر جرجس بأن العادات الإنجليزية لا تسمح بعمل الناس دون مقابل مما بدا للجميع نوعا من العبث الكبير.

الخميس

مغادرة جبل الشيخ

توقفت الليلة الماضية في الفشن لكني وجدت هذا الصباح أن أصدقائي الأقباط لن يحضروا قبل الظهر، إذن لن أنفق اليوم كله هناك وواصلت السير ضد الريح والتيار. لو كنت أعرف الحديث بالعربية كنت استمتعت عدة أيام مع جرجس وأسرته بشكل كبير لأتعلم دقائق حياتهم قليلًا، لكن إنجليزية عمر لم تكن كاملة ولا تبتعد عن الأولويات. الشيء الذي يهزني كثيرًا هو الروح

المتسامحة التي أراها في كل مكان، إنهم يقولون "آه.. هذه عادتكم" ولا يظهرون أي نوع من الإدانة ودائمًا المسلم والمسيحي يظهران في صداقة جيدة كما حدث معي في حكاية ببا. لم أرَ حتى الآن أي ملمح لروح التعصب التي يتحدث الناس كثيرًا عنها، هناك ثلاث عشرة عائلة مسيحية في ببا وعدد كبير معتبر من المسلمين وكلهم اختاروا جرجس ليكون عمدتهم، ويقبِّلون يده من قلوبهم ونحن نمضي في الشوارع، قال عمر إنه رجل صالح ومحبوب جدًّا.

القرى تبدو كمرتفعات قليلة على شواطئ الطين محددة في أشكال مربعة، البيوت لم تكن مدهونة الواجهات ولا الجدران ولا الحجارة ولا تظهر النوافذ أو الأسقف، إنها لا تعطيك فكرة المنزل البشري في البداية لكن سرعان ما تتعود العيون كلَّ ما هو غائب مما يكوّن المنازل في أوروبا. يبتعد الانطباع بالبؤس ويرى الفرد كيف هي مزينة بالنخيل وأبراج الحمام العالية وهنا وهناك قبة على ضريح وليّ من الأولياء، الرجال العاملون على شواطئ النيل كان لهم لون طمي النيل مع الدم الدافئ الذي يسري تحت الجلد، لقد شكَّلهم بروميثيوس من مادة كونية ونفخت الشمس الحياة فيهم، يا للمساكين.. حتى المراكبية في ملابسهم البالية يقولون عنهم "آه فلاحين" بشفقة وازدراء حين يرونني أراقب القرويين في العمل.

في أحد الأيام مرت أربعة صنادل ضخمة يجرها مركب بخاريّ، ومحملة بمئات من الفقراء أُخذوا من بيوتهم للعمل في قناة السويس أو بعض قصور الباشوات نظير قرش واحد في اليوم يجدون به خبزهم وماءهم وملابسهم. واحد من طاقمي -عبد الرسول- المتوحش الأسود الذي كان عمله دائمًا القفز إلى الشاطئ إذا انعقد الحبل أو كنا نريد أي شيء، تعرف على بعض أقاربه من قريته القريبة من أسوان، تعالى الصياح كثيرًا من الجانبين وظل عبد الرسول البائس كئيبًا طوال اليوم؛ ربما يأتي دوره فيما بعد. بعض الطاقم عندي أوضحوا لي أن الرجال في

الصنادل يودون العمل عند "الست" الإنجليزية كما أخبرهم عبد الرسول عن نفسه، يفكرون كثيرًا أيضًا في عِظَم الأجر الذي يمكن أن يقدمه صاحب المركب لاثني عشر رجلًا من الخمسة والعشرين جنيهًا بعد أن يحصل على نصيبه.. سيربحون كثيرًا.

حين أصف طاقمي بالسود لا تفكر في الزنوج؛ كلهم مصريون ذوو أجسام رشيقة وكلهم مهذبون في سلوكهم وسوادهم شفاف بلون العنبر تحت الشمس، الزنوج أكثر قتامة إلى جوارهم، لقد تعلمت الكثير مما يقوله عمر الذي يحكي لي عن أعمال عائلته ويتحدث عن نسائها ولا يحكي ذلك للرجال، لقد رفض الحديث مع أخيه الترجمان الكبير الذي كان مع أمير ويلز والذي أتى إلينا في الفندق بالقاهرة وأرسل لعمر فلم يأتِ إليه. سألت عمر عن السبب فقال لي إن لأخيه زوجة مسنة عاشت معه طويلًا وكانت زوجة طيبة جدًّا، أنجبت ثلاثة أطفال كلهم ماتوا فأعلن أخوه الأكبر منها سنًّا على الفور أنه سيطلقها ويتزوج بامرأة أصغر.. قال له عمر "لا.. لا تفعل ذلك، احتفظ بها كسيدة لبيتك وخذ إحدى جاريتيك السوداوين كحريم لك"، لكن الثاني أكَّد ما سيفعله وتزوج بزوجة تركية صغيرة. خلال ذلك أخذ عمر زوجة أخيه البائسة لتعيش معه ومع زوجته الصغيرة وقاطع أخاه الكبير بعد ذلك. فتأمل! إنه يحث أخاه على أن تكون له جارية صغيرة كحريم له مثل أي رجل محترم، هذا هو الصحيح لكن مافعله الأخ "مش حلو" كما يقول عمر. سوف أُزعِجك -كما تعودت السيدة جروت أن تقول- بأن تضعي هذه الأسئلة أمام أي شخص لنعرف الخطأ من الصواب، أن أُدِينَ عمرَ يبدو لي موقفًا ضد شيء لا أجد ما أقوله عنه. موقفه من أخيه الثاني هو الذي كان غريبًا.. وهو حلواني يعيش مع زوجتين، عمر وزوجته وزوجة أخيه المطلقة، وأخوه الثاني هذا وزوجتاه يعيشون معًا. وواحدة من زوجتَيْ أخيه أنجبت ستة أطفال ثلاثة منهم ينامون مع أمهم وثلاثة ينامون مع الأم الأخرى -زوجة أبيهم- والكل منسجمون.

أسيوط 10 ديسمبر

لم أستطع إرسال خطاب من المنيا حيث توقفنا، زرت مصنعًا للسكر وتركيًّا محترمًا يشرف على المنطقة ومديرًا لها. استمعت إلى صبي ينشد "الذِّكر" -أسماء الله التسعة والتسعين- لمجموعة من الدراويش في جامع. وأعتقد أنني لم أسمع شيئًا أكثر جمالًا وتأثيرًا منه، الغناء العربي أو الإنشاد يبدو رخيمًا يخرج من الأنف لكنه يمكن أن يكون رائع التأثير. منذ غادرنا المنيا عانينا كثيرًا من البرد القاسي. مات بسببه الدجاج وبدا المصريون وقد دكنت بشرتهم وتغيرت من قرصاته، بالطبع كان هذا مناخي الذي تعودته في أوروبا لكن هذا البرد وهذه الرياح المتواصلة لم يكن لها مثيل هنا من قبل، اليوم أفضل وأعارني واصف -قبطي تعرفت عليه هنا- حمارَهُ الفخم لأصعد وأزور المقبرة في الجبل. المقبرة مثل كهف قديم لكن مشهد أسيوط الجميلة رابضة وسط منحنى من منحنيات النيل كان ساحرًا. الخضرة أعمق وأكثر بريقًا منها في إنجلترا، زحام من المآذن الجميلة وجسور مزينة وحدائق ونخيل والنيل خلفها وخلفه الصحراء القاحلة ومرتفعاتها كإطار لذلك كله. تحت أقدامنا كانت جنازة لامرأة إلى المقبرة وأصوات الأولاد تردد القرآن والجنازة طويلة وفي المقدمة عمائم بيضاء ثم البراقع السوداء والجلابيب الطويلة، كان ذلك كله يبدو حلمًا لي. لا تستطيعين أن تفكري في أي أثر على الفرد حين يمسك بكتاب إنجليزي يقرؤه ثم ينظر ليرى ويسمع الرجال يصيحون "يا محمد".. "ربنا يبارك لك يا أبو توم"، "بقيت تعرف تترجم". هذا يمثل عكس حياتي السابقة في إنجلترا حين كنت أجلس أقرأ عن الشرق، الآن أنا في قلب ألف ليلة وليلة حقيقية ولا أعرف هل أنا هي أنا أم لا.

قولي لأليك عن الأخبار لأني لم أكتب لأحد إلا أنتِ. لقد ابتعدت كثيرًا عن "ريني" ابنتي، البنات القبطيات الصغيرات يشبهنها.. فقط شاحبات لكنهن لا يتركنك تعجبين بهن خوفًا من الحسد.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

طيبة 20 ديسمبر 1862

أليك الحبيب ..

كانت الرحلة إلى هنا بطيئة وضاع فيها وقت طويل لكني استمتعت بها جدًّا. رأيت وسمعت أشياء كثيرة مثيرة، لقد توقفت هنا فقط من أجل الرسائل وسأستمر في الحال إلى وادي حلفا حيث ما يزال الجو باردًا هنا وسوف أكون قادرة بشكل أفضل أن أستمتع بالآثار بعد شهر من عودتي، وبالتأكيد سوف أفضِّل حينئذ المناطق المدارية.

لا أستطيع أن أصف رقة الأقباط، الرجال الذين قابلتهم في حفل بالقاهرة كتبوا إلى كل أصدقائهم وأقاربهم أن يكونوا متحضرين في التعامل معي، ظهر اهتمام واصف في البداية في إعارتي حماره العجيب وصحبني طوال اليوم، في صباح اليوم التالي وصل موكب من الناس وعلى رأسه كاتبه -كبير عامليه- القبطي الصغير المهذب في سلوكه ومعه خمسة من الرجال السود يحملون خروفًا وسلة كبيرة من أنواع من الخبز الممتعة وكميات من كرات الزبد ومرجلًا نحاسيًّا من اللبن وقفصًا من الدواجن. كنت مرتبكة وحاولت أن أقدم بقشيشًا طيبًا للكاتب لكنه رفض تمامًا. في جِرجَا كان ينتظرني "مِشرِجي" كان يائسًا لأن الوقت الذي توفر له جعله يحضر فقط عدة مئات من البيض واثنين من ديوك الرومي وكومة من الزبد وصفيحة من اللبن. في قنا أعارني أيضًا عيسى حمارًا وأرسل لي ثلاثة صناديق من البلح المكي الذي اعتبره عمر نادرًا. مثل هذه الاهتمامات مقبولة هنا حيث الطعام الجيد لا تجده إلا مُهدًى إليك. كلهم جعلوني أعدهم بأن أراهم مرة ثانية في عودتي وأتغدى في بيوتهم وأراد واصف إقامة احتفال تحضره الغوازي. كم ستحب النساء المصريات في القرى

الريفية!
تجولت اليوم التالي وحدي بينما كان الرجال يصلحون الدفة ومشيت بين نساء يحملن جرار الماء ككائنات جميلة حلوة يبتسمن كلهن ويتراقصن، امرأة جميلة منهن أشارت إلى القرية وأشارت بعلامة الأكل وأخذت يدي لأتبعها، ذهبت معها معجبة لهن أثناء المشي. جاء عمر مسرعًا بعد الجولة وسألني إن كنت خائفة.. ضحكت وقلت إنهن كن جميلات جدًّا وأرق من أن يُخفن أحدًا، وأسعدهن جدًّا كلامي حين قاله عمر لهن. كلهن يردن مني أن أذهب إلى بيوتهن وآكل وكنت أفكر في ذلك لكن الريح كانت قد بدأت والمركب ينتظر ومن ثم ودعت صديقاتي الجميلات. لقد سألنني ما إذا كنا نحتاج إلى أي شيء -لبن أو بيض- فسيقدمنه بسرور، فليس من عاداتهن بيع هذه الأشياء. قدمت مبلغًا قليلًا لطفل صغير عارٍ لكن أمه لم تدعه يأخذه. أنا لن أنسى أبدًا هذه المخلوقات الحلوة المتعاطفة في القرية الصغيرة ولا الأدب الجليل لنسّاج عجوز ظهر لي فدخلت محله والذي أيضًا رغب في إحضار مجموعة من الخبز لي، إنها الحياة الرعوية الشعرية كما جاءت في الإنجيل تجدها في القرى التي لم يغزُها الإنجليز ومن حسن الحظ أنهم لم ينزلوا في هذه الأراضي الصغيرة.
أصبحت الأقصر منتجعًا إنجليزيًّا. هنا الآن تسعة قوارب واقفة والشيء العظيم أنها تقطع النيل بأسرع ما يمكن؛ إنه سباق إلى وادي حلفا أو أسوان. لقد صرت أفضل كثيرًا خلال هذا الشهر وأتمنى أن تكون الشهور الثلاثة الباقية جيدة بحق حين يتحسن الطقس مع بدء العام الجديد كما يقولون لي.
كل الإنجليز يستقرون هنا ويقيمون "الكريسماس" كما يسميه عمر، لكني سأذهب لأقيم صلواتي مع أقباط إسنا أو إدفو. وجدت أن نفورهم من أن يحضر شخص احتفالاتهم الدينية ناتج من فكرة أننا نحن الإنجليز لا نعترف بهم كمسيحيين. كتبت قصة مثيرة لأمي عن الولي المسلم المدفون في الكنيسة لكني كنت

مخطئة؛ إنه مار جرجس ليس إلا.. سانت چورچ نفسه. أما لماذا اختير عامل بناء مسلم ليرمم الكنيسة فلا بد لأن خبرته أفضل.
في خلال أسبوع سأكون في النوبة.. في عام ما لا بد أن نقوم جميعًا بهذه الرحلة؛ ستستمتع بها.. قبّل لي أحبَّتي.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

طيبة - في 11 فبراير عام 1863

أليك الحبيب..

عند وصولي هنا الليلة الماضية وجدت خطابًا منك مؤرخًا في 10 ديسمبر، لم أستقبل شيئًا آخر، أرجوك أن تكتب لي فيما بعد إلى عنواني في القاهرة التي أتمنى أن أبقى فيها عدة أسابيع. ترجمان عجوز ماهر قابلته في جزيرة فيلة عرض عليَّ أن يعيرني أثاثًا لمسكن أو لخيمة في الصحراء، حين ترددت قال إنه في حالة مالية جيدة جدًّا، ليس عمله أن يبيع الأشياء.. إنه يحصل على المال فقط من الأغنياء مقابل خدماته لهم، وإذا لم أقبل مايقول كما هو سوف يؤلمه ذلك جدًّا. هذا ما ألقاه من المصريين وكل ما هو مصري، لا شيء غير الرقة والأدب. حين أقول يومًا "وداعًا يا مصر" سيكون بشعور حقيقي وسوف أتألم جدًا حين أترك عمر الذي هو مثل ظلي طوال الوقت وله عندي شعور عميق بالمحبة والخير.

إنني في حالة أفضل حقيقةً.. هكذا أتمنى وأعتقد على الرغم من أنه في الأسبوع الماضي أو الأسبوعين الماضيين مر بنا أبرد شتاء عرفته النوبة مع رياح شمالية شرقية، وحين لا تهب الرياح يصبح الطقس سماويًّا رائعًا. إذا جاءت الذكرى الألفية سأترك نفسي أبحر كثيرًا جدًّا في النيل.

في أسوان كنت أتجول في البقعة الأكثر شاعرية وإثارة.. محاجر الجرانيت في مصر القديمة ومقابر شهداء المسلمين، وبينما أعود سائرة على الشاطئ وجدت قافلة لتجار العبيد الذين أخرجوا بضائعهم المسافرة إلى سينار من المركب إلى ظهور الجِمال وطلبوا إليَّ أن أتغدى معهم. كم كان رائعًا أن تجلس على حصير بين الجِمال وأكوام غريبة من البضائع، ودعوني إلى

العشاء..آوه! يا له من شعور لذيذ أن تجلس على حصير بين الجمال وأحمال البضائع الغريبة! أتناول الخبز الجاف الساخن واللبن الرائب والبلح وكلها تُقدم لي بكل اللطف، لقد صرنا متآلفين تمامًا مع الأكواب الجلدية من الشربات -السكر البني مع الماء- والرجال السود ذوي الملامح التي تشبه الملامح الجميلة لباخوس الصغير، يصفون لي رحلتهم العجيبة إلى البلاد البعيدة بطريقة كان يمكن أن تفتن هيرودوت نفسه، لقد اقترحوا عليَّ أن أنضم إليهم فلديهم طعام كافٍ، وتعلقنا أنا وعمر بالذهاب معهم وطبعًا لم نذهب.

لا معنى للتحدث عن الآثار فكل شيء قد قيل.. لكن معبد فيلة فاق كل توقعاتي. لا دهشة من رومانتيكية الأسطورة العربية عن أنس الوجود ولا من "أبو سمبل" وغيرها. إن كتابة الأسماء على الآثار شيء سيئ تمامًا، رسوم جميلة مُحيت بواسطة كتابة أسماء مثل تومكين وهوبسون Tomkins and Hobson والأسوأ من الجميع الأمير بوخلر موسكاو[27] Prince Puckler Muskau الذي حفر اسمه وصليبه في حروف كبيرة على الصدر العاري لتمثال ذلك المارد المعظم المثير الجالس عند "أبو سمبل". أتمنى لو يضربه أحد لجريمته.

إنني آكل كثيرًا من الأشياء الغريبة مع بشر غريبين في أماكن كثيرة، تعشيت مع عائلة نوبية محترمة.. لم يعجبني زيت الخروع؛ أزعجني. شاهدت حفل زواج نوبي ورأيت الرقص. صادقت رجلًا ذا مكانة مرعبة.. كلابشي -من كلابشة- كما يقولون، لكنها تشير إلى أنه قاطع رقاب نظرًا لقتله الكثير من جامعي الضرائب المتطفلين وضباط التجنيد. كان مهذبًا جدًّا ورقيقًا حملني إلى منحدر عالٍ لم أكن لأستطيع بلوغه في الذهاب إلى الشلال، وأيضا لا يوجد غير الضوضاء والصياح لكن العودة مرحٌ جميل. "فانتازيا كتير".. كما قال قبطاني النوبي الصغير الرائع. كل بحارتي وقفوا بعيدا يبتهلون من قلوبهم وكانوا مذعورين، شعرتُ بنبضي يتسارعُ لكني لم أعتقد أنه الخوف، حسنًا.. توقفتُ أسفل

الشلال من أجل عيد ديني وذهبتُ إلى مقبرة مقدسة مع درويش أنيق بشكل غير عادي وجميل على الطراز البدوي كاملًا، لقد اعتنى بي بين الزحام وسط الذين لم يروا امرأة إفرنجية من قبل، زحام مرعب.. وراح يدفعُ الناسَ بلا رحمة ليفسحَ لي طريقًا، لقد كان مسرورًا جدًّا بشكل خاص لأني لا أخشى المصريين، ضحكتُ وسألته إن كان يخافُنَا.. قال "أوه.. لا"، وأعرب عن رغبته في أن يأتي إلى إنجلترا، فهناك سيعمل ليأكل ويشرب ثم ينام بعدها في الكنيسة. كنت حقيقة أشعر بالعار وأنا أقول لصديقي المؤمن إن بيوت العبادة عندنا ليست للغريب الفقير، سألته أن يأكلَ معي لكنه كان صائمًا صيامَ ما قبل رمضان الذي سيحل الأسبوع القادم ومن ثم فلا يستطيع، لكنه توسل إليَّ أن أزوره وآكل من خبزه وجبنه ولبنه. هكذا تكون المعاملة التي يجدها الفرد إذا ما ترك الطريق العام وصائدي البقشيش الطفيليين، هناك الكثير من المحترمين من بين الحفاة الذين لا يرتدون إلا جلبابًا أو عباءة مستعدون دائمًا للاهتمام بك ولا يريدون إلا أن تعيده إليهم بنظرة متحضرة وتحية، وإذا ما قدمت إليهم كوبًا من القهوة وجلست على الأرض بينهم تكونُ قد منحتهم مسرَّةً كبيرةً تزداد إذا ما أكلتَ من زادهم من الذرة والبلح أو الخبز واللبن الرائب بشهية.

في كوم أمبو قابلنا "الرفاعي" مع سلته التي بها الثعابين الأليفة، بعد حديث قليل اقترح أن يحضنني، ومن ثم جلسنا وأمسكنا بأيدينا كمن يتزوجون. عمر جلس خلفي وردَّدَ الكلمات كـ"وكيل" لي، وبعدها أخرج الرفاعي الكوبرا ولفها حول أيدينا المتصلة وسألني أن أبصقَ عليها، فعل الشيء نفسه وأعلن أني آمنةٌ محصنةٌ من الثعابين، زأر البحارة وتأوَّهَ عمر بينما تُخرج الثعابين ألسنتها وأنا والدرويش الرفاعي نبتسم بعضنا لبعض مثل كهنة رومانيين، لست في حاجة إلى أن أقول أن الثعابين كانت بلا أسنان.

الأمر يستحق الذهاب إلى النوبة لرؤية الفتيات، حتى في الثانية

عشرة أو الثالثة عشرة يرتدون ملابس منضبطة عليهن وعقودًا من الخرز الجميل وشرائطَ جلديةً عرضها أربعُ بوصاتٍ حول خصر كلٍّ منهن، وأي شيء مناسب لشكلهن أو يجعل مظهرهن فوق التصور. جاءت ابنة قبطاني الصغيرة -في الملابس التي وصفتها من قبل- تحمل على رأسها هدية من سمك مطهُوٍّ وبيض طازج، كانت في الرابعة من عمرها وجميلةً جدًّا، أعطيتها بسكويت وبعض التين وجلسَتْ اللطيفةُ الصغيرةُ وقدماها معقودتان تحتها وأكلته بشهية حتى أتت عليه وأخذت بعض البسكويت الأبيض إلى منزلها ملفوفًا بعناية في قطعة قماش صغيرة من البرقع.. شعرت بالاشتياق لأن أسرقها! كم هي محببة جدًّا.

زارتني امرأتان نوبيتان صغيرتان جميلتان في قاربي.. لهما شعر ذو ضفائر صغيرة تتجمع في النهاية بشريط أصفر يلمع مثل عراوي الذهب.. ولهما بشرة لينة لدنة برونزية وشفاهٌ وعيونٌ تليق بإيزيس وحتحور؛ ثيابهما الجميلة جدًّا وحليُّهما كانت تشبه تلك المنقوشة على المقابر، وجدت رغبة في أن أسألهما كم من آلاف السنين تبلغ أعمارهن! في منزلهما جلستُ على أريكة مصرية أثرية لها استراحة للرأس شبه دائرية.. وشربت من آنية فخارية تبدو كتحفة، وأحضرا لي هدية من البلح في سلة مثل التي تراها في المتحف البريطاني، كانتا ترتديان زيًّا شفافًا كما هو في التماثيل الإغريقية ومتشابهتان ولهما وجهان قويان شجاعان، وعلى الرغم من الأناقة ينقصهما سحر النساء المصريات. أما الرجال -ما عدا كلابشة وأولئك الذين هم من بلاد الجنوب البعيدة- فلم يكونوا في رقة الرجال المصريين في شمال بلادهم.

كل واحد كان يلعن الفرنسيين هنا؛ أربعون ألفًا من الرجال يعملون في حفر قناة السويس.. يموتون جوعًا ولا يتميزون في ذلك عن المصريين، كان هناك انفعال وإثارة مما سيفعله الباشا، أعتقد أنه لو توقف عن السُّخرَةِ سيتخلى عن القناة، حسنا.. عليَّ أن أرحل وأرسل خطابي إلى مصطفى أغا ليعرف، سأبقى

هنا عشرة أيام أو نحوها ثم أعود في هدوء إلى القاهرة في العاشر من مارسَ آخرِ يومٍ في شهر رمضان. سأبقى قليلًا في القاهرة ثم آخذ مركبًا صغيرًا وأبحر إلى الإسكندرية شمالًا لأرى جانيت، كم أتمنى لحبيبتي ريني أن تلعب مع أحمد في المركب وترى الأولاد والبنات النوبيين الجميلين، لقد رأيت وسمعت كثيرًا كما هو الحال مع م. دي كونتي M.de Conti كم أتمنى لو عشتُ لأتكلم.

أطلْتُ عليكَ وأشعرتُكَ بالملل من حكايات المسافرين التي كتبتها حالًا. من فضلك اكتب حالًا لي.

أراد عمر أن يسمع كل ما قاله "الجنتلمان" عن "الوِلد والبنت" وكان مبتهجًا تمامًا لسماع الكلام الجيد عن موريس في المدرسة ويعتقد أن "أبو الولاد" عليه أن يرسل خروفًا إلى "الفِقِي" الذي يعلمه، تعلمت شفرات جديدة عن الخصوصية وحدثتكَ عن كل "الحلو والوحش" هنا.

حين أقول "زوجي" يستحيي عمر ويصحح لي برقة، حين يسقط حماري في الشارع يصرخ في غيظ، وحين أذكرُ السقوط لهكيكيان بيك يكون ساخطًا تمامًا، يسألني "لماذا قلتِ ذلك؟ سيدتي، إنه عارٌ".. يعني خطأً كبيرًا في الحقيقة. على الناحية الأخرى يتحدثون عن كل ما يتعلق بإنتاج الأطفال برضًا وسرور تام.

سيدة نوبية صغيرة مبهجة ومتواضعة وأنيقة رغبت في أن تعطيَني أفضل هدية تستطيعُ كما تعتقد، فأحضرت لي حصيرة من صنعها وكانت سريرَ زواجها، لقد كانت هدية صداقة ونُبل ومِن ثمَّ قبِلتُها. قدم عمر لي وصفًا لزواجه منجذبًا إلى تعاطفي مع الحزن لغيابه عن زوجته، مؤكدًا أن الإنجليز لم يتعودوا مثلَ كلامِه، وربما يُصدَمون من قوله "بالطبع أنا لا أتحدث عن حريمي إلى رجل إنجليزي مهذب لكن إلى سيدة عظيمة يمكن أن أتحدث".

إلى اللقاء عزيزي أليك. لا.. هذا غير مناسب، عليَّ أن أقول "أوه يا سِيدِي" أو "يا أبو موريس".

- 8 -

إلى السيدة أوستِن

عدة أميال شمال جِرجَا

7 مارس 1863

أمي الحبيبة..

كنت سعيدة جدًّا أنْ وجدتُ منك خطابًا -هو الذي أرسلته لي جانيت في طيبة عن طريق الباخرة- وأعرف منه أن خطابي لك من أسيوط قد وصلك بأمان. في الأول والآخر أنا أفضل كثيرًا، في القاهرة.. وكما أخبرني كاهن قبطي أمس في جِرجَا.. فإن الشتاء بارد ورطب حد الرعب، ومن ثم لست أسفة على تكلفة السفينة فقد تحسنت صحتي وسوف تكون أفضل.

الآن أعرف أساليب هذا البلد إلى حد ما، تلك التي قال عنها هيرودوت إنه لا نظير لها. أرى أنه كان عليَّ أن أذهب وأعيش في طيبة أو قنا أو أسوان دون تكلفة تذكر.. لكن كيف كان لي أن أعلم؟ لقد أقام الإنجليز سرابًا من الحاجات الزائفة والإسراف الذي يقوم خدم البلد بالطبع -البعض بسبب الفائدة أو الجهل المطبق- بأحسن ما عندهم للحفاظ عليها. بينما نجحتُ في أن أقنع عمر بأنني لست غنية مثل باشا وليس لدي أي رغبة في أن أكون كذلك، بسرعة فتح صفحة جديدة باحتياجاتنا وقال "أوه.. إذا كنت أعرف أن سيدة إنجليزية ستأكل وتعيش على أقل القليل مثل المصريين لاستأجرت منزلًا في قنا من أجلك وسافرنا في مركب سفر نظيف! لكنني فكرت في أن ذلك لا يتحمله إنجليزي".

في القاهرة -حيث سنكون إن شاء الله في اليوم التاسع عشر- سيجد عمر مكانًا للإقامة وسيستعير بعض الفرش ومنضدةً ومقاعد، وكما قال "نحتفظ بالنقود في جيوبنا بدلًا من إعطائها للفندق"، أتمنى أن يكون خطابي من طيبة قد وصل إلى أَلِيك

ويكون آخبرك بأنني تعشيت مع "الإثيوبيين الأبرياء". لقد شاهدت كل المعابد في النوبة وفي ما وراءها بالأماكن التي استطعت الوصول إليها، كما شاهدت تسعًا من مقابر طيبة، بعضها رائع جدًّا مثل أبو سمبل وكلابشة وكوم أمبو، ثم معبد صغير جميل في الكاب، وثلاث مقابر في طيبة وأكثرها جمالًا في أبيدوس. إدفو ودندرة أكثرها كمالًا.. إدفو أكثرها كمالًا لكن أقلها جمالًا، لكن أجمل شيء رأته عيناي كان جزيرة فيلة. إنها تمنح الفرد إحساسًا غير طبيعي وكبيرًا كالذي تمنحه المناظر الطبيعية الواسعة في لوحات كلود Claude وليست أقل منها. المصريون يقولون إن الشاب أنس الوجود أجمل الرجال بَنَى معبد "أنس الوجود" لأجمل الجميلات التي يحبها، وفيه عاشا في رغد وسعادة تامة وحدهما. لو لم يكن الجو باردًا وأنا هناك لَعِشْتُ في المعبد، في الغرفة التي نقشت عليها أسرار أوزوريس.. موتِه وبعثِه. لقد قام عمر بتنظيف الغرفة وقرر أن يأتي بأشيائي إليه لعدة أيام، لكن كان الجو باردًا جدًّا لأنام في غرفة بلا باب؛ الرياح باردة فوق العادة هذا العام وما زالت. قليل جدًّا من الدفء ننعم به في الطقس. ونعاني البرد معظم الوقت، على الشاطئ بعيدًا عن النهر قد يكون الأمر أفضل للمرضى.

عرض عليَّ مصطفى أغا -وكيل القنصل في طيبة- الإقامة في بيت له على مرتفع بين المقابر الأثرية في جو أحسن إذا أردتُ ذلك، لقد كان رقيقًا جدًّا وكريمًا جدًّا حقًّا مع كل الإنجليز هناك. زرت الحرملك في بيته وأحببت سلوك زوجته كثيرًا؛ كان رائعًا أن أرى أنها مسيطرة على العجوز الوسيم زوجها تمامًا، لديهما أطفال "حلوين" وابنُه الذي في الثالثة عشرة أو قريبٌ منها ركب ولعب بالجريد يومًا حين أمر عبد الله باشا الناس من الجيران أن يفعلوها من أجل الجنرال باركر. لم أشاهد من قبل أداءً جميلًا هكذا، الجنرال العجوز وأنا كنا مستمتعَيْن جدًّا ولقد حاول أن يقوم باللعب مما كان مصدر سرور كبير لشيخ البلد، بعض شباب الإنجليز كانوا معجبين باللعبة لكن سقطوا من فوق الأحصنة. كان

شيخ البلد والصبي حسن والعجوز مصطفى آغا يدورون مثل الصقور الجميلة ويلتقطون أعواد الجريد التي تُلقى عليهم وهم يندفعون في الدوران، كان شيئًا مدهشًا وكانت الخيل جيدة رغم رثاثة السروج التي كانت خرقًا باليةً وأطرافَ حبال، وكان الرجال في ملابس رثة. توقفتُ شمال طيبة قليلًا ومشيتُ على الأقدام إلى قُوص، لأرى مسجدًا قديمًا جدًا وقد سقط وصار خرابًا. لم يكن هناك إنجليزي من قبل.. ومن ثمَّ حوصِرنا في السوق، في الحال تقدم خمسة أو ستة رجال طِوال يحملون عصيًّا طويلة معتبرين أنفسَهُم حرسَنَا الخاص وأبعدوا الناس عنَّا الذين كانوا بدورهم مهذبين جدًّا.. هم فقط متطلعون ليروا هذه "الحُرمة" الغريبة، حتى إنهم بعد أن رأونا نخرج تمامًا من البلدة انسحبوا بهدوء كما جاؤوا دون كلمة. قدمتُ عشرة بنسات تقريبًا للجامع لشراء زيتٍ لأننا في رمضان والجامع يجب أن يُضاء، دعا لي خادم الجامع أدعية طيبة ليوم القيامة باعتباري واحدة من النصارى غير المتكبرين الذين يتمنون الخير للمسلمين كما قال النبي محمد.
لقد صادر محمد علي باشا كل الأراضي التابعة للجامع وأمر بصرف 300 قرش- أقل من جنيهين إنجليزيين- شهريًّا لتغطية كل النفقات، بالطبع كان لا بد للمبنى القديم النادر بزخارفه ونقوشه الأرابيسك أن يتساقط، كان هناك مسجد أصغر بالقرب منه.. قال خادم الجامع إنه قديمًا عاشت به أربعون فتاة عذراء يرتلن القرآن، راهبات مسلمات في الحقيقة. نويت أن أسأل "العالِم" الذي أحمل له معي رسالة من مصطفى عن هذه الظاهرة غير العادية.
بالقرب من بلينا رجاني عمر أن نوقف القارب لأن شيخًا عظيمًا نادانا.. وإلَّا ستقع لنا كارثة إذا لم نطعه، ومن ثم توقفنا وقال عمر "تعالي وانظري إلى الشيخ يا مدام".. مشيتُ ووجدتُ نحو ثلاثين شخصًا -فيهم رجالي- يجلسون على الأرض جوار العمود حول شبيه سانت سيمون [28] St. Simon Stylites [] عجوز قبيح مثل بوليفيموس [29] Polyphemus [] عارٍ تمامًا له جلدُ وحيد قرنٍ متشقق

بسبب الجو يجلس هناك نهارًا وليلًا وصيفًا وشتاءً لم يتحرك لعشرين سنة، لا يصلي أبدًا.. لا يغتسل.. لا يعترف بشهر رمضان، وعلى الرغم من ذلك هو "وليٌّ" من أولياء الله، بالطبع توقعتُ لعنةً من رجلٍ كهذا لكنه كان رقيقًا مع زيارتي وسألني أن أجلس وأمر خدمه أن يُحضروا لي عصير قصب السكر، وسأل عن اسمي وحاول أن يردده أكثر من مرة وكان كثير الكلام صاحب نكتة مجاملًا ولم يهتم بأحد آخر. عمر وطاقمي ابتسموا وأَوْمَؤُوا برؤوسهم وهنَّؤُوني من قلوبهم، مثل هذا التمييز أثبت تميزي الخاص (فالشيخ يعرف أفكار الآخرين ونياتهم) وأكد لي أني محظوظة، في النهاية اقترح عمر أن أقرأ الفاتحة التي التحق بها كل الحاضرين ما عدا الشيخ الذي بدا متململًا بهذه المقاطعة وطلب ألّا نمشي في عجلة ما لم نكن في حاجة إلى السرعة، عدد من البدو أتوا فوق جمالهم بهدايا للرجل المقدس، لكنه لم يُلقِ بالًا لهم ومضى يسأل عمر عني ويجيب عن أسئلتي، ما صدمني كان الغياب التام لأي مظهر للقداسة عند الرجل العجوز؛ كان رجلًا عاديًّا وفكهًا وافترضتُ أنه عرف أن وضعه آمن وأن قذارته وعُريَه يثبتان قداسته بما يكفي، ردد عمر الفاتحة مرة ثانية ووقفنا وأعطينا الخدم شيئًا من العملات الفضة -الولي لم يهتم لما نفعل- لكنه طلب إليَّ أن أرسل إليه حفنة من الأرز لعشائه. بدا هذا الطلب شرفًا كبيرًا جعل المحتشدين يندفعون في تمتمة من التهاني لهذا السبب، سألت عمر.. كيف لرجل أن يكون وليًّا وهو يهمل كل واجبات المسلم؟ ووجدت أنه يعتقد اعتقادًا كبيرًا أن الشيخ سليم يمكن أن يكون في مكانين في وقت واحد، فبينما يجلس هنا على الشاطئ يكون جالسًا في حلته الخضراء في مكة يقوم بكل أعماله المقدسة.. "كثير من الناس رأوه هناك.. مدام. هذا صحيح تمامًا".

من بلينا ركبنا ظهور الحمير بلا لُجُم إلى أبيدوس، ستة أميال عبر محاصيل لا ترى أجمل منها، غياب الأعشاب الضارة والآفات رائع.. وخضرة مصر تجعل الخضرة الإنجليزية سوداء، قطعانُ

ماشيةٍ جميلة.. خراف وجِمال ترعى في البرسيم فيما مالكوها يسكنون أكواخًا من البوص في الفترة التي ينمو فيها المحصول، مثل هذا المشهد المحبوب كان كثيرًا ورائعًا. أكلنا خبزنا وبلحنا في معبد أوزوريس وقدمت لنا امرأة لبن الجاموس في طريق عودتنا إلى البيت، شربناه دافئًا خارجًا من إناء خزفي حفظ فيه.
في جرجا وجدت صديقي الأقرب (مشرجي) غائبًا، لكن خدمه أخبروا بعض أصدقائه بوصولي فتجمع نحو سبعة أو ثمانية رجال معممين فورًا في القارب، صبي قبطي صغير أتى مع والده وكان يريد "كتابًا" ليكتب فيه، ومن ثم صنعت له كراسة من الورق لها غلاف من أوراق مفكرتي القديمة وأعطيت له قلم رصاص، أطلعته أيضًا على صور عن إنجلترا في كتاب مصور معي فانبهر جدًّا بها لدرجة أنه أراد أن يذهب معي إلى مدينتي "بلد الإنجليز" حيث يجد كتبًا أخرى كثيرة.

9 مارس - أسيوط

وجدت هنا خطابات من إلِيك تخبرني بموت العزيز اللورد لانسداون، بالطبع أعرف أن لكلِّ أجل نهاية.. لكن التفكير في أني لن أرى وجهه مرة ثانية وأن كل هاته الرقة والحب قد ولَّت من حياتي هو كارثة كبيرة. لا صديق يترك فراغًا عندي مثل الذي تركه ذلك العجوز المخلص رغم أن موت من هم أصغر سنًّا يكون أكثر مأساوية، هكذا ذهبَتْ أشياء كثيرة نبيلة معه إلى المقبرة، حتمًا سيندب الكثيرون ذلك الرجل الرقيق الحكيم المخلص الحازم. لا أحد هذه الأيام سيكون نبيلًا في مثل هذا النكران للذات والبساطة.
لقد اشتريت عمامتين قبطيتين سوداوين لتفصيل فستان أسود، فكرت في أني يجب أن أرتدي ذلك من أجله هنا.
أيضًا وجدت خطابًا من جانيت التي هي مريضة جدًّا، كان الخبر سيئًا حتى إنني أرسلت إليها تلغرافًا لأسمع كيف هي، وسوف أذهب في الحال إلى الإسكندرية إذا لم تكن في حالة جيدة، إذا كانت بخير سوف أكمل خطتي وأرى مقابر بني حسن والأهرام

في طريقي إلى القاهرة، لقد وجدت صديقي القبطي واصف أرق من أي وقت؛ لقد ذهب ليرسل التلغراف إلى الإسكندرية مظهرًا كثيرًا من العاطفة والرقة الحقيقية التي لمستني بقوة.

يتملكني الحزن لسماع أنك كنتِ مريضة مرة أخرى أمي الحبيبة، الطيب هو أنني أشعر بتحسن كبير حتى إنني أفكر في العودة إلى الوطن مرة أخرى بلا خوف. ما زال لدي سعال لا يتوقف لكنه بدأ يتقطع لفتراتٍ ويغيب أطول. أستطيع أن أمشي أربعة أو خمسة أميال وشهيتي جيدة، كل هذا رغم الطقس البارد في القارب الذي به شقوق بعرض إصبعين ولا شيء يسدها. أشتاق لأن أكون مرة أخرى بين أهلي الحقيقيين.

من فضلك.. أرسلي هذا إلى أَلِيك الذي سأكتب له مرة أخرى من القاهرة.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

10 مارس 1863

أَلِيك الحبيب..

لو رأيتكِ يا حبيبتي في الطريق
يغطي وجهكِ النقابُ
فتكفي طريقة سيرِكِ لتجعل من يراكِ
يتطوحُ من السُكْر
*****
أيها المبحر إلى دمياط
أذكرك بالله أن تبحث عن حبيبتي
التي أرجو ألا تكون قد نسيَتْني
*****
قمران على خدَّيْ حبيبتي
وصدرٌ وجِيدٌ من إعجاز الله
وقريبًا سيجمع الله شملنا
وإذا مِتُّ قبل ذلك
فهذا أيضًا من عند الله.[30]

هكذا يغني "علي"، أكثر شخص ضائع في طاقمي. حشاش لكنه مُغَنٍّ وشخصٌ جيد، الترجمة لم تكن سهلة رَغمَ العواطف الموجودةٍ في الشّعر، اعتمدتُ على تفسيرات عمر للكلام كلمةً بعد كلمةٍ، الأغاني كلها لها تأثير متشابه عدا واحدة تُضحك شيخ البلد وتحيره وتلدغه كبرغوث يصدر لعنات بشعة!

بعد أن زرنا الرهبان الأقباط في جِرجَا عدت إلى القارب فوقي النجوم، قالت سالي إنها شعرت كأنها رمسيس الأكبر يذبح

الأعداء.
كتبت الصفحة الأولى حين وصلت إلى أسيوط وتوقفت عند أخبار جانيت السيئة، لكن الآن كل شيء جيد مرة ثانية وسوف أقابلها في القاهرة وهي تقترح رحلة قصيرة إلى السويس ودمياط، حصلت على إضاءة رائعة الليلة من قِبل عمر على شرف زواج أمير ويلز ومن ثم أكتب الآن على ضوء شموع باهرة ومشكاتي لا يخفت ضوؤها أعلى مني، والرجال يغنون في حفل ملكي ويدقون الدربُكَّة بأعلى ما يستطيعون.
ستُري أنت خطابي لأمي وتعرف كم صرتُ أحسن في هواء النوبة الرائع والجنوب الأعلى للبلد. الآن نعود في طقس ضبابي تمامًا، تعشيت وأمضيت اليوم مع واصف وحريمه، منزل رقيق ومحبب، كنت دافئة بسلوكهم بعضهم مع البعض ومع العبيد والعائلة. العبيد -كلهم مسلمون- حدثوا عمر عن روعة سيدهم.. كان يريد أن يقيم حفلًا راقصًا ولكن لأني لم أتلقَّ أخبارًا سارة تم إلغاؤه، واصف المسكين أكل الفول المسلوق بينما زوجته وأنا حصلنا على عشاء رائع.. فهي في انتظار طفل جديد. إن صوم الأقباط أمر جاد.. الزبد واللبن والبيض حتى السمك ممنوع لخمسة وخمسين يومًا. تركوا سالي تتعشى معنا بينما سُمح لعمر بالخدمة، الأخ الأصغر لناصف يخدمه كما في الإنجيل ويساعده على ذلك كاتبه الشاب الصغير الجيد المشرف على أعماله. العبيد السود أحضروا الأطباق بالطعام الفاخر، كانت هناك نُكَت كثيرة و"قفشات" بين السيدة وعمر عن شهر رمضان الذي كسر صيامه فيه وصيام النصارى، وأيضًا عن عدد الزوجات المسموح به، وقال الكاتب الصغير إنه معجب بهذه النقطة في الإسلام. وعدوني أن أبقى بدوري عشرة أو اثني عشرة يومًا في بيتهم إذا ذهبت إلى أعلى النيل مرة ثانية. ووعدت أن أرسل لواصف كل تفاصيل التكلفة وغيرها لتعليم ابنه في إنجلترا وأن أعتني به وآخذه إلى بيتنا في الإجازات. لا أستطيع أن أصف كيف كان هؤلاء الناس طيبين معي، الإنسان يحصد كمية كبيرة من

التعاطف والمحبة القلبية هنا، مَثَلٌ غريبٌ على ألفة العقل البريطاني للتحيز هي الطريقة التي رأيتُ بها كل إنجليزي يحتقر مسيحيي الشرق، وتؤكد أن خطاةً مثلي ومثل كينجليك هما فقط اللذان يشعران بروابط الإيمان المشترك.

إن إسكتلنديًّا محترمًا شديد التدين وورعًا قد يندهش لكوني أفكر في دخول بيوت الأقباط بالإضافة إلى كونهم جامعي الضرائب في هذا البلد وهذا حقيقي إلى حد ما. لكنني شعرت بالميل لذكر هذه الصحبة الأفضل، الأقباط بوضوح هم المصريون القدماء.. الأنف المعقوف والعين الطويلة هي نفسها التي على صور المقابر والمعابد وأيضًا مثل اللوحات المبكرة جدًّا للبيزنطيين.. الوجه وسيم لكنه شاحب بشكل عام لا يميل إلى الانتفاخ والشكل يفتقر إلى نعمة العرب. لا يمتلك أي قبطي الشكل المميز للرجل أو المرأة عربية الدم. لأقدامهم أصابع طويلة والقدم مسطحة كما هي في التماثيل القديمة بينما القدم العربية كلاسيكية الاكتمال تستطيع أن تضع يدك تحت مشط القدم فقط. إن جمال العبابدة السود العراة ذوي الشعر المجعد رائع جدًّا، لم أرَ من قبل أطرافًا وملامحَ رقيقة أو مثل هذه الأسنان والعيون.

القاهرة - 19 مارس

بعد أن تركنا أسيوط أصابني البرد، أسوأ ما في صعود النيل هو أن المرء يجب أن يعود شمالًا مرة أخرى ويجدَ الضباب الفظيع ولياليَ باردة مع نهارات حارة، ومن ثَمَّ لم أذهب إلى سقارة أو الهرم ووصلت يومًا مبكرة عن موعدي إلى القاهرة. هنا في المدينة دفء أكثر وجفاف أكثر وتحسَّنَ سعالي. وجدت كل خطاباتك وكنت مبتهجة لقراءتها حتى إنني لم أستطع النوم لحظة واحدة أمس، وأتوقع حضور جانيت وروس الليلة.

- 10 -

إلى السيدة أوستِن
القاهرة - 9 أبريل سنة 1863
أمي الحبيبة..

أكتب إليكِ لأنني على يقين من أن جانيت ستكتب لألِيك، عانيتُ التهابًا حادًّا في الشعب الهوائية، وحين بدا أني صرت أسوأ بعد أن غادرتني جانيت وروس إلى الإسكندرية.. أرسل عمر بحكمته في طلب هكيكيان بيك الذي أتى في الحال ومعه دي ليو بيك كبير الأطباء لجيش الباشا والطبيب لحريمه أيضًا. كان رقيقًا جدًّا يأتي مرتين أو ثلاثًا في اليوم في البداية، لا يأخذ أي أتعاب بحجة أنه ضابط الباشا؛ عليَّ أن أرسل إليه بهدية من إنجلترا. بالنسبة إلى هكيكيان بيك فهو تمامًا السامرائي الطيب.. وهؤلاء الشرقيون يشعرون بالمتعة العظيمة في عطفهم وطيبتهم بحيث يبدو طيبًا أن نتركهم يرعون الإنسان. هكيكيان يأتي كل يوم بوجهه العجوز الأنيق وحزمة من الأخبار، وكل ما يقال عن السلطان وأفعاله، سأظل دائمًا مولعة بالسامرائي الطيب في طربوشه ولحيته البيضاء وعينيه الطويلتين. غادرتُ السرير اليوم للمرة الثانية وأنتظر يومًا دافئًا لأخرج، رأت سالي الأنوار الليلة الماضية، قالت إن السوق التركية كانت رائعةً، السلطان وحاشيته لم يأكلوا حتى خبزًا هنا فكل طعامهم يأتي من إسطنبول، غدا يتحرك المَحْمَل.. أفكر في افتقادي لهذه الرؤية.. أمر محزن.

إن لديَّ جارية سوداء.. جارية حقيقية، أنظر إلى أذنيها الصغيرتين مندهشة لكونهما لم تُثقَبَا من أجل الأقراط، وكانت مندهشة لكوني أريدهما مثقوبتين. كانت تجلس على الأرض قريبة مني.. وفي لحظة وقفت وأرتني أذنَها يخترقها دبوس كبير. "هل هذا حسن يا سيدتي؟" إنها في الثامنة من عمرها! كاد يغمى عليَّ تقريبًا من الصدمة. ما هو الرعب الذي أضعف هذا العقل إلى هذا

الحد؟ إنها ممتازة ورقيقة تقوم بالحياكة جيدًا، أخبرتني بأنها حين أتت لأول مرة كانت تعتقد أني سآكلها! الآن خوفها الوحيد أن أستغني عنها. إنها تغني أغانيَ فرح غريبةً لصورةِ موريس و"ستها" الصغيرة. لقد أُرْسِلَت من الخرطوم كهدية للسيد ثاير القنصل الأمريكي الذي لم يكن لديه أي نساء في خدمته، دعاني لأراها وحين رأيت المخلوقة المرعوبة محاطةً بالطباخ والسايس التابِعَين للقنصل قلتُ "سآخذها الآن" رحمةً بها، علَّمَتْهَا سالي وصارت ممتازة، لكنها الآن تضع كل روحها السوداء الصغيرة عليَّ، دي ليو ليس لديه فكرة عمَّا عليَّ فعلُه باعتباره يعرف القليل عن مصر ويعتقد أن إنجلترا مثل النرويج! فقط لا تتركيني في وادٍ مرعب بين الجبال؛ إنني أسمع صوت قطرات المطر الشديد التي كنت أسمعها في أو بون Eaux Bonnes في الحلم ما تزال وأنا باردة أرتعش في نومي، سأكتب مرة ثانية قريبًا، وأرسلي هذا إلى "أَلِيك" من فضلك.

- 11 -

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

القاهرة - 13 أبريل 1863

أَلِيك الحبيب..

لا بد أنكَ سمعتَ من أمي عن حظي مع المرض وسقوطي فيه مرة ثانية، الحقيقة هي إن الربيع في مصر مرهق جدًّا ولقد أتيت إلى شمال النيل شهرًا كاملًا، الناس تبالغ في كلامها عن الحرارة، اليوم هو أول يوم دافئ يمر بنا..حتى الآن ما زلت أرتعش وسالي كذلك. خرجتُ مرتين ورأيت المَحْمَل المقدس ينتظر في محطته الأولي خارج المدينة، إنه منظر مؤثر جدًّا، كل هؤلاء الناس يستعدون للرحلة الصعبة، إنهم يستريحون بين مقابر الخليفة. عينا عمر مليئتان بالدموع وصوته يختلط بالعاطفة بينما يتحدث عن المحمل ويشير إليه وشيخ الجمالين الذي يقود الجمل المقدس وهو عارٍ حتى المنتصف بشعره المسترسل . الاعتقاد الإسلامي ليس كما يتصوره الأوروبيون، إنه مليء بالعواطف الرقيقة وأكثر عاطفية مما نتصوره وأيضًا قوي جدًّا وبروعة، اعتدت أن أسمع عمر يصلي خارج بابي بينما كنت مريضة.. "يا رِب اشفيها يا رب خليها تنام"، تمامًا كما نقول "أتمنى أن تحظَيْ بليلة طيبة".

إن حضور السلطان نوع من الأحاجي، لا أحد يعرف ماذا يريد.. لقد أمر الباشا كل نساء الفقراء ليمكثن في بيوتهن أثناء وجوده؛ النساء المصريات صريحات في الكلام وربما يُعلِنَّ صارخاتٍ مظالمهن للسلطان الأكبر.

15 أبريل

أتحسن ببطء وخلال أيام قليلة سأذهب إلى الإسكندرية، ذهب عمر إلى بولاق ليسأل عن تكلفة القارب لأنني غير مغرمة

بالسكة الحديد، وحصل على اتفاق جيد بخصوص الحقائب الكبيرة وأواني الطهي وغيرها التي تتكلف كثيرًا في السكة الحديد. الجارية السوداء التي أُرسِلت كهدية من القنصل العام الأمريكي كانت سعيدة وتغني أغاني صغيرة طريفة من كردفان طوال اليوم. أرجو ألَّا تعترض على إحضاري إياها إلى بيتي؛ كانت تبكي برعب حين أخبرها عمر بأنها ليست لي مخافةَ أن أتركها.. وتصر على أنها "جاريتي"، تريد أن تكون هدية لريني الست الصغيرة وتضحك من قلبها حين تفكر فيها، إنها هادئة ورقيقة جدًّا، متوحشة صغيرة بائسة والعبودية التامة للروح البائسة الصغيرة تزعجني جدًّا، إنها لا تملك إرادتها. الآن هي تتحدث وتحكي كل مشاكلها وكيف هو "بطّالٌ" كل شخص كان في الخرطوم، ثم تدعك أنفها الأسود الصغير في يدي وتضحك بسعادة وتقول "هنا كويس كتير" وتحضِنُ نفسها بفرح، أعتقد أن ريني ستحبها كثيرًا جدًّا.

أنا ذاهبة لأزور عائلة رسام فرنسي مسلم له زوجة مصرية وبنات ناضجات منها، وهو عجوز محبوب جدًّا لديه مخزن أساطير عربية، أنا ذاهبة لإقناعه بأن يكتبها ويتركني أترجمها إلى الإنجليزية. سيغادر السطان اليوم، الطعام ومياه الشرب كانت تأتيه هو وحاشيته من إسطنبول، لقد عرفت ذلك من هكيكيان بك الذي كان يمتلك عبدًا خصيًّا -هو الآن أغا كبير للسلطان نفسه- فأصبح لهكيكيان الشرف بأن يقبل يد عبده القديم.

إذا حاول أي شخص أن يجعلك تعتقد أن الحضارة المصرية هراء اضحَك منه، الحياة الحقيقة والناس الحقيقيون هم كما وُصِفوا تمامًا في أكثر الكتب الصادقة "ألف ليلة وليلة"، الطغيان هونفسه والناس لم تتغير وهم كما هم يأسرون الألباب، ولو كنت أعرف الحديث بلغتهم كنت أستطيع الدخول إلى المجتمع المصري هنا عبر اثنين أو ثلاثة من الناس وأرى أكثر مما رآه كثير من الأوروبيين الذين عاشوا هنا كل حياتهم. المصريون لا يميلون إليهم كثيرًا لكن إذا شعروا بالأمان التام معهم سيحبونهم ويحبون المزاح معهم.

لقد اقترح عمر خطة عظيمة إذا كنتُ بصحتي وقوية.. وهي أن يضعني في تختَرَوَان ويأخذني إلى مكة كأني والدته وتركية الأصل. بالنسبة إلى رجل أوروبي فبالطبع سيكون هذا مستحيلًا، لكن امرأة مغامرة قد تفعله بسهولة مع شريك مسلم. أشتاق كثيرًالرؤية الحج! في خلال عدة أيام سأذهب إلى الإسكندرية، إذا تسبَّبَتْ في مرضي من جديد فعليَّ أن أعود إلى أوروبا أو أذهب إلى بيروت.

لا أستطيع أن أجد قاربًا بأقل من 12 جنيهًا، هكذا العرب يفهمون المنافسة.. مُلَّاك السفن يقولون إن القليلين يستخدمونها والوقت سيئ للسفر بالسكة الحديد، ومن ثم فعليه أن يحصل على ضعف ما اعتاد الحصول عليه. عبثًا ناقشهم عمر في أن هذه ليست طريقة الاستخدام الصحيحة، "معلش" ومن ثم يجب أن أذهب بالقطار. أليست هذه عادات الشرقيين؟ حين أسافر إلى الصعيد حيث لا توجد طرق سكك حديدية أدفع نصف الثمن. كل ما حدثتني عنه من أشياء تحدث من الإسبان في إسبانيا موجود هنا بقوة وأيضا في أيرلندا، نفس الأسباب تنتج نفس النتائج.

اليوم تهب رياح الخماسين وصار الجو حارًّا ولكن ليس بمثل حرارة رأس الرجاء الصالح. هذه كئيبة رمادية فلا أشعة للشمس، المناخ أقل بريقًا مما توقعت، أقل بكثير جدًّا جدًّا من رأس الرجاء. ورغم ذلك أوافق من قلبي على قول المصريين" من يشرب من مياه النيل لا بد أن يعود إليها"، وحين تكون امرأة رشيقة في رداء أزرق ونقاب تُنزل الجرة عن كتفها وتقدمها لشفتيك بابتسامة من القلب وترحاب.. فلهذا طعم حلو مضاعف. الحمد لله..سالي تقول إن كل المياه الأخرى مثل بيرة سيئة أمام مياه النيل.

حين انتهت الخماسين ألحَّ عمر عليَّ لأزور شجرة "ستنا مريم" والبئر حيث استراحت هي وسيدنا عيسى بين ذراعيها في رحلتها إلى مصر، إنها مباركة من المسيحيين والمسلمين ومكان عظيم للعيد والإجازة خارج البيت يحبه المصريون كثيرًا، اكتُبْ لي وأخبِرني ماذا تريدني أن أفعل، إذا استطعتُ تحمل عدم رؤيتك

أورؤية الأطفال فسأبقى هنا وآخذ بيتًا في العباسية في الصحراء، لكني لا أستطيع تحمل هذا.. لا أستطيع تحمل هذه الحياة المدهشة أكثر، يجب أن أعود إلى الوطن وأموت في سلام إذا لم أصبح أفضل، اكتُبْ لي في الإسكندرية فيما بعد.

-12-

إلى مستر توم تايلور

القاهرة

18 أبريل 1863

عزيزي توم..

كان خطابك وخطاب لورا مصدَرَيْ سرور كبير لي في هذه الأرض البعيدة، لم أستطع الإجابة من قبل بسبب المرض، لكن السامرائي الطيب -هكيكيان بك- جاء ومعه زيت ونبيذ ساعداني على الشفاء، كان أمرًا غريبًا أن أسمع صديقي هكيكيان بيك الأرمني العجوز المتعلم ودي ليو بيك -طبيبي- يتحدثان التركية جوار سريري في الوقت الذي يبكي فيه عُمر المخلص ويصلي قائلًا "يا ربنا.. يا ستار.. لا تتركها تمُوت".

إن أَلِيك على حق تمامًا في أني أحب حياة المصريين، وأني من الأصل أريد أن أرى وأعرف الكثير عن حياة العائلات أكثر من أوروبيين كثيرين عاشوا هنا لسنوات. حين يشعر المصريون بأن أحدًا حقيقةً يهتم بهم.. يهتمون به من قلوبهم. لو أنني أستطيع تحدث اللغة لرأيتُ وعرفتُ كل شيء.. القاهرة هي الليالي العربية. هناك قليل من الفرنجة لامعون هنا وهناك، لكن الحكومة والشعب كلهم لم يتغيروا منذ أن كُتبت تلك الكتب الطموحة، لا توجد كلمات يمكن أن تصف سَفَرَ المحمل المقدس والحجاج إلى مكة. لقد أمضيت نصف يوم أتسكع بين الخيم البدوية معجبة بهؤلاء الناس الأحرار، أن ترى بدويًّا وزوجته يمشيان بين شوارع القاهرة أمر مثير، يدها مستريحة على كتفه ونادرًا ما تغطي وجهها الجريء، وتنظر باحتقار إلى المصرية المنتقبة التي تحمل ثقلًا وتمشي خلف سيدها. لقد أصبحتُ مالكةً لجارية دون إجراء من ناحيتي، لقد أعاد إليَّ القنصل الأمريكي العام الفتاة السوداء التي في الثامنة أو التاسعة من عمرها، وبعد خبر وصولها قام

الطفل الأسود البائس الذي كان عبدًا ومرمطون المطبخ هنا بتشجيع عمر على أن يتوسل إليَّ أن أشتريه وآخذه معي. إنه أمر مؤثر أن ترى الأسودين الصغيرين البائسين يحصيان مشاكلهما ويقارنان بين الاهتمام بهما، ذهبت أمس لأضع عربونًا لأدوات مطبخي وأثاث القارب في طريقي إلى منزل المرأة التي تغسل ملابسي، وعند رؤيتي أَصِلُ فوق ظهر الحمار وخلفي عربة محملة بالبضاعة المنزلية اجتمع حولي ثماني أو تسع نساء مصريات مبتهجات بفكرة أنني جئت لأعيش في حيّهنَّ وعرضنَ عليَّ خدماتهن، بالطبع اندفع الجميع أعلى السلم والمرأة العجوز التي تغسل ملابسي طلبت ثمنًا للتبغ والقهوة، فكرتُ مثلك أن عليَّ أن أملك غطاءً أسودَ، دائمًا ما يقال لي إنني مثلهم، مع احتفاء بشكلي الجميل أمامهم. "أنتِ حرمة جميلة دائمًا" لا شيء يدهشني أكثر من الطريقة التي يتذكر بها أحد هيرودوت دائمًا، المسيحية والإسلام لهذا البلد مليئان بالعبادة القديمة والحيوانات المقدسة، كلها صارت في خدمة الأولياء المسلمين. أحد هؤلاء الأولياء في المنيا يسيطر على التماسيح، وأعلى من المنيا رأيت جحر ثعبان "أسكولابيوس" في جبل الشيخ هريدي وأطعمت الطير التي اعتادت قطع حبال القوارب التي ترفض إطعامها كما فعل هيرودوت، وهي الآن تعمل تحت إمرة الشيخ "نونة" وما تزال تأتي إلى سطح المركب جماعات من أجل الخبز ولا ريِّس يستطيع أن يرفض إطعامها. قطط بوباستيس ما تزال تتغذى في "بيت القاضي" من النفقات العامة للحكومة في القاهرة وتتصرف بوقار حين يقدم لها خادم القطط العشاء. بين الآلهة آمون رع -إله الشمس وقاتل الثعبان- أصبح مار جرجس "سانت چورچ" وتتم عبادته من قبل المسيحيين والمسلمين في الكنائس نفسها، وأوزوريس يقيم احتفاله بحفاوة دائمة في طنطا بالدلتا تحت اسم "السيد البدوي". الفلاحات يقدمن التضحيات للنيل ويدرن حول التماثيل القديمة من أجل أن يحمَلن في طفل. احتفالات الميلاد والموت ليست إسلامية بل مصرية

قديمة.
الأقباط مرتبطون بالماضي وأكثر تحفظًا من العرب، وهم مرفوضون جدًّا من الأوروبيين باعتبارهم مصدر خجل مضاعف لنا. الأوروبيون يستاؤون إذا دعوتهم بالـ"نصرانيين" كما يمكن أن يتأفف العبري المهذب من كلمة "يهودي"، لكني قلت بشجاعة "أنا نصرانية الحمد لله"، ووجدت ذلك مقبولًا جدًّا عند المسلمين كما هو مقبول عند الأقباط، أشياء مثيرة يمكن أن ترى هنا في ممارسة العقائد، المسلم يبتهل عند مقبرة مار جرجس -سانت چورچ- وفي الأماكن التي مرت عليها ستنا مريم وسيدنا عيسى والجديد من المعجزات ممتزجة الصفات بينهم.
إذا كان لك تأثير على أيٍّ من الفنانين أرسلهم ليرسموا هنا.. لا كلمات تكفي وصف الإمكانات التصويرية الجميلة للقاهرة أو الأشكال الرائعة للناس في الجنوب والنوبة. كنت في كثير من النشوة عند رؤية جمال الإنسان هنا رجلًا أو امرأة، البنت التي كانت تُعَنى بحماري في طيبة كانت ترتدي ملابس كما لو كانت تمثالًا يونانيًّا، اسمها "ورد الشام".. رؤيتها ممتعة للعين، وهنا أيضًا أي جمال وحلاوة في أن تشرب من مياه النيل خارجة من قلة مرفوعة إلى شفتيك من امرأة تقول بابتسامة تكشف عن أسنانها وتملأ عينيها الجميلتين "هنيًّا" وأنت تجيب "الحمد لله"! وهي حقًّا نعمة تستحق الشكر لله. الأيام لجمال القاهرة معدودة.. المساجد تتدهور.. النوافذ الخشبية المنقوشة تتعفن وتُزاح بعيدًا وتستبدل بالنوافذ الأوروبية الزجاجية. الناس والحكومة لا يتغيرون.. اقرأ كل الفقرات الجميلة عن الحضارة هنا وبعدها قُل "هراء".
إذا كنت تعرف أي شخص يأتي إلى هنا ويريد خادمًا جيدًّا أو ترجمانًا أوصيك بعزيزي عمر أبو الحلاوة.
إنه صديقي وصاحبي كما هو خادمي في المطبخ لستة أشهر الآن، ونحن في حزن شديد لاقتراب الفراق. عليَّ أن أُمضي يومًا في منزله مع زوجته الشابة في الإسكندرية وأن آكل خبزه، إنه

في حزن يريد أن يأتي معي إلى أوروبا ليرى أطفالي. أعتقد أن سالي مغرمة بالعرب مثلي وحميمة لهم، طاقمي البائس دائمًا يصيحون "يا خسارة" عند إصابة أصابعهم أو غيرها من الإصابات، وأساعدهم وكمية العلاج التي أقوم بها كبيرة، سالي كانت دائمة ترغب في أن ترى أنتَ كل أنواع الأشياء وترسمها. يالها من حكاية رويتها أنا!

-13-

إلى السيدة أوستِن

الإسكندرية - 12 مايو 1863

أمي الحبيبة..

أنا هنا منذ أسبوعين لكن المناخ غير مناسب تمامًا حتى إنني سأعود فورًا إلى القاهرة وفقًا لنصيحة طبيب قناة السويس؛ لا أستطيع أن أوقف سعالي هنا. بلطف أعارني مستر ثاير -القنصل العام الأمريكي- منزله الصغير الجميل وأرجعت عمر من جديد للعمل.

هنا الجو حار جدًّا، ولكن مع نسيم البحر يصبح أخف حرارة. الأقوياء من الناس يستمتعون به. جانيت بخير وتبدو سعيدة جدًّا. إنها مراسلة جريدة التايمز وتقوم بعملها جيدًا.

أشعر بالخيبة من كوني جسديًّا لست في حالة جيدة كما تمنيت، مقارنة بحالتي في جنوب مصر. لا أستطيع أن أصف الشوق الذي عندي لبيتي وأطفالي وأشعر كثيرًا بالقلق الذي أسببه لك ولأَلِيك ورغبتي في أن أكون معكما.

على الإنسان أن يأتي إلى الشرق ليفهم المساواة المطلقة، لا يوجد تعليم لكن لا يوجد ما يمنع أن يكون الولد سائق الحمار الذي يجري خلفي رجلًا عظيمًا فالمسلمون متساوون بلا جدال. المال والمراتب الاجتماعية هي أمور عارضة. وأعتقد أن مكانتي الكبيرة بينهم ناتجة عن أني أجلس مع الفلاحين وأعامل كل واحد منهم كما يعامل بعضهم البعض. في الإسكندرية تغير كل ذلك.. الأفكار والعادات الأوروبية غيرت المصريين وغادروا المدينة ولم تتحسن سلوكيات من بقيَ منهم لاتصالهم بالأوروبيين، فقط البدو يحافظون علي هوياتهم. وجدت السوق المغربية ممتلئة بهم حين ذهبتُ أشتري عباءة بيضاء وكنت سعيدة وأنا أرى في طريقي رجلًا رشيقًا برونزي اللون جالسًا في مدخل المحل يبعد

قدمه لأجلس. كانوا سعداء لمشترياتي وساعدوني في تثمينها وأكدوا أن التفاف العباءة حولي يعطيني زيًّا بدويًّا وأنهم أيضًا يمدحونني إذ أمتلك "وجه العرب" وهذا يعني بدوية. كنت أريد رداءً عربيًّا صغيرًا لريني لكني لم أجده لأنه في عمرها لا أحد يرتدي شيئًا في الصحراء.

تغديت يومًا مع عمر أو أكلت في بيته لأنه لا يأكل معي في البيت على مائدة واحدة. أعدت زوجة أخيه غداءً أكثر من رائع وكلنا كنا مسرورين. لقد كان ذلك حضورًا جميلًا للعائلة، وحضر الأخ الأكبر لعمر المحترم المهاب والحلواني الذي كانت أكبر زوجاته سوداء وشخصية مميزة جدًّا تتحدث الإيطالية تمامًا وأعطتني معلوماتٍ كثيرةً جدًّا وسألتني أسئلة ذكية، إنها تدير المنزل لكن ليس لديها أطفال، ومن ثم تزوج بأخرى..امرأة مصرية رقيقة المنظر أنجب منها ستة أطفال والكل يعيشون في انسجام تام. زوجة عمر طويلة ووسيمة.. في عمره وذات طباع جيدة جدًّا. لم تخرج من البيت الصغير غير مرة واحدة منذ الزواج! الآن أبدأ في فهم كل شيء عما يجري مع النساء. كان هناك تعامل كبير فيه روح الفروسية معهن وفي الطبقات الوسطى والأقل لم تكن النتيجة سيئة، كنت أشك في أنه بين الأغنياء.. فالقليلات فقط هن السعداء. لكني لم أكن أعرفهم ولا أعرف أي شيء عن طرق الحياة التركية التي يعيشونها. سأذهب وأرى المرأة السوداء مرة ثانية وأسمع الكثير، فأحاديثها كانت حقيقة مسلية.

-15-

إلى السيدة أوستِن

القاهرة

21 مايو 1863

أمي الحبيبة..

أتيت إلى هنا مساء السبت، اليوم هو الأربعاء وأنا أفضَلُ كثيرًا، استأجرت حمارًا رائعًا إلى منزلي بخمسة عشر قرشًا في اليوم -أقل من شلنين- صاحبه شاب جميل اسمه حسن. إنهما يبقيان جوار الباب وحسن ينظف السلالم ويذهب بالرسائل وسط حرارة الجو، وأنا أركب خارجة مبكرةً جدًّا في السادسة أو السابعة ومرة أخرى في الخامسة. الهواء منعش الآن.. الطقس يكون حارًا جدًّا لساعات قليلة لكن ليس خانقا والنسيم لا يسبب رعشة للمرء كما كان يفعل في الإسكندرية. أمضي النهار كله والليل كله والنوافذ مفتوحة وكثير من الهواء الدافئ المنعش هو أحسن وسائل العلاج. لا أجد أفضل من البقاء هنا حتى تزداد الحرارة، تركت زينب الصغيرة في الإسكندرية مع "إلين" خادمة جانيت التي تحب زينب جدًّا والتي رجتني أن أتركها لها للصحبة وأيضًا لتساعدها في الانتقال إلى المنزل الجديد. لقد تعلقت زينب بي وجعلتني أعدُهَا بالعودة مرة ثانية لكن كانت راضية بالبقاء مع إلين التي تبادلها نفس المشاعر الطيبة. كان سارًّا أن أراها سعيدة جدًّا هنا وكم كانت مستمتعة كونها تذهب إلى النوم بقبلة من إلين أو سالي. سيدها التركي التي تقول عنه إنه رجل "بطّال" يسميها "سلامة سيدها" لكنها قالت إنها في قريتها الأصلية اعتادت اسم زينب، ومن ثم ناديناها به. لقد ازدادت سمنةً وسوادًا. مبروكة -تعني "حظ حلو"- هي الزوجة الأقدم لحجاب الحلواني، كانت سعيدةً جدًّا معها لأنهما تشاركا في القَدَر والحياة. لقد تم شراؤها -أعني

مبروكة- عن طريق إيطالي عاش معها حتى موته فتزوجت بحجاب. إنها مسلمة تقية تبتهل لشفاعة سيدنا محمد من أجلي حين حدثتها أنه ليس لديَّ أي نية "لتعميد" زينب بالإجبار كما حدث لها.

السيئ في وجودي هنا هو الضوضاء. نحن في طريق قريب من السكة الحديد ولا يوجد هدوء إلا في ساعات اشتداد الحرارة حين لا يُسمع شيء إلا رنين صاجات السقَّا النحاسية وهو يبيع المياه في الشوارع أو رنين بائع العرقسوس أو الخروب أو العناب. العرقسوس مرٌّ قليلًا لكنه أفضل وأحسن كثيرًا.. أشربه أكثر من مرة فَقُلة الماء تفرغ بسرعة. القُلة هي إناء من الفخار واسع الفم تشرب منه مياه النيل بمتعة جدًّا دون حاجة إلى كوب. عمر يذهب إلى السوق كل صباح بالحمار وأنا أيضًا ذهبت وكنت سعيدة، ويطبخ وفي المساء يصحبني خارجًا إذا أردته معي، أخبرته بأني أوصيت عليه بأن يحصل على وظيفة جيدة بعد سفري لكنه أعلن لي أنه لن يعمل مع أي أحد إلا معي ما دمت سأزور مصر مهما اختلف الراتب. قال "الخبز الذي آكله معك حلو".. تناقضٌ لا شعوريٌّ جميل لجحيمِ دانتي.

كنت قد نصحت أخاه الحاج علي بأن يقيم بيتًا في طيبة للمرضى، وبدأ بالفعل يبحث عن منزل هناك.. هنا واحد منها فقط، في الشتاء القادم ستتجه البواخر مرتين في الأسبوع إلى أسوان.. أسوان البعيدة التي نُفِيَ إليها جوفينال وفيها مات[31].

غسالة الثياب العجوز أرسلت لي في إلحاح عبر عمر أنه يجب أن أتغدى معها يومًا ما حين أنير بحضوري القاهرة، إذا أكل المرء فقط طعام هؤلاء الناس يكونون سعداء. إنهم يحبون ذلك كثيرًا أكثر من تقديم الهدايا، ومن ثم سأشرِّفُ بيتها يومًا. "هَنَا" العجوز الطيبة قد طُلقت لأنها سمينة جدًّا ومسنةٌ وحلَّت محلها تركية أصغر تعيش عائلتها عالة علي الحاج وتتعالى عليهم. إذا كان لي أن أرسم فعليَّ أن أرسم "اسكتشات" لمسجد محبوب قديم يتساقط من العفن وفيه ثلاث نخلات تنمو في وسطه. حقًّا

أحتاج إلى كتابٍ يمتلئ بهذه الروائع لكن مع الأسف كل شيء جميل من المباني ينهار ويمضي. الحي القبطي القديم تُبنَى فيه بيوت رثة على النظام الفرنسي مثل الذي أعيش فيه، في هذا المناخ ما أحلى أن تكون في فناء بيت عربي بمصطباته ونوافيره.

الآن هناك معركة في الشارع، كيف يتكلمون وينفعلون في كلامهم! قام ولد بقلب صينية بائع الكعك فصرخ فيه "يلعن أبوك"، لقد خسَّره ستة قروش وكل واحد يقدم وجهة نظره مع أو ضد، كلنا ننظر من النوافذ.. جارتي المقابلة.. المرأة الأرمنية الجميلة تميل من النافذة تتفرج فنرى الماسات التي تزين رأسها وفي أذنيها يهتز قرطاها وهي تضحك مثل طفلة.. الدباغ المسيحي كان أيضًا متدخلًا في الشجار، ومثل كل المتشاجرين المصريين ينتهي الأمر إلى لا شيء. يتبخر الشجار في حركات مسرحية وكثير من الكلام.. مدهش!

في الشارع كانت الضوضاء كبيرة ولكن الرجال أنفسهم يدخلون المقاهي أو أي مكان ويكونون الأهدأ في الجنس البشري. فقط رجل يتكلم والآخرون يستمعون ولا يقاطعونه أبدًا، عشرون رجلًا لا يقيمون الضجة التي يقيمها ثلاثة رجال أوروبيين.

هكيكيان بِك هو جاري القريب، لقد جاء وشاركنا ونحن نتحدث عن الحكومة.. قلبه مجروح بالحزن بسبب معاناة الناس.. "ألا يستحقون أن يُحكموا برقة! أن يُسمح لهم بقليل من السعادة والرخاء؟ إنهم طيعون جدًّا راضون جدًّا.. فهل ليسوا بالناس الطيبين؟". تلك كانت كلماته بينما هو يحصي بعض مظاهر الظلم الجديدة، بالطبع نصف التصرفات تتم تحت شعار الإصلاح والتمدن، والأوروبيون يصفقون ويقولون "أوه..لا شيء يمكن عمله إلا بالسُّخرة"، والفلاحون الفقراء يُقادون مربوطين مثل المجرمين وتعاني عائلاتهم -مَن الذي يفكر في هذا!- وتعداد السكان يعاني النقصان، لا عجب أن يصرخوا قائلين "دعي ملكة بريطانيا تأتي وتأخذنا".. أترين؟!.

آنا لا أرى الأشياء مثل روس.. لي وجهة نظر أخرى وقلبي مع المصريين. لا أهتم كثيرًا بفتح ممر للتجارة مع السودان وكل طرق السكة الحديد الجديدة، أحب أن أرى شخصًا آمنًا ولا أحد آمنٌ هنا "الأوروبيون بالطبع استثناء"، طلب إسماعيل باشا إلى السلطان أن يسمح له بأخذ تسعين ألف فدان من الأراضي البور لنفسه ملكيةً خاصةً، حسنًا..لكن الخديوي سعيد وهبَ للكثير من الأتراكِ -منهم موظفوه- منذ ثماني سنوات أراضي بُور، على أمل تأسيس أرستقراطية إقطاعية وإقناعهم بأن ينفقوا رأسمالهم في الزراعة، لقد فعلوا ذلك.. والآن إسماعيل باشا يأخذ أراضيهم المستصلحة ويعطيهم جزءًا بعد جزءٍ من أرضه الجديدة التي ستحتاج إلى خمس سنوات لتتم زراعتها. لقد أجبرهم على التوقيع بأن هذا الاستبدال بإرادتهم وإلا سيرسلهم إلى فازوجلو..

إلى سيبيريا الحارة[32].. حيث لا يعود أحد، لقد أقرَّ السلطان كمية كبيرة من المال للمعاهد الدينية والأعمال الخيرية للمسلمين واليهود والمسيحيين، لكن لم يستقبل أحد قرش فضة من الأموال.

حقيقيٌّ أنَّ السلطان وحاشيته ينهبون الباشا والشعب هنا.. لكن منهم جميعًا أسمع أن السلطان حقيقةً يرغب في أن يكونوا في حال أحسن، المطلوب هنا هو حرث الأرض لكن الأجور عالية.. فالطعام بالطبع أقل لارتفاع سعره، والسُّخرة تعكس كثيرًا من المعاناة عن ذي قبل وعدد السكان سوف يتناقص بسرعة. هذا يُظهر لي حالة من الأشياء التي لا فائدة من الحديث عنها، ومنها -مع الأسف- القول إن الأعمال العامة يجب أن تتم رغم أي تكلفة؛ قد تزيد الثروة إذًا وفي الوقت نفسه تتم إبادة الشعب. إن كل باشا يبني قصرًا جديدًا فخمًا فيما يتم خراب القصور الموروثة. إن أبناء محمد علي قد قطعوا أشجار حديقته النباتية الجميلة التي زرعها وزرعوا الفول بدلًا منها! ومن ثم تبديد المال أكثر مما لو كانوا ألقوا به في النيل، لو أُلقِيَ في النيل ما ضَيَّعَ الفلاحون وقتَهم المطلوبَ في الزراعةِ في بناء ثكناتٍ قبيحة تُسمى قصورًا!

ما يصدمني هو سماعي لرجال إنجليز يتحدثون عن أن العصي هي الطريقة الوحيدة لإدارة المصريين.. كما لو أن أحدًا يشك في أن هذه أسهل طريقة لقيادة أي شعب ما دامت يمكن استخدامها دون عقوبة.

الأحد:

ذهبتُ هذا الصباح إلى كنيسة قبطية جديدة وكبيرة لم ينتهِ العمل بها، صعد عمر معي إلى قسم النساء وعاد بهدوء حين رآني في المكانِ الصحيح، لكن النساء القبطيات بدأن يكلِّمْنَه ويسألنه عني طَوال الوقت الذي كنت أنا فيه أتطلع إلى المنظر الغريب تحتي، أعتقد أنهم ما يزالون يحتفلون بالأسرار القديمة. أصوات الصاجات.. الغناء.. طنين لا يشبه أي طنين سمعته، الأوشحة الصفراء بالرِسوم كانت.. كلها غريبة.

في النِهاية انصرف الكل ونزلتُ إلى أسفل وخلعت حذائي لأدخل وأجُولُ بالكنيسة.. بينما أفعل ذلك انفتح باب جانبي ودخل الموكب.. قسيس يرتدي الروب الأسود المعتاد لكل الأقباط والعمامة ويحمل شيئًا مثل رمح ثلاثي الأطراف هو نوع من الشمعدان.. آخرون يحملون الصاجات. عدد كبير من الأولاد الصغار وكاهنان شابان يرتديان غفارتان من الساتان الأصفر -في تضاد مع الطربوش المعتاد على رؤوسهم- وكانا يحملان طفلين صغيرين وشمعتين.. كل منهما معه طفل وشمعة سائلة.. دارا ثلاث مرات والصاجات تدق والغناء يرتفع بلحن راقص.. الأطفال الصغار جدًّا يمشون أمام الكاهن بشعائرية جميلة في عرض مترابط.. ثم توقف الجميع أمام المحراب وربط الكاهن نوعًا من الشرائط الملونة التي تحيط بكل طفل وهو يردد شيئًا باللغة القبطية طوال الوقت، وفي النهاية يلمس جِباهَهُم وأيديهم بالماء. هذا احتفال لاحق للتعميد بعد عدد من الأيام لا أعرفه لكن الكاهن يربط ثم يفك القيود، إلى أي شيء يرمز هذا الاحتفال؟ لا أعرف.

أعطى رجلٌ عجوزٌ عُمَرَ -ولي مثله- كعكة صغيرة مستديرة من

الخبز لها شكل طعام الصوفية، كأنها كانت مخبوزة من أجل إيزيس، كثير من النساء المنتقبات تمامًا كُنَّ يقِفْنَ في جانب واحد في الممر الجانبي وبينهم أُمَّا الطفلين اللذَيْنِ كانا مع الكاهنين ذوَي الغفارات الصفراء وأخذاهما بعد نهاية الاحتفال. أحد هذين الشابين كان أنيقًا جدًّا فيما يقف ينظر إلى أسفل مبتسمًا للطفل الذي يحمله بضوء الشعلة ينير ملامحه.. مما يصنع صورة جميلة محببة. التعبير كان أجمل من تعبير سانت فنسنت دي بول لأن ابتسامته كانت تقول إنه لعب مع الطفل كما ابتهل من أجله. في هذا البلد يرى الإنسان كم هو جميل التعبير الطبيعي التام أكثر من أي درجة من التعبير السحري لأحسن الفنانين، وباهرٌ جدًّا ألَّا أحد يحاول التظاهر بالتقوى. المسلم يبدو جادًّا وغالبًا مثل المحارب حين يقف ليصلي، المسيحي له وجه واحد لا يتغير. حين يدخل المسلمُ حالةَ العبادة الجادة لا يفكر في شكل الوجه وهذا رائع تمامًا. لا أعتقد أن القبطيَ له أي حماسة.. لكن المشهد هذا الصباح كان أكثر تأثيرًا حتى إنه لا أحد كان مالكًا نفسه على الإطلاق. مساعد صغير للكاهن كان يحملق في الكوب المقدس ويتجرع بشراهة ما بقيَ فيه بإخلاص كبير ولا أحد يوبخه، والأطفالُ الصغارُ جَرَوْا إلى المحراب -كانوا أكثر من سبعة- ودخلوه هم والقسيس فقط. إنه تعليق جميل على كلمات المسيح "دعوا الأطفالَ يأتونَ إليَّ ولا تمنعوهم لأن لمثلِ هؤلاء ملكوتُ الله".

أنا في ضيق شديد جدًّا كوني غير قادرة على أن أسأل أسئلة من أجل نفسي لأني لا أحب أن أسأل المسلم ولا يوجد قبطي يتحدث أي لغة أجنبية أو قليل جدًّا جدًّا منهم. عمر وحسن كانا في الخامسة هذا الصباح في مسجد ستنا زينب.. إحدى بنات النبي لـ"رؤيتها" -الأحد هنا هو يوم استقبالها- وقراءة الفاتحة على قبرها. الجمعة القادمة يبدأ العيد الكبير وكل مسلم يأكل قليلًا من اللحم على نفقة جاره الغني، إنه اليوم الذي يصعد فيه الحجاج جبل عرفة قرب مكة ليسمعوا الخطبة التي تُنهي الحج.

أمسِ ذهبت آنادي السيدة ويلكنسون الجميلة.. إنها أرمنية بعقيدة يونانية وذهبت لتصلي في دير مارجرجس -سانت چورچ- لتشفي نفسها من الألم الذي خلّفته الحمى الروماتزمية في يديها، واضح أن ماري جرجس مثل آمون رع إله الشمس وقاتل الثعبان العظيم الذي ما يزال موقّرًا في مصر بين كل الطوائف.. والسيد البدوي هو بالتأكيد صورةٌ أخرى لأوزوريس؛ يتم الاحتفال به مرتين في العام في طنطا.. ولا يزال يُظهر كراماته كرمزٍ لله خالق كل شيء. كل شيء هنا على هذا المثال.. تنتحب النساء على موتاهن بنفس الطريقة المصورة في النقوش القديمة على المعابد الفرعونية، كل الاحتفالات ليست من تعاليم الإسلام وقد يَصدِمُ المسلمَ الهنديَّ -كما يَصدِمُ المسلمَ المصريَّ- اعتراضُ المسلمِ الهنديّ على الأكل مع المسيحيّ. هذا البلد هو مسودة فيها كتب الإنجيل على ضوء هيرودوت والقرآن بعد ذلك. في المدينة القرآنُ مرئيٌّ وواضح جدًّا، وفي الريف ترى هيرودوت الذي هو واضح ومثير بين القِبْطِ في كنائسهم التي أقيمت على شكل المعابد القديمة لكني حتي الآن لم أقترب من عاداتهم كثيرًا كما فعلتُ إزاء المصريين المسلمين الذين بدأت آلَفُ عاداتِهِم.

الآن ملأتُ خطابًا طويلًا ولا أعرف إن كان يستحق الإرسال.. ولا إن كنتَ ستسعد بما كتبتُه عن الحياة الشرقية! سأذبح خروفًا يوم الجمعة القادم وعمر سيطهو إناءً كبيرًا للفلاحين الفقراء الذين ينامون جوار محطة السكة الحديد ينتظرون أخذَهُم إلى العمل في أي مكان، هذا ليكون "عِيدي" ويتمنى عمر لي نفعًا كبيرًا مما أفعله.

-16-

إلى السير أَليكساندر دوف چوردون

القاهرة - 25 مايو 1863

أَلِيك الحبيب..

لقد نسجتُ حكايةً لأمي ستسرُّ كليكما.. إنه لأمر ممتع لك أن ترى أي انطباع تتركه القاهرة! إنني أركب حماري الشجاع الذي يقوده حسن قويُّ البِنية ومعي عُمر ويقولان دائمًا "أوه.. لو أن سيدنا هنا.. كم سيكون مسرورًا!".. إن "الزوج" ليست الكلمة الصحيحة.

ذهبتُ إلى المقابر أمس.. مندهشة للغاية لأن عمر كان قد شاهد هدم ستةٍ وثمانين -أو نحوها- من أكثر المباني روعةً.. أضرحة وجوامع الخلفاء العرب التي اعتاد سعيد باشا أن يُلهي نفسه بالقصف عليها أثناء تدريب سلاح المدفعية، عمر كان ذلك الوقت في فيلق الهجانة للمدفعية ثم سُرِّحَ منه، وهكذا أضاف سعيد باشا الهمجية إلى استهتار هو تدنيس المحرمات.

الشوارع والجيران يمكن أن يُسَلُّوكَ، يعيش مقابلًا لمنزلي دبَّاغٌ مسيحي هو الأخ السابع للحلاق المحبوب، فيه شيء من الثرثرة الوقحة وحُبِّ التدخلِ في أعمال كلِّ شخص؛ أتوق لرؤيته مضروبًا بالسوط رغم أنه كوميدي الأفعال دائمًا، خادمي المبهج عمر أبو الحلاوة -عائلته من صناع الفطائر والحلوى- هو نموذج لكل أبطال القصة المحبوبين، لدي فكرة خاصة عنه.. إنه حسن بدر الدين في "ألف ليلة وليلة" كما أنه يستطيع عمل تورتة الكريمة التي بلا فلفل! تورتة الكريمة ليست جيدة جدًّا لكن لحم الخروف المحشي بالفستق يحقق أجمل حلم للواحد. المصريون الذين يسكنون البيت الملاصق لي والشاميُّون في المقابل لهم هادئون جدًّا.. لكن كيف يأكلون كل كميات الخيار التي يشترونها من الرجل الذي يصيح عليها كل صباح كفاكهة "جمعَتْهَا البنات

الجميلات في الحديقة مبكرًا مع ندى الصباح".
بقدرِ ما أرى في الأحياء الفقيرة بالقاهرة.. قَدرُ حبي لها. إن أقدم المدن الأوروبية أليفة وعادية في المقارنة، والناس هنا يسرُّونك جدًّا، إذا ابتسمتَ لأي شيء قد سرَّكَ تقابَلُ بابتسامات رقيقة بارقة.. إنهم يعطون الطمأنينة بوجوههم، وإذا ما استطعتُ أن أتفوَّهَ بكلماتٍ قليلةٍ.. فـ"ما شاء الله! يا سلام على اللغة العربية اللي بتقولها الست الإنجليزية"! المصريون أذكياءٌ بما يكفي لفهم سرور الغريب وإيصاله إليه ويُسَرُّونَ بالمقابل، وهم متواضعون إلى درجة الروعة.. بينما عمر يشرح لي رؤيتهم لأمور عديدة يضيف "المصريون يعتقدون هكذا أيضًا.. ولا أعرف هل هذا صحيح أم لا"، والإتقان الذي يتعامل به التجار المصريون مع التلغراف الكهربي وشوق الفلاحين للمحاريث البخارية غير عادية! إنهم مَهَرَةٌ تمامًا.. وأطفال "حلوين" يُسَرُّون بسهولة.. وبسهولة يقعون في الغضب الذي يستمر خمسَ دقائق ولا يترك أي ضغينة، والكذب والخداع الذي يُتَّهمون به أتى من سوء الفهم والجهل. حين استأجرتُ عُمرَ أول مرة كان يعتقد أن عشرة أو عشرين جنيهًا لا تعني شيئًا لسيدة في قدري، لكن حين أخبرته بأن "سيدي" بيك يحصل على مائة جنيه في الشهر ولا يوجد بقشيش.. صار مهتمًّا بي كما لو كان يهتم بنفسه. إنهم يعتقدون أننا نأتي هنا لنفعل ما يفعله الباشوات الكبار.. نستأجر قاربًا لأنفسنا ومن ثم يعتقدون أن ثرواتنا لا حدود لها. الكذب يأتي معظمه من الخوف، إنهم لا يجرؤون على اقتراح فكرة مخالفة للأوروبي، ويكذبون ليخرجوا من الحُفَر التي وضعَتْهُم فيها طاعتُهُم العمياء. أما بالنسبة إلى أسعار البضائع في المحلات.. فالمساومة والفصال فيها عادة ثابتة، ويمكنك إنفاق الكثير بِطِيب خاطر والمشتري هو من يقترح السعر بينما البائع هو من يحدد الرواتبَ للعاملين لديه.. عكس أوروبا، وبشكل عام لو سألت عن سعر أي سلعة فالباعة سيقولون لك سعرًا عشوائيًّا وخياليًّا.
أتمنى أن أعود إلى الوطن الشهرَ القادمَ فالحَرُّ يتقدم بسرعة

هنا ويبدو أن الدفء سيكون كافيًا في إنجلترا، إنني أشتاق كثيرًا إلى رؤية الأطفال مرة ثانية.

-17-

إلى شارلوت أوستن[33]

31 مايو 1863

أتمنى أن أسافر إلى الوطن في الشهر القادم حين تصبح حارة جدًّا هنا بينما تكون دافئة بما يكفي في إنجلترا، يقترح أليك عليَّ أن أمضي هذا الصيف في أي مكان في أوروبا لكن لا أعرف أين، وخوفي كبير مما رأيت في الخريف الماضي من قذارة في جنوب فرنسا ظل معي في زيارتي السريعة لإيطاليا، قياسا على جمال القاهرة الذي لا توجد كلمة لوصفه.. ربما توجد بالتأكيد مبانٍ جميلة في مكان آخر لكن ليس هناك مثل القاهرة. تعدد كبير واختلاف في مدينة صغيرة.

-18-

إلى جين أوستن

1 أكتوبر 1863

أمي الحبيبة..

وجدت الناس غاضبين جدًّا في فرنسا مما يحدث ضد عمال السخرة في مصر ويرجعون ذلك كله إلى مؤامرة إنجليزية ضد قناة السويس.. الحرية.. الإخاء.. المساواة، يجب أن يرتفع صوتها على الكرباج الذي ينزل على ظهور الفلاحين! قلت لرجل فرنسي إني هكذا أكون متآمرة كبيرة إذا كان هذا تصوره عن المؤامرة. إنهم مقتنعون بأن حمل الأرض في سلال إلى السادة الفرنسيين هو التحضر! فكرة مضحكة.

أنا بشكل عام في حال جيدة لكن في "كاليه" سعلتُ كثيرًا بقوة بسبب السل وكنت في أسوأ حالاتي. لا أستطيع القول إنَّ لديَّ أفكارًا كثيرة عن العلاج لكن في حالتي فالأفضل أن أفعل أقصى ما أستطيع لأقلل الألم وأعتقد أن هذا أقل مما يريده أليك الذي يريد عودتي إلى البيت حين أصبح في حال جيدة ولدي فرص للشفاء. مؤلم وليس طيبًا أن تضعي الآخرين أمام المشهد المتعب للمرض الذي طال والموت الذي يجب أن يأتي. مثل هذا الغياب سيكسر عنف الألم ونحن نعرف أن كل ما يجب فعله يمكن فعله.

يا له من طقس! نحن نغرق هنا. ماذا سيكون في نهر الرون! الفيضانات تبدو طبيعةً ونظام النيل الأب العجوز وكل الأنهار. كم كان لطيفًا خطاب جانيت منذ عشرة أيام، إنها تقوم بعملها بامتياز. كتبت إليها أن تقول إني قادمة يوم الاثنين على القارب ومن ثم يقابلنا عمر ويأتي بالحمالين ليحملوا حقائبنا. هنا شتاء الآن.. هادئ وليس باردًا ولا رطبًا جدًّا.

-19-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الإسكندرية - 19 أكتوبر 1863

أَلِيك الحبيب..

أمضينا رحلة بائسة؛ مناخ طيب لكن ضوضاء في المركب، مخاوف وسط الطريق، الجوع، والاختناق، والقذارة، والبذاءة عالية ومنخفضة على متن السفينة. الرجل المحترم الوحيد كان بربريًّا فقيرًا ذاهبًا إلى مكة.. كان قد وضع زوجته وعائلته في مرجل احتياطي على ظهر السفينة، رأيته يغسل أطفاله في الصباح. "أي رائحة سيئة!".. كانت هذه صيحة مشاهدين فرنسيين؛ إذا كان العربي يغتسل فهو خنزير قذر.. لا دهشة! رجل لذيذ كان يجلس جواري على سطح السفينة وحين صارت الشمس حولنا زأر من بين أسنانه "هناك كومة شاذة من الظلال بالرغم من أن الشمس تحيطني"، تلخيص جيد للسياسات الفرنسية .. هكذا يبدو لي.

حسنًا.. عند الوصول ظهيرةَ يوم الجمعة فَرِحَ الجميع لي وأنا أرى جانيت في قارب تبدو منتعشةً ولامعةً وسعيدةً أكثر مما تبدو دائمًا، كان واضحًا أن حرارة الجو لم تؤذها بالمرة، فرحة عُمَرَ كانت كبيرة؛ كان قد تلقى عرضًا للعمل كمبعوث بالبريد إلى السويس والعودة بـ60 جنيهًا في العام، وأيضًا أخوه كان يريده ليعمل لدى الليدي هربرت أوف ليا Lady Herbert of Lea زوجة الحاج علي الذي وعد بدفع مبلغ كبير، لكن عمر قال إنه لا يستطيع أن يتركني.. "أشكرُ الله أنه أعطاني إياها لأعتني بها.. كيف إذن أتركها إذا صارت مريضة أو فقيرة؟ لا أستطيع أن أواجه ربي إذا فعلتُ شيئًا سيئًا مثل هذا".

إنني ذاهبة إلى منزل الحاج علي اليوم لأرى طفله والحاجَّة

"هنا" التي وصلت من القاهرة.

لقد ذهب عُمَرُ ليحاول إحضار "دهبية" لتصعد النيل، لأني سمعت أن نصف الرحلة بالسكة الحديد.. والنصف الثاني بالسفن البخارية غير مريح للغاية ومتعب، ولأن مشهد فيضان النيل الكبير -الذي يقال إنه جذاب- سيغطي الأرض كلها ويخفي ثمانية أميال من الخطوط الحديدية. عمر يقبِّلُ يدكَ ومبتهج بـ"المطواة" التي أرسلتها إليه ومبتهج أكثر لأن عائلتي تعرف اسمه وراضية عنه.

لا أستطيع العيش في منزل ثاير، لأنه -كنوع من التمديُن- يترك جماعة من النساء الفرنسيات والوالاشيات[34] في الدور الأول ليُعلِّموا المصريين الجهلاء الشراب ولعب الورق وأشياء سيئة أخرى، ومن ثم سأستشير الحاجَّة "هَنَا" اليوم ربما تعرف منزلًا فارغًا وتفرشه لي، زينب نشطة جدًّا وذكية جدًّا لكنها أقل شجاعة مما تريده الخادماتُ هُنَا مِن جَعْلِها مسيحيةَ السلوكِ.. فيأخذونَها دون نقاب إلى الخارج ويتركونها بين الرجال. على أي حال هي مؤثرة جدًّا في العواطف دائمًا وسعيدة باقتراح الذهاب معي، أعَدْتُ لها النقاب وسالي أوقفت كلامها ووبَّخَت إيلين لأنها تريد الزينة مما أدهش الأخيرة. كان لجانيت صبي نوبي لطيف.. أوه يا عزيزي! كم بَدَا عمر رجلًا أنيقًا وراء الجنتلمان الفرنسي، وكم كانت نبيلةً أُبُوَّةُ هاميس -خميس- العجوز -بواب جانيت- وتستحق التقدير! إنها راحة كبيرة أن تعيش في أمة من شعب أصيل وأن تواجه الطِّيبَةَ بعد المدنية المتوحشة لفرنسا.

الثلاثاء 20 أكتوبر

حصل عمر على قاربٍ نظيرَ 13 جنيهًا، وهو مبلغ ليس أكبر من تكلفة السكة الحديد، وستكون نصف الرحلة على السفينة والبقية على الحمير أو الأقدام. الحاجة "هَنَا" المسكينة تريد السفر وسآخذُها معي في المركب، ساعتان ونصف من التعذيب للجلوس تحت الظهيرة على الشاطئ، ومسيرة ميلين مشيًا حاملةً حقيبتَهَا أمرٌ صعبٌ على امرأة عجوز سمينة. كل شيء

كان مضاعفًا في السعر بسبب موت الماشية وارتفاع النيل، إن فيضان هذا العام لم يُعرَف من قبل؛ سيكون مشهدًا عظيمًا لكنَّ دمارَ المحاصيل -وأيضًا مخزون العام الماضي من القمح والفول- أمرٌ مخيف.

نحن نبحر بين النخيل وحقول القطن الذي بدأ في الظهور، إسماعيل باشا نشطٌ جدًّا لكن مع الأسف "عينه وحشة".. ووقعت مصائبُ كثيرةٌ -تساوي ما حدث تحت حكم الفراعنة كلِّهم- في عصر إسماعيل القصير، موتُ الماشيةِ مخيفٌ وهو يبدأ الآن في القاهرة والصعيد. لقد عرف روس الخسارة بنحو اثني عشر مليونًا من الجنيهات الإسترلينية في الماشية وفي الغزلان كذلك في الصحراء، لكن لم يحدث ذلك في الخيل ولا الحمير ولا الماعز.

-20-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الإسكندرية - 26 أكتوبر 1863

أَلِيك الحبيب..

ذهبتُ يومًا إلى اثنتين من الحريم مع ولد صغير يملكه مصطفى أغا وكنت مسرورةً جدًّا، سيدة تركية رائعة ارتدت أفخر ثيابها ونظمت فرشها الرائع من أجلي وكانت محبوبة جدًّا، على الناحية الأخرى سيدة مصرية رائعة لها سلوك سيدة عظيمة ارتدت قماشًا من القطن الأبيض ووجهُهَا كان طبيعيًّا.. استقبلتني استقبالًا فخمًا، منزلها يجعلك بدائيًّا.. فالقرميد المطلي بالميناء يغطي خطوط الحوائط وكلها مقسمة بالخشب المنحوت، والحوائط المحفورة واللوحات كلها قديمة ورَغْمَ قِدَمِها فهي عظيمة والسيدة جديرة بالمنزل. تقدمت جارية معجبة لها عينان متوحشتان ومعها طفل وأُمرَتْ بإحضار القهوة بهدوء وتشجيع مهذَّب.. إن سيدةً من سيداتنا العظيمات لا تستطيع أن تدخل في منافسةِ المقارنةِ معهما لأنها تفعل ذلك بخشونة، إن ازدراءَ العرب ذوي الوجوهِ الشاحبة والشعرِ الأسود كامنٌ وراء سلوك الإنجليز. بعد ذلك كان مَرَحًا فتْحُ النافذةِ الخشبية وأن يتركوني أنظر إلى الخارج.. إلى الميدان، ولأتعجبَ مما يقوله الجيران عن وجهي عند رؤيتي وعن قبعتي الأوروبية. لقد سألَتْ المرأةُ عن أطفالي وبارِكَتْهُم كثيرًا وبتكرار، وأمسكَتْ بيديَّ برقَّةٍ وهي تفعل ذلك خوفًا من أن أكونَ قد اعتبرتُها حَسُودًا وأخشى عينيها.. فهي بلا أطفال.

الثلاثاء

البريد سيذهب غدًا ومصابةٌ بالبرد مما يجعلني أبقى في السرير ولا أستطيع أن أكتب كثيرًا، أذهب يوم الخميس إلى منزل تابع

لمصرف بريجز. من فضلكَ اكتُب لي إلى القاهرة.. أنا وسالي معًا لسنا بخير ومشتاقَتان إلى السفر أعلى النيل.. لا أستطيع أن أكتب أكثر.

-21-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

كَفْر الزيات

31 أكتوبر 1863

أَلِيك الحبيب..

غادرنا الإسكندرية يوم الخميس قرب الظهيرة، وأبحرنا مع ريح عادية عبر ترعة قنال المحمودية، طفا مركبي الصغير مثل طائر ورجالي كانوا مجموعة أساسية من البحارة الشجعان والمعتنين بعملهم، لديَّ فقط سبعةٌ لكنهم يعملون جيدًا وعند الحاجة يترك عمر الأواني والمَقَالي ويمسك بالحبال ويدير السارية برجولة. أبحرنا طَوال الليل وعبرنا الهويس في العطفة أمس عند الساعة الرابعة، وتمت تحيَّتُنا من قِبَل النيل العجوز الذي ينحدر هادرًا مثل سَيْلٍ.. النهر رائع، "ارتفعَ بطول سبعة رجال زيادةً على ارتفاعه المعتاد" يقول الريس. ولذلك فاض من قِمَّتِه منحدرًا على الجانبين خمسةَ أو ستةَ أقدامٍ.. تاركًا مشهدًا حزينًا من الخراب على الضفتَيْن، رَغم ذلك.. ما يأخذه النيل يعيده ثلاثة أضعاف.. هكذا يقولون. النساء الآن في العمل يُعِدْنَ بناء أكواخهم الطينية والرجال يصلحون الحواجز والسدود، حدَّثَني فرنسيٌّ أنه كان مرة على ظهر إحدى بواخر الباشا تحت قيادة مسيو ديليسِبس.. حيث مَرَّا بقرية غارقة.. فيها يقف نحو مائتين على أسطح منازلهم يصرخون للمساعدة! هل لكَ.. أو هل يمكن لك أن تتصور أنهم مرُّوا عليهم وتركوهم ليغرقوا؟ لا. لكن شاهد العيان جعلني أصدق وجود هذا الشر.

اليومَ كلَّه أبحرنا في طقس رائق السماءُ فيه جميلةٌ جدًّا، عند انحناء النهر الآن ونحن في معركة كبيرة للدوران وتورَّطنا في الاصطدام بمركب يحمل خشبًا. ثار طاقمي وصارت ثورة عنيفة

وكان عليَّ أن أطلبَ بحدة إلى كل شخص أن يصلي على النبي محمد. ثم كاد المركب يقذف بالرجال إلى النهر ومن ثم راحوا يرتفعون ويقاومون رافعين أجسامهم في الطين والماء، ورفع عمر المجداف صائحًا "سالمة يا سلامة" مما منح روحًا جديدة للملاحين البؤساء، ودُرنا بحماس وأمسكنا بالطريق في مهب الريح مرة أخرى، الآن علينا التوقف بسبب الليل وعلينا أن نعبر جسر السكة الحديد غدًا، السكة الحديد تحت مستوى الماء بسبب الفيضان من هنا إلى طنطا -ثمانية أميال- وفي بعض الأماكن أبعد من ذلك.

-22-

إلى السير أَليكساندر دوف جوردون

القاهرة

14 نوفمبر 1863

أَلِيك الحبيب..

أنا هنا أخيرًا في ركني القديم في منزل ثاير القنصل الأمريكي، بعد مفاوضات متعبة مع نائب القنصل الجديد الذي يمتلكه والذي اخترع قصة النساء بالدور الأرضي. لأسبوع كنت في منزل مصرف بريجز الرطب ومريضةً جدًّا لا أستطيع أن أكتب، في اللحظة التي وصلت فيها إلى القاهرة لازَمَني نزيفٌ ليومين، ورَغم ذلك ومن وقتها أنا أفضل. كنت حمقاءَ لأن أبقى أسبوعين في الإسكندرية، المرور تحت جسر السكة الحديد في طنطا -الذي يُفتَح مرة كل يومين- كان مثيرًا جدًّا وجميلًا، زحام من القوارب.. مائتان أو ثلاثمائة على الأقل، زيدان العجوز موَجِّهُ الدفة انزلقَ بمركبي الصغير بين مقدمات القوارب الكبيرة وعبر البوابات قبل أن تنفتحَ كاملةً ورأينا الاندفاع والفوضى خلفنا وأخذنا سرعتنا القصوى لعدة أميالٍ سابقينَ غيرَنَا، ثم جَنَحَ المركب فغضب زيدان لكننا تخلصنا من الموقف في ساعة، ومرة ثانية تجاوزنا كل المراكب التي سبقتنا، ثم شاهدنا مشهد دمار القرى، كل القرى ضاعت.. غرقت في الماء وذابت.. طينٌ على طينٍ صارَتْ، والناس مع حيواناتها عسكَرُوا على نقاط من الرمال أو على مرتفعات في طوابير طويلة أو في خيام صُنِعَت على عَجَلٍ مهلهلة، بينما نبحر نحن فوق ما كانوا يعيشون فيه وغرق وذاب. القطن تعفن في كل اتجاه والقمم الجافة تطقطق وتتكسر تحت مجاديف المراكب، حين وقفنا لشراء لبن تعجبت المرأة الفقيرة "لبن! من أين؟ هل تريدونه من ثديَيْ؟"، ورغم ذلك أخذت آنيتنا وذهبت للحصول على بعض اللبن لنا من عائلة أخرى. لا أحد يرفض أن يبيع اللبن

إذا كان لديه قطرة متبقية لأن الجميع يؤمنون بأن طاعون الماشية قد حلَّ كعقاب على المعاملة السيئة للغرباء.. ذنب من هذا؟ لا أحد يعرِف، وهم لا يحددون السعر أو يأخذون أكثر من السعر القديم رَغم أن سعر كل شيء قد تضاعف.

إن هديةً لم تسبب سرورًا مثل سوار مدام دي ليو الذي قدمتُهُ لها؛ دي ليو فاض بالشكر لكوني تذكرت الوقت الضائع وهو يتابعني في مرضي ويأتي إليَّ ثلاث مرات في اليوم، إنه يعتقد أنني أتحسن وينصحني بأن أبقى هنا حتى يبرد الجو، خادم مستر ثاير قام ببعض حيل النصب الشرقية وهو يبيع الحماية الأمريكية للحكومة المصرية، وشاهدتُ وجهًا مثيرًا للحياة الشرقية.. حين رآهُ عمر في منزلي ذهب وأمره بالخروج، كنت مريضة في السرير ولا أعرف شيئًا حتى تم ذلك. حين سألت عمر كيف فعل ذلك أخبرني بأن أكون مهذبة معه إذا كنت رأيته، لأنه ليس من عملي أن أعرف ماذا فعل.. فهذا عمله هو.. عمر. في الوقت نفسه أرسل خادم مستر ثاير له برقية سخيفة يطلب فيها طردنا، هكذا يكون الانتقام من قِبَل الغشاش هنا.

الخدم يعرفونكَ ويجعلونكَ تشعر بهذا.. كنت مذهولة لما فعل عمر الذي هو مبجل عندي وعند عائلة روس، وهو من أبتهجُ به أمام كل أوروبي وهو يأخذ في حديثه إيقاع الجنتلمان. إن هذا برهان طازج على الشعور بالمساواة الحقيقية بين الرجال التي تكمن في قاع عدم المساواة الكبير.

رأى هكيكيان بيك باشا تركيًّا يتم ضربه على ساقيه بواسطة خدمه الذين كانوا مدركين أفعاله السيئة.

في النهاية، يومَ الخميس حصلنا على مفاتيح البيت وجاء عمر ومعه "فرشتان" وأزاح النسيج الحريري القذر ونظفه ونقَّاه، وفي يوم الجمعة بعد الظهر -أمس- دخلنا البيت.

زينب جيدة جدًّا دائمًا بيننا وقريبًا جدًّا ستكون الترجمان لأنها تتعلم العربية من عمر والإنجليزية منا بسرعة، في منزل جانيت سمعَتْ قليلًا من اللغة الفرنسية ومن اليونانية والإيطالية والنوبية

والإنجليزية، لقد سألتني كيف البنت "البيكولو"؟ البنت الصغيرة -بالإيطالية- مثال جميل للإسكندرانية. روس هنا وسيتعشى معي الليلة قبل السفر بالقطار السريع الذي يتيحه له إسماعيل باشا.

يوم الخميس ذهبتُ إلى العباسية وقابلتُ طلاب المدارس ذاهبين إلى بيوتهم لإجازة الجمعة.. أي مشهد جميل! الأتراك الصغار فوق خيول مهيبة ذات سروج من القطيفة واثنان أو ثلاثة من السُّوَّاس يجْرُون أمامَها.. بينما التلاميذ المصريون يركب البعض منهم -عن طريق آبائهم الفخورين بهم- فوق حمير أنيقة، والبعض أتى بهم خدمُهم الثِّقاةُ على الأقدام.. والبعض تركب أمهاتهم الفقيرة على حمير بائسة منفرجاتِ السيقانِ واضعاتٍ أبناءَهُنَّ المحبوبين أمامهن، اثنان أو ثلاثة منهمٍ على الحمار الواحد وحشود تسير على الأقدام، كانوا جمعًا من الوجوه المحببة يرتدون كلهم ملابس أوروبية بيضاء وطرابيش حمراء.

الليلة السابقة كان أمامنا حفل زواج، شاب جميل في حجم موريس أو أقل قليلًا، إلى جانبيه صديقان في حجمه يرتديان مثله رداء قرمزيًّا وعمامة. ومحاطون بالرجال يحملون الشموع ويغنون الأغاني وتسبقهم المشاعل المتألقة، أخذ العريس يتقدم إلى الأمام ببطء شديد ورقَّةٍ ويبدو خجولًا جدًّا وجميلًا.

سائق حماري -حسن البائس- مريض وأخشى أن يكون مريضًا جدًّا، أتى أبوه بالحمار من أجلي وصار يمسح عينيه بكمِّه ويتنهد بعمق "يا حسن يا مسكين.. يا حسن يا ابني!".. ثم في إيقاع مستسلم "الله كريم". سأذهب وآخذ الطبيب لزيارته هذا الصباح ليفحصه بالقوة كما يقول عمر إذا كان في حالة سيئة، هؤلاء الناس يوجعون القلب في المرض من شعورهم بالألم بلا مساعدة.

الأحد:

أخبرنا أبو حسن بأن ابنه صار في حالة جيدة جدًّا فلم أجد حاجة إلى زيارته، لديَّ أشياء كثيرة عليَّ أن أفعلها وعمر مشغول جدًّا

بطهو وليمة فخمة لأن روس سيتعشى معي. الطقس رائع مثل الذي نعرفه في بورتسماوث في الصيف.. لكن كان هناك قدْرٌ كبيرٌ من المرض وأخاف أن يزداد بسبب دفن الناس ماشيتهم النافقة في بيوتهم داخل المدينة، دفنُ الواحدةِ منها خارج المدينة يكلف مائة "جِرش". الأيدي العاملة نادرة والطعام غالٍ والشوارع قذرة ومن الصعب الحصول على المياه؛ السقَّا الخاص بي يأتي بلا انتظام ويقدم معروفًا لأنه يمدنا بالمياه! كل هذا له أثره السيئ على الفقراء، كان لَدَي زوجة هكيكيان سبعون رأسًا من الماشية في مزرعتها نجا ثورٌ بائسٌ منها وواحدٌ من سبعة رؤوس كانت للتزوِّد بالماء في القاهرة.. ومن المتوقع أن يموت كلاهما.

الحاج علي كان هنا وعرض عليَّ خيامه إذا قمتُ بالصعود جنوبًا إلى طيبة ولا أعيش في قارب ومن ثمَّ لا أحتاج إلى منزل هناك، إنه متزوج بالسيدة هربرت أوف ليا.. ولذا لن يذهب إلى سوريا هذا العام.. وكل خيامه متوفرة، كنت فرحةً أني سأكون مرتاحةً جدًّا بين مقابر الملوك أو في وادي العساسيف ومعي خيام جيدة، إن الجو ليس باردًا أبدًا بين تلال طيبة، على العكس.. في الجانب المشمس من الوادي أنت تُحرَقُ مذهولًا بالحرارة في يناير وفي الظلال يكون الجو سماويًّا جميلًا. أي رغبة عندي في أن تأتي أيضًا وكم ستستمتع بالمكان! إنني أحب التغيير من حياة القارب إلى الحياة البدوية، مع خرافي ودجاجي وحصاني قريبين من الخيمة، وثمن ذلك عربون قليل.. والأكثر من ذلك ستكون أرخص كثيرًا.

-23-

إلى السيدة أوستِن

القاهرة - 21 نوفمبر 1863

أمي الحبيبة..

سوف أظل هنا حتى تصبح أكثر برودة ثم أغادر إلى أعالي النيل في مركب بخاري أو عادي.. الأب العجوز لحسن -سائس حماري- قدم لي صورة جميلة لشعور المصريين تجاه النساء، سألتُهُ ما إذا كان عبد القادر[35] يأتي إلى هنا كما سمعتُ، لكنه لم يعرف وسألني "هل هو أخو البنات؟".. أجبت بملل "لا أعرف ما إذا كان له أخوات أم لا"، قال "إن العرب يا سيدتي يسمون الرجل "أخو البنات" إذا ما أعطاه الله قلبًا نقيًّا ليحب كل النساء كأخواته، ويكون قويًّا وشجاعًا في الدفاع عنهن لحمايتهن".

اقترح عمر تعبير "جنتلمان" كعلامة على أبو حسن. أعتقد أن الهراء الأوروبي الذي نقوله عن ابتسامات المحبة.. إلخ. ضئيلٌ جدًّا إلى جانب تعبير "أخو البنات"، أكثر من ذلك أنهم يحققون هذا المعنى في الحياة العامة.

حدثني عمر عن بعض المعاناة العائلية الصغيرة موضحًا أنه لا يخضع لزوجته، فزوجته تريد كل أمواله. سألتُه كم لديها من ثروة -لأني عرفت أن لديها أملاكا- فقال "أوه مدام.. لا أستطيع التحدث عن ذلك. عار عليَّ إذا سألتُ زوجتي عما تحصل عليه من الأموال"، وحكى لي كيف أن رجلًا تزوج في الإسكندرية وأخذ معه حاجاته اليومية للأسبوع الأول.. بعد ذلك أهمل البيت ليومين وعاد إلى البيت بليمونة في يده.. سأل عن الغداء فقامت زوجته بتجهيز المنضدة بالمفرش وقطعت الليمونة إلى أرباع! سألها "حسنًا.. أين العشاء؟" أجابت "عشاء! تريد عشاءً؟ من أين؟ أي رجل أنت لتريد النساء ولا تحافظ عليهن؟ سأذهب إلى القاضي ليطلقني منك" وفعَلَتْهَا. على الرجل هنا أن يُمِدَّ حريمه بكل

الضرورات وإذا اكتسبَتْ الزوجة أي نقود خاصة بها تنفقها في الملابس، وإذا صنعَتْ له طاقية أو منديلًا عليه أن يدفع لها قيمة عملها، ليس كل شيء جميلًا لهؤلاء الطغاة الشرقيين.. ولن أتحدث عن الرُخَصِ الواسعة في إطلاق اللسان المسموح به للمرأة أو الأطفال، زينب متغطرسة مع عمر ولا أستطيع أن أقنعه بإيقافها عند حدها.. "كيف أقول أي شيء لها! إنها طفلة". طبعا.. فالأطفال غير محتملين وأنا أحب النساء أكثر.

جارٌ فقير لي فَقَد ابنه الصغير أمس، وخرج إلى الشوارع كالعادة متأثرًا يطلب العطف. وقف أسفل نافذتي يميل برأسه على الحائط وينتحب ويبكي حتى بللت دموعه التراب.. كان يجفف دموعه بأطراف عِمامته ويستمر في النحيب ثم يشبك يديه ويبكي "يا وِلد.. يا وِلد.. ياوِلد.. يا وِلد"؛ بائع الفول أمامه أغلقَ دكانه والدباغ لم يهتم بل ظل يدخن "البايب". بعض الناس كانوا يمرون لكن الكثيرين توقفوا يُحيطون بالرجل البائس.. لا يقولون شيئًا لكن ينظرون مهتمين، قبطيان في ملابس أنيقة على حمارين رشيقين هما اللذان ترجَّلَا.. والكل انتظروا حتى يعود إلى البيت حين قام نحو عشرين من الرجال لاصطحابه متأثرين. كم هو غريب لنا الخروج إلى الشارع ومناداة المارين أن يحزنوا مع شخص ما!

كنت في منزل هكيكيان بيك اليوم التالي حين استقبل طردًا من عَبدِه السابق الذي صار الآن رجلَ السلطان الخصيّ، كان يحتوي صورة جميلة جدًّا للخصيِّ الذي رغم أن وجهَهُ وجَهُ زنجيٍّ.. يبدو ذكيًّا جدًّا ومبهجَ التعبير، وهديةً من كتب إنجليزية مصورةٍ وبعضَ المقطوعات الموسيقية -أسطوانات- من تلحين السلطان عبد العزيز نفسه.. أوه.. الكثير من الألحان وواحدة منها كانت "فالس".

كلب بشع من أكثر الكلاب قبحًا وأكبرها حجمًا.. من الشارع تبنَّاني -مثل الأيرلندي الذي كتب إلى لورد لانسداون أنه اختاره ليكون راعيه- وكان يحرس البيت ويتبعني في الشارع، كان يفوز

ببقايا الطعام وسالي كلفتني قدحًا جديدًا من القصدير بتركِها الكلب يشرب من القدح القديم الذي كان يستخدم في غَرْف الماء من الجرَّة ناسيةً أن عمر وزينب لا يستطيعان الشرب بعد الكلب البائس.

الاثنين:

ذهبت أمس إلى ميناء القاهرة.. بولاق، لأرى حسنين أفندي عند القوارب، كان قد أبحر أعلى النيل وجلستُ مع زوجته -التركية الجميلة جدًّا التي تتحدث الإنجليزية بطلاقة- واستمعتُ إلى كل أنواع الحكايات المثيرة، استمعتُ إلى القصة الكاملة للزواج التَّعِس للِيلِي أخت مضيفتي، وكثير من النميمة عن القاهرة. ومثل كل السيدات الشرقيات اللاتي قابلتهن اشتكت مضيفتي عسرَ الهضم وقالت إنها تعرف أن عليها أن تخرج كثيرًا وتمشي لكن هذا ضد العادات والتقاليد هنا.

مستر ثاير القنصل العام الأمريكي سيعود إلى مصر في الخامس عشر من ديسمبر، ومن ثم يجب أن أرحل قربَ ذلك الوقت لأنه سيريد منزله هنا. الوقت الآن نقيٌّ قليلًا في الصباح مثل طقس الصيف الإنجليزي.

الثلاثاء:

منذ صرتُ هُنا.. انتهى سعالي تقريبًا وصرت بصحة جيدة لتناولي طعامًا جيدًا من جديد. يعمل عمر على الحصول على لحم ضأن جيد واكتشفتُ أن بعض أسماك النيل رائعة.. "البياضُ" الذي يبلغ طوله ستَّ أو ثمانيَ أقدامٍ وسمينٌ جدًّا ذو طعمٍ لذيذ، وأُخْبِرْتُ بأن هناك ما هو أحسن، ثعابين البحر لذيذة وجيدة أيضًا، موريس يمكن أن يصطاد البَيَاضَ ولكن كيف يصل به إلى حيث يقف أو يجلس؟ الأسوأ أن كل شيء تضاعف سعره على العام الماضي حتى إنه لم يعد ممكنًا أكل اللحوم بالمرة. الثيران التي ماتت في مراعيها جعلت العمل قليلًا أيضًا. كان النيل في أعاليه أحسن

حظّا مقارنةً بالطاعون البقري، هناك أسطورة عن ذلك بالطبع.. شيخ بلد في مكان ما -لم يُذكَر- فَقَدَ قطيعه وكونه غنيًّا تحدَّى الله.. قال إنه لا يكترث لما حدثَ واشترى غيرها الكثير، لكنها ماتت أيضًا وظلَّ متحديًا لله غيرَ صابرٍ واشترى غيرها.. حتى خرب حالُه، والآن هو يعمل في الأرض بجسمه كاملًا مثل الآخرين الذين يعملون بلا توقف كلَّ يومٍ صباحَ مساء. إنها الأساطير العربية.. مثلها مثل الأساطير الألمانية وهذا أمر مثير، كل تلك الأساطير التي حول فقدان القوت بوحشية تقريبًا متماهية، إذا كانت الكِسْرَةُ قذرة يعطيها عُمر بعناية للكلب، إذا كانت نظيفة يحتفظ بها في "جارور" لاستخدام قطع الخبز في عمل الفتَّة، لا تسقط قطعة على الأرض. في الأشياء الأخرى كانوا مهملين بما يكفي لكن المجلس العزيز Das lieb Brod كان مقدسًا كما في أقوال الأخوين جريم، دائمًا ما كان يصدمني التشابه مع العادات الألمانية.. زواج الفلاح مثل عرس المزارعين الألمان تمامًا، إطلاق الرصاص وعرض الأثاث المنزلي علي جَمَلٍ لا عربة، أحاول أن أجد مدرسًا للعربية لكن من الصعب جدًّا أن أجد واحدًا يعرف أي لغة أوروبية. مترجم القنصل طلب أربع دولارات للدرس الواحد؛ عليَّ أن أنتظر حتى أصل إلى طيبة حيث أعتقد أن سيِّدًا صغيرًا يمكن أن يعلمني. في نفس الوقت بدأت في فهم الكثير.. لكني أتكلم قليلًا العربية، من فضلك أرسل لي إلى مصرف برجس وشركاه في القاهرة فإذا غادرتُ من هناك سيتبعني الخطاب إلى النيل.

-24-

إلى السيدة روس

القاهرة - في 1 ديسمبر 1863

جانيت الحبيبة..

أحب كثيرًا أن أذهب مع ثاير -القنصل الأمريكي العام- إذا ناسبني وقته وناسبني الطقس، لكني لا أستطيع الانتظار إلى أجَلٍ غيرِ مُسَمًّى فما يزال هناك وقت للإبحار في النهر قبل نهاية أبريل. جميلٌ أن الباشا سيعطيه مركبًا، الجو باردٌ هنا وأشعر بالتهاب في حَلْقي اليوم، ذهبت أمس لأرى حسن ووجدتُه أفضلَ لكنه شاحبٌ جدًّا وضعيف، إنها حقًّا عائلة جميلة، الأب العجوز والأم والأخت.. كلهم مهذبون ويسُرُّون الشخص مثل حسن نفسه. إنه يصيح حين يسمع بقدومِك ومشتاقٌ جدًّا إلى رؤيتِكَ حين تأتي إلى هنا، زينب بعدَ عملها جيدًا جدًّا لثلاثة أسابيع عادت لتبدو غاضبة تمامًا وتبرز كثيرًا من اللا تسامح الديني. بدا كأن الرجال البربر -السُّود- قد وضعوا في رأسها أننا كائناتٌ ناقصة، ومن ثم تتظاهر بأنها غير قادرة على الأكل لأنها تعتقد أن كل شيء من لحم الخنزير. تناوُلُ عمر للطعام لا يقنعها.. وبما إنها لا تحبنا بوضوح سوف أقدمها إلى مدام هكيكيان بك. وإذا فعلَتْ ذلك هناك.. في منزل من العبيد السود، فسوف يرسلونها إلى منزلٍ تركي. إنها ماهرة جدًّا وأنا آسفة لكن أن أحتفظ بوجه غاضب حولي أمر أكبر من أن أتحمله، خاصة أنني أعاملها بكل رقة ممكنة. أعتقد أنها تحتقر عمر لمشاعره نحوي، ما أسهل أن تغرس الجانب السيئ من الدِّين.. أسهل من غرس الجانب الحسن، إنها ظاهرة مثيرة حقًّا أن يحدث هذا لطفلة صغيرة، إنها تنتظر بثبات عند المنضدة ويمكن أن تفعل أشياء كثيرة لكنها لا تتحرك لعمل شيء -من فرط دهشتها- إلَّا إذا أُمِرَتْ لتخرج إلى

الباحة. الحياة غير واضحة ومملة عند الطفلة وآعتقد آنها ستكون أسعد في منزل أكبر وأكثر أصالة.
هل أستطيع أن أغامر بالسفرأعلى النيل مع مثل هذا الفاتنِ عزيزِنا مستر ثاير؟ ما رأيكِ؟ هل الشعرُ الرماديُّ جدًّا على جانِبَيْ رأسي والرئتان المرهقتان تضمن فضيلتنا العالمية أم سيطلب شخص ما إلى "الأب" أن يطلقني؟ هل يكون معتبرًا أن يزخرف كابَهُ بقيادته سيدةً بريطانية متزوجة؟

-25-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

القاهرة - في 2 ديسمبر 1863

أَلِيك الحبيب..

لقد بدأ البرد هنا وأنتظر فقط نتائج البحث عن منازل ممكنة في طيبة[36] لأستأجر قاربًا وأرحل. أمس رأيتُ جَمَلًا يمرُّ من ثقب الإبرة -الباب المقوس السفلي المسيج، عليه أن يركع ويخفض رأسه ليمر منه- وهكذا فالرجل الغني سيذل نفسه، انظُر كيف الترجمة الزائفة تفسد الاستعارة الجيدة! وتُحوِّل البسمة الشائعة إلى جملة شائعة شرسة! أتوقع وصول هنري وجانيت إلى هنا في أربعة أو خمسة أيام، إذا حصلتُ علي منزل في طيبة سأستأجر قاربًا وأصعد النيل وأغادر وعندي أمل في الله بأن أعود. هناك إشاعات عن اضطرابات في مدينة جدة وتوقعات بقتال في مكان ما في الربيع القادم، حتى هنا.. الناس تشتري السلاح إلى حد كبير وأعتقد أن سوق بيع الأسلحة حي بشكل غير عادي، أتطلع إلى نوفمبر القادم ووصولك إلى هنا وأعرف أنك ستكون راكبًا الحمار طوال اليوم في بلد المتعة. لم أرَ قطُّ خادمًا جيدًا أو مخلوقًا جميلًا مثل عُمر الرائع جدًّا والباعث على السرور، حين أسمع وأرى ما ينفقه الآخرون في السفر والمعيشة وأي ارتباك يصيبهم أقول "لعل الله يرعى عمر وأحفاده".

لزمتُ السرير أمس بسبب البرد وجاري التاجر القبطي جعلني مستيقظة طوال الليل بسبب حديثه في فحص حساباته مع كاتبه المشرف علي أعماله، لقد اشترى كميات كبيرة من القطن، وأنا عليَّ أن أعود إلى بيتي يوم الاثنين فوق ظهر جمل.. الشارع مليء بالأذى.

-26-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

القاهرة - 17 ديسمبر 1863

أَلِيك الحبيب..

أخيرًا أتمنى الرحيل خلال أيام قليلة، لقد تأخرت وارتبكتُ مرة بعد أخرى، تقدمتُ مباشرة إلى القنصلية الفرنسية في الإسكندرية، أعطتني جانيت فرصة السكن بمنزل فرنسا في طيبة في الحال. مسيو مونييه -وكيل حليم باشا- ذاهبٌ إلى إسنا وسيعطيني الفرصة لأن أسافر في مركب بخاري يجر "ذهبيته". ستكون قذرة لكن ستكلفني القليل وتأخذني بعيدًا عن هذا البرد القاتل خلال خمسة أو ستة أيام.

ديسمبر 22

كتبتُ ما أعلاه منذ خمسة أيام، حين كان عليَّ تركُ بيت ثاير لأن القنصل المساعد الجديد يريده وأعود أنا إلى منزل مصرف بريجس.

مسيو مونييه ينتظر في ملل محموم للرحيل.. وأنا كذلك، لكن إسماعيل باشا يبقيه يومًا بعد يوم. إن القلق من الاعتماد على شخص في الشرق أمرٌ خارج العقل، أخبِر والدتَك بأن الليدي هيربرت قد أبحرت أعلى النيل بينما آثرَ ابنُها البقاء في القاهرة. رأيتُ بييترو مرافقها الضخم بشكل لافت للنظر، لقد قدم لعمر 8 جنيهات شهريًّا ليذهب معهم. ويمكن أن تتخيل كيف قلل بييترو من شأنه وعمر يفضل البقاء معي بثلاثة جنيهات، إن هذا رد مناسب لازدرائه العرب.

ستضحك حين تعرف أنني أشتري سجادة، رأيت تاجرًا عجوزًا ومعه واحدة على كتفه في السوق وسألت عن سعرها.. ثمانية جنيهات نابليونية. فردها التاجر على الأرض في الشارع أمام

المارة بشكل آزعجهم، بالضبط أمام مقهى. نظرت إليها بغطرسة وقلتُ "ثلاثمائة قرش يا عمي".. البائع العجوز صاح في يأس للرجال الجالسين خارج المقهى "أيها المسلمون.. اسمعوا هذا وانظروا إلى هذه السجادة الرائعة. ثلاثمائة قرش! والله إنها تساوي ألفين!"، لكن الرجال أخذوا صفي وقال أحدهم بلطف "مندهش لأن عجوزًا مثلك يخبرنا بأن هذه السيدة التي هي مسافرة وصاحبة خبرة قدرتها بثلاثمائة.. هل تعتقد أننا سنعطيك أكثر؟" ثم اقترح آخر أنه إذا دفعت السيدة أربعةَ نابليونات فالأفضل أن يأخذهم وهذا مناسب، كل واحد يعطي رأيًا هنا والسعر تَحدَّدَ بواسطة نوع من المحلفين المرتجلين.

يوم الكريسماس:

أخيرًا تأكد يوم رحيلي، سأذهب غدًا بعد الظهر إلى بولاق وسنبحر بمركب عادي أو بخاري يوم الأحد في الصباح الباكر، ومتوقَّع أن نصل إلى طيبة في ثمانية أيام. لقد سمعت توضيحًا غريبًا لسلوكيات المصريين اليوم، قابلتُ حسن -انكشاري أو حارس القنصلية الأمريكية- وهو رجل محترم وجيد جدًّا. أخبرني بأنه تزوج بامرأة أخرى العام الماضي.. وسألتُ لماذا؟.. إنها أرملة أخيه الذي كان يعيش معه في البيت نفسه والذي مات تاركًا ولدين، ليست صغيرة ولا أنيقة لكنه اعتبره واجبًا عليه أن يعينها هي والطفلين ولا يتركها تتزوج غريبًا. وهكذا ترى أن تعدد الزوجات ليس دائمًا رغبة جنسية وأن الرجل يمكن أن يقوم بتضحية شخصية كبيرة وهو يتحدث برقة عن أخواته أرامل إخوته. حسن يحصل على ثلاثة جنيهات في الشهر وله زوجتان وهو أمر مكلف، قلت ضاحكةً لعمر بعد أن تركناه "لا أظن أن زوجتين أمر مريح أبدًا"، قال "أوه لا! ليس مريحًا بالمرة للرجل، لكنه يعتني بالنساء وهذا هو المسلم الصحيح الصالح".

عليَّ أن أكون في صحبة أفندي تركي في رحلتي -مفوض إدارة الإيرادات الداخلية-ذاهب ليبحث تجميع الضرائب من الصعيد،

اندهشتُ كونه مدنيًّا، ذهبَتْ سالي مع بعض الوصيفات الإنجليزيات إلى شجرة العذراء، النزهة العظيمة في المرج للمسيحيين القاهريين، وفي الحقيقة للمسلمين أيضًا في بعض المواسم. ذهب عمر إلى "الخاتمة" للقرآن في بيت سائس حمار حسن، لقد طلبوا إليَّ الذهاب معهم لكنني خشيت جو الليل.

احتفال ديني كبير يجري الآن.. منتصف شهر رجب، ستة أسابيع قبل رمضان، الخوف في رمضان كما يؤكد عمر من الضعف والمرض، فكل شخص يعبر الخمسة أيام الأولى تقريبًا لتتعود معدته بعد ذلك وتكون تدربت على الجوع، السفن البخارية الجديدة للمسافرين وعدت أن تتحرك في السادس من الشهر لكنها الآن لن تتحرك إلا بعد السباقات في السادس أو السابع من الشهر القادم.. سباقات القاهرة خيالية! وتزيد برعب هنا وهناك، وهناك من يجب أن يذهب إلى تمبكتو أو يتخذ القطار إلى مكة ويحصل على تذاكر عودة لأن الحج من كل مناطق العالم.

إلى السيدة أوستِن

بولاق - من فوق قارب بخاري

27 ديسمبر 1863

أمي الحبيبة..

بعد تأخر وقلاقل لا تنتهي أصبحنا أخيرًا على ظهر السفينة وسنبحر صباح الغد، بعد أن صعد الجميع بارتياح أرسل إسماعيل باشا طالبًا كل المراكب البخارية جنوب الروضة بالقرب من المنيا وفي الوقت نفسه أصدر أمرًا إلى الجنرال التركي بأن يأتي في الحال بأي طريقة، ومن ثم كان على لطيف باشا قائد البواخر أن يخرجني من أفضل كابينة وأن آخذ إكراهًا الكابينة في مقدمة السفينة وإلا لن يسمح خدم الجنرال التركي لعمر بأن ينقل الحقائب. لقد انتظر لطيف باشا النهار كله يائسًا على الشاطئ لكنني في الساعة الرابعة وصلت وأمرت الحَمَّالين بأن يحملوا البضائع إلى الكابينة التي في المقدمة ومشيت على سطح السفينة بنفسي حيث قام القبطان المصري بتمثيل مضحك بوضعي بالإشارات في عينه اليمنى وعلى رأسه. أصبحت هادئة.. فهكذا تتم معاملة الحريم، ومن ثم أستطيع أن أتحدى الأفندي التركي بنجاح. حصلت على كابينة ذات حجم جيد بها مقاعد طويلة جيدة نظيفة من ثلاثة جوانب لسالي ولي. عمر سينام على ظهر السفينة ويقوم بالطهو حيث يستطيع. سيدة تركية فقيرة كان عليها أن تسكن في فتحة متربة إلى جانب غرفتي، إذا بدت لطيفة سأستقبلها بكرم. لم يكن هناك أثاث من أي نوع لكن فقط مقاعد طويلة وعلينا أن نطهو طعامنا ونحضر شموعنا وأباريقنا وأحواضنا وأسرِّتنا وكل شيء. إذا لم أكن أنا وسالي مصريتين كاملتين كنا سنقول إنها مأساة، ولكن كما

تجري الأشياء هذا العام نقول "الحمد لله.. لا ضرر"! من حسن الحظ كانت ليلة دافئة ومن ثم كان يمكن أن ننظم أشياءنا غير شاعرين بالبرد. لم يكن هناك باب للكابينة ومن ثم ثبتنا قماشة قديمة فلا يستطيع شخص أن يرى الحريم. هذا يكفي، كان وجود سيدة إنجليزية أمرًا جديدًا على كل من على سطح السفينة من المصريين -القبطان والمهندس والرجال- والقبطان ليس سعيدًا لأن الأشياء ليست "ألا فرانكا" حولي. يقول مسيو مونييه إن علينا أن نجر ثلاث ذهبيات.. واحدة ملك للمبعوث الدبلوماسي لسلطان دارفور وغيرها. كان على ثلاثة مراكب بخارية أن تفعل هذا لكن إسماعيل باشا كانت له هواية أخذ كل السفن، ومن ثم على مركبنا الصغير أن يفعل ما في وسعه لذلك. آمُرُ خيالي بأن تصدر الملكة أمرًا بإبحار كل المراكب البخارية إلى ويندسور مثلًا!

في المنيا تركنا الجنرال التركي وسيكون القارب لنا، هكذا أخبرني القبطان. عليّ الذهاب مع الرجال المحترمين من دارفور كما يمكن لك أن تفترض، انظُر أي جماعات غريبة من الناس تبحر فوق النيل القديم.. امرأتان إنجليزيتان.. امرأة فرنسية هي مدام مونييه.. رجل فرنسي.. أتراك.. مصريون.. زنوج.. شراكسة.. ورجال من دارفور، كلهم في حزمة واحدة. ربما يحتوي المركب الثالث عناصر أجنبية أخرى، أتراك من إسطنبول، لا يتحدثون العربية، ويغسلون وجوهم بماء النهر الطيني الذي أتصور أنه متجدد.

أتمنى أن أستقبل خطابات من البيت صباح الغد، حسن -سائس حماري- المخلص سيذهب إلى"البوستة" حين تفتح ويحضرها إلى بولاق.. ريني الحبيبة أرسلت لي كارت معايدة عليه عصفور الجنة للكريسماس. فظيع أنني أفتقد وجهها الصغير الجميل وحديثها! أنا أفضلُ كثيرًا الآن. فقط أشعر بأني أضعف من قبل وأتعب بسرعة. أرسلت إليك خطابًا طيبًا من مدام تاستو التي أرسلت ابنها ليعيرني المنزل في طيبة.

-28-

إلى السير أليكساندر دوف چوردون

على ظهر الباخرة قرب أسيوط

الأحد 3 يناير 1864

أَلِيك الحبيب..

غادرنا القاهرةَ صباح الأحد الماضي في صحبة رائعة مدهشة، كنت قد وُعِدتُ أن تُتْرَكَ لي الباخرة كلها لكن وفقًا لرغبة إسماعيل باشا فباخرتنا الصغيرة كان عليها أن تقوم بأعمالٍ ثلاثة.. أن تحمل المسافرين.. وأن تجر"دهبية" مسيو مونييه.. وأن تجر المركب النوبي القديم الصغير القذر الهش الذي قدم به الابن الصغير لسلطان دارفور ومبعوث السلطان الأسود الأنيق من دنقلة -ليس زنجيًّا- ليزورا إسماعيل باشا. الغرفة الأفضل كانت لباشا تركي عجوز أعور، ومن ثم كانت لي الغرفة في المقدمة ولحسن الحظ كانت واسعة حيث نمت مع سالي كلٌّ منا على ديوان -أريكة- ونام عمر تحت قدميَّ. لقد حاول النوم على سطح السفينة لكن أرناؤوط الباشا كانت صحبتهم سيئة ورجاني القبطان أن أغطي وجهي وأترك خادمي ينام تحت قدمي. كان هناك أيضًا أفندي تركي عجوز مصاب بالربو وهو محصل للضرائب، ونساء كثيرات في غرفة المحرك وأطفال أيضًا. كان يمكن أن يكون الأمر غير محتمل لكن لأدب القبطان المصري الذي هو بحار قديم.. وعنايته واهتمامه صارت الرحلة ممتعة.

في بني سويف، أول بلدة جنوب القاهرة -على بعد سبعين ميلًا- لم نجد فحمًا للسفينة؛ لقد مر الباشا وأخذه كله، ومن ثم مشينا ندق الأرض بأقدامنا في غيظ على ضفة النهر طوال اليوم متوقعين أن يظل الأمر كذلك لأسبوع.

أحضر القبطان صاحب السمو أمير دارفور ليزورني ورجاني

القبطان أن أخبره بسبب التأخير، فلأني إنجليزية لا بد من أن أعرف أن الباخرة لا يمكن أن تتحرك بلا فحم.

كان صاحب السمو أمير دارفور زنجيًّا أسود صغيرًا متكبرًا في حوالي الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمره، يرتدي قفطانًا حريريًّا أصفر وفوقه "بُرْنُس" قرمزي وقد قاطَع حديث القبطان العجوز الطيب قائلًا "لماذا! إنها امرأة.. إنها لا يجب أن تتحدث معي".. فصرخ القبطان الذي كاد يفقد اتزانه "والله! والله! هل هذه طريقة تتحدث بها إلى حرمة إنجليزية!"، وكاد القبطان يفقد أعصابه لولا أن كان لدي فكرة لطيفة فقدمت علبة بها حلوى فرنسية غيرت من وجهة نظر الأمير الصغير في الحال. سألته إن كان له إخوة.. فقال "من يستطيع أن يحصيهم! إنهم مثل الفئران"، ثم قال إن الباشا أعطاه فقط هدايا قليلة وكان واضحًا أنه لم يكن مسرورًا بذلك. بعض رجال حاشية الأمير لهم مظهر وحشي جدًّا، حشرات في شكل إنسان، كلاب ضالة وخنازير متوحشة، سُود كالحِبر لهم عيون حُمر. يا إلهي! وهكذا لغودهم ورقابهم وأسنانهم! والآخرون منهم مثل القرود مع أذرع تمتد حتى كعوبهم.

إن الأرناؤوط من الليريا -تقع في شبه جزيرة البلقان- على ظهر مركبنا بيض مقززين مثل السمك أو الناس الغرقى لا تَوَرُّدَ لجلدهم أبدًا. كان هناك أيضًا يونانيون تركونا في المنيا -ثاني مدينة كبيرة- والباشا العجوز غادرنا هذا الصباح في الروضة. في الحال أمر القبطان بنقل كل أمتعتي إلى الكابينة التي تركها الباشا العجوز وأخرج منها الأفندي التركي الذي يريد أن يقيم بها وينام معنا. لا خصوصية! قال الأفندي التركي إنه عجوز ومريض وصحبتي يمكن أن تخفف عنه.. ثم قال إنه شعر بالعار أمام الناس أن يتم إبعاده بسبب امرأة إنجليزية. كنت متحضرة ورجوته أن يمضي اليوم ويتغدى معي، لقد مر هذا بشكل حسن والآن بعد الغداء ذهب بهدوء مسرورًا إلى الكابينة الأولى التي كنت أشغلها وتركني هنا. أنا الآن في الكابينة الخلفية.. صالة واسعة وحجرة

جلوس هنا ومن ثم نحن في راحة بما يكفي.. فقط لولا البراغيث! حتى الآن لم أكن أعرف معنى "البراغيث" وما هي حتى زأر عمر وهو يتلوى في نومه وصرنا أنا وسالي ننهض كل عشر دقائق. ربما تكون هذ الكابينة أفضل فبعض البراغيث ربما استقرت في فراش الأتراك. إنني أرسل طبقًا من طعامي كل يوم إلى القبطان، وحيث إنني أخذت مكان الباشا فهذا جانب من اللياقة أن أفعل ذلك، وحيث إنني أشغل المطبخ وأشعل من فحم السفينة فعليَّ أن أدعَ القبطان يأكل قليلًا على نفقتي. في النهار أصعد وأجلس في غرفته أعلى السفينة ونتحدث بقدر ما نستطيع دون مترجم، الرجل العجوز في السابعة والستين لكنه يبدو لا يزيد على الخامسة والأربعين، له سلوك وحركة البحّار المألوف عندنا، ولقد تحطمت سفينته أربع مرات آخرها في البحر الأسود خلال حرب القرم حين أُخِذَ سجينًا بواسطة القوات الروسية وأُرسِلَ إلى موسكو لثلاثة أعوام حتى انتهت الحرب. إن معه فتًى ساحرًا في الحادية عشرة هو ابنه، ويقول لي إن لديه اثني عشر طفلًا.. لكن له فقط زوجة واحدة. وإنه بوضوح أحادي الزواج وهو هكذا مثل "الدكتور بريمروز" Dr: Primros وحدثني أنه لن يتزوج مرة ثانية أبدًا إذا ماتت زوجته، ويعتقد أنها ستفعل ذلك لو مات هو. لقد كان مندهشا لمشيب شعري.

يوجد كثير من الأقباط على القارب أيضًا.. من طبقة سفلى ولا يبعثون على السرور. إن المسيحيين النبلاء يبعثون على السرور جدًّا لكن الأسفل أسفل بالمقارنة بالمسلمين. والواحد يشعر بقذارتهم وهم يأكلون بين الفحم ثم يقرفصون هناك ويخلعون زينتهم ليصلّوا دون حتى غسل أيديهم. هذا يبدو مقرفًا حين يقارن بالمسلم الذي يحرص على النظافة والغسيل ويقف باستقامة عند الصلاة، إلى جانب أنهم خشنُو السلوك والحديث وليس لديهم الاحترام المصري للمرأة، أتحدث عن العامة منهم وليس عن الأقباط المتعلمين. أغرب شيء كان أن تسمع اليونانيين -أحدهم يتحدث الإنجليزية- يسيؤون للأقباط..

"محتالون، زنادقة، منشقون عن الكنيسة اليونانية، جهلة، جشعون، ماكرون، وقحون.. إلخ".. باختصار يرددون ويحصون كل الزيف عن نفوسهم الحلوة. لقد صرت مندهشة جدًّا كيف سيدير هؤلاء الناس عملهم! القارب كان نظيفًا مثل قارب إنجليزي رغم الازدحام والمحرك يعمل في نظام جميل، المهندس الأكبر أحمد أفندي وكل الطاقم والقبطان أيضًا يرتدون ملابس إنجليزية ويستخدمون المصطلحات العالمية.. "أول رايت، جو أهيد، ستوب هير، فُورَه ، هاف سبيد، تيرن هير، هيد.. إلخ" كنت مسرورة وأنا أسمع "أول رايت، جو أهيد، الفاتحة" في نفس واحد. هنا نحن عادة نقرأ الفاتحة -أول سورة في القرآن وتشبه صلاة الرب في الإنجيل"- حين تبدأ الرحلة وفيها شيء من رجاء النجاح.. لكن المزج بينها ولغة البحارة كان غريبًا جدًّا لي.

كانت هناك فئران وبراغيث في السفينة لكن لا بق ولا صراصير، تغير الطقس، الهواء صار أكثر جفافًا ونقاء وأصبح أكثر دفئًا ونحن لم نصل بعد إلى أسيوط. لقد لاحظت العام الماضي أن المناخ يتغير أكثر في قنا التي تقع على بعد أربعين ميلًا شمال طيبة. الشواطئ مهدمة بشكل كبير وغارقة بالفيضان والنيلُ عالٍ جدًّا الآن أكثر مما كان منذ ستة أسابيع في العام الماضي.

في بني سويف التي اعتادت أن تكون أكبر مكان لتربية الماشية.. لا جاموسة موجودة! ولم نستطع الحصول على قطرة لبن، لكن منذ تركنا المنيا رأينا الماشية من جديد وسمعت أن المرض لم ينتشر في جنوب النيل. أخبرني عمر بأن الفقراء في بني سويف يشتكون القحط وندرة الزاد، فهم لا يستطيعون أن يروُوا أراضيهم لنقص الثيران. دفعتُ عشرةً من العملة النابليونية أجرًا للسفر وسوف أعطي أربعةً أو خمسةً زيادة كبقشيش.. فلقد أرهقَتْ الجميعَ حقائبي ومتاعي وفراش السرير والمؤن التي ستكفي أربعة أشهر، كان رجال القارب أكثر من مهذبين حقيقةً رقيقين ومراعين لنا، ولو كنت سافرت بالدهبية التي هي أسوأ كانت ستتكلف أربعين جنيهًا ومن ثم أنا الرابحة الكبرى.

لا شيء يمكن أن يتجاوز الفوضى والارتباك والإهمال في الإدارة في القاهرة؛ لا فحم في المستودعات. يتم الإعلان عن إبحار السفن ثم يتأخر الإبحار ثلاثة أسابيع. لا نظام ولا اهتمام براحة أي شخص.. فقط راحة الباشا، لكن العاملين على المركب يقومون بعملهم بكفاءة تامة. نذهب بنصف سرعتنا لأن لدينا "دهبيتين" ثقيلتين يتم جرهما بدلا من واحدة، ولا وقت للخسارة.. فنتحرك ما دام هناك ضوء، نتوقف مع الظلام ونبدأ من جديد بسرعة مع ارتفاع القمر. الناس على السفينة وضعوني في مرتبة عليا ونادوني بـ"الأميرة"، وهو لقب عربي مهجور يعتقد المهندس أنه يعادل Ladysheep كما ينطقها، وأن "ستي" مثلها مثل "ميسيز" Meessees للمرأة، ولا أعرف كيف حصل على أفكاره عن الأصول -الإتيكيت- في المعاملة الإنجليزية.

عمر يأتي داخلًا بالقهوة ويرجوني أن أوصل أحسن سلام منه إلى سيده الكبير وسيده الصغير والسيدة، وألَّا أنسى إخبارهم بأنه خادمهم وأنه مملوكي "عبدي" وهو كله لهم من يد لأخرى.

إذا بقينا في أسيوط سأركب حمارًا إلى منزل واصف وأترك هذا الخطاب لديه ليرسله عند سفره القادم إلى القاهرة. في قنا كان علينا أن نجد الوقت لشراء مصفاتين وبعض القلل؛ إنها تصنع هناك، في طيبة لا تجد شيئًا منها.

كم أرغب في أن تكون هنا لتستمتع بكل المشاهد الغريبة! أنا على يقين أنها ستبهجك ولن تقرصك البراغيث فلن تعود. جانيت أرسلت لي صورة لريني الصغيرة الجميلة. قبِّلْها قبلات لا تنتهي واشكرها على طائر الجنة الذي أبهجني تمامًا أكثر مما تصورت أن يحدث.

-29-

إلى السير أَليكساندر دوف چوردون

الثلاثاء 5 يناير 1864

أَلِيك الحبيب..

لقد غادرنا أسيوط هذا الصباح، أعلن القبطان أن علينا البدء في الإبحار في الساعة الثامنة، ومن ثم لم أذهب إلى المدينة وأرسلت عمر لشراء طعام وليسلم خطابي مع أحسن سلاماتي لواصف. الرجال من دارفور تركوا السفينة كلهم معلنين أنهم يريدون التوقف متوعدين بقطع رأس القبطان إذا تحرك دونهم. حسن أفندي التركي كان غاضبًا وهدد بإرسال برقية إلى القاهرة بشكواه إذا لم نتحرك مباشرة، وصار القبطان المسكين في ورطة مؤلمة. اقترحَ عليَّ أن أجلس في سلام عند جذع نخلة مع بعض الفلاحين البؤساء، قلت أطول جملة أستطيعها بالعربية "إنه القبطان الذي علينا أن نطيعه جميعًا فوق السفينة".. وسمعتُ "ما شاء الله.. حرمة إنجليزية لها أهمية أكثر مما يستحقه عشرة رجال، هؤلاء الإنجليز لديهم كلمة واحدة لأنفسهم وللآخرين.. الدوغري دوغري -يقصدون الصح صح- هذه الأميرة مستعدة للطاعة كمملوك وحين يكون عليها أن تأمر.. هووه.. تستخدم أكثر التعبيرات التي تصدم الرأس".

الشاطئ كان مزدحمًا بالفلاحين الفقراء الذين جمعهم الجنود لانتظار وصول الباشا إلى جرجا. لثلاثة أسابيع ينامون هنا وهناك ثم أُرسِلوا إلى سوهاج فالباشا يريد أن يراهم بنفسه ثم يلتقط منهم من يحب، ثمانية أيام أخرى في سوهاج ثم إلى أسيوط، ثمانية أيام بينما إسماعيل باشا قد عاد إلى القاهرة والأرواح البائسة ما تزال تنتظر بلا نهاية، فلا أحد يستطيع أن يغامر ويذكِّر الباشا بوجودهم عبثًا. والله والله!

بينما أمشي على الضفة مع مسيو مونييه وزوجته جاء شخص

وحياهما وحيرني مظهره؛ لا تَقُل عني فارسية حين آخبرك بأنها كانت امرأة بدوية صغيرة غريبة الأطوار.. كانت بين الثامنة عشرة والعشرين على الأكثر.. تتحرك كأنثى صغيرة وجميلة.. باستثناء أنها كانت عوراء. كان ثوبها أنيقًا وتظهر عليها المجوهرات النسائية.. ماس وساعة وسلسلة أوروبية، إلخ. سلوكها كان رائعًا وليست فيه صفاقة أو تبجح، قيل لي -إذا أردت أن أسمع- إن لغتها جميلة، شيء فخمٌ جدًّا بين العرب. كانت عذراء ومغرمة بالسفر وبمجتمعات الرجال ولكونها ماهرة جدًّا كان لديها جَملُها ذو السنم الواحد وتخرج وحدها. لا أحد بدا مندهشًا ولا أحد حملق فيها وحين سألتُ: هل هذا "سليم"؟ كان القبطان مندهشًا.. "لم لا؟ إذا كانت لا ترغب في الزواج يمكن أن تخرج وحدها وإذا كانت ترغب فتستطيع أن تتزوج.. ما المؤلم؟ إنها عذراء وحرة".

لقد ذهبَتْ للإفطار مع أسرة مونييه على قاربهم -زوجة مسيو مونييه مولودة في مصر وكلاهما يتحدث العربية بطلاقة- وعند السيدة الصغيرة أسئلة لهما عن أشياء كثيرة.. هكذا قالت. لقد عبرت عن أفكارها بمشاعر جميلة كما استطعتُ فهمها، مدام مونييه كانت قد سمعت عنها من قبل وقالت إنها محترمة كثيرًا ومحل إعجاب، مسيو مونييه كان قد سمع أنها كانت جاسوسة من جواسيس الباشا لكن الناس في المركب هنا قالوا إن الحقيقة أنها ذهبت إلى سعيد باشا من قبل وحدها لتشكو أحد المديرين الطغاة الذي يسجن ويسحل الفلاحين.. وهذا شيء شجاع لتفعله فتاة. بالنسبة إليَّ بدت في كل الأحوال أكثر شيء مدهش رأيته حتى الآن.

الطقس يزداد دفئًا.. إنها التاسعة مساء ونحن نبحر طويلًا وأنا أجلس عند غرفة القيادة المفتوحة. سعالي بلا شك سيصبح أفضل كثيرًا.. إن شاء الله! أعلى قنا -قرابة 150 ميلًا أخرى- سنستمر في الإبحار. اليوم ولأول مرة وضعت عباءتي على رأسي تحت الشمس.. فالحر لاسع ولذيذ، واليومَ الخامس من

يناير، قائدنا كان مسجونًا لثلاث سنوات في موسكو وفي باكشي سراي ويعلن أنه لم يرَ الشمس قطُّ كما يراها المصري. هل تتذكر السجائر التي اشتريتها لي في Eaux Bonnes؟

حسنًا.. لقد أعطيت الأفندي التركي مريض الربو إياها.. وكان مسحورًا بها.

خمسة جاؤوا للعلاج.. أقراص الراوند مريحة جدًّا للمسافرين فلا يتألمون كثيرًا وتعطيهم ثقة أكثر، من حسن الحظ أننا تركنا كل البراغيث خلفنا في الغرفة السابقة لصالح التركي العجوز الذي كما سمعتُ يعاني بحدة، كل (الكنب) كان قد تم تجديده وصارت البراغيث محشورة في القطن عنده لأنها لا تجد فرصة من أي نوع في بقية القارب.

جرجا

9 يناير 1864

توقفنا هنا في الليل، منذ يومين أخذنا إلى سطح السفينة ثلاثةَ محكومين عليهم مقيدين بالسلاسل، اثنان متهمان سيُحملان إلى فازوجلو.. واحد منهما متهم بالشهادة الزور وتشويه السمعة والثاني بالقتل؛ الأعمال الشاقة في هذا المناخ ستتقرر لهما حالًا. الثالث كان لصًّا صغيرًا من قنا ظلَّ عامًا مقيدًا في بيت الجمرك في الإسكندرية والآن يؤخذ مُقيدًا للعرض في مكانه الأصلي.

الحالات الشهيرة في هذا البلد مدهشة في قراءتها، إنهم يقومون بجرائمهم بشكل مختلف عنَّا تمامًا، إذا استطعتُ الحصول علي بعض الأسباب سأكتبها. عمر حدثني قليلًا، لكنه ربما لا يعرف التفاصيل تمامًا.

قمت باستفسارات متعددة عن السيدة البدوية التي هي أكبر عمرًا مما تبدو والتي تسافر باستمرار منذ عشر سنوات، إنها غنية ومحترمة كثيرًا وتُستقبَل في أفضل البيوت حيث تجلس مع الرجال طول اليوم وتنام مع الحريم، لقد كانت في وسط إفريقيا

وفي مكة، تتحدث التركية، ومسيو مونييه يقول إنه وجدها مقبولة بشكل كبير ولديها معلومات مسلية عن كل البلاد التي زارتها، بقدر ما أستطيع سأتحدث معها وعليَّ أن أجدها فهي تحب صحبة الأوروبيين هنا.. مساهمة في الفولكلور فيما أعتقد جديدة

حتى على لين[37] حين يوقد بائع القهوة موقده في الصباح، يصنع كوبين من أفضل القهوة وسكرهما جميل ويصبهما خارج الموقد قائلًا "اللهم بارك في الشيخ الشاذلي وأحفاده"، المباركة للولي الذي اخترع القهوة بالطبع. عرفت ذلك لكن إراقة القهوة جديدة عليَّ. أنت ترى العقيدة القديمة تنهض حتى من خلال الصدق الصارم للإسلام، إذا استطعت أن أصف كل التفاصيل لزواج عربي أو لكثير من القبط ستظن أنني معجبة بأسرار إيزيس.

في أحد المنازل رأيت والد العروس يبدو مخطوف الوجه قلقًا.. وقال عمر "أظن أنه يمسك قلبه بيديه الاثنتين حتى تخبره النساء بأن ابنته بيَّضت وجهه"، إنها جملة جميلة جدًّا عن غرق القلب في القلق. إنه يبدو معقولًا بالتأكيد أن سوء سلوك المرأة يسوِّد وجه أبيها أكثر من وجه زوجها، هناك أشياء كثيرة جيدة هنا عن الحريم..أكون همجية بما يكفي إذا ظننتُ أنها مقبولة عقليًّا. تركي القاهرة العجوز الذي كان في أوروبا تحدث منذ وقت قصير إلى رجل إنجليزي مزح معه بأدب عن المباح للمسلم.. أجاب المسلم المبجل "الصلاة، كم امرأة تعيش معك، من الأصغر فيمن رأيت في حياتك؟"، الإنجليزي طبعًا لم يستطع الإحصاء، ثم استطرد التركي العجوز "حسنًا أيها الشاب.. أنا رجل عجوز وتزوجت في الثانية عشرة ورأيت في كل حياتي سبع نساء، أربع مِتْنَ وثلاث سعداء مرتاحات في بيتي، أين ذلك كله منك؟"، حسنين أفندي سمع المحادثة التي مضت بالفرنسية وكان سعيدًا بالسؤال.

إنني أجد أن المتهم بالقذف أو إساءة السمعة مع تسع وعشرين تهمة أخرى ليس ممن يمكن الدفاع عنه، فشيخ البلد بمكانته قَتل خادمه ووُجِدت عظامه في سلة كدليل.. لكن شيخ

البلد ما يزال حيًّا ومن شتمه يقاسي الأشغال الشاقة طوال حياته. الدعوى تتميز بحيل الأطفال في هذا البلد، لقد سألت ما إذا كان الذي يتم جره في الحديد عبر الشوارع يمكن أن يجد عملًا فيما بعد! قيل لي "بالتأكيد.. أليس رجلًا فقيرًا؟ لأجل ربنا كل واحد سيساعده". طبيعي أن يقود زيف العدالة المطلق إلى هذه النتيجة. قائد سفينتنا صُدم تمامًا حين سمع أنه في بلدي لا نحب استخدام المتهم السابق.

الأقصر

13 يناير 1864

أنفقنا الوقت كله بعد ظهر يوم السبت في قنا حيث تعشيت مع القنصل الإنجليزي العربي الوجيه العجوز الذي بدوره دعا القبطان وجلسنا كلنا حول صينيته النحاسية علي الأرض وأكلنا بأصابعنا، القبطان الذي كان يجلس جواري كان يلتقط القطع الأحلى ويطعمني أنا وسالي إياها. بعد العشاء، القنصل الفرنسي القبطي اليسوعي

أرسل يدعونني إلى حفل في بيته حيث وجدت عائلة مونييه والمدير وبعض الأتراك الآخرين وإيطاليًّا مزعجًا كان يحملق فيَّ كما لو كنتُ صغيرة وجميلة.. مما جعل عمرغاضبًا جدًّا.

كنت مسرورة برؤية الراقصات لكني أحببت الطرق البدوية للعجوز سيد أحمد أكثر من الإيقاع القبطي المتفرنس. في البداية ظننت الرقص مملًا وضعيفًا، راقصة كانت أنيقة جدًّا لكن باردة غير مسلية، والتي كانت تغني كانت جميلة جدًّا وجذابة ونادرة، لكن الرقص كان مشوَّهًا وإلى مدًى كبير أو قليل يعد مدهشًا كعمل رياضي لا أكثر، لكن القبطان نادى واحدة اسمها لطيفة.. داعرة قبيحة المنظر لتُرِيَ "الست" ما تستطيع أن تفعله، ومن ثم بدأت تعرض لي.. الفتاة القبيحة زحفت عندي على قدميها وصارت مثل "ثعبان النيل القديم".. الرأس.. الكتفين.. الذراعين.. تنحني بتركيز إلى الأمام وتنثني وتنزل المؤخرات عند ثني الركبتين.. وضع

الكوبرا وهي على وشك أن تقفز. لا أستطع أن أسمي هذا شهوانية أكثر من شهوانية فيدرا في مسرحية راسين[38]. إنه وضع فينوس وهي تختار فريستها، وبدا لي المشهد تراجيديًّا، إنه أكثر واقعية من الهراء وأقل من الغنج، لأن ما كان يقدم كان بجدية كبيرة، ليس مزيفًا، خفيفًا أو يُلعب به، ومثل كل الأشياء لا يعتقد الرجال المصريون أنه الأقل احتشامًا. بالطبع لم ترتكب الفتيات أي مساخر أو عدم احتشام أمام النساء الأجنبيات غير الرقص نفسه.
أراد سيد أحمد أن يخصص لي حفلة لكنه خشي؛ ربما أختار رجالًا معي وهو في ضيق كبير جدًّا من الرجلين الإنجليزيين اللذين أرادا أن ترقص الفتاتان عاريتين، ما اعترضتا عليه أيضًا وصار عليه أن يخرجهما من بيته بعد معاملة رقيقة لهما وإكرامهما بالعشاء.
عودتنا إلى القارب كانت مضحكة؛ لم تستطع مدام مونييه أن تركب على سرج عربي ومن ثم أعرتها الخاص بي وركبت حماري ورحنا مع رجال تجري بالمشاعل والشموع والقبطان يصيح "فول سبيد" بسرعة. وبالإنجليزية طوال الطريق كملاح قديم. وصلنا إلى هنا الليلة السابقة، وهذا الصباح أتى مصطفى أغا والناظر ليقوداني إلى قصري. إن لدي منزلًا واسعًا أعلى معبد خِم. كم أرغب لو كنت معي والكتاكيت الصغار لتملؤوه! لدينا نحو عشرين فلاحًا لتنظيف تراب متراكم منذ ثلاثة أعوام، وغرفتي تبدو أنيقة جدًّا بالسجاد والمقاعد الكبيرة، ابنة مصطفى الصغرى أخذت طريقها إلى هنا حين سمعت بأني قادمة، وبدت مسرورة جدًّا بلعبها على السجاد مع العروسة الدمية والخوخ المسكر، واحتفلت بالعروسة الدمية بتقديم وليمة من الخوخ على طبق منظمة الخوخ على الطريقة المصرية.
كانت مسرورة جدًّا بصورة ريني وقبّلتها. هذه الطفلة السمراء الجميلة كانت تحب ريني وعصير الخوخ.
المنظر الذي يحيط بمنزلي رائع من كل جانب، عبر النيل من الأمام يواجه الشمال الغربي ومدى رائعًا من الخضرة وتِلالًا

برتقالية بعيدة إلى الجنوب الشرقي ولديَّ شرفة واسعة. إنها خشنة ومتربة جدا لكنها ستكون سارة للغاية.

جاء مصطفى الآن ليعيرني حصانًا، ويطلب إليَّ أن أذهب إلى الجامع لياليَ قليلةً لأرى النور في حضرة الشيخ ابن سيدي الحسن والحسين. سألته ما إذا كان حضوري سيسيء إلى أي من المسلمين، فقال إنه لم يسمع بشيء من هذا. غربت الشمس بينما هو هنا وسألني هل سأعترض إذا صلى في حضوري.. ثم ركع ركعاته الأربع مرتاحًا جدًّا على سجادتي.

جاري المجاور لي -عبر الساحة المكتظة بالأنتيكات- قبطي لطيف صغير يبدو هو نفسه كأنتيكة صغيرة لتمثال، سأكون قريبة من عائلته، أرسل لي قهوة بمجرد وصولي وجاء ليساعدني، دعيت إلى قرية المطاعنة على بعد ساعات قليلة أعلى النهر لأزور عائلة مونييه، وإلى قنا لأزور سيد أحمد وأيضًا كبير التجار هناك الذي خفض سعر السجاد لي في المحل وبدا يحبني. كان واحدًا من أولئك الأنيقين أصحاب التربية الرفيعة من التجار الكبار الذين معهم دائمًا تبدأ القصة في ألف ليلة وليلة. حين أستطيع الحديث سأذهب وأرى الحريم العرب الحقيقيات، زوجان إنجليزيان جميلان جدًا.. رجل وزوجته، قدما لي فطورًا في مركبتهما وخرجا للعمل مع عائلة روس.. يحملان اسم أروسميث. إنهما ذاهبان إلى أسوان وسوف أراهما في عودتهما. سألت مصطفى عن السيدة العربية الصغيرة وتحدث بقوة عنها وأنه لابد إذا جاءت إلى هنا أن تجد كرمًا في الضيافة من ناحيتي، إنه لا يعرف اسمها وهي تُنادَى بـ"الحاجَّة".

الثلاثاء:

الآن أنا مستقرة في بيتي في طيبة، إنه جميل جدًّا وأنا مكتئبة جدًّا لأنك لست هنا لتستمتع به. المنزل كبير له حوائط سميكة، والراحة التي نشعر بها اليوم لأن الإعصار في الخارج.. لكن في الداخل ليس الجو باردًا أبدًا. نوافذ وأبواب بعض الغرف من زجاج

وهذا محبب رائع، بومتان لطيفتان صغيرتان في حجم قبضة يدي تعيشان في جحر الحائط تحت نافذتي وتستيقظان وأسمع صَباحهما وتمشيان على أصابعهما وتبدوان فضوليتين تطلان عليَّ من النافذة مثل البوم في الآثار الهيروغليفة، وأيضًا حورس العظيم -الصقر المقدس- يتردد على شرفتي. واحد آخر من آلهتي هذه تدنست بقتله أمس.. الثعبان النابض. عمر كان مذعورًا خوفًا أن يكون "ثعبان المنزل" وحارسَه.. لأن الإسلام لا يوافق على أن ينزل حراس البيت وحُماتِهِ عن عرشهم القديم!

بدأت تهجي الألف باء -أ.. ب.. ت- اليوم تحت توجيه الشيخ يوسف الشاب الوسيم الجميل ذي الوجه الأسمر الجذاب والأخلاق الحلوة في ردائه الفلاحي. جلبابه الصوفي الغامق واللبدة على رأسه وشال أحمر معتاد حول رأسه وكتفيه. معرفة الكتابة من الناحية المضادة عمل صعب جدًّا، أتى بعض الرجال لإصلاح الدرج الذي سقط بعضه والذي يتكون من "بلوكات" حجرية صلبة كبيرة. واحدٌ هُرِس إصبعه تحت حجر وكان عليَّ أن أُجري عملية له. إنه أمر غير عادي تحمل هؤلاء الناس للألم، إنه لم يجفل لحظةً أثناء العملية وظل يحمد الرب ويشكر السيدة -أنا- بمحبة. حتى اليوم.. الطقس صحو، الليلة الماضية جلست ونافذتي مفتوحة، كان الجو دافئًا جدًّا، لو كنتم معي جميعًا هنا! كيف كانت ريني ستلعب في المعبد وموريس سيصطاد في النيل وأنت تتجول تتأمل بنظارتك فوق أنفك. أعتقد أنك ستلقي رداءك الإفرنجي وترتدي جلبابًا داكنًا ولبدة وبسرعة تصبح أسمر مثل أي فلاح. كان مثيرًا أن أرى الشيخ يوسف محمر الوجه من الخجل حين جاء أول مرة. إن سحنة المصريين سمراء مثل القهوة وتحمر بشرتهم كما تحمر بشرة الأوروبيين البيضاء، وسمرتهم أقل من سمرة أهل الملايو الذين لا تتغير ألوانهم أبدًا.

مصور يعيش هنا أراني صورًا من منطقة النيل الأبيض في الجنوب، الصورة لفتاة زنجية صغيرة رائعة وسأطلب إليه أن يصنع لي نسخة منها لأرسلها إليك. إنها ليست في اكتمال جسد

النوبيات لكن قوية جدًّا وساحرة. إذا جاءت فلاحة آنيقة هنا سأصورها وأرسل إليك الصورة لأريك في أوروبا كيف يكون صدر المرأة لأني لم أرَ مثله قبل أن آتي إلى هنا. إنه أجمل شيء في العالم.. الفتاة الراقصة التي رأيتها كانت تحرك ثدييها واحدًا بعد الآخر بحركة بديعة. الصدور هنا مثل الرمان واقفة بشموخ لا تحتاج إلى مشد أو أي صديرية تحملها.

-30-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأربعاء 20 يناير 1864

أَلِيك الحبيب..

تلقيت يوم الاثنين بترحاب وفرح كبير خطابيك اللذين أرسلتهما في الخامس عشر والخامس والعشرين من ديسمبر، لكنني صرت حزينة جدًّا بموت توماس وما زلت حزينة أكثر بسماعي من جانيت بموت ثاكيراي ومدام أليسون. لقد ماتت صباح اليوم الذي غادرت فيه القاهرة وكان آخر ما فعلَتْه أن أرسلت حلوى إليَّ في السفينة في المساء السابق لموتها. لقد كانت الحلوى وهي مريضة شيئًا مؤثرًا جدًّا.

عشنا أسبوعًا من الرياح العنيفة وأمس بقيت في السرير وأدهشني جدًّا حضور ابنة مصطفى الصغيرة لتراني. اليوم جميل من جديد وركبت مُهر مصطفى الصغير وتبخترت معه بين مزرعته وتغدينا بالفطير المشلتت والزبدة في قرية مجاورة وسط بهجة عظيمة من الفلاحين. حالة دينية مثل قصص الإنجيل في علاقة الناس بمصطفى أغا.. فكلهم أقارب له وتوافدوا لرؤية سيدي عمر كبير الأسرة وكان مشهد الشباب يأتون من الحقل مع القطعان من الحمير والجمال والأبقار وغيرها مثل حلم جميل. كل هؤلاء الناس ذوي نسب رفيع توارثوه وحافظوا عليه من نبلاء العرب الذين جاؤوا مع "عمرو بن العاص" أول غازٍ عربي مرسل من "عمر بن الخطاب". لايوجد واحدٌ من هؤلاء الرجال السمر الذين لا يملكون إلا جلبابًا واحدًا يرضى بأن يعطي أكبر الباشوات الأتراك ابنتَه السمراء. إن شهامة ونبل هذا الريف تسرني أكثر من أهل المدن رغم أن عمر الذي هو "لندني" تمامًا في كبريائه وغضبه، والذي يغصب نفسه على أن يكون مهذبًا، يرفع أنفه أمام

عروسهم الفقيرة كما اعتاد أهل لندن أن يتعالَوا أمام الإسكتلنديين الحفاة. حالة المساواة التامة -باستثناء الاحترام لكبير العائلة أو القبيلة- التي يعامل بها القرويون مصطفى والذي يعاملهم بها، جعلتهم جميعًا مهذبين جدًّا. إنهم ليسوا مغرورين ولا استعراضيين وأكثر رجولة من القاهريين. أنا دائمًا في زيارات محددة إلى كل العائلات الريفية في الأقصر ومنهم الناظر -ناظر العزبة- وهو شخص رائع جدًّا، وشيخي يوسف الذي ينحدر من سلالة أبو الحجاج نفسه.. وهو رجل فاتن تمامًا. هنا ألمانيٌّ ضئيل الحجم يقوم بعمل القنصل النمساوي ويرسم جيدًا. ذهبت إلى منزله وفوجئت بسماع ولد عربي جميل هو خادمه يسأل بالألمانية "هل أحضر القهوة؟".. ماذا بعد!؟ كلهم مجنونون بتعلم اللغات ومصطفى أغا يرجوني أنا وسالي أن نعلم ابنته الصغيرة زينب الإنجليزية.

الجمعة: الثاني والعشرون.

أمس ركبت حمارًا إلى معبد الكرنك وسائس مصطفى يجري إلى جواري. فضاء مشمس رائع الحرارة والهواء، أن أسمع ثرثرة السائس في الفضاء ولسانه يجري بسرعة قدميه يجعلني أحسد رئتيه. لحق بي مصطفى يرجوني للذهاب لزيارة ضريح الشيخ ليبارك في صحتي كما أنه هو والشيخ يوسف يرغبان في قراءة الفاتحة من أجلي، لكن يجب عليَّ ألَّا أشرب نبيذًا وقت الطعام. أبديت قليلًا من التمنع للفارق بين الديانتين لكن الشيخ يوسف الذي كان قد جاء قال إنه يعتبر أنني أعبد الله وليس الأصنام وأن الدعوات الصالحة تقبل في أي مكان. وأنني سأكون متعصبة إذا رفضت أكثر من ذلك، ومن ثم في المساء ذهبتُ مع مصطفى.

كان مشهدًا مثيرًا، القبة الصغيرة مضاءة بمصابيح زيتية كثيرة جدًّا بقدر سعة الجامع، وكذلك أضرحة أبو الحجاج وأبنائه الثلاثة، عجوز رائع يشبه النبي إبراهيم نفسه يرتدي زيًّا أبيض يجلس

على سجادة عند عتبة الضريح، إنه كبير عائلة أبو الحجاج. جعلني أجلس قريبة منه وكان مؤدبًا للغاية. ثم جاء الناظر -ناظر العزبة- والقاضي وتركي حضر في مهام حكومية وقليل من المهذبين الذين جلسوا جميعًا حولنا بعد أن قبلوا يد الشيخ الكبير. كل واحد راح يتحدث، في الحقيقة كانت حفلة مسائية في ضيافة الشيخ الميت. جماعة من الرجال جلسوا في الركن البعيد موجهين وجوههم للقبلة ويطبّلون على الدَّرَبُكَّة -نوع من الطبول الصغيرة من الخزف يعطي صوتًا مميزًا- ودف يدقون بأيديهم عليه، ورنين صاجات في الأصابع وغناء في مدح النبي محمد وأشعار من مزامير داوود، وبين لحظة وأخرى واحد من جانبنا يتحدث ويرتل الدعوات أو يُسبِّح بالمسبحة. الشيخ الكبير أرسل يطلب القهوة وأعطاني الكوب الأول.. امتياز رائع. في النهاية طلب الناظر قراءة الفاتحة من أجلي حيث تَحَلَّقَ حولي الجميع يرتلونها بصوت عالٍ ثم قال أحدهم "بارك الله لكِ وأعطاكِ الصحة والسكينة، لك ولعائلتك وأعادك إلى زوجك وأطفالك سالمة" وأضاف الآخر "آمين".. وصافحني بيده. أجبتهم قائلة "جزاكم الله عني خيرًا.. وكل الناس الذين يتعاملون مع الغرباء معاملة حسنة" التي اعتُبرت إجابة مناسبة جدًّا. بعد ذلك خرجنا وتفرقنا والناظر المحترم جاء معي على الأقدام إلى البيت ليدخن النارجيلة ويشرب كوبًا من الشربات ويتمتع بالحديث عن زوجته وأطفاله الثمانية الذين يعيشون كلهم في "فُم البحر" باستثناء ولدين في المدرسة بالقاهرة. فهو لا يستطيع استقدامهما ليعيشوا معًا هنا.. فهو يعمل بخمسة عشر جنيهًا في الشهر مع إمكانية النقل إلى مكان آخر في أي يوم. في القاهرة أو في مصر السفلى يكون من الصعب تمامًا للمسيحي أن يدخل ضريح شيخ وخاصة في يوم مولده أو ليلة الجمعة.

الجمعة 29 يناير

لم أكن على ما يرام لأكتب طوال هذا الأسبوع لكنني سأنهي

هذه الرسالة اليوم لأرسلها مع مركب الليدي هربرت. الأسبوع الماضي كان الطقس باردًا جدًّا هنا والحرارة كانت ما بين 59 - 60 درجة فهرنهايت، مع ريح قارصة وشمس مشرقة. كنت مرغمة على البقاء في سريري لثلاثة أو أربعة أيام بينما كان القصر مغلق النوافذ والأبواب فلا أحد تُحدثه، وكان الأمر مرهقًا جدًّا رغم أنه أفضل من القارب. أمس واليوم أفضل كثيرًا ليس أكثر دفئًا في الواقع لكن هواء مختلف.

انتهى مولد الشيخ السبت الماضي بموكب حُمل فيه الغطاء الجديد للضريح والقارب القديم المقدس علي أكتاف الناس. بدا المشهد كله كما لو كان منبعثا من الأضرحة الملكية وإن كان متربًا رثًّا لا جميلًا أخَّاذًا. الاحتفالات بالموتى هذه -كما أشار هيرودوت- كانت تقام تكريمًا لـ "هذا الذي لا نستطع ذكر اسمه.. هو الذي يرقد في معبد فيلة ". فقط تغير الاسم وغابت المومياء.

لخمسة عشر يومًا كل من يملك حصانا ويستطيع أن يركبه جاء وشارك في الاحتفال كل عصر لساعتين قبل مغيب الشمس وكان المشهد جميلًا جدا. الناس هنا يظهرون قوة أصولهم في ركوبهم الخيل، في الأيام الثلاث الأخيرة كل الغرباء كانوا ينعمون بالخبز واللحم المطهي على نفقة أهل الأقصر فكل بيت ذبح خروفًا وخَبَزَ الخبز. ولأني لا أستطيع أن أفعل ذلك لحاجتي إلى خدم يكْفُون..أرسلت مائة قرش إلى خدم مسجد أبو الحجاج لشراء زيت الإضاءة للضريح وغيره. لم أكن في صحة جيدة وكنت في السرير لكني عرفت أن هديتي كانت محل رضا كبير وأنهم أكثروا الدعاء من أجلي مرة أخرى. الأسقف القبطي جاء ليراني لكنه راهب عجوز سكير ومتسول صفيق، أرسل يطلب الشاي ويقول إنه مريض ومن ثم ذهبت لأراه وأدركت أن اضطرابه مفتعل.

إنه يملك عبدًا أسود رائعًا جدا -مسيحي حبشي كما أعتقد- وهو صديق من أصدقاءعمر، أرسل إلى عمر طعاما جميلًا مطهوًّا ومن بينه دجاجة محشوة بالفريك كانت رائعة. عمر يحصل على الطعام من كثير من الناس، كثير من الخبز.. بعض البلح.. طيور

مطهوة أو حمام وفطيرة بالعسل وكلها موضوعة ساخنة في صرة من قماش. أعطيت عجوزًا قرص دواء وجرعة لبعض الأيام لكن لا تَغَيُّرَ في قُوَّتِه وجاء يطلب المزيد وحصل على زيت الخروع. لم أعد أراه من وقتها لكن مستخدمه الفلاح عمر أرسل لي كمية كبيرة من الزبدة في المقابل. أعتقد أن هذا يُظهر ذكاء كبيرًا في هؤلاء الناس فلا أحد منهم يستشير حكيمًا عربيًّا ما دام الأوروبي يستطيع معالجته. إنهم الآن يسألون مباشرة ما إذا كان الأطباء الحكوميون قد تعلموا الحكمة -الطب- في أوروبا وإذا كان الأمر عكس ذلك لا يثقون بهم، وهذا ليس غباء من هؤلاء الهمج الفقراء كما يسمونهم. كان عليَّ أن أوقف دروسي بسبب المرض لكن الشيخ يوسف جاء مرة ثانية الليلة الماضية. عليَّ أن أردد الأبجدية.. ألف.. باء، ألف فتحة "آ" ب فتحة "با" ألف كسرة "إي" ب كسرة "بي".. إلخ. آه يا عزيزي كم يعاني الأطفال العرب البؤساء في تعلم الأبجدية! إنها أبجدية صعبة والتشكيل مفجع والآن أحتاج إلى قاموس.

مستر أروسميث تكرم وأعطاني كتاب ميس مارتينو Miss Martneau الذي بدأت فيه. إنه صحيح إلى حد ما، لكن يوجد العيب المعتاد.. الناس ليسوا ناسًا حقيقيين وإنما جزء من المشهد بالنسبة إليها كما هو إلى معظم الأوروبيين. لك أن تتصور إلى أي مدى صرنا متأقلمين حين أخبرك بأنني تلقيت عرضًا جادًّا للزواج من سالي. مصطفى أغا طلب إليَّ أن أقدمها زوجةً لابنه الأكبر سيد، فتى جميل في الثامنة عشرة أو العشرين على الأكثر، ولأن مصطفى هو الأغنى والأكثر اعتبارًا هنا فهذا يوضح أن المصريين لا يعطون أحكامًا غير محببة لأخلاقنا الناتجة عن حريتنا في السلوك. لقد قال بالطبع إنها يمكن أن تحتفظ بعقيدتها وعاداتها. سيد ما يزال في الإسكندرية ومن ثم لدينا وقت للرفض حين عودته. لقد قلت إنها أكبر بكثير من سيد لكنهم يعتبرون أن هذا ليس محل اعتراض أبدًا. عليها أن تقول إن والدها رفض لأن هذا العرض المحترم يستحق طبعًا رفضًا متحضرًا. إن عروض الزواج

من سالي يمكن أن تكون محل دراسة إثنية، مصطفى سألني ماذا أريد مهرًا لها.. تخيل! سالي المتوهجة تكون من حريم ابن شيخ البلد في الأقصر!

أنا مسحورة جدًّا بمنزلي حتى إنني بالفعل بدأت في التفكير في البقاء هنا كل الوقت. القاهرة عزيزة الآن لارتفاع تكاليف المعيشة والعديد من القطعان الميتة تدفن هناك حتى إنني أفكر في أنه من الأفضل البقاء في هذا المكان. توجد صالة واسعة كبيرة وباردة الآن كما لو كانت غير قابلة للسكنى، لكنها في الصيف تكون رائعة. قبطاني العجوز العزيز للباخرة 12 يحضر لي البن والشموع وإذا تعلمتُ اللغة أثناء مجالس القهوة سيكون لي أصدقاء كثيرون. موت القطعان لم يمتد جنوب المنيا إلى أي درجة وهنا لا حالة منها. الحمد لله! الطعام طيب جدًّا هنا وأرخص من نصف سعره بالقاهرة حتى الآن.. وفي الصيف سينخفض إلى النصف أيضًا، لذلك يحثني مصطفى على البقاء ويقترح نزهة مع حريمه لعدة أيام بين الأضرحة كنوع من التغيير. أخذت صورة مجسمة للنخلتين المحببتين لي على ضفة النهر وتطلان على معبد فيلا وأرسلتها إليك.

رئتي اليمنى كانت هي الأسوأ حتى اليوم، لكن الآن أحد الجانبين صار صعبًا والثاني مستحيلٌ النوم عليه. هذا لا يجعل الإنسان ينام مستريحًا وافتقاد النوم العميق الجيد يرهقني ومن ثم لا أبدو بخير. سوف نرى ماذا سيفعل الطقس الحار وإذا فشل هذا سأستسلم للتعب وآتي إليكم لأراكم بقدر ما أجد من وقت لك ولكتاكيتي.

-31-

إلى السيدة أوستِن

الأحد 7 فبراير 1864

أمي الحبيبة..

لثلاثة أسابيع كان شتاؤنا حادًّا، وكل شخص أصيب بالبرد الشديد والسعال. من المصريين أقصد.

كنت مريضة جدًّا لكن هربت من البرد القاسي كله والآن الترمومتر يصل بالحرارة إلى 64 درجة فهرنهايت ويبدو الأمر حسنًا. تحت الشمس دائمًا الجو حار جدًّا، ولكن هذا لا يمنع الهواء من أن يكون شديدًا تتأثر به الشفاه والأنوف والأيدي أيضًا. إنه لمدهش أن تجعل الحرارة -التي هي مثل صيف إنجلترا- الإنسان يرتعد في طيبة. الحمد لله! لقد انتهى ذلك الآن.

صديقي الشيخ يوسف المسكين يعاني محنة كبيرة حدثت لأخيه محمد الذي هو أيضًا شيخ شاب متعلم دينيًّا ومتأهل للوعظ بالجامع. الشيخ محمد عاد إلى البيت بعد دراسة في الأزهر بالقاهرة وأخشى أن يموت، ذهبت مع الشيخ يوسف استجابةً لرغبته لأرى ما إذا كنت أستطيع أن أساعده ووجدته فاقدًا القدرة على التنفس ومريضًا جدًّا جدًّا. أعطيته دواء مهدئًا ووضعت لصقات من الخردل على جسمه، ولقد أراحته فذهبت للعناية به من جديد. كل العائلة وكثير من الجيران احتشدوا بالمنزل ليروا ما أفعل.. الشيخ محمد ينام في حجرة كالجحر صغيرة مظلمة ذات حوائط طينية عارية من أي شيء، أسوا من فكرتنا عن بيوت الصدقة لكن هؤلاء الناس لا يشعرون بالحاجة إلى الكماليات التي تريحهم ومنهم يتعلم المرء أنه أمر طبيعي أن تجلس مع رجال أفاضل في أماكن أقل منزلة من حظائر القطعان. وضعت بعض البطانيات على الحائط ووضعت ذراعي خلف ظهر الشيخ محمد لأجعله يستريح بينما أضع اللصقات على ظهره، فيما هو يضع

عمامته الخضراء على كتفي ويرفع وجهه الأسمر الرقيق من أجل أن أقبله مثل طفل عزيز. بينما أقبله قال مُلًّا -من الموالي- تقي عجوز "باسم الله" بإشارة بالموافقة، وشكرني أبو الشيخ محمد العجوز الجليل الذي يرتدي عمة خضراء من قلبه ودعا من أجل سلامة أطفالي دائمًا وأن يجدوا العون والعناية الرقيقة. أعتقد أنني لو اعترفت بقبلة لمصري مريض في كوخ قذر سوف يلعنني الرحالة الإنجليز، وهذا يوضح لك كم هي خاطئة عبارات تعصب المسلمين وكراهيتهم العميقة لنا. في هذه العائلة "سادة أشراف" منحدرون من نسل النبي ومتدينون جدًّا، والشيخ يوسف لا يدخن وهو يلقي خطبة الجمعة. ستحب هؤلاء الصعايدة فهم رجال فضلاء جدًّا.

ذهبت إلى القرية منذ أيام قليلة لأرى مزارعًا اسمه عمر، بالطبع دعاني للأكل والناس كانت مبهورة من ذهابي وحدي لأنهم تعودوا رؤية الإنجليز مسلحين أو معهم حراسة.على أي حال سيدي عمر قرر أن يصحبني إلى البيت، وهذا هو العرف هنا. لقد جمع كومة من العلف الأخضر ووضعها على حماره الصغير الرشيق وصعد فوقه دون سرج أو لجام. كان العلف لمصطفى أغا.. وذهبنا عابرين الحقول الخضراء الزاهية بين دهشة بعض الأوروبيين الشباب وصيحاتهم. كانوا يصطادون الطيور. بدونا اثنين غريبي المظهر خاصة مع سرجي ولجامي الإنجليزي ورداء ركوب الخيل، القبعة المزينة بالريشة، وأنا على ظهر الحصان. بينما سيدي عمر داكن اللباس وأسمر الساقين ذو عمة بيضاء يركب حماره ويدخن غليونه التركي.. كنا نضحك مرحين أيضًا بلغتي العربية الركيكة.

الصغيران هيثيكوت وستروت تمت دعوتهما إلى هنا لكنهما كانا يسرعان أعلى النهر. سأراهما كثيرًا حين يعودان شمالًا.

الصغير ستروت شبيه بأمه ولقد عرفته في الشارع.. أحببت أن أقيم له حفلة لكنه ليس مناسبًا لامرأة أن ترسل طالبة الراقصات الفتيات، ولأني صديقة للمعاون -مأمور البوليس- والقاضي وللناس المحترمين هنا فلا أستطيع أن أفعل ما هو غير لائق في

عيونهم، يكفي أنهم موافقون على كشف وجهي وصحبتي للرجال فهذه عاداتي ولا يتألمون منها.

غدًا أو بعد غد يبدأ رمضان عند ظهور الرؤية. إنه مزعج لهم وحمل ثقيل، عمر لم يصُم العام الماضي لكنه سيفعلها هذا العام وإذا أفسد طهي طعامي فمن يستطيع أن يلومه؟ كان هناك زفاف قريبٌ من هنا الليلة الماضية وفي العاشرة تقريبًا عبَرَتْ كل النساء تحت نافذتي يزغردن متجهاتٍ إلى النهر. وجدت بعد استعلام أنه في مصر العليا بعد أن "يأخذ العريس وش عروسته" تأخذها النساء إلى النهر لتراه، إنهم لا ينسون حتى الآن أن الإله القديم -النيل- هو مانح الخصب والنماء.

كنت أقرا كتاب مس هارييت مارتينو[39]. الشروح رائعة لكن بوضوح لم تكن تعرف شيئًا عن الناس ولا تهتم لأن تعرف، ولديها الشعور الذي لدى كل الإنجليز هنا بأن الفارق في السلوكيات بينهم وبيننا مثل خليج لا يمكن عبوره، والحقيقة أن مشاعرهم وعواطفهم مثلنا تمامًا. إنه لغريب أن كل كتب الرحلات القديمة التي قرأتها تذكر مواطني البلاد الغريبة بأبعد مما هو طبيعي، وبمحاولة كبيرة من التمييز للشخوص باعتبارهم غير متحضرين،

أسفار نيبور ورحلات كوك[40] هنا وفي العالم العربي وآخرين كثيرين. هل نشأنا متحضرين جدًّا منذ مئات السنين حتى يبدو الغرباء مثل الدمى الخشبية وليسوا مثل كائنات بشرية حقيقية؟ إن تعصب هارييت مارتينو ضد الأقباط واليونانيين مضحك بما يكفي بالمقارنة مع تبجيلها التام للذي ينام في فيلة وهجومها الصارخ على الحريم، إنها تُلمح إلى كونه بيت دعارة. عليَّ أن أعترف بأني لم أشاهد الحريم "الحرملك" التركي وأنها أيضًا لم تره، ومن ثم تغالي في سلوكيات تركيا التي لم تذهب إليها لتكون أعلى من هؤلاء في مصر. إنه ليس ممكنًا لامرأة أن تشرح كل الحدود التي عليها يقوم الناس العاديون بعملهم. أنا لا أعرف شيئًا عن العظماء من الرجال لكن تستطيع النساء -ويفعلن ذلك- أن

يقاضينَ أزواجهن لدفع ديونهم لهن ويطلبن الطلاق إذا تخلفوا عن الدفع. غالبًا يتزوج الرجل بزوجة ثانية كنوع من الواجب لإعانة أرملة أخيه وأطفاله أو شيء كهذا، بالطبع الرجال الفُجَّر يتصرفون في خلاعة كما في أي مكان. كلهم بني آدم كما يقول الشيخ يوسف باستمرار. القبيح قبيح والطيب طيب والرحالة المحدثون يُبدون تجاهلًا غريبًا في الحديث عن المواطنين الأجانب بشكل عام، هكذا يفعل الجميع تقريبًا.

الاثنين:

لقد عرفت الآن أن الشيخ محمد المسكين مات أمس وكالعادة دفن في الحال. لم أكن في حالة جيدة لعدة أيام، واهتم الشيخ يوسف بألَّا أعرف بموت أخيه؛ لقد ذهب إلى مصطفى أغا وقال له ألَّا يخبر أي شخص في بيتي حتى أصبح في حالة أفضل لأنه عرف ماذا في قلبي ناحية عائلته وخاف أن تسوء حالتي بسبب الأخبار. ولقد نُصحت كثيرًا بألَّا أكون وسط المرضى المصريين لأن لديهم شكوكًا في أن المسيحي هو الذي يسمُّ من يموتون وهو يعالجهم! صرت حزينة من أجل الشاب المهذب والرشيق ومن أجل أبيه العجوز. صار عمر في غيظ لعدم معرفته بموته لأنه كان يود أن يشارك في حمل جثته إلى المقبرة.

أخيرًا تعلمتُ ألف باء العربية، ويمكن أن أكتبها مرتبة، لكني الآن أركز في حاجتي إلى معجم وكتبت لهكيكيان بيك ليشتري لي واحدًا من القاهرة. الشيخ يوسف لا يعرف أي كلمة من الإنجليزية، وعمر لا يكتب ولا يقرأ وليس لديه أي فكرة عن قواعد النحو ولا ترجمة كلمة بكلمة، ومن ثم فتعلمي بطيء جدًّا.

حين أمشي في ساحة الجامع أعطي الأولاد الصغار الملاليم المعتادة وهم يتهجون الحروف والكلمات بصوت عالٍ تحت الرواق.. ألف باء شدة وفتحتان، ألف باء شدة وضمتان.. إلخ، أكون متعاطفة جدًّا مع حالاتهم الصعبة وألواحهم المعدنية القذرة. شر إضافي أن الكتب العربية مطبوعة في إنجلترا وفي المطابع الإنجليزية

وهذا يحتاج إلى مجهر في قوة أربعين حصانًا لتمييز الحروف، الأرقام كما هي عندنا لكن بأشكال أخرى، وشعرت بغباء كبير حين اكتشفت كيف كنت أكتب وأحسب بالطريقة العربية من اليمين إلى اليسار طوال حياتي ولم أكن أدري. على أي حال هم يجمعون الأعداد في عمود من أعلى إلى أسفل.

طلب إليَّ بعض الفقراء أن أتحدث مع السائحين الإنجليز كي لا يصطادوا حمامهم، إنه أمر لا يقبل التفكير لكنه بشكل كبير خطأ الخدم والمترجمين الذين يتصورون أن عليهم ألَّا يغامروا بإخبار أسيادهم بأن هذا الحمام هو ملكية خاصة. فكرت في كتابة ملحوظة واضحة على جدار بيتي بهذا الأمر، هنا حيث لا يوجد أقل من ثمانية أو عشرة قوارب تبقى لثلاثة أشهر كاملة فالخسارة للفلاحين خطيرة في حمامهم، وقنصلنا -قنصل الإنجليز- مصطفى أغا يخشى أن يقول أي شيء للسائحين، أعطيت جيراني تصريحًا بأن يخرجوا ويعلنوا أن الحَمَامَ ملكي، فهو يعشش في حشود على سطح منزلي، وأن يخرجوا ويقولوا إن الست تعترض على صيد طيورها خاصة أن بعضها تم صيده بالبنادق وهي تقف أعلى شرفتي بينما كنت جالسة فيها.

جاءني خبر من مسيو مونييه أمس يدعوني لأن أذهب وأبقى في قرية المطاعنة، المقر العظيم لحليم باشا قرب إدفو، وعرض أن يرسل دهبيته من أجلي، مؤكّدٌ سأذهب حين يصبح الجو حارًّا.. إنه الآن دافئ جدًّا ولطيف. إذا وجدت طيبةَ حارةً جدًّا مع تقدم الصيف سأركب عائدة إلى القاهرة أو أحاول الذهاب إلى السويس التي أسمع أنها رائعة في الصيف مبتعدةً عن هواء الصحراء. لكنه مُغْرٍ جدًّا أن أكون هنا.. منزل بارد رائع، طعام رخيص جدا، جنيه تقريبًا كل أسبوع لإطعام ثلاثة منا سمكًا وخبزًا وزبدًا ولحمًا ولبنًا وبيضًا وخُضرًا. كل البقالة بالطبع أحضرتها معي، لا مشاكل. راحة وجيران متحضرون.. الخوف الوحيد هو رياح الخماسين إذ لا أشعر بتحسن، لا أتوعك من شيء بشكل خاص، الدم ينبض لكن ببطء شديد.. سعال أقل كثيرًا لكني أكون منهكة

كثيرًا وغير قادرة على أي عمل. نادرًا ما أشعر بالقدرة على الخروج أو فعل شيء أكثر من الجلوس في البلكونة في جانب أو آخر من المنزل.

ليس لديَّ حمار هنا، الحمير المستأجرة سيئة جدًّا ونادرة لكني كتبت لمونييه أن يحاول ويحصل على واحد لي في المطاعنة ويرسله في يخت من يخوت نقل القمح التابعة لحليم باشا. لا شيء مريح مثل حمار مستعد دائمًا، إذا كان عليَّ أن أرسل من أجل حصان مصطفى فأنا أشعر بالكسل وأشعر بكثير من الارتباك لأستطيع الذهاب.

تلقيت خطابًا من الإسكندرية في الثامن من يناير.. أي طقس مرعب! لقد شعرنا بشبحه هنا في الأسابيع الثلاثة الباردة، أحيانًا أشعر بأن عليَّ أن أعود إليك مهما كان الثمن لكن أعرف أنه لا معنى لأن أحاول الآن. أشتاق إلى أخبار أكثر منكِ ومن كتاكيتي.

إلى السيدة روس

الأقصر - 8 فبراير 1864

طفلتي الحبيبة..

استقبلت خطابكِ الثالث منذ أسبوع وخطابين قبله، كنت كسولة جدًّا في الكتابة لأن الطقس بارد جدًّا في طيبة وكنت متعبة جدًّا. لا يهاجمني شيء حاد لكني لا أمتلك القوة على الإطلاق، الأيام الثلاثة أو الأربعة الأخيرة صار الطقس دافئًا وبدأت أشعر بالتحسن. أرسلت هذا الخطاب إلى القاهرة بواسطة السيدة الماهرة الفاضلة مدام دي بولينكورت ابنة المارشال كاستيللاني الذي هو هنا في إحدى بواخر الباشا. سوف تقابِلكِ حين تذهب إلى الإسكندرية، إنني أتعلم الكتابة بالعربية وحروفي الآن في الكتابة جيدة.. أؤكد لكِ، إن شيخي هو عزيزي الأثير الأكثر رشاقة والأكثر تربية وشاب و"سيد" من الأشراف.هؤلاء الصعايدة أفضل كثيرًا من سكان مصر السفلى؛ لديهم دم عربي في عروقهم يحتفظون بأنسابهم وأكثر رجولة واستقلالا وأكثر تسامحًا في العقيدة.

أخذني الشيخ يوسف إلى مقبرة جده الشيخ أبو الحجاج الولي الكبير هنا وقرأ الجميع الفاتحة لأجل صحتي، كان ذلك مساء الجمعة وخلال مولد الشيخ. كان عمر مندهشًا لهذا التصرف وخائفًا قليلًا أن يستاء الشيخ الميت. صديقي العظيم معاون البوليس هنا رقيق جدًّا.. رجل رائع محبوب كثيرًا من الجميع كما أسمع إلا القاضي الذي لم يكن مسرورًا بخطأ إعطاء القبطي عصا المسلم، بدأت أتأتِئُ بالعربية قليلًا لكن أجد صعوبة مرعبة؛ صيغة الجمع مربكة والأفعال صعبة.. ليس لديَّ كتاب يجعل التعلم سهلًا. لقد أرسلت لهكيكيان بيه أن يشتري لي معجمًا.

المنزل هنا رائع -برد الآن لكن المنزل سيكون مناسبًا جدا في

الطقس الحار- منعش ومبهج. أعتقد أنني سأبقى هنا كل الوقت فلن يكلفني شيئًا وهو مريح جدًّا، لدي صديق في مزرعة بقرية مجاورة وأستمتع جدًّا برؤية حياة الريف؛ ليست خشنة.. هي مثل الحياة في نيوزيلاند أو إفريقيا الوسطى لكن دون بربرية أو نقص في التهذيب في سلوك الناس. مسيو مونييه يدعوني للذهاب والبقاء معهم في المطاعنة ويعرض أن يرسل لي "دهبيته" لتنقلني. حين يصبح الطقس حارًّا بالفعل سأحب الرحلة جدًّا.

رجاء.. حين ترين مدام تاستو قولي لها شيئًا جيدًا عني وأخبريها كيف أحب البيت كثيرًا. أظن أنه رائع أن عمر يطهو الغداء دون عُقد.. المهم ألَّا يزعجه أنه يطهو طعامًا في رمضان للكافرة!

-33-

إلى السير أليكساندر دوف چوردون

الأقصر - في 12 فبراير 1864

أَلِيك ألحبيب..

نحن في رمضان الآن وعمر يستمتع حقيقة بهذه الفرصة بالاقتراب بروحه من الله؛ إنه يصوم ويغتسل بحيوية.. يصلي صلواته الخمس كل يوم ويذهب إلى الجامع كل يوم جمعة وسعيد جدًّا بهذا، ومستعد لطهو غداء للكفار بروح طيبة مثالية. إنها ميزة عظيمة عند المسلمين أنهم لا يسيئون لتقواهم بالغضب. الطقس منذ خمسة أو ستة أيام مثل الجنة تمامًا.. إنني أجلس في بلكونتي الكبيرة وأتشرب النسيم الشمالي الحلو وأنظر إلى الجبال الشامخة في مواجهتي وأفكر فقط لو كنتَ أنت وكتاكيتي -أطفالي- هنا معي، سيكون هذا أحلى ما في حياتنا. جمال مصر ينمو داخلي وأظن أنها ستكون محببة أكثر هذا العام عن العام الفائت. صديقي العظيم المعاون -وهو ليس الناظر التركي السمين المرح ذا العينين الحزينتين- يعيش في منزل أمامه منظر رائع وكثيرًا ما أذهب لزيارته وأجلس على الدكة -المصطبة أمام البيت- وأتكلم بقدر ما أستطيع وأرى الناس تأتي بمظالمها. لا أفهم كثيرًا مما يجري أمامي، لأن اللهجة الصعيدية متدفقة وتضاعف الصعوبات.. وإلا كنت أرسلت إليكَ بتقرير بوليسي -محضر- من طيبة، لكن المعاون يسر الجميع بسلوكه معهم ولا يبدون خائفين منه.

لقد عَيَّنَّا صبيًّا صغيرًا بوابًا لنا.. أو قُل هو الذي عين نفسه، وافتراضه لعزة النفس ممتع جدًّا. لقد قدم نفسه مع عصا ضخمة وتصرف مثل انكشاري جبار، إنه في حجم ريني تقريبًا.. صغير نحيل ويمتلك ما تبقى من جلباب أسمر وعمامته من خرقة مطبخ

ممزقة. إنني مغرمة جدًّا بأحمد الصغير هذا وأحب أن أراه في لوحة من اللوحات الحية لموريللو[41] يحمل فيها طبقًا به بقايا الطعام. أطفال هذا المكان أصبحوا لا يمكن تحملهم بسبب البقشيش حتى إنني شكوت للمعاون وسوف يجمع لجنة من الآباء ليجبروهم على سلوك أفضل. هذه الظاهرة هنا فقط.. وفي الأماكن التي يزورها الإنجليز. حين أذهب إلى القرى الصغيرة لا أسمع كلمة بقشيش، بل غالبا يُقدَّم لي اللبن لأشربه. حدث ذلك مرتين أو ثلاثًا ولم يطلبوا إليَّ دفعَ مقابل، وبدا الناس مسرورين جدًّا.

أمس عاد الشيخ يوسف لزيارتي.. إنها المرة الأولى بعد وفاة أخيه، كان واضحًا تأثره العميق لكنه كان يتحدث بشكل عادي كما يحدث في هذه المناسبات "إنها إرادة الله وكلنا سنموت".

أتمنى لو ترى الشيخ يوسف.. أعتقد أنه المخلوق الأحلى في مظهره وسلوكه، دائمًا أراه مهذبًا بسيطًا وفي جمال الغزال. المصري ذو التربية العالية جميل مثل الهندي ليس له مرونة وخداع القطط..عين المصري صافية وصريحة كعين طفل. مستر روشْل -القنصل النمساوي هنا- الذي يعرف مصر والعالم العربي جيدًا، يخبرني بأن كثيرين منهم جيدون تمامًا كما يبدو عليهم وتحدَّث عن الشيخ يوسف وكيف هو جيد جدًّا. يوجد ألماني هنا يعمل في حل الشفرات الهيروغليفية.. هو الهرّ دوميشين Herr Dummichen رجل مقبول جدًّا لكنه ذهب عبر النيل ليعيش في القرنة.. لقد كان في إثيوبيا في رحلة بحث عن معابد ونقوش، عليَّ أن أذهب وأزوره وأرى بعض المقابر مرة ثانية في صحبته، فلسوف أستمتع لأنني أحتاج إلى شارح جيد في هذه المناطق الغامضة المليئة بالأسرار.

صدري أفضل جدًّا في هذه الأيام الست أو السبع الأخيرة. واضح جدًّا أن الحرارة المباشرة هي ما تجعلني جيدة. أكثر من ذلك لقد سمعت من مسيو مونييه أن حمارًا جيدًا في الطريق في قارب من المطاعنة، وسيكلفني ما بين أربعة وخمسة جنيهات

وسيساعدني على أن أذهب أبعد مما أستطيع لو كنت استعرت حصان مصطفى الذي ترددت في استعارته فأعاره لسيدة مسافرة أخرى.

أحمد الصغير سيكون السائس الخاص بي وفي نفس الوقت هو البواب، أتمنى أن تتحدث مع مستر لايارد بالنيابة عن مصطفى أغا الذي يعمل كقنصل إنجليزي هنا منذ حوالي ثلاثين سنة، وهو حقيقة عبد للمسافرين الإنجليز. يقدم لهم الطعام ويقيم لهم المأدبة، يعظِّمهم.. ويفعل كل الأعمال الاستثنائية مع الريس والمترجمين لهم ويجعل من نفسه ساعي بريد لهم يعتني بخطاباتهم ويرسلها مع القوارب. يقدم كل الخدمات لهم ويعير بيته "للكفار" ليصلُّوا فيه أيام الآحاد حين يكون القسيس هنا. ولا مكافأة له على هذا كله إلا بعض هدايا من الإنجليز يرونها مناسبة له، ولقد رأيت ما يكفي منها ورأيت أنها ليست عظيمة ولا رائعة دائمًا. إن قنصل قنا الذي لا يفعل شيئًا يحصل على راتب منتظم، وأعتقد أن مصطفى يجب أن يحصل على شيء، فهو الآن عجوز.. فضلًا على أنه واهن ولا بد من موظف يساعده وعلى الأقل يجب تغطية ما يتكلفه. من فضلكَ قل هذا للايارد كرسالة مني.. لا تنسَ هذا أرجوك.. لأن مصطفى حقيقةً صديق رقيق لي في كل زمان ومكان.

الرابع عشر من فبراير:

أمس كانت عاصفة ترابية قادمة من الصحراء، أثقلت رأسي وجعلتني أشعر بالوهن لكنها لم تؤثر على صدري، اليوم رائق لين وكان هناك رعد بسيط في الصباح وقليل جدًّا من المطر.. كافية ليعتبرها هيرودوت منذرة. وصل حماري الليلة الماضية وجربته اليوم وأنا راضية به رغم صغره كما هو الحال في الحمير المصرية عادة، الحمير الكبيرة منها من الحجاز، رائع أن تجري المخلوقات الصغيرة تحت الشخص بكل سهولة ممكنة ودون أي إرادة منها. ركبت حماري إلى الكرنك وعدت ولم يبدُ أنه شعر بأني ثقيلة عليه، حين يتم استخدام الحمير كثيرًا وتجري كثيرًا عن المعتاد لا

تتحمل أقدامها وتسقط ومن ثم فكل ما يتم تأجيره من الحمير يمشي متثاقلًا جدًّا، حيوانات بائسة تنصاع لإرادة كل شخص في أن يركبها.

-34-

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 19 فبراير 1864

أمي الحبيبة..

لديَّ وقت ضيق لأسطرٍ قليلة، لذهابي شمالًا إلى القاهرة في مركب مستر ستروت وهيثكوت، إنهما معروفان جيدًا كشخصين نادرين من نوع خاص من الطبقة الراقية لأنهما لايضعان نفسيهما في موقف التعالي، لقد تلقيت خطابكِ المكتوب في 21 يناير مع العزيزة الصغيرة ريني منذ ثلاثة أيام.

أنا أفضل الآن لأن الطقس صار جيدًا من جديد، لقد كان لدينا مطر طوال اليوم -الذي قال عنه هيرودوت إنه معجزة هنا- وإعصار من الجنوب قادم من رأس الرجاء الصالح. ظننت أننا سنُدفن تحت الرمال التي تطيرها الرياح.

اليوم صحو من جديد.. رأيت عبد العزيز الصيدلي في القاهرة، بدا شخصًا جيدًا جدًّا وهو تلميذ صديقي القديم مسيو شريفريل وعُرف عن طريقه. هنا أنا بعيدة عن كل الأفكار الأوروبية، شيخ العرب لقبيلة العبابدة الذي له بيت أشبه ببيوت المدن هنا دعاني للخروج إلى الصحراء إلى الخيم السوداء، ونويت أن أقوم بالزيارة مع العجوز مصطفى أغا. توجد بئر رومانية في فناء بيته فيها غول.. لم أستطع أن أعرف القصة من مصطفى الذي يخجل من مثل هذه الأساطير لكنني سأجدها. كان لدينا حفل في بيت مصطفى من أجل ستروت الصغير ومَن معه.

فتيات راقصات ممتازات جدًّا.. بعض الإنجليز الأعزاء من القدامى الصاخبين جعلوني أضحك كثيرًا.. السيدات مندهشات كيف أن النساء هنا يرتدين ثيابًا مختلفة جدًّا عن ملابس النساء الإنجليزيات.. أفكار بائسة! لكنهن لم يكن مغلولات. فقط مشفِقَات ومصدومات. لا شيء أدهشهني كثيرًا مثل تبادل التحيات بيني

وبين المعاون سليم آفندي.
بدأت أشعر بأن الوقت الذي مضى وأنا بعيدة عنكم كلكم طويل جدًّا حقًا، لكني أظن أن أحسن فرصة لي هي الوقت الطويل في حرارة حقيقية. لقد عبرت هذا الشتاء دون أي إصابة بالبرد ولو مرة واحدة، والآن أقبل الطقس الحلو. أنا أكتب العربية من إملاء الشيخ يوسف.. القصة القديمة المحبوبة لأخ البربري مع القفص الزجاجي. العرب يُسَرُّون جدًّا حين يسمعون بأننا جميعًا نعرف ألف ليلة وليلة، إن الحاجة إلى تفسير من مدرس لا يعرف كلمة من الإنجليزية أمر صعب جدًّا. لا أعرف إطلاقا كيف أتعلم.
البريد سريع إلى هنا.. استقبلتُ خطابكِ خلال ثلاثة أسابيع كما ترين لكني لا أحصل على أي صحف، ساعي البريد يمشي على قدميه وهو لا يستطيع أن يحمل أي شيء ثقيل، واحد من رجالي العام الماضي -عسقلاني موجِّه الدفة- كان هنا لرؤيتي.. يقول إن رحلته كانت سعيدة العام الماضي. سمعت أن فيليب سيأتي إلى القاهرة وكتبت له أدعوه أن يأتي هنا ليرسم هؤلاء الصعايدة الوسيمين، يستطيع الوصول في مركب بخاري كما فعلت أنا من خلال حسنين أفندي بمبلغ تافه. أتمنى أن تستطيعي الحضور لكن الحرارة التي تعطيني الحياة هنا قد تكون صعبة عليكِ تمامًا، الترمومتر في غرفة الانتظار تصل فيه الحرارة إلى 67 درجة حيث لا تدخل الشمس وحرارة الشمس غير عادية.

-35-

إلى السير أليكساندر دوف چوردون

الأقصر - 26 فبراير 1964

أّلِيك الحبيب..

لقد تلقيت خطابكَ لثالث مرة وسعيدة جدًّا بهذه الأخبار، مؤكد أنك ستُسَر حين ترى عمر يحضر خطابًا لي ويجلس على الأرض حتى أخبره بأخبار العائلة ثم يقول "الحمد لله". نحن مسرورون جدًّا وهو يعود إلى أوانيه ومقلاته مرة ثانية. اللورد والسيدة سبنسر هنا ومعهما أخته في قاربين، هذا الإنجليزي الكريم المحتد الذي تمتد أصوله في القارة وصل إلى مصر وهو محل توقير كبير ومحبة.. "هؤلاء الإنجليز النبلاء الذين لديهم رحمة في قلوبهم".. هكذا قال أحد البحارة لي العام الماضي الذي جاء ليقبل يدي، إنها حقيقة سارة في التاريخ الطبيعي!. "هنا لورد".. هكذا أعلن أحمد عن اللورد سبنسر. إنهم ناس ممتعون جدًّا. سمعت من جانيت اليوم أنه كان هناك ثلج في القاهرة وفي شبرا ومجاعة وأسعار عالية، لا أستطيع تحمل أسعار القاهرة في اللحم وسأبقى هنا وأشوي اللحم في طيبة. أيها الزوج تعالَ سعيدًا مع أهل طيبة.. ماذا لو ارتدينا جلابيب سمراء؟ إنها تصنع الرجال ونتحداك أن ترى أفضل.

نحن الآن في متعة كاملة بطقس الصيف، لايوجد برد لأسبوعين ويصبح الطقس أحسن كل يوم. هدأ سعالي واختفت آلام الصدر كثيرًا وإذا لم تهزمني الحرارة فأنا واثقة أنها ستكون معالجة جدا لرئتي. إنني أجلس في بلكونتي العظيمة وأشرب الهواء منذ الصباح الباكر حتى الظهيرة حين تصبح الشمس داخلها وتغطيني. لقد وقف الترمومتر عند 64 درجة لأسبوعين أو ثلاثة أسابيع، يرتفع أحيانًا إلى 67 لكن الناس في القوارب أخبروني بأنها ما تزال باردة في الليل في النهر، هنا دافئة طول

الليل. أخشى أن تتسبب خسارة البهائم في إيقاف الري إلى مدًى بعيد ومن ثم يكون الحصاد في مصر السفلى -الوجه البحري- من كل المحاصيل غير كافٍ، المرض لم ينتشر بعد في المنيا أو كان قليلًا لكن من المؤكد سترتفع أسعار البهائم هنا أيضًا. الطعام هنا يصبح عزيزًا وتصل أسعار اللحم من أربعة قروش ونصف إلى سبعة للرطل، والخبز ارتفعت أسعاره والأصح أن أقول "القمح".. لأنه لا يوجد خبازون هنا. إنني أدفع لامرأة لتطحن وتخبز لي القمح الذي أشتريه ويكون حلو الطعم جدا. من الصعب أن تقول كيف أن كل سلوك في الحياة هنا أشبه بالعهد القديم من الإنجيل! وكيف هي جديدة تمامًا حين يقرأ عنها المرء هنا. إن خطاب يعقوب القديم للفرعون جعلني أضحك حقيقة -لا تشعر بالصدمة- لأنه هو نفسه ما يقوله الفلاح للباشا.. "الأيام عجاف وشريرة". يعقوب كان رجلًا قويًّا.. لكن هكذا كان سلوكه، أن يقول ذلك وأنا أشعر بالتعاطف مع يعقوب الذي اعتدت أن أعتقد أنه كان جاحدا وساخطا. حين أذهب إلى مزرعة سيدي عمر ألن يقول "كلي الآن لحمًا طيبًا وكعكًا مخبوزًا"؟ ويريد أن يقتل غلامًا! فطيرة مع كثير من الزبد هي ما أكله الرجال الثلاثة الذين وفدوا على النبي إبراهيم.. وهذه هي الطريقة التي تصرف بها مملوك إبراهيم ووكيله وهو يدبر زواج إسحق بربيكا[42] كل الروابط الممزوجة مع التطهر والبغض "حكايات الكتاب المقدس وصوره".. سقط قناعها قليلًا هنا ويظهر الصدق غير القابل للتقليد للحياة والناس -غير المداهنين بالتأكيد- وتبدو الحياة هنا مثل ملحمة لهوميروس. إن دموع يوسف وحبه لإخوته المولودين من نفس الأم هي مناسبة تمامًا.. فقط الإنسان يرى أي سباق حقير يقوم بنو إسرائيل بمقارنته ببني إسماعيل أو المصريين. إن سِفرَيْ اللاويين والتثنية سِفرَيْ إلحاد جدًّا مقارنة بالقرآن أو بالأيام الأولى لإبراهيم، الحق أن اليهود الأوائل كانوا أمة فاسدة.. كانوا يحكمون بقواعد بوليسية ضرورية لهم.. أرجوك لا تجعل هذه الملاحظات عامة وإلا سيتم حرقي مع ستانلي

وكولينسو Stanley and colenco (حتى لا أعاني اقتراحًا للشيخ يوسف بأن أدخل الإسلام).

لقد كان هو ومسيو دي روجيه هنا الليلة الماضية وأمضينا مساء مصريًّا، مسيو دي روجيه يتكلم بإعجاب تمامًا كعالم وكان باهرًا أن أرى طلَّة الشيخ يوسف الجميلة المسرورة جدا إذ يجد نفسه يُعامَل كجنتلمان ومدرس من ناحية أوروبيين مرموقين. كنت كامرأة مندهشة تمامًا لمعرفة مسيو دي روجيه بالهيروغليفية والفصحى العربية.

إنه سارٌّ جدًّا أن ترى من العرب من يقرأ ولديه أفكار الشخص الراقي، الإمام أخو الشيخ يوسف فقد زوجته.. لقد تزوج منذ اثنين وعشرين عاما ولم يفكر في أخرى. كنت مصدومة من التعاطف الذي يعبر عنه مع "السلطانة الإنجليزية"، وكما يقول كل الناس غير المتعلمين "لماذا لا تتزوج ثانية؟"، إنه مثير أن تُخرج الطهارة المشاعر نفسها تحت كل الشرائع السماوية. اعتذرت ليوسف عن عدم رد السلام عليكم التي قالها لعمر وأني -باعتباري غير مؤمنة- قد لا أوافق عليها. لقد احمرَّ وجهه ولمس يدي ثم قبل يده وكان مفجوعًا يخشى أن يجرح التمييز مشاعري.

حين أفكر في النفاق الكهنوتي في وطني أرتعش من الاختلاف.. لكن يوسف كان يؤمن بالخرافات، أخبرني كيف قام شخص أسفل النهر بعلاج بقرته بماء يصب على المصحف، وأشار إلى كتابة جزء من القرآن من أجلي لعمل حجاب يحمي صحتي. إنه مفتون بالأنتيكات وبعمل مسيو دي روجيه ويحب الحديث عن الاتصال بين مصر القديمة وكتب موسى ويغالي في أهمية سيدنا موسى بالطبع.

إذا ذهبتُ إلى القاهرة من جديد سآخذ خطابات إلى بعض العلماء هناك من الإمام عبد الوارث هنا وسأرى ما لم يره أحد من الأوروبيين إلا إدوارد وليام لين.

أعتقد أن الأشياء تغيرت عن أيامه والرجال نفسهم ومن نفس الطبقة صاروا أقل في الوصول إليهم مما كانوا ذلك الوقت، ومن ثم

امرأة عجوز -يوسف يعتقد أنني في الستين من عمري- ومتعلمة لا تصدمهم.. بل تسليهم. كل الأوروبيين هنا تجار ويتحدثون بلغة متعجرفة ولا يهتمون لمعرفة الرجال المصريين المهذبين، إذا رأوا شيئًا أعلى من خدمهم فهم الأتراك فقط أو التجار المصريين. لا تتخيل أني أستطيع الحديث بسهولة بعدُ.. لكن أفهم جيدًا وأتلعثم قليلًا.

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - في 1 مارس 1864

أمي الحبيبة..

أعتقد أنه ستكون لدي فرصة لإرسال الخطابات خلال أيام قليلة بواسطة مركب بخاري سريع، وأيضًا سأبدأ في خطاب إذا سمحت الفرصة وأرسله بالبريد إذا تأخرت السفينة كثيرًا. روعة المناخ الآن فوق الوصف، وأشعر بتحسن كل يوم، إنني أخرج من المنزل مبكرة في السابعة أو الثامنة فوق حماري الأسمر الضئيل ثم أعود أتناول فطوري في العاشرة تقريبًا وأخرج مرة ثانية في الساعة الرابعة بعد الظهر.

أريد أن ألتقط صورًا ليوسف وأرسلها إليك.. إن المشاعر والتحيزات والكبرياء عند العرب المهذبين كما عرفتها عنهم شيئًا فشيئًا مدهشة وخارج المقارنة. لا يمكن تعميمها من رجل واحد بالطبع، حتى لو أن شخصًا واحدًا يعطي أفكارًا جديدة، أكثر شيء مثير هو حلاوة ورقة الشعور بالرعب من إيذاء أي شخص -هذا يمكن أن يكون فرديًّا بالطبع لكن من الجيد جدًّا أن يتم تعميمه- لقد اعتذرت للشيخ يوسف منذ يومين بسبب عدم ردي "السلام عليكم" عن غير قصد حين أتى إلينا، وهذا ما حدثني عمر عنه. مساء أمس جاء إلينا وخاطبني بـ"السلام عليكِ"، لا بد أنه فكر أن عليه قول ذلك لي ليصل إلى نتيجة أن ما حدث لم يكن خطأ. قال "إنه أمرٍ حسن بالتأكيد لكل مخلوقات الله أن يبلغوا السلام بعضهم بعضًا".. والآن لم يصل مسلم غير متعلم إلى هذه النتيجة، عمر قد يصلي، يعمل، يكذب، ويفعل أي شيء من أجلي، بل يضحي بالمال، لكن أشك في أنه يقول "السلام عليكم" لأي شخص غير مسلم. جاوبت كما أشعر "سلام على أخي وليبارك لك الله!"، وكان الأمر تقريبًا كما لو أن قسيسًا

كاثوليكيًّا مدفوعًا لعمل الخير وتقديم العشاء الرباني لشخص من غير ملته. لاحظت أن قصة الحلاق كانت جديدة عليه وسألته ما إذا كان يعرف ألف ليلة وليلة.. لا.. هو فقط دَرَس ما يخص العقيدة، هذه المتع الخفيفة لم تكن مناسبة لرجل الدين.. "نحن الأوروبيين لم نعرف ذلك بالطبع بينما عقيدتنا كانت لإمتاع أنفسنا وهو لا يسعد بما هو مسلٍّ أو بالموسيقا أو بقصص الضحك والدعابة، انظُر إلى الجهل المتبادل عند كل الناسكين!.. لديه ابنة صغيرة في السادسة أو السابعة يعلمها أن تقرأ وتكتب وهو يعتقد أنه لا أحد خارج القاهرة يفكر في ذلك حيث كثير من بنات العلماء يتعلمن وهو يفضل ذلك. ماتت زوجته منذ عامين ومنذ ستة أشهر تزوج من جديد بزوجة في الثامنة عشرة من عمرها! الشيخ يوسف قال لي إنه في الثلاثين من عمره وهو يبدو في الثانية أو الثالثة والعشرين.. يا لها من زوجة أب طيبة ويا لها من زوجة! يستطيع أن يتلو كل القرآن دون مصحف في يده.. هذا يستغرق اثنتي عشرة ساعة منه! لقد قرأ التوراة (العهد القديم) والإنجيل وبالطبع كل عالِم يقرؤهما.. "كلمات سيدنا عيسى حقيقة صادقة لكن المسيحيين غيروها وأفسدوا معناها، هكذا نعتقد نحن المسلمين.. كلنا أبناء الله الصغار". سألته هل يسمي المسلمون أنفسهم هكذا أم عبيد الله؟ أجاب "الاثنان واحد.. أبناء أم عبيد.. هل يهتم الإنسان الجيد بما يعنيه كلاهما؟".. من فضلك لاحظ الشعور الشرقي هنا، "عبد" مصطلح عاطفي ولا ازدراء فيه وتذكر قائد المائة الذي أحب خادمه " عَبدَه"[43] لقد سمع من فاضل باشا كيف شُفيت بقرة من الوباء الشائع في مصر السفلى بواسطة رش الماء على المصحف، وبلا شك كان هذا صادقًا ولقد فعله فاضل باشا. هو يعتقد أن الأطباء المصريين كلهم لا يستخدمون آيات القرآن.

مسيو دي روجيه عالم المصريات الكبير أتى إلى هنا ذات مساء، إنه يتحدث العربية تمامًا ويُسرُّ بالشيخ يوسف الذي كان مسرورًا لترجمة الهيروغليفة ويتشوق لأن يعرف ما إذا كان قد وجد شيئًا

عن سيدنا موسى أو يوسف. كان يبدو مسرورًا وشاعرًا بالقيمة وهو يُعامَل كجنتلمان ومدرس من ناحية عالِم مثل مسيو دي روجيه و"شيخة" مثلي، ولأنه يعمل ككاتب -مشرف على الأعمال- لمصطفى وكيل قنصلنا ويرتدي جلبابًا قديمًا أسمر ولا يتحدث الإنجليزية.. أستطيع القول إنه ليس نادرًا أن يواجه بعض الإهانة من التجاهل التام. لقد قدم قليلًا من صفحات قديمة للقرآن بالخط الكوفي واستشار مسيو دي روجيه في معناها.. قليل من الإطراء من عالِم عربي لرجل فرنسي لكن الأخير لم يشعر بذلك. رأيت هذا. إجابة عن أسئلة لا تتغير عن أسرتي أخبرته مرة بأن أبي عالم كبير في القانون وأمي تستخدم ما يكتبه وتقدمه للطباعة. كان مندهشًا وأنا أقول "أمي" لأنه يعتقد أنني في الخمسين أو الستين وكان مبتهجا بالفكرة.. "لقد فضل الله عائلتك بالفهم والمعرفة وأتمنى أن أقبِّل يد الشيخة والدتك لعل الله يبارك فيها!".. إنه يعجب بحماس بصورة لموريس ويقول إن الإنسان يرى الصفات الجميلة لسلوكه في وجهه، وأعيد عليك دعاءه حين جلس متطلعا إلى الصورة بعينين متعاطفتين ودعا بصوت مبحوح "للجدع الجميل" وهو يقرأ الفاتحة "اللهم خذ بيده وكن عنه من الراضين!"، في كل الأحوال هناك شيء في الشيخ يوسف يذكرني بوورسلي
Worsly.. نفس نقاء الروح والذكاء بالإضافة إلى براءة الأطفال. أفترض أن بعض رهبان العصور الوسطى لهم نفس المنظر لكن لا يوجد كاثوليكي رأيته يبدو مسالمًا هكذا وغير مدعٍ.. إنني أرى فيه -كما أرى في كل الناس الذين لا يعرفون طرق الشك- توحده السهل مع العقيدة. أسمعه يطلق النكاتَ مع عمر عن رمضان وعن صلوات عمر المستمرة وكان يضحك من قلبه. قد يعطيك هذا أي فكرة عن شخص جديد عليك. من الصعب جدًّا أن تصف السلوك الذي يعطيك انطباعًا عن الجديد. خلاصتي هي أن الملحد الذي تحلم بأن تجده هنا عبث وأضيف.. خطأ. كل المطلوب هو معرفة عامة وتعليم وستقوم العقيدة بتطهير وتنمية نفسها.

هذه عناصر متماهية مع عناصر المسيحية مرهونة كما هو دائمًا بالزهد والتسامح، من الناحية الأخرى فالعقيدة بسيطة وليس فيها مميزون بالصلاة، أعتقد أن الدين ظل مقبولًا بشكل رائع مع الأخذ في الاعتبار الجهل التام لأولئك الذين أمسكوا به. سأضيف ملحوظة سالي العملية أن "الصلاة هي الشيء الجميل للكسالى.. فعلى المصلين أن يغتسلوا في البداية ثم تكون الصلاة تدريبًا كبيرًا"، لا بد ستتسلى بما تقوله سالي حين ينهض عمر للاغتسال في الموعد ويصلي ويأكل قبل الفجر في رمضان - يتسحر- إنها تدق بابه وتتصرف مثل مؤذن الصلاة "هيا يا عمر اصحَ يا نايم وصلِّ وتسحر"، السحور هنا هو الفطور.. إنه وقت النوم حين تسمع المؤذن قائلًا "الصلاة أفضل من النوم"، رمضان عمل صعب فكل شخص يتحرك وهو كسلان. أمس تشاجر أصحاب الجِمال طول اليوم تحت بلكونتي وسألت لماذا كل هذا! فقال عمر ضاحكًا "كل هذا من أجل لا شيء، إنه شهر رمضان وما يفعله بهم.. أريد أن أتشاجر مع شخص ما أنا أيضًا، الجو حار اليوم ويسبب العطش"، أكثر من ذلك أعتقد أنه يجرح صحة الكثيرين دائمًا لكن بالطبع إنه الشيء الأكثر أهمية في عيون الناس فهناك الكثيرون لا يصلون في الوقت المعتاد لكن القليلين لا يصومون رمضان، إنه إجابة عن Scotch Sabbath السبت الإسكتلندي والمقارنة أيضًا مأخوذة عن سالي[44]

يوم الجمعة:

يتحدث صديقي سليم أفندي هنا عن شؤونه وتعامله الجيد مع الدين، إنه متحدث قوي وأنا عادة أقول "أيوا" -أي نعم- و"لا" و"صح"، وأتعلم السلوك والعادات. أخبرني بأنه اشترى جاريتين سوداوين من النساء -أم وابنتها- من قبطي بنحو 35 جنيهًا لهما معًا. الأم طاهية ممتازة والابنة لسريره حيث إن زوجته لا تحب أن تترك القاهرة وأبناؤها في المدرسة هناك. هذا يعطي الشخص نوعًا من الانتباه ليسمع قاضيًا محترمًا يخبره بمثل هذا النظام

المنزلي، لقد أضاف آن هذا لا يتناقض مع "الست الكبيرة"، فالبنت السوداء جارية فقط وهؤلاء الناس لا يفكرون أبدًا في أن لديهم أطفالًا كافين. أكثر من ذلك قال إنه لا يستطيع النجاح براتبه الصغير دون نساء يحفظن له بيته الذي هو حقيقي هنا والنساء محترمات في منزل الرجل بهذه المعايير. سليم له سمعته العالية بأنه لا يأكل الناس.. إنه مسلم جاد ويعوَّل عليه كثيرًا كموحد بالله أن يفعل هذا ويشعر بازدراء كبير للعبثيين كما يعتقدهم من الأقباط. هو مهذب جدًّا يقول "مسيحيون" لكن بلا كراهية.. فهو معروف بعدم التحيز. فقط هو لا يستطيع أن يفهم كيف يمكن أن يعتقد الناس في مثل هذا الذي لا معنى له! إنه نوع جيد من الفضلاء، أمين، مستعد للمساعدة وبكلمة واحدة المسلم النقيض القوي للتقي الطيب الشيخ يوسف الذي يملك كل المشاعر التي نسميها أعمال خير مسيحية إلى درجة كبيرة، والذي وجهه يشبه وجه الحواري المحبوب والذي لا يملك أي تعلق بالخطب المذهبية مثل سليم الفاضل. هناك فكرة عامة جدًّا بين المصريين وهي أن المسيحيين يكرهون المسلمين وأنهم يحملون لهم الروح الصليبية القديمة.

متأخرًا جدا تركنا عمر ليصلي، وهو يصلي خوفًا من سخريتنا والآن هو متأكد أن الأمر ليس كذلك وكثيرًا ما أراه يصلي في الغرفة حيث تجلس سالي منشغلة باعتبارها مكانًا نظيفًا هادئًا. الشيخ يوسف جاء ولحق به مساء أمس هناك وصلى معه وقدم له بعض التعاليم الدينية، لم تزعج سالي مطلقًا وعملها في شغل الإبرة وأنا دائمًا مشكورة لكوني لا أكره المسلمين. وعدني الشيخ يوسف ببعض الخطابات إلى بعض العلماء في الأزهر بالقاهرة حين أعود إليها فعليَّ أن أرى الأزهر، أخبره عمر بأني رفضت أن أذهب مع انكشاري من القنصلية خوفًا أن أسيء إلى أي شخص مسلم ممن سيندهشون لذلك جدًّا. قال إن أصدقاءه سوف يمنحوني ملابس زوجاتهم ويأخذوني إلى الأزهر، سألت هل عليَّ أن أخفي ديانتي فقال "لا"، فقط هناك آلاف من

الشباب وسيكون من الأدب آكثر آلّا يحملقوا في وجهي المكشوف ويتحدثون عنه.

حدثني سليم بكثير من الجدل النحوي عن "الابن" والـ"النبي" في ما يتعلق بالمسيح في آيات الإنجيل معتمدًا علي علامة مضاعفة -شَدّة- فوق النبي. شرد حين ذكَّرته بأن الإنجيل كتب باليونانية كما يحدث لباحثي الدين الهواة لدينا إذا قلت إن الإنجيل لم يكتب بالإنجليزية. ورغم ذلك حدثته عن أن كثيرًا من المسيحيين في إنجلترا وألمانيا وأمريكا لا يعتقدون أن سيدنا عيسى كان إلها لكن فقط النبي والمعلم الأعظم وأنا نفسي من هذا النوع. على الفور أعلن أن هذا يكفي فلقد استقبلوا "الهداية ولم يكونوا من الناكرين". لقد اعتقد مثل هؤلاء المسيحيين في تعاليم المسيح التي كانت صادقة وليست فذلكة القساوسة والأساقفة -الأساقفة دائمًا "يقفون عندها" كما يقول طلاب المدارس- كنت مندهشة جدًّا أنه رغم قوته لا يبدي أي تعصب ضد الأقباط ويتحدث بمرارة أقل مما سمعت من "الموحدين" ويُدين هذا النوع من المناقشات الشائعة. أؤكد بحرارة أنه لن يكون سائغًا بين كثير من الموحدين أن يُعتَبروا من أتباع الإسلام، لكن إذا رغب الناس حقًّا في التحول للأحسن فالباب مفتوح ولا شيء آخر.

الاثنين: اليوم السابع.

لقد أتى المركب البخاري وأفترض أن أرحل غدًا ومن ثم عليَّ أن أنتهي من هذا الخطاب لأذهب به. لم أستقبل أي خطابات منذ فترة وأشتاق للبريد، نحن الآن مستقرون في جو دافئ ولا خروج كثير في منتصف اليوم. الدنيا الآن تشوي مَن يخرج وأرى ثمانية رجال سود يسبحون ويقفزون بمرح وجلدهم يلمع مثل كلاب البحر حين تبتل، إنهم مملوكون للجلَّاب.. قارب متعهد العبيد، الشيء الجميل هو أن ترى الرجال والأطفال في العمل بين المحاصيل الخضراء، الرجال نصف عراة والأطفال كلهم عراة تمامًا، تحت الشمس بشرتهم السمراء تبدو كما لو كانت في لون العنبر

ومشهدهم جميل حقّا.
إنني أبتهج حين أقول إنه في يوم الأربعاء سيكون العيد وغدًا "سيموت" رمضان ! عمر صار نحيفًا جدًّا وشاحبًا ويعاني الصداع وكذلك كل من أراه. كم أرغب لو ذهبت لأراكم جميعًا بدلا من الخطابات لكن من الواضح أن هذه الحرارة هي الشيء الذي يجعلني في صحة جيدة إذا كان هناك شيء آخر يمكنه ذلك.

-37-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 7 مارس 1864

أَلِيك الحبيب..

الطقس الحار الحقيقي -أتحدث كالإنجليز- قد بدأ، والشمس الحلوة والهواء الصافي ممتع ويبعث على الحياة، سعالي تلاشى وقوتي تتزايد ببطء. الإنسان لا يستطيع الخروج في منتصف النهار وأنا أركب حماري مبكرًا ومتأخرًا وأحمد الصغير يهرول جواري. في المساءات يأتي العزيز الشيخ يوسف وأتخبط لساعة مع الإملاء وقراءة قصة الأخ الخامس للبربري (هو والصندوق الزجاجي)، أقدِّر أن يوسف يحبني أيضًا لأني دائمًا ما تتم تحيتي بمودة عميقة من قِبل رجال حلوين يرتدون عممًا خضراء ينتمون مثله إلى العائلة المقدسة للشيخ أبو الحجاج. إنهم يتابعون برقة حالتي الصحية ويبتهلون من أجلي ويتمنون أن أستمر في البقاء بينهم.

ربما تصدم كثيرًا هنا من التشابه مع الإسبان. "Cosas de Espana"، هي بالضبط "شغل العرب" ودون فولانو Don Fulano بالعربية هي كلمة "فُلان". كذلك Ojala هي "إن شاء الله". الموسيقا والرقص هنا أيضا يشبه الإسبانية.

10 مارس 1864

أمس كان عيد الفطر. في مساء الثلاثاء خرج كل شخص يمتلك بندقية أو مسدسًا يطلق الرصاص في الفضاء، استخدمت كل طبلة وكل دَرَبُكَّة، وكل الأطفال هتفوا في الشوارع "رمضان مات.. رمضان مات"، فجر اليوم ذهب عمر إلى الصلاة المبكرة للعيد، كانت هناك تجمعات من الناس لا تستوعبهم الجوامع أخذهم الشيخ يوسف للصلاة بين المقابر ووقف على تبة عالية يقدم خطبته وعظته. قدم عمر لي تقريرًا مرتجلًا كله عن الخطبة كالتالي.. في البداية أشار يوسف إلى القبور "أين ذهب هؤلاء

القوم؟ ثم أين المعابد القديمة؟".. ثم قال "أين من بنوها؟ ألم يأتِ الغرباء من البلاد البعيدة ويأخذوا الجثث هناك ليشاهدوها ويعجبوا بها؟ بماذا أفادت عظمتها؟ إلخ إلخ. ماذا إذن أيها المسلمون سيفيد حين يأتي القدر للجميع؟ حقًّا الله عادل ولن يسلب أي شخص حقه وسوف يكافئك إذا فعلت الصواب ولن يستثني أحدًا فلا تفسدوا ولا تظلموا أحدًا لا في شخصه ولا في أسرته ولا في ماله. توقفوا إذن عن خداع بعضكم بعضًا أيها الرجال وعن الجشع ولا تظنوا أن ذلك تشفع له الصدقة أو الصلاة أو الصيام أو تقديم الهدايا إلى خدم الجامع.. النعم تأتي من الله، وهي كافية لك إذا لم تجرح أي شخص وبالذات امرأة أو صغيرًا"

بالطبع كانت الخطبة طويلة لكن هذه كانت مادتها كما قال عمر لي، وأخلاقية جدًّا أيضًا كما بدت لي وعِظَةً ذات فائدة للجميع وتستحق أن تُلقَى في جمع من محبي الخير في إكستر هول. Exeter Hall. لا توجد جبرية في الإسلام.. وكل سيكافأ على أعماله.

"حتى الكفار لن يظلمهم الله".. هكذا يقول القرآن. بالطبع الإيمان بفائدة الأعمال الجديرة بالتقدير يقود إلى نفس النوع من الاعتقاد بين الكاثوليكيين، السعي لخلاص روح الفرد بفعل الخير، الصيام، الهبات، إلخ. ولذلك فإن تركيز يوسف على عدم عمل الشر عميق ويستحق التقدير.

بعد الخطبة اندفع الجميع لتقبيل رأسه ويديه وقدميه والتفوا حوله على نحو رهيب وكان عليه أن يبعدهم بسيفه الخشبي الذي يحمله العلماء الرسميون يوم الجمعة. لقد أتى بعد ذلك ليتمنى لي الأمنيات الطيبة المعتادة، وبدا متحمسًا جدًّا وضحك من القلب من القبلات المرعبة التي تحمّلها. كل الناس تتعانق عند اللقاء في الاحتفال بالعيد.

المطبخ مليء بالكعك "المستدير" الذي أرسله لي أصدقائي، وهو نفس الكعك الذي نراه يقدم كصدقة للآلهة في المعابد والمقابر. ذهبت في المساء إلى المعاون ووجدت الكثير من

الناس في أحسن ثيابهم، نصفهم كانوا أقباطًا بينهم قسيس شاب وسيم دخل في مناقشة دينية مع سليم أفندي، ومن الغريب أن أقول إنها كانت مناقشة اتسمت بالسلوك الطيب من الجانبين. ثم جاء قبطي بعامل من مزرعته قال إن لصوصًا ضربوه وسرقوا حقله، لخص القبطي المسألة في عشر كلمات فقام المعاون بإرسال رجال من عنده معه للقبض على الأشخاص المتهمين وتتم محاكمتهم عند شروق الشمس وأن يتم ضربهم إذا كانوا مذنبين وإجبارهم على إصلاح ما أفسدوه.

جاءني أمس الجنرال هاي Hay، عسكري أنيق عجوز ذو عينين زرقاوين، وجد الكثير من الفلاحين يجلسون معي يستمتعون بالقهوة والتدخين وكانوا سعداء جدًّا حين لم نضغط عليهم أن يقوموا أو يزعجوا أنفسهم. حين وقف الجميع في فزع عند دخول مثل هذا الإنجليزي ذي المظهر العظيم وبدؤوا يلمون سجاجيدهم. أخبرناهم بأن مهنة المزارع في بلادنا محترمة جدا وأن الجنرال يطلب إلى مزارعيه أن يجلسوا ويشربوا النبيذ معه.. "ما شاء الله.. طيب كتير" قال عمر العجوز -صديقي الفلاح- وقبّل يده تحية للجنرال هاي بتعاطف كبير.

نحن الإنجليز محبوبون هنا بالتأكيد، قال سليم مساء أمس إنه غالبًا ما يقوم بأعمال مع الإنجليز ويجدهم دائمًا "دوغري"، أصحاب كلمة واحدة دون إطناب ولا يشبهون كل الأوروبيين وخاصة الفرنسيين! الحقيقة أن قليلًا من الإنجليز المؤدبين يأتون إلى هنا فيما الأوغاد يذهبون إلى المستعمرات، ومصر هي حوض غسل كل خطايا مجرمي جنوب أوروبا.

قبطي محترم هنا اسمه تادرس حصل على "قطعة من الورق" بعشرين جنيهًا بيعت بها تحف لرجل إنجليزي، وبعد أن مشى الإنجليزي أحضرها لي. أي نوع من الورق هي وكيف يستطيع صرفها! أم أن عليه أن يحتفظ بها حتى يرسل إليه الجنتلمان المال! كان الأمر محيرًا فالورقة حوالةٌ مالية ووجدت صعوبة في شرح هذا وعرضت عليه أن أرسلها إلى مصرف بريجز وشركاه في

القاهرة ويحصل عليها نقدًا لأني لا أعرف متى سترسل إليه النقود، وربما يكونون في انتظار شخص أمين يرسلونها معه. طلبت إليه أن يكتب اسمه على ظهر الحوالة فاعتقدَ أني أريدها كإيصال بالنقود التي لم تصل بعد وكاد يكتب الإيصال بالعشرين جنيهًا لتكون أمانة عندي فهو يثق بي. القبطي عادة يكون حريصًا على ما يتعلق بجيبه لكنه يقبل أي شيء من الإنجليز. أتمنى ألا يكون في المسألة أي خداع للرجل.

أخبرني مستر كلوز بأنه حين غرق قاربه في الشلال وبقي هو نصف عارٍ على الصخور دون أي نقود ولو قليلة أتى أربعة رجال وأبدوا استعدادهم ليعيروه أي شيء يحتاج إليه، حين كنت في إنجلترا العام الماضي عمل عمر في خدمة رجل إنجليزي ثم سافر هذا الإنجليزي وعليه سبعة جنيهات ثمنًا لأشياء اشتراها من التجار. كان مع عمر نقود تكفي للدفع لكل التجار وفعلها واحتفظ بالأمر سرًّا حتى لا يقول أحد من الأوروبيين الآخرين "العار للإنجليز"، حتى إنه لم يخبر عائلته. من حسن الحظ أرسل الرجل النقود بأول بريد قادم من مالطا ووصلت إلى شيخ الترجمانات الذي بدوره أعطى عمر إياها، لكنه أيضًا لم يتحدث في ذلك. التستر على الشر هذا يعد جديرًا بالتقدير وواجب ديني. الفضيحة هي الجريمة الأكثر أهمية عند المصريين والأمر واضح في علاقة الرجل بالمرأة، فالقرآن يقول "هُنَّ لِباسٌ لكم وأنتم لباسٌ لهنَّ"، وهكذا فالقيود من أجل العفة متشابهة وواحدة للطرفين، فكما أن الرجال يجدون صعوبة في الخروج عن العفة تفعل النساء نفس الشيء. لم أسمع قطُّ عن سوء سلوك للمرأة دون مئات من الأعذار، ربما يملك زوجها جواريَ من البنات.. ربما هو عجوز أو مريض أو لا تحبه أو لا تستطيع أن تقاوم الخطيئة. الحب العنيف يأتي كقدر الله كما يقول محامونا في المحكمة، وعلى الرجل والمرأة أن يرضيا به أو يموتا. شاب صغير الآن في البيمارستان في القاهرة بسبب جمال وحلاوة لسان سيدة إنجليزية كان خادمًا لها وأحبها.. كيف كان له ألَّا يشعر بذلك؟ هذا قضاء الله.

كثيرًا ما أسمع عن الليدي إلينبورو[45] Lady Ellenborough التي تزوجت بشيخ العرب لبالميرا[46] Palmyra وتعيش في دمشق. العرب يعتقدون أنه غير إنساني من السيدات الإنجليزيات أن يتجنبنها. ربما تابت وهي في كل الأحوال قد تزوجت وتعيش مع زوجها، سألت عمر هل يمكن أن يخبر أخاه إذا رأى زوجته تفعل أي شيء خطأ.. (ملحوظة: هو لا يطيقها) قال "بالتأكيد لا.. وإلا أسترها بعباءتي"، وقال لي أيضًا إنه بين عرب الصحراء -العرب الحقيقيين- حين يتعب مسافر ويتعبه الطريق يقصد خيامهم. وضيافته واجب ويرسلونه إلى الحريم ويتركونه هناك ثلاثة أيام مع تصريح كامل بأن يفعل ما يريد بعد أن تحممنه النساء ويدلكنه وينعشنه، لكن لا يجب أن يتحدث عن الحريم فهن له مثل مِلكه ويجب احترامهم. إذا تكلم يقتله الأزواج، لكن العرب لا يفعلون هذا مع أوروبي أبدًا.. "لأن كل الأوروبيين جافُّون مع النساء ولا يخافون الله ويكشفون عن جرائمهم". إذا تابت راقصة فإن أكثر الرجال احترامًا يمكن أن يتزوجها ولا أحد يلومه أو يضحك منه. من الصعب أن تكتشف كيف هو مذهل لمسيحي أن يرى قواعد الأخلاق تطبق دون تحيز تام لكلا الجنسين وأن يسمع كيف يتحدث العرب عن غيرة الإنجليز ومعاملتهم الصعبة لنسائهم. هنا أي فسق خطأ وحرام.. لكن على الرجال والنساء. سليم أفندي تحدث في هذا الموضوع وبدا يميل إلى تدليل كبير للنساء بسبب جهلهن وضعفهن.. لا تنسَ أنني أتحدث فقط عن المصريين. أعتقد أن الأفكار التركية مختلفة كما هي في نظامهم للحريم فمصر ليست قاعدة لكل المسلمين.

السبت: الثاني عشر

تعشيت الليلة السابقة مع مصطفى الذي من جديد كان عنده الراقصات ليشاهدهن بعض الإنجليز، سليم أفندي ذهب للطبيب الذي كان موجودًا في الحفل وطلب إليه تشخيص حالته. طلب

إليَّ أن آترجم له كل شيء عن معدته المتعبة بهدوء بقدر الإمكان، كالعادة كان يجلس جواري على الكنبة.. في فترات الاستراحة بين الرقص نادى "المغربية" -أفضل راقصة- أن تأتي إلينا وتتحدث معنا، قبّلت يدي وجلست على كعبيها أمامنا وفي الحال تخلت عن البهجة الاحترافية للسلوك وتحدثت جيدًا جدًّا وفي لغة عربية رائعة، وبدت أكثر شبهًا بالرجل أكثر منها بالمرأة، لقد بدت ذكية جدا. ما الذي سنعتقده في قاضٍ محترم وهو يدعو فتاة من هذا النوع للحديث مع سيدة!

أمس كان يوم عمل غريب وغير سار، في المساء الأسبق سُرقت محفظتي -كيستي- في الكرنك بواسطة رجلين كانا يتسكعان حولي، واحد ليبيع طائرًا والثاني بلطجي يتسول بين الأطلال ويبيع ماء أو أشياء غريبة والكسالى والقذرون مثله كثيرون بالطبع. ذهبت إلى سليم الذي كتب في الحال لشيخ البلد الخاص بالكرنك ليقول إننا ذاهبون إليه غدًا في الصباح في الساعة الثامنة لنبحث الأمر وليقبض على المتهمين، في الصباح ذهبنا وجاء مصطفى معنا ممثلًا للمصالح الإنجليزية!

بينما نخرج من الأقصرالتحق بنا شيخ العبابدة مع أربعة من بدوه ببنادقهم الطويلة وكثيرين معهم حراب.. كان متطوعًا وغاضبًا من فكرة أن سيدة غريبة يمكن سرقتها، إنها أول مرة تحدث هنا والرغبة في ضرب المتهمين كانت كبيرة حتى إنني قررت أخذ جانب المتهمين، كل شخص كان متوحشًا بشكل خاص كون ذلك حدث لي أنا الشخصية المعروفة جيدًا بصداقتها العميقة مع المسلمين.

حين وصلنا دخلنا الميدان المُسَيَّج من الجوانب والأشبه بالدير والمفروش بالسجاد لنجلس وتم إحضار الرجلين البائسين في القيود، لرعبي وجدت أنهما ضُربا فعلًا، احتججتُ وقلت "ماذا لو ضربتم الرجلين الخطأ؟".. "معلش.. سنضرب كل القرية حتى نجد محفظتك"، قلت لمصطفى "هذا لن يحدث وعليك أن توقف هذا".. ومن ثم اتفق مصطفى بالتنسيق مع المعاون على أنه على

شيخ البلد والخفير -حارس الخرائب- أن يدفعا لي قيمة المحفظة وما فيها، وبينما كان أهل الكرنك في انزعاج ما بين التوسل لي والقلق مما يحدث فكرت في أن ذلك سيكون درسًا جيدًا للسيد شيخ البلد، فيضعَ نظامًا أفضل في مثل هذه الحالات، ووافقت على أخذ النقود مع وعد أن أعيدها وأن أدفع "نابليون" فوقها إذا عادت المحفظة بمحتوياتها ثلاثة ونصف نابليون. خطب شيخ البلد في الناس متحدثا عن سلوكهم السيئ مع "الحريم" وسماهم بالحرامية، وكان عالي الصوت وجبارًا قياسًا على كونه شيخ البلد. بعد ذلك ذهبت لزيارة سيدة تركية في القرية تاركة مصطفى معهم يصفي المسألة، بعد انصرافي ضربوا ثمانية أو عشرة من الأولاد الذين كانوا يحيطونني ويتوسلون من أجل الرجلين. مصطفى الذي لا يحب الضرب بقي ليرى أنهم لم يُؤذَوا كثيرًا لكن هذا سيكون درسًا لهم في المدى البعيد، أيضًا أرسل الرجلان إلى السجن هنا خوفًا أن يضربهم شيخ البلد مرة ثانية وسيظلان بالسجن لبعض الوقت، إنه أمر جيد إلى حد بعيد لكن خوفي الآن أن يُضغط على ناس أبرياء لجمع النقود إذا لم يُعِدْ الرجلان المحفظة، حدثت الشيخ يوسف أن يراقب الحال وإذا أصر الرجلان على موقفهما ولم يعيدا المحفظة سأعيد النقود إلى من جمعها منهم شيخ البلد أو سأمنحها هبة لجامع الكرنك.. أجل.. لا أستطيع أن أقبلها رغم أني فكرت أني لو أخذتها سيكون في ذلك تحذير من الأفعال السيئة بالكرنك.

بينما نعود إلى المنزل أتى شيخ العبابدة -شخص حسن المظهر- وركب جواري وقال "أعرف أنكِ سيدة طيبة فلا تحكي هذه القصة في هذا البلد.. إذا سمع بها أفندينا إسماعيل باشا فربما يمسك بمقشة ويمحو القرية"، تعجبت في رعب وجاء مصطفى على الفور وقال "لا تقولي لأحد في مصر.. شيخ العبابدة على حق تمامًا، المسألة قد يدفع ثمنها كثير من الأحياء"، كل شيء جعلني في رعب وحزن.

إذا لم أكن هناك كانوا سيضربون الناس يمينًا وشِمالًا، وإذا أبديت

أي رغبة في عقاب أحد كانوا سيقتلون الرجلين. تصرف مصطفى على نحو جيد تمامًا، لقد أبدى فهمًا.. وحسمًا.. ومشاعر كبيرة من الإنسانية أكثر مما توقعته منه. أرجو إلَيك أن تكون فعلت شيئًا لأجله في ما يخص راتبًا ماليًّا مناسبًا، بعض القناصل في القاهرة لا يقدمون غير السلوك الحسن لكن مصطفى لديه كثير من الأعباء ويعمل من أجل كل القوارب النيلية -خمسة وثمانين هذا الشتاء- وهو رفيق بلا حدود ومفيد للإنجليز وحماية حقيقية لهم أمام الخداع أو الخيانة.. إلخ.

-38-

إلى السيد توم تايلور

16 مارس 1864

عزيزي توم..

لا أستطيع أن أصف لك ابتهاجي لأن كل شيء مرَّ جميلًا مع لورا وابنتك الصغيرة. ما شاء الله.. ربنا يبارك فيها! حين أخبرت عمر بأن صديقًا "زي أخويا" كما يقول المصريين قد رُزق بطلفة اقترح أن نضيء منزلنا ونطلق النار من كل المسدسات في الهواء. من فضلك أبلِغ حبي وأجمل أمنياتي للورا.

أعيش هنا هادئة، نوع من الحياة الحالمة في طيبة الحارة، أتزاور قليلًا مع جيراني وأتعلم العربية إلى حد ما من أحسن وأكثر الرجال أدبًا وهو الشاب الشيخ يوسف الذي يقدم خطبة وعظة الجمعة في جامع الأقصر. أتمنى أن أستطيع رسم وجهه الأسمر الرقيق الرائع.. صورة تطل منها السمرة. لكن حتى لو استطعت فهو متدين جدًّا ولن يسمح بها. معاون البوليس سليم أفندي صديق عظيم لي أيضًا، والقاضي شخص مهذب لكنه فيما أعتقد يحتقر قليلًا الحريم الكافرة. الجو للمسافرين الآن حار جدًّا والدهبيات القليلة الباقية هنا الآن في طريقها إلى شمال النهر وبعد ذلك لن أرى وجهًا أبيض لعدة أشهر باستثناء وجه سالي.

لقد ضحك الشيخ يوسف من قلبه على صورة مطبوعة من صور هيلتون عن ريبيكا عند البئر ومعها الخادم القديم وكيلًا لسيدنا إبراهيم يركع أمامها مثل عجوز أحمق دون عمة على رأسه، هي الفتاة التي أرسله إبراهيم للبحث عنها لتكون زوجة لإسحق بن إبراهيم[47]، بينما ريبيكا والفتيات الأخريات في ملابس رائعة غريبة وللجِمال خطوم مثل الخنازير. قال الشيخ يوسف "إذا كان الرسام يستطيع الذهاب إلى الشام ليرى كيف يبدو البدو حقيقة فلماذا لم يرسم بئرًا في إنجلترا وحولها فتيات مثل الفلاحات

الإنجليزيات؟على الأقل سيبدو هذا طبيعيًّا للمشاهد الإنجليزي ولن يبدو الوكيل كمجنون إذا خلع قبعته"، وافقت بودٍّ نقدَ الشيخ يوسف الفني.. إن الصور المثيرة الخيالية للموضوعات الشرقية هي نوع من العبث، وكذلك القصائد الخيالية أيضًا. لقد حصلت على نسخ من ديوان فيكتور هوجو "الشرقيات" orientales

وأعتقد أني لم أضحك كثيرًا في حياتي من قبل كما ضحكت.

أشجار الحبوب الآن في حجمها التام لكن ما تزال خضراء، وخلال اثني عشر يومًا سيتم الحصاد وعليَّ الذهاب إلى جرن لأحد الأصدقاء من الفلاحين في قرية تبعد ميلًا أو اثنين من هنا. يقال إن الحبوب الآن أفضل من أي وقت.. النيل يرد الخسائر التي فعلها حين ارتفع كثيرًا وفاض على الحقول. إن الكارثة الحقيقية التي جرت بمرض البهائم التي ما تزال مستمرة، بدأت -كما سمعتُ- تنخفض، إنها لم تنتشر جنوب المنيا بعد لكن الخوف من الكارثة مستمر ومرعب.

أشعر كثيرًا جدًّا بصعوبة الفهم التام لناس لا يشبهوننا كثيرًا.. أعني الكثيرين ممن عرفتهم. أحد الأشياء التي تصدمني مثل طفل أنهم لا يعون الفجوة الكبيرة التي تفصل الأوروبيين المتعلمين عنهم، أو هكذا على الأقل أعتقد. نحن لا نحاول أن نشرح أفكارنا لهم، لكني لا أستطيع أن أكتشف أي تحفظ عندهم. أندهش ما إذا كان هذا يصدم الذين يتكلمون بطلاقة ويعرفونهم أفضل مني. أجد أنهم ينجذبون إلى تعاطفي في الأزمات بشكل رائع ويتحدثون عن العقيدة والمشاعر الأخرى بوضوح في حرية كما يتحدثون لبعضهم بكل احترام، فهم غير متكبرين مثلنا وأذكياء جدًّا ورائعون بكل الطرق، وأكثر من هذا يتصرفون كالأطفال بشكل غريب وأنا أبتهج لأني اكتشفت هذا الانطباع في كتاب إدوارد لين رغم أنه لم يقل الكثير فيه.

إذا كنتَ ستكتب لي عزيزي توم فمن فضلك راسلني عن طريق مصرف برجز وشركاه بالقاهرة. سأكون سعيدة أن أسمع منك وعنك.

جانيت ستسافر إلى إنجلترا وسأفعل ذلك أيضًا إذا لم تكن هناك فائدة من التجربة ولا أمل فيها. الآن أنا مرتاحة صحيًّا جدًّا ولا أفعل شيئًا والطقس دافئ. أعاني ألمًا بسيطًا وأشعر بضعف وإرهاق.

إن لدي خبرة واسعة في الممارسة الطبية.. الحسد كثير بالطبع في كل مكان، محبتي لـ"واتس"، وتحياتي لكل أصدقائي الآخرين. لقد حزنت على "تاكيراي" كثيرًا وأكثر على بناته الوحيدات الآن.

أعتقد أنك ستستمتع كما أفعل بهذا النوع الخاص من المساواة الذي يشيع هنا.. إنه النقيض الحقيقي للمساواة الفرنسية، هنا تعظيم للأقوياء وتقدير أكثر ظاهر في كل الأحداث، لكن لا أحد يشعر بالنقص أمامهم، الرجل يأتي ويقبِّل يدي ويجلس على الأرض فوق السجادة كنوع من الاحترام لكنه يدخن البايب ويشرب قهوته ويضحك ويتحدث ويسأل الأسئلة بِحُرية كما لو كان هو أفندي وأنا الفلاحة. إنه ليس الأقل مني لكنه أخي الفقير. الخدم في بيوت أصدقائي يستقبلونني بكثير من مظاهر الاحترام العميقة، ويقفون عند العشاء بوقار لكنهم يمتزجون بحرية في الحوار ويشتركون في كل ما يمتع، موسيقا وفتيات راقصات أو قراءة القرآن. حتى الراقصة ليست منبوذة، فلها الحرية في الحديث إليَّ وأن تُظهر أي احتقار أو نفور لها أمر ديني بالغ السوء، قواعد الأدب واحدة للجميع. المار يحيِّي الجالس، أو القادم إلى الغرفة يحيي الموجودين فيها دون أي تمييز لأحد، حين أحيي الرجال هم أيضًا يقفون لكن إذا مررت عليهم دون تحية لا يهتمون بي. كل هذا يسر ورائع وليس من الشر، حقيقة إن أي شخص قد يكون غدًا بيه أو باشا ليست جيدة لأن الترقية تكون أكثر للعبد السيئ وليست للرجل الحر الذكي، ومن ثم فالطبقة الشريفة هم أولئك الذين ليس لهم شيء يتطلعون إليه من الطبقة الأعظم، ولن أقول شيئًا يخيف لأن الجميع لديهم السبب لذلك. وبالتالي فإن الاحترام الكبير والرقة الأكبر هي للتجار المستقلين كثيرًا عن الحكومة. سيندهش الإنجليز قليلًا لأحكام المصريين

عليهم، إنهم يعجبون لصدقنا وأمانتنا ويحبوننا بشكل عام لكنهم يلومون الرجال على معاملتهم للنساء.. إنهم يُصدمون لطريقة كلام الرجل الإنجليزي عن الحريم فيما بينهم ويعتقدون أن الإنجليزي صعب وغير رقيق في معاملته للزوجات وللنساء بشكل عام. إن الحريم الإنجليزيات مقبولات بشكل كبير والمصري يعتقد أنه رجل سعيد إذا تزوج بفتاة إنجليزية، لقد تلقيت عرضًا لسالي من الرجل الرئيسي هنا لابنه مقترحًا أن حريتها في اختيار عقيدتها وعاداتها أمر طبيعي. أعتقد أن تأثير الأجانب أكثر من حقيقي وأكثر من نافع للمصريين منه للأتراك. عند الأتراك يظهر ذلك أكثر في ثيابهم مثلًا.. لكن كل المهندسين والأطباء مصريون وشخصيات جيدة جدًّا أيضًا. لا يوجد تركي يتعلم شيئًا عمليًّا بينما الترجمانات -أدلاء السياح- والخدم المستَخدمين من قبل الإنجليز تعلموا أن التقدير الكبير للشخص يأتي من أمانته.. إما يستحقونها وإما لا يستحقونها، والكثيرون منهم يستحقونها. بالمقارنة برفاق السياحة أو المندوبين في الميادين في أوروبا.. يقف هؤلاء الناس في درجة أعلى. عمر جاءني يخبرني بأن القارب سيتحرك، ومن ثم..إلى اللقاء، وبارك الله فيك.

-39-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 22 مارس 1864

أَلِيك الحبيب..

سعيدة بسرورك بخطاباتي، أحيانًا أفكر في أن على الناس أن تتنفس الملل الواسع للحياة الشرقية، إنها ليست مملة لي كمشاهدة فضولية، لكن كيف يتحملها الرجال الذين ليس لديهم شيءٌ يفعلونه! أمر مدهش.

ذهبت أمس لأقابل رجلًا تركيًّا في الكرنك.. إنه رقيق جدًّا، ابن المدير السابق الذي قُتل فيما أعتقد لقسوته وابتزازه. إنه يمتلك ألف فدان -ربما أكثر قليلًا- من الأرض. ويعيش في منزل من الطين كبير لكنه ليس أفضل من منزل أي فلاح مع زوجتين وأخ لواحدة منهما. إنه يترك المزرعة لفلاحيه جميعًا وهذا يدهشني.. كان عنده كتاب تركي لم أستطع أن أقرأ عنوانه ولم يخبرني بمعناه.. باختصار لم يكن هناك وسائل لقتل الوقت إلا النارجيلة، لا فرس ولا بندقية.. لا شيء، ولم يبدُ هذا مضجرًا. المرأتان كانتا متنمرتين لزيارتي وشديدتي الصخب تتصرفان كبنات المدارس، لكن ظاهرتان كصديقتين ممتازتين لهما طبيعة جيدة. أعطاني الرجل الجنتلمان كوفية وكنت أخذت للامرأتين قطعة من الحرير كنت أملكها، إنك لم تسمع أي شيء جميل مثل تعليقه على صورة موريس.. "ما شاء الله ما شاء الله.. والله زي الورد".

لا أستطيع فهم الأتراك؛ دائمًا أشعر بأنهم لا يحبوننا نحن الأوروبيين في السر رغم إبدائهم كثيرًا من الإعجاب! فيقدمون تحيات شخصية مما لا يفعله العرب كثيرًا. لقد استمعت إلى سليم أفندي وعمر يتناقشان عن السيدات الإنجليزيات يومًا في المساء بينما كنت خلف الستارة مع الفتاة جارية سليم ولا يعرفان أني أسمعهما. كان عمر يتحدث عن جانيت، وكانت فكرته

أن الرجل الذي تزوجها لن يحتاج إلى شيءٍ آخر.. "وحياة روحي إنها تركب كالبدوي وتطلق النار من البندقية والمسدس وتقود القارب وتتحدث عدة لغات وتشتغل بالإبرة كالعفريت وتندهش لعقلها وهي تعزف على مفاتيح البيانو بينما غناؤها يسر الروح.. فهل بعد ذلك يحتاج زوجها إلى شرب القهوة في مقهى؟ والله إنها تستطيع أن تسعده في البيت.. وبالنسبة إلي سيدتي فالمهم ليس ما تعرفه.. حين أشعر بقلبي يتحرك أذهب إلى الكنبة وأسألها هل تريدين أي شيء؟.. بايب أو شربات أو أي شيء آخر؟ وأتحدث حتى تترك كتبها وتتحدث معي وأسألها وأسعد قلبي وأقسم بالله لو كنت غنيًّا وأستطيع أن أتزوج حرمة إنجليزية مثلها لوقفت أمامها وخدمتها كمملوك.. أنت ترى أني فقط خادم السيدة ولم أجلس مرة في مقهى بسبب حلاوة لسانها.. أليس صحيحًا هكذا أن الرجل الذي يتزوج بمثل هذا الحرمة أغنى من أي مال؟"، بدا سليم متوقفا يفكر أكثر مما ينظر رغم أنه وافق تمامًا كل حماس عمر، وسأل هل جانيت جميلة.. أجاب عمر بشرود هادئ بأنها "قمر".. وذكر عنايتها بشعرها، عينيها، إلخ. (إنها حرية أن تصف المرأة بدقة). تقريبًا ضحكتُ عند سماع عمر يحكي كيف أنه يراني "أمتع عقله"، وبدا أنه لا خطر عليَّ كوني مملة.

الطقس مستمر في الحرارة حتى إنني غيرت سكني من حجرتي الجميلة المطلة على الجنوب الغربي إلى أخرى تطل على جوانب ثلاثة.. على مشهد محبب من الخضرة في الشمال الشرقي وبها شرفة واسعة كبيرة مثل الغرفة نفسها في الجانب المفتوح، وهكذا أعيش في فضاء طلق. الخفافيش والسنونو اجتماعية جدًّا، أتمنى ألا تخرج الثعابين والعقارب من جحورها، لقد بدأت رياح الخماسين.. والريح كانت كافية لتمزج بين السماء والأرض لكنها ليست مخربة مثل رياح رأس الرجاء الصالح الجنوبية الشرقية، ورغم الحرارة فهي ليست صادمة مثل الخماسين في القاهرة والإسكندرية. أحضر لي محمد ملء كف

من القمح الجديد الآن.. الحصاد في مارس وأبريل! هذه الرياح جيدة جدًّا للقمح والذرة هنا كما هي الأمطار المضطردة في إنجلترا. لا ضرورة كبيرة للمياه حين تهب الرياح قوية.. وبينما أركب عبر الحقول الخضراء المحاطة بالسدود غنَّى صبي صغير وهو يدور حول صوت الساقية مع لحنها الخالد.. كانت الكلمات مختارة وردها صديقي الصغير مغنيا "دوري دوري يا ساقية شمال ويمين مين حيعتني بي لما أبويا يموت.. دوري يا ساقية دوري.. صُبِّي الميه على التين والبرسيم والليمون.. دوري يا ساقية" لا يوجد أجمل للشعور من غناء الساقية هذا.

مررت ببيت شيخ العبابدة الذي دعاني لشرب القهوة.. القمر رائع والمشهد خلاب، الشيخ الأسمر الأنيق في جلبابه الداكن وعمامته البيضاء، عمر في ثوب أبيض ناصع وعمة حمراء، والعبابدة في كل أنواع الملابس البيضاء ومع كل أنواع الأسلحة غير المألوفة.. بنادق.. رماح.. سيوف.. إلخ. بكل الميول البرية المثيرة مع شعرهم الأسود الطويل ورؤوسهم العارية وأطفال صغار سمر وسود عراة تمامًا ويبدون مثل كيوبيد.. هناك جسلنا وبدونا رومانتيكيين جدًّا وتحدثنا تمامًا كسيدات وجنتلمانات عن مزايا "ساكنة" و"ألمظ" أكبر متنافستين في الغناء في القاهرة. أعتقد أن الشيخ كان راغبًا في استعراض خبراته عن تذوق الحياة المعاصرة.

الأقباط يصومون الآن ويزهدون، إنهم يصومون خمسة وخمسين يومًا. الصوم الكبير.. لا لحوم، لا أسماك، ولا بيض ولا لبن ولا استثناءات في أيام الآحاد ولا طعام حتى بعد الظهيرة، ولا تعامل جنسيًّا مع الحريم. الشيء المريح فقط هو كثير من مشروب العرق، وليس محدد الكمية. نادرًا ما يراهم أحدٌ سكارى لكنهم يشربون كميات مرعبة، دائمًا يقدمون لي العرق والنبيذ ولا يفكرون كيف أني لا أشربها. أعتقد أنهم يشكّون في مسيحيتي كنتيجة لتفضيلي ماء النيل. إنهم يحتقرون الهيراطيقيين.. بل كل المسيحيين غيرهم إلا الأحباش. لا يحبونهم أكثر مما لا يحبون

المسلمين.. إن مسيرة الروح القدس قسمتنا حول خليج جهنم.

عامِلُ الحديقة في هذا المنزل قبطي.. شخص لذيذ يمزح هو وعمر في الحديث عن الدين بحسٍّ فكاهي عظيم ولا يحتكان بأمور المسلمين إلا نادرًا. هنا رجل جميل صغير اسمه ميشيل، قبطي ووكيل لمسيو مونييه. أتمنى لو أستطيع رسمه لأظهر نموذجًا من السلالة المصرية القديمة، فلا بد أن دمه لم يختلط بغيره. لقد أتى إلى هنا أمس ليتحدث إلى علي بيك مدير قنا الذي كان يزورني -تركي أنيق رائع هو- ومن ثم تسلل داخلًا ليذكر ما فعل ويحاسبوه عليه.. في حمايتي، وتبعه آخرون حتى تعب علي بيك من عقد جلسة الحاكم في ديواني وغادر إلى قاربه. وهكذا ترى أن الناس يعتقدون أن الكرباج لا يتم التعامل به مع وجود مشاهد إنجليزي. في اليوم التالي طلب مصطفى أغا إلى علي بيك أن يقوم بعمل صغير له، أن يترك الناس في الجزيرة الخاصة بمصطفى أغا يعملون في حفر قناة فيها بدلًا من القناة الكبيرة الخاصة بالباشا.. حسنا، لكن جاء الناظر -مساعد المدير- واستهدف الجزيرة كلها بالكرباج، ليس مصطفى أغا بالطبع، لكن الفلاحين الفقراء الذين كانوا يقومون بالعمل سخرة بدلًا من العمل للباشا بواسطة أمر المدير نفسه. ذهبت إلى الجزيرة وتخيلت أسطورة موسى وقد عادت من جديد وتم قتل كل المواليد الأُوَل في كل البيوت التي امتلات بالصراخ والنحيب حيث أتاني رجلان وأطلعاني على أقدامهما الدامية التي كانت سببًا في بكاء زوجاتهما كما لو كانا قد ماتا. "شغل مصر" مثل "شغل إسبانيا".

الأربعاء: الليلة الماضية أضجرت الشيخ يوسف بسيرة عنترة وسيرة أبو زيد الهلالي مشيرة إلى شجاعة عنترة العظمى، الذي قتل عشرة آلاف من أجل عبلة، وأنت تعرف عنترة. يوسف ينظر إلى أسفل مع مثل هذه التجديفات ويجيب "هل تقارن سيرة عنترة وأبو زيد مع صراعات سيدنا موسى مع الفرعون أو الكفار؟ وماذا يعني حب عنترة لعبلة بالمقارنة بحب سيدنا سليمان لبلقيس ملكة سبأ؟ أو جمال وجاذبية سيدنا يوسف؟"،

لقد أعاد صراع سيدنا موسى مع الفرعون وهنا فكرت في المتطهرين والميثوديين من المسيحيين وعرفت كيف أن العقيدة والرواية الرومانسية هي واحدة لأولئك الذين تكون أخلاقهم وأفكارهم هي أخلاق وأفكار الإنجيل، وكيف أن موسى لم يكن بالمرة متطهرًا أخرسَ لكن محاربًا عملاقًا! هنا عنصر هوميروسي في العقيدة، النبي بطل مثل أخيل، ومثله يقوده إله.. الله بدلًا من الإلهة أثينا

Athene. إنه يصارع ويصلي ويعلِّم ويقوم بالحب ورجل حقيقي وليس شيئًا مجردًا، وبالنسبة إلى الأحداث الرائعة.. فبدلًا من إخبار الشخص بابتلاعها دون نظر -كما يقال للأطفال مع الجرعة السيئة من الدواء وكما يقال لنا عند سماع سِفر التكوين.. إلخ- فهم يؤمنون بها ويسعدون بها ويحكونها ليسعدوا الناس. الشك في استحالة شيء على الله لا يجد استحسانًا هنا.. "ما هو المستحيل على الله؟ إنه خالق كل شيء". باختصار لقد ترك محمد بشكل ما الطابع الرومانتيكي المحبب على العقيدة، أو بمعنى آخر إنها تجري في دماء الناس، ورغم أن القرآن يقوم على الفهم الصحيح قياسًا على العهد القديم.. فقد تعودت الاعتقاد أن العرب بلداء الفهم إلى حد بعيد، حتى فهمت قليلًا من لغتهم، لكنني الآن أستطيع البحث عن أصل دون كيخوته فأجده سليلًا لشيخ من شيوخ العرب.

في يوم جاءتني امرأة أنيقة مع طفل جميل، لعبت مع الطفل وأعطيتها منديلًا من القطن لرأسه.. جاءتني المرأة مرة أخرى أمس ومعها قليل من اللبن وشيء من السلاطة كهدية.. ولتخبرني بحظي باستخدام أنوية التمر.. ضحكتُ فقدمَتْ نفسها بإخبار عمر عن عائلته، مما جعله يؤمن بها على نحو مطلق، كان واضحًا أنها امرأة ماهرة وعرافة شهيرة هنا ولا شك في تنبؤاتها، لقد أخبرتْ مدام مونييه -التي هي من المشرقيين- بأنها لن يكون لها طفل أبدًا، منعتها مدام مونييه بسبب ذلك دخولَ البيت.. لكن تحققت النبوءة. الخرافات معدية جدًّا هنا.. الحقيقة أن المصريين

حساسون جدًّا ومن ثم جبناء أمام أي إرادة شريرة حتى إنهم إذا حدق فيهم رجل بقوة فهذا يكفي أن يجعلهم يمرضون، ولأن المصائب غير منظمة فهناك دائمًا حظ عاثر مستعد أن يمتد من طول حملقة عين شخص ما.

عمر لا يريدني أن أتحدث عن سرقة حافظتي حتى لا يكرهني أهل الكرنك ويعطوني عينًا.. يحسدوني. نوع من المكابرة عن الخصوصية، الأدب هنا أن يكون المرء غير حسود أو غيور من جاره وهذا أحسن شيء. السقّا الذي يجلب لي الماء أعجب أمس بسواري حين كان يسقي أرضية "الفراندا" وحدثني بشكل مستمر عن كل العقود للعنق والأقراط التي اشتراها لزوجته وبناته، ومن ثم يجب ألَّا أخشى عينه! إنه شخص جيد. بشلنين في الشهر يأتي كل يوم بثماني أو عشر قِرَب جلدية من النهر ولم يتسول قطُّ أو يشكو.. دائمًا سعيد ومهذب. سوف أضاعف له البقشيش. هناك العديد من الإبل تنام في الفناء أسفل شرفة منزلي، إنها جميلة ورائحتها زكية، لكنها ترغو وتزأر طوال الليل بلا انقطاع، أتمنى لو أستطيع أن أرسم لك مزرعة مصرية.. ساحة.. رجالًا.. نساءً.. وقطعانًا، لكن ما لا يستطيع أحد رسمه هو الضوء العنبري -الكهرمان- المشع جدًّا واللين جدًّا والذي ليس مثل شروق الشمس الماسي في مدينة الكاب لكنه جميل مثله، وإن كان أكثرسخونة وأقل توهجًا. أعتقد أنه ليس هناك بهرجة في مصر مثل التي في جنوب فرنسا أو في إيطاليا.

الخميس:

ذهبت أمس بعد الظهر إلى الجزيرة مرة أخرى لأرى المحاصيل وأُرِي سالي بيت صديقي المزارع عمر وقرية مصطفى.

بالطبع كان علينا أن نأكل فلم نعد إلى البيت حتى صعود القمر. عبد الرحمن أخو مصطفى مشى معنا، له مظهر نبيل، طويل، جليل ونشيط، شعره أبيض وملامحه جادة، نحيل لامع العينين كغلام يحتقر أي وسيلة نقل غير قدميه، ويبدو جامدًا بينما نحن نجري.. كان مثل "أبو العز" الفلاح الغني المهذب، لا شيء غير

الشخصيات الإنجيلية تعطي أي فكرة عن الفلاح الغني، جلسنا وشربنا لبنًا جديدًا في كشك في حديقة من الخضراوات، الكوخ أنيق من أفرع النخيل، ورأينا القمر يرتفع فوق الجبال ويضيء كل شيء كما لو كان شمسًا لينة، هنا ترى كل الألوان في ضوء القمر كما تراها بالنهار، وإن لم تكن لامعة كقمر الكاب أو حتى كما رأيت في باريس حيث يلقي ظلالًا سوداء وضوءًا أبيض. الليل هنا رقيق لين، نوع حالم من نهار مسحور. التركي الذي أعرفه من الكرنك صار هنا، إنه يتفاخر ببيته في دمشق ودعاني للذهاب معه بعد الحصاد، وكذلك من أجل زوجته الجميلة في سوريا ثم طلب إليَّ ألا أذكر سيرتها أمام زوجاته هنا.

الجو حار جدًّا الآن.. فكيف سيكون في يونيو؟ إنها الآن ست وثمانون درجة "فهرنهايت" في غرفتي الظليلة عند الظهر، وستكون أكثر حرارة في الساعة الثانية أو الثالثة، لكن الصباحات والأماسي ممتعة. إنني أخلع ملابسي مع الحرارة فالزيادة منها غير محتملة. في نفس الوقت تقريبًا اختفى سعالي والألم انتهى. أشعر بقوة أكبر وأيضًا الشعور المرعب بالإرهاق فارقني، أفترض أنه لا بد في جسدي دم السلامندر لأكون حية بهذا الحر. سالي بخير ولا تبدو في سوء أبدًا الآن.

السبت:

ذهبنا أمس إلى مقابر الملوك في الضفة الأخرى. الجبال حمراء ساخنة والشمس تهبط إلى أرض أمنتي Amenti والكل في نار. قابلنا مستر دوميشين

Mr: Dummichen الألماني الذي يعيش في معبد الدير البحري يترجم النصوص ونزلنا إلى مقبرة بيلزوني Belzoni. لقد ترجم مستر دوميشين أشياء كثيرة لنا كانت مذهلة كلها وأعتقد أنني صُعقت كثيرًا لجمال الرسوم أكثر من العام الماضي، وجه إلهة البر الغربي، آمنتي، حتحورAthor أو هيكات Hecate ساحر بينما هي

ترحب بالملك في منطقتها، الموت لم يُرسم قط بهذا الجمال. الطريق طويل وموحش -حقيقة بين وادي ظلال الموتى- فلا حشرة ولا طائر. ضوء القمر فوق البيوت خلفنا كان وراء الجمال الحقيقي. المصريون الذين جاؤوا معنا كانوا مسرورين جدا وهم يسمعونني أشرح بالإنجليزية ماهو بالألمانية ولحديثي بالعربية، سألوني ما إذا كنت مترجمة لكل اللغات في العالم. أحدهم كان لديه حكايات مضحكة عن أميلكا -أمريكا- كما ينطقونها عادة. هل كان الملك قويًّا جدًّا حتى يسمَّى المكان بالملوك؟ قلت "لا لكن الكل كانوا ملوكًا هنا ويمكن أن تكون ملكًا مثل الباقين"، صديقي لم يوافق.. "إذا كانوا كلهم ملوكًا فلا بد أنهم أخذوا الأموال من وراء كل الرجال"، فكرة مدهشة لمهنة الملوك.

حين نزلنا في البر الآخر المواجه حدثت الصغير أحمد أن يعود إلى المعدية التي فيها أحضر من قبل حماري، بعد ربع ساعة وجدته إلى جانبي. سألني الدليل لماذا لم يذهب كما قلت له.. قال أحمد "من الذي سيعتني بالسيدة؟".

الحمار صغير في حجم ريني، بالطبع صار متعَبا. في الطريق إلى البيت طلبت إلى أحمد أن يقفز خلفي وفخذاه إلى ناحية على طريقة الفلاحين، فكرت في أن المصريين لم يضحكوا من قبل وهم يقولون والله! وما شاء الله!.

تحدث الشيخ يوسف عن التنقيب وكان مصدومًا لطريقة إخراج المومياوات. أحد الأولاد قال له إنهم غير مسلمين كطريقة للاعتذار، فوبخه بشدة وقال له إن هذا حرام أن تفعله في أي بني آدم. يقول إنهم تعلموا ذلك كثيرًا من مارييت بيك لكنني أشك في أن الأمر هكذا دائمًا مع الفلاحين.

يومان ورياح جبارة لا تنتهي، أمر طيب لمحصول الحبوب. في مزرعة مصطفى يجهزون للحصاد، يحمصون الخبز ويختارون ثورًا صغيرًا ليذبحوه للحصادين. إنها ليست حارة اليوم.. فقط 84 فهرنهايت في الغرفة الباردة، الغبار مرعب مع هذه الريح العالية، كل شيء قوي ويعزل الشمس. لدي رغبة في أكل بصل جاف كل

يوم خلال الخماسين من أجل الصحة والنشاط. هذا أيضًا من بقايا المصريين القدماء. كم من الوقت الطويل مضى دون أن أراك أو أرى الأطفال! في بعض الأحيان أشعر بالحزن وبقلبي ينقبض، لكن ليس جيدًا أن أقول كل ذلك، فأنا أفضل وأقوى. بقيت كثيرًا راكبة وصعدت كثيرًا المساء الماضي.

-40-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر -6 أبريل 1864

أَلِيك الحبيب..

تلقيت خطابك المكتوب في العاشر من مارس منذ يومين، وأيضًا خطابًا من هكيكيان بيك، ينصحني كثيرًا بأن أبقى هنا فصل الصيف حتى "يتبخر" مرضي. منذ كتبت مؤخرًا فإن درجة الحرارة العالية قد خفت ونحن الآن بين 70 إلى 80 درجة فهرنهايت مع رياح شمالية قوية أعلى النيل.. طقس رائع.. فلا هو حار جدًّا ولا فاتر في أي وقت. المساء الأخير خرجت إلى منطقة الدريس لأرى الثيران الضخمة وهي تستخلص حبوب القمح. تعشيت هناك مع عبد الرحمن بذرةٍ مشوية ولبن رائب وبيضٍ ورأيت الحصادين يأخذون أجورهم، كل منهم صرة من القمح وفقًا للعمل الذي قام به. كان مشهدًا محببًا جدًّا. أنصاف العراة الرشيقين ذوي البشرة السمراء محملون بالصرر، بعضهم حصل على كثير مما جعل أمهاتهم أو زوجاتهم يساعدنهم في حمله، والصغار عراة أشبه بالظباء، الأولاد العراة تمامًا يمشون متفاخرين بصررهم الصغيرة من القمح أو الحمص -نوع من الحبوب يأكلونه أخضر أو محمصًّا-. حصلِ الساقي الذي يحضر الماء لهم على كمية من كلٍّ منهم وساقَ إلى البيت حماره ومعه القربة الفارغة من المياه وكمية كبيرة من القمح. الحلاق الذي حلق لكل هؤلاء الناس "شُكُك" حصل على مستحقاته وكل واحد سعيد مبتهج بطريقتهم المهذبة. هنا لا توجد بيرة لتجعل الرجال صاخبين ومتوحشين، الحصاد المنظر الرعوي الأكثر روعة الذي يمكن أن تتصوره.. الرجال يعملون سبع ساعات في النهار، ثمانيةً بحساب نصف ساعة للراحة وللطعام، وسبع ساعات أخرى إضافية في الليل، فهم يعودون إلى بيوتهم للعشاء وينامون قليلا ثم يعودون إلى العمل..

هؤلاء هم المصريون الكسالى! الرجل الذي يقود ثيران النورج فيحصل على مرة ونصف من الأجر من القمح المدروس على عمله بالنهار والليل. ومثل القمح يتم حصاد العدس والحمص، سنرى نوعين من الذرة.. الذرة الشامية والذرة المصرية، ثم قصب السكر وفيما بعد القطن. الناس يعملون بقوة لكن يأكلون جيدًا ويحصلون على أجورهم من القمح، ولقد حصلوا على سعر عال مميز هذا العام.

حدثتك كيف تمت سرقة حافظتي والمشاهد التي جرت.. حسنًا.. لقد سألني مصطفى مرات عديدة ماذا أود أن يحدث للّصّ الذي مضى عليه الآن واحد وعشرون يومًا مكبلًا بالأغلال. وبأفكاري الإنجليزية العبثية عن العدالة رفضت أن أتدخل تمامًا، وتشاحنَّا أنا وعمر لأنه يريدني أن أقول "إنه مسكين واتركوه وسأفوض الأمر إلى الله"، ظننت عمر عبثيًّا لكن أنا التي كنت مخطئة. السلطات انتهت إلى أن الأمر سيكلفني كثيرًا إذا كانت قد تمت معاقبة الشيطان الفقير بقسوة خارج القانون، ولم يأتِ الشيخ يوسف ليشرح طبيعة الإجراءات، إرسال الرجل بواسطة علي بيك مدير قنا إلى المناجم في فازوجلو fazogloo ليعيش أمرًا خارج التحضر بالنسبة إليَّ. لم يكن هناك اختيار بين عفوي عنه حبًّا في الله.. أو إرساله إلى موت محقق في مناخ غير محتمل لمثل هؤلاء الناس. مصطفى وآخرون حاولوا بقوة أن يمنعوا الشيخ يوسف من الكلام معي خوفًا أن أغضب وأتحدث في القاهرة إذا لم يكن انتقامي كافيا للص، لكنه قال إنه يعرفني جيدًا وأحضر المحضر ليطلعني عليه.. فزعي كان مخيفًا! ذهبت إلى سليم أفندي وإلى القاضي مع الشيخ يوسف وتوسلت لهما أن يطلقا سراح الرجل ولا يتم إرساله إلى قنا أبدا، وبعد أن استقر الأمرعلى ذلك قلت إن الصحيح هو أن يدفع أهل الكرنك النقود التي فقدتها كغرامة على سلوكهم السيئ مع الغرباء، وأنني لا أطلب هذا من أجل المال نفسه الذي يمكن أن أعطيه بعد ذلك لفقراء الأقصر في الجامع وفي الكنيسة (تصفيق واستحسان

عظيم للأمر من الجميع).

سألت كم عدد المسلمين وكم عدد النصارى من أجل أن أقسم الثلاثة نابليونات ونصف بينهم وفقًا لأعدادهم.. الشيخ يوسف أهدى الكنيسة نابليونًا والجامع نابليونين ونصف لسبيل المياه، وكان هذا مستحسنًا أيضًا. حينئذ قلت هل سنرسل المال إلى الأسقف؟ فقال قبطي عجوز محترم "معلش".. الأحسن تعطيها كلها للشيخ يوسف وهو سيرسل الخبز إلى الكنيسة. ثم قدم لي القاضي كلمة رائعة وقال إنني تصرفت كأميرة عظيمة وكشخص يخشى الله، وقال الشيخ يوسف إنه يعرف أن الإنجليز لديهم رحمة في قلوبهم وأني بشكل خاص أحمل مشاعر مسلمة -كما نقول أعمال خيرية مسيحية-. هل سبق لك أن سمعت بمثل هذه الإدارة للعدل؟ بالطبع. التعاطف هنا كما هو في أيرلندا.. غالبًا يكون مع الرجل الفقير في السجن، "في مأزق" كما نقول. لقد وجدت عددًا هائلا من المنازعات يفض بالجلسات العرفية ودائمًا يُدعى الشيخ يوسف ليحكم بين المتنازعين الذين يرضون بحكمه ولا يذهبون إلى القضاء، أو تتم دعوة خمسة أو ستة رجال محترمين يكوّنون ما يشبه المحلفين الهواة ويحكمون في الأمر. في الجرائم.. إذا كان المحقق قويًّا سيتحمل التحقيق كله وحده، وإذا كان السجين يمكن أن يدفع رشوة كبيرة يتم إطلاق سراحه.. محاولة استدرار عطفي كانت متسقة مع القواعد وهذه طريقة أخرى من التعامل في مصر.

في أحد الأيام وجدنا كل جرار الماء فارغة وبيتنا لا يمكن رشه بالماء.. كان ذلك بسبب اختفاء السقائين آخذين معهم أسرهم وبضائعهم وذهبوا إلى حيث لا يعلم أحد. كان ذلك بسبب بعض أصحاب النفوذ وبينهم قَوّاس تركي -رجل بوليس- أجبروهم على جلب الماء لعملية بناء بسعر رخيص لا يتحملونه.. السقا المسكين الذي يأتي لي بالماء اختفى دون أن يحصل على راتبه الشهري -شلنين- وهي أعلى معاملة في الأقصر، لكني انسجمت مع قصة أخرى.. سمعت أن امرأة شجاعة هنا ذهبت

إلى قنا وهددت المدير بأنها ستذهب إلى القاهرة لتشكو إلى أفندينا نفسه هذه الطريقة غير العادلة للتجنيد الإجباري؛ لقد أخذ ابنها الوحيد بينما دفع آخرون رشوة فأُعفوا منه. ستمشي وسط هذا الحر الطريق كله إلا إذا نجحت في إخافة المدير وربما تنجح في ذلك باعتبارها امرأة من جنس شجاع في هذا البلد. أنت ترى أن هؤلاء الصعايدة أقل صبرًا من أهل مصر السفلى، السقاؤون يمكن أن يضربوا عن العمل والمرأة يمكن أن تواجه المدير.

لا بد أنك ستستمتع بالسوق هنا، إنها تقام كل ثلاثاء ويوجد بها حلاق وتُبَاعُ فيها السِّبَح وقماش من القطن ودخان. الصانع الوحيد فيها جواهرجي! نحن هنا نغزل وننسج ملابسنا الصوفية الداكنة ولا نحتاج إلى شيء آخر. إن القلادات الذهبية والأقراط وحليّ الأنف لا غنى عنها، إنها أكثر طرق الادخار أمنًا وتجمع بين الادخار والمباهاة. هل تستطيع تخيل بيتٍ بلا أسرّة.. مقاعد.. مناضد.. فناجين.. أكواب أو سكاكين؟ باختصار لا شيء فيه إلا التنور وأوانٍ وماء، قلل فخارية وملعقتان خشبيتان وشيء من الحصير للنوم عليه. ورغم ذلك فالناس الذين يعيشون كذلك سعداء ومهذبون. إن مصريًّا يطهو بأصابعه وإناء طبيخ واحد سوف يقدم إليك عشاء رائعا كأنه معجزة، إن بساطة إمكانيات الحياة في هذا المناخ لا يمكن إدراكها إلا إذا رآها المرء. السيدات التركيات اللاتي زرتهن في الكرنك لديهن القليل زيادة على ذلك.. أنهن مغرمات بي جدًّا، ودائمًا يردنني أن أبقى وأبيت معهن، لكن كيف أنام بملابسي على كنبة مفروشة بالحصير وأنا الأوروبية؟ لكنهن يشفقن عليَّ ويندهشن كثيرًا لكوني بلا رجل. سيدي.. بزلة لسان سيئة قلت "زوجي" أمام عبد الرفيع سيد المنزل؛ ضحكت السيدات واحمرت خدودهن خجلا وشعرت بالحرج لكنهن أعدن الكرة إليَّ في دقائق وأخجلنني ببعض الأسئلة التي سألنها بهدوء.

بصعوبة أعرف ما عليَّ فعله.. إذا لم تزد الحرارة سأبقى هنا، وإذا لم أستطع تحملها سأذهب شمال النهر، سألت عمر هل يتحمل الصيف هنا.. إنه فصل ممل لشاب مغرم بإعداد القهوة وأحاديث

النميمة، ولذلك إذا لم يستطع البقاء فعليه الذهاب شمال النهر لبعض الوقت ويلحق بي مرة ثانية فيما بعد فأنا أستطيع أن أدير حياتي ومعي رجل آخر هنا، بكى تمامًا وقبَّل يدي معلنًا أنه لم يكن قطُّ سعيدًا كما هو معي وأنه لا يستطيع أن يبقى إذا ظن أني لا أريده.. "أنا مملوكك لا خادمك، مملوكك". أعتقد حقيقة أن هؤلاء الناس يحبون أسيادهم الإنجليز أكثر مما يحبون أهلهم. عمر دائمًا يظهر غرامه الكبير بي في كل المناسبات.

إلى السيدة روس

الأقصر - 7 أبريل 1864

جانيت الحبيبة..

ما زلتُ بخير خالية من الألم.. كانت الحرارة شديدة لعشرة أيام سابقة، الآن باردة تمامًا، ما يزال الحصاد مستمرًا ولم أكن أحلم بمثل هذا المشهد المحبوب للعملية كلها. أحد معارفي -عبد الرحمن- هو "أبو عز".. وبينما أجلس معه في صحن الجرن ونأكل ذرة مشوية شعرت بحيرة بسبب ما حولي وتساءلت هل أنا حقًّا حية أم فقط موجودة في الخيال في سِفر راعوث[48] THE Book of ruth. أن يستمتع المرء تحت أشجار النخيل بهذا المشهد هو "كِيف". الحصاد رائع هنا، لم أشاهد قطُّ مثل تلك المحاصيل؛ لا توجد أمراض بالقطعان لكن أمراضٌ كثيرة بين الناس عليَّ أن أتعامل معها بتركيز شديد. كثيرًا ما أشعر بقلق كبير ومن ثم لا أستطيع رفض الذهاب إلى الأرواح الفقيرة وأعطيها الدواء الذي يفقتدونه، مرتبكة لأن هكيكيان بيك لم يعثر لي على معجم للعربية في القاهرة. عليَّ أن أرسل إلى لندن في طلبه، وأعتقد أن الأمر يستحق. أتمنى لو تستطيعين أن تري مدرسي الشيخ يوسف، لم أرَ من قبل رجلًا تقيًّا محبوبًا وخيّرًا مثله؛ إنه ورع تمامًا وليس متعصبًا أبدًا.. متسق جدًّا وفوق ذلك محبوب المنظر وله أجمل ضحكة مبهجة جميلة. إنه أمر مثير أن ترَيْ في هذا الرجل مزيجًا من نوع من التعليم مع جهل تام وخرافات عظيمة، ومثل هذه التربية العالية وجمال الخلق. تمامًا كأنه ارتباط بسانت جون.

أريد بقوة أن أكون قادرة على الرسم أو التصوير.. المجتمعون عند شيخ العبابدة أمس كانوا ساحرين كلهم؛ الجدائل السوداء والملابس البيضاء الرثة والأسلحة التي عفا عليها الزمن، والشيخ في زي أسود لكنه رائع.. أسود وجميل مثل شولاميت[49]. وفكرت

في عنتر وأبو زيد الهلالي.

أرسلي سلامي إلى مدام تاستو واسأليها ما إذا كان عليَّ البقاء هنا أم أذهب شمال النهر في الجو الحار ثم أعود في الشتاء القادم، وفي أي حال عليَّ ترك بعضٍ من أشيائي؟ نصحني هكيكيان بقوة بأن أبقى هنا معتقدًا أن الحرارة ستكون طيبة. سأحاول، ثمانية وثمانون درجة تبدو متوافقة معي وسعالي أحسن كثيرًا.

-42-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 14 أبريل 1864

أَلِيك الحبيب..

استقبلتُ في هذه اللحظة خطابكَ المكتوب في 18 مارس بعد أن وصل إلى جانيت التي كانت تصطاد في التل الكبير. كان لدينا رياح خماسين هائلة، والآن رياح شمالية قوية نقية جدًّا وباردة، الترمومتر كان 92 درجة خلال الخماسين لكن هذا لم يسبب لي ألمًا، من حسن الحظ أنني بخير إذ عملتُ كثيرًا بسبب وباء غريب ظهر هنا فأصبحتُ كحكيمة الأقصر. الحكيمباشي جاء من القاهرة وأخاف الناس، أخبرهم بأن هناك وباءً معديًا، ومن ثم نسيَ الشيخ يوسف تعاليم الدين ورجاني كثيرًا ألَّا أكون طول النهار في أكواخ الناس، لكنني وعمر احتقرنا الخطر. أشعر.. بل متأكدة أنه لا توجد عدوى، وعمر قال باطمئنان إنه "من الله"، الناس يعانون الإمساك ويموتون خلال ثمانية أيام إذا لم يُعالَجوا، وكل الذين أرسلوا إليَّ تم شفاؤهم بسرعة. الحمد لله، ذلك أنني استطعت أن أعالج الأرواح الفقيرة. إنه الحصاد والعمل الشاق والحر الكثيف والحبوب غير الناضجة -القمح..الفول.. إلخ.- مما يأكلون هي التي تأتي بالأمراض. صام الأقباط عن اللحوم ويأكلون كثيرًا الفاصوليا الخضراء والسلاطة والفريك. حاول مصطفى أن يقنعني بألَّا أعطي دواء للمرضى خوفًا من أن يموتوا ويقولوا إني سممتهم، لكن كلَّا من عمر وأنا كنا نرى أن هذا فقط لتبرير أنانيته الشخصية. عمر مساعد رائع، حاول الأسقف أن يحصل على بعض الأموال ملمِّحًا إلى أني إذا منعت مرضاي الصيام فعليَّ أن أدفع ليغفر لهم أو يسكت عنهم. أحد الفقراء من مرضاي ضئيل الجسم وحاد الطباع، رفض شُربة الدجاج وقال لي إن الأوروبيين يتمتعون بالجنة في هذه الدنيا، وصفه عمر بالكلب.. لكني أسكته وقلت للرجل

"يا آخي لقد خلق الله مسيحيي آوروبا مختلفين عن مسيحيي مصر، وبالتأكيد لن يُدين أحدًا منا لهذا السبب، وربما تجد أنت جنة في الآخرة أفضل مما أستمتع به أنا هنا الآن"، طوقني عمر بذراعه وقال "أوه.. أنت رائعة جدًّا ومؤكد أن ربنا سيكافئك على سلوكك هذا لأنك أظهرتِ وداعة المسلم إذ قبَّلتِ اليد التي صفعتك"، انظُر كيف أن كل عقيدة تنشد التواضع والصفح عن الإساءة. لم يكن سليمان مسرورًا من أن مسيحية مثله تُبدي هذا الإحسان، إنه لغريب أن الأقباط من الطبقة السفلى لا يطلبون لنا الغفران أو يشكرون الله على الصحة مثل المسلمين، أكثر مرضاي مسيحيون وبعضهم لطيف بحق.. الناس هنا يسمونني الست "نور على نور".

كنت سعيدة جدًّا بشفاء الابن الوحيد لامرأة فقيرة، بعد أن كان مريضًا بشكل مخيف. قبّلت الأم قدمي وسألتني بأي اسم تدعو من أجلي.. أخبرتها بأن اسمي يعني "النور" لكن لأن هذا من أسماء الله فلا أستطيع استعماله. قال رجل موجود بالغرفة سيكون اسمك "نور النور" وهذا يعني شيئًا مثل "نور من النور" و"نورعلى نور"، مزيج من أحد أسماء الله وهو أمر سليم مثل عبد الله.. وعبد الرحمن.. إلخ. رجوتُ الكونتيسة برانيسكي زوجة القنصل التي ستذهب إلى شمال النيل أن تحضر لي بعض الأدوية فلا أعرف ماذا سأفعل حين ينتهي ما عندي من دواء، سأحاول تحضير زيت الخروع، لا أعرف كيف.. لكن سأحاول وعمر سيساعدني، انتشر وباء القطعان أيضًا في إسنا ورأينا الجثث النافقة طافية طول اليوم متجهة شمالًا. طبيعي أن يصل إلى هنا بسرعة.

الأحد 17 أبريل

بدا أن الوباء في طريقه للانتهاء، لكن ما تزال هناك حالات كثيرة تعاني حمى المعدة أو ما شابه. كان حكيم قنا عندي منذ قليل.. شاب ماهر يتحدث الإيطالية بطلاقة والفرنسية بشكل جيد جدًّا.

انه ابن أحد الفلاحين في مصر السفلى أرسل للدراسة في بيزا ولم يفقد أدبه العربي وكياسته بالتعليم الإفرنجي، تآخينا بشكل كبير وكان الحكيم الشاب مبتهجًا بحبي لشعبه وفكرتي السامية عن ذكائهم، إنه الآن يفحص مريضًا وسيزورني مرة أخرى ويعطيني إرشادات، كان غير سعيد تمامًا إذ لا يستطيع أن يمدني بالدواء، فلا شيء يباع خارج القاهرة إلا من أطباء المستشفيات الذين يبيعون دواء الحكومة سرًّا كما يفعل الطبيب الإيطالي في أسيوط. كان علي أفندي -هذا اسمه- أشرف مِن فِعل ذلك. زارني الأسقف العجوز لثلاث ساعات ونصف أمس وأرسل إليَّ قطعة كبيرة من السكر ومن ثمَّ عليَّ أن أرسل تبرعًا للكنيسة يستولي عليه وبه يسكر بالعرق. العجوز كان ثملًا وطلب نبيذًا.. قلت له ببرود "حرام" أن نشرب خلال النهار.. فقط مع العشاء. لم أقدم للمسيحيين قطُّ شرابًا هنا وهم لم يعودوا يضغطون عليَّ أن أشرب حين أكون في منازلهم، اقترح الأسقف أن يغير ساعة الصلاة من أجلي وأن يدخلني الهيكل المحرم على النساء، وذلك يوم جمعة القيامة التي ستكون بعد ثمانية عشر يومًا، رفضتُ كل هذا وقلت "سأذهب إلى سطح الكنيسة وأنظر إلى أسفل من النوافذ مع الحريم الأخرى"، لدهشتي قبَّل عمر يد الأسقف فقلت "ماذا! هل تقبل يده مثل القبط؟" قال "نعم.. إنه رجل عجوز وخادم ربي وإن كان قذرًا إلى درجة مرعبة " وكان هذا حقيقيًّا، حضوره نشر جوًّا رهبانيًّا ثقيلًا، الأسقف يجب أن يكون راهبًا هنا بينما يتزوج القساوسة.

الاثنين 18 أبريل:

جاء اليوم الحكيم علي أفندي ليخبرني كيف حاول أن يرى مرضاي وفشل، كل الأسر أعلنت أنها بخير ولم تسمح له بالدخول، ذلك أنهم في الأعماق لديهم عدم ثقة بالحكومة وكل ما تفعله، كلهم انتظروا حتى رحل وجاؤوا مرة ثانية إليَّ بمرضاهم، عنَّفتهم.. فقالوا كلهم "والله يا ستي يا أميرة إنه

حكيمباشي ويريد أن يرسلنا إلى المستشفى في قنا وهناك يسمِّمونا، وحياة عينيكِ لا تغضبي منا ولا توقفي رحمتك معنا لهذا السبب"، قلت "علي أفندي مصري ومسلم وأمير، وقدم لي نصائح جيدة وسيعطيني نصائح أكثر".. إلخ، لكن لا فائدة، إنه طبيب الحكومة ويمكن أن يموتوا لكنهم سيبتلعون أي دواء من الست "نور على نور".. شيء عجيب!.

أعطيت الشيخ يوسف أربعة جنيهات أجر ثلاثة أشهر من الدروس اليومية، وخضت صراعًا لأجبره عليها.. "لم أدرِّس لكِ من أجل المال سيدتي".. وصار لونه قرمزيًّا، لقد كان مع علي أفندي لكنه لم يستطع أن يقنع الناس بأن يروه ليعالجهم، وجدت الأقباط متحيزين دينيًّا ضده والحقيقة نحو كل الهراطقة، إنهم يعتبرون أنفسهم -مع الأحباش- المؤمنين الحقيقيين، وإذا كانوا يعتبروننا إخوة فهذا من أجل المال، إنني أتحدث فقط عن الطبقة السفلى والقساوسة، وبالتأكيد التجار المتعلمون يختلفون جدًّا.

لديَّ قسيسان وشمَّاسان وأم أحدهم كانت هنا اليوم طالبة دواء لامرأة، كانت جميلة جدا وتسر الناظر لكن بائسة تعاني الوهن والضعف من الصيام الطويل، أخبرتها بأنها لا بد أن تأكل اللحم وتشرب النبيذ وتأخذ حمامات باردة وأعطيتها دواء الكينين.

سوف تتعاطى النبيذ والكينين لكن لن تأكل أو تستحم، لقد أخبرهم الأسقف بأنهم سيموتون إذا كسروا الصيام، بينما نِصف الأقباط مرضى بسببه. أحد القساوسة يتحدث قليلًا الإنجليزية.. إنه يصنع أنتيكات مزيفة بمهارة ونشاط لكن.. يا إلهي! أمره يكفي ليجعل المسلم يقارن هذا الاحتيال الناعم بالشرفاء الخيرين راقي العقل (النبلاء) مثل عبد الوارث والشيخ يوسف. الولد القبطي الصغير الجميل المريض جدًّا سيموت بهذا التعصب الأعمى الغبي للصيام. صديقي سليمان هدأ كثيرًا ويردد نصيحتي للمرضى بأن يكسروا الصيام، إنه صديق كبير وذكي جدًّا وهو وعمر مثل الإخوة، إنهم القساوسة هم الذين يفعلون كل ما يستطيعون للحفاظ على التعصب الديني، الحمد لله.. إنهم

ينجحون جزئيًّا. سمع محمد أن خمسة وسبعين رأسًا من البهائم قد نفقت في قرية المطاعنة، هنا في الأقصر مات القليل فقط حتى الآن ويعتقد علي أفندي أن المرض هنا أقل خبثًا مما هو في مصر السفلى، أرجو أن يكون محقًّا لكن الجثث تطفو متجهة شمالًا على صفحة النهر طول اليوم.

لنعود إلى شيء أكثر مسرّة -لكن من فضلك لا تقله- إنها مجرد نكتة لا تتناسب مع شعري الأبيض، كان هناك اقتراح -أو على الأقل محاولة- لخطبتي، شيخ عرب أنيق جدًّا -بدوي- كان هنا وسأل عمر ما إذا كنتُ أرملة أو مطلقة، لأنه في الحالتين سيرسل (دلّالة) لي -خاطبة الآن- فقال عمر له "هذا لا يمكن، فلها زوج في إنجلترا إلى جانب أنها ليست صغيرة فلديها ابنة متزوجة وشعرها أبيض.. إلخ"، أقسم الشيخ على أنه لا يهتم بكل هذا، فأستطيع أن أصبغ شعري وأحصل على الطلاق لإنني لست مثل نساء اليوم الغبيات، لكن مثل أميرة عربية قديمة وأستحق رجلًا كعنتر أو أبو زيد -امرأة يتقاتل الرجال عليها أو يقتلون أنفسهم- وأنه سيدفع كل ما يستطيع مهرًا لي. جاءني عمر يضحك من الفكرة ومن الصعوبات التي واجهها ليمنع زيارة (الدلّالة)، أخبر الشيخ بأنني سأضربها لشعوري بالغضب، عدم اعتبار فارق العمر في الزواج هنا غريب جدًّا.. فهذا المعجب بي لم تزد سِنُّه على الثلاثين.. أنا متأكدة، لا تقل ذلك للناس عزيزي أَلِيك، إنه أمر عبثي جدًّا.. "سأخجل أمام الناس لو عرفوه".

السبت 23 أبريل:

الحمد لله؛ المرض يتلاشي، جاءني سليمان بالتقرير الآتي: "حسن أبو أحمد يقبّل قدمَيْ الأميرة فالحبوب التي أخذها نظفت معدته ست مرات وقد قرأ الفاتحة لسيدتي. الفتاتان الصغيرتان المصابتان بالإسهال تحسنتا. الدباغ المسيحي تقيأ المسحوق الذي شربه وطلب آخر، أم الطباخ المسيحي الذي تزوج بأخت القسيس أصيبت بالدوسنتاريا ."حريم" مصطفى أبو عبيِّد لديهما

طفلان مصابان بالرمد. الأسقف كان في شجار يوبخ الناس ويشتمهم وسقط لا يستطيع الكلام أو الحركة؛ عليَّ أن أذهب لزيارته. يرقان الشماس الشاب أحسن. جارية خورشيد أغا مريضة.. وخورشيد يجلس عند رأسها يبكي.. النساء يقلن إن عليَّ أن أذهب إليها أيضًا. خورشيد شاب تركي حسن وجيد جدًّا في معاملته لحريمه". هذا كل شيء، وسليمان لم يكن لديه شيء على الأرض ليفعله غير أن يأتي إليَّ بتقرير كل يوم، إنه يحب النميمة ويراها تعطيه أهمية.

أحضر ريس مركب البضائع لي كتابًا للافونتين وبعض الأوراق والكتب من هكيكيان بيك، سيسافر الشيخ يوسف إلى القاهرة في محاولة لاستعادة بعض الأراضي التي أخذها محمد علي من المساجد ومن علماء الدين دون تعويض، لقد سألني ما إذا كان روس يستطيع أن يكلم أفندينا عنه! ماذا سيحلِ بالمسلمين؟

ولأني صرتُ أستطيع أن أقرأ بشكل كافٍ عَرضَ عليَّ أن يقرأ القرآن معي، إنها عملية غير عادية.. فالقرآن النبيل لم يقع بشكل عام في أيدي الهراطقة، لكن أعمالي الخيرية للمرضى من الناس رآها الإمام عبد الوارث والشيخ يوسف دليلًا على أنني اهتديت وأنني من أولئك المسيحيين الذين قال عنهم سيدنا محمد عليه السلام ."أولئك الذين لا تكبّر لديهم، الذين يتنافسون مع بعضهم على عمل الخير، أولئك الذين سيضاعف الله لهم الجزاء".

وليس هذا تفكيرًا رجعيًّا يراد به التحول عن ديني، فاعتقاد المسلمين السائد هو أن الحسنات يذهبن السيئات.

الجمعة القادمة هي "الجمعة الكبيرة".. جمعة القيامة عند القبط، والقساوسة سيكونون موجودين بالنهار ومن ثم سأذهب إلى الكنيسة. الشهر القمري القادم سيكون العيد الكبير للمسلمين -ذكرى الأضحية من أجل إسماعيل أو إسحق، فالدارسون لم يصلوا إلى حقيقة أيهما- وسوف يذبح عمر خروفًا للفقراء أضحيةً من أجل طفله الصغير كما هي العادات. قبطي

متعصب كلب ذو أربع ينتمي إلى العائلة القبطية التي تعيش في الضفة الأخرى للساحة يكرهني في خبث حاد، ولا يكتفي بأنه قريب مني طوال اليوم فيعوي طوال الليل حتى بعد أن أطفئ الأنوار ولا يستطيع أن يراني فوق السرير، دعوت عليه بالموت ما دام لا يمكن ضربه أو احتماله. ميشيل ابن سيده جاء من المطاعنة حيث هو وكيل مسيو مونييه، قدم إحصاءً مخيفًا عن المرض هناك بين الرجال والقطعان، من ثمانية إلى عشرة من الناس يموتون كل يوم، وهنا لدينا فقط أربعة في اليوم في أسوأ الحالات بين سكان عددهم وصل إلى 2000 كما أعتقد. مونييه وزوجته وضعا نفسيهما في الكارانتينة -الحجر الصحي- ولم يسمحا لأي شخص بالاقتراب من بيتهما كما أراد لي مصطفى أن أفعل. مائة وخمسون رأسا من البهائم قد ماتت في المطاعنة، هنا فقط قليل من العجول ماتت ولكن أخيرًا لم تمت قطعان ناضجة والناس صاروا أصحاء من جديد. حقيقة فكِرت في أني قدمت بعض الخدمات دون أن أظهر أي خوف وتصرَّفَ عمر برجولة كاملة. بالمرة.. هل يمكن أن تكشف لي هل "البازابورتو" -كما يطلقون عليه هنا- ورقة تضمن الحماية البريطانية؟ يمكن أن تكون حماية في إنجلترا؟ إن هذا هو الموضوع لطموح عمر الكبير.. أن ينتمي بكل ما يمكن للإنجليز ويشعر بالأمان من أن يكون مجبرًا على خدمة الأتراك، إذا كان هذا يمكن عمله بأي طريقة أو وساطة افعَلْهُ لأن عمر يستحق كل خدمة أردها إليه لأمانته وإخلاصه. البعض حاول أن يحشو رأسه بأن هذا حرام، أن يكون مغرمًا بنا نحن الهراطقة وأن يكون مخلصًا لنا، لكنه استشار الشيخ يوسف الذي وعده بالخير فيما بعد لسلوكه الطيب معي، والذي أخبرني بها كنكتة جيدة وأضاف إليها أنه "راجل أمين" والمجد للأمانة التي هي لقب النبي الأمين. لا تندهش كوني في حاجة نفسية إلى خدمة أصدقائي بأي طريقة، العدالة لا تنمو في الشرق وأوروبا هي "ملاذك الوحيد"، وهنا قاعدة واحدة.. ألا تُخدع من الأصدقاء. عمر يقبّل يدَيْ "سيدي الكبير" ويتمنى له

آحسن السلامة لأولاده الأسياد الصغار والسيدة الصغيرة التي يخدمها، يسألني ما إذا كنت أيضًا لا أقبِّل يد "إسكندر بيك" في خطابي كما يجب عليَّ أن أفعل كحريم له أم "أتكبر أمام سيدي مثل بعض السيدات اللاتي رآهن"، قلت له سأفعل ذلك إذا "إسكندر بيك" حصل على "الورق" له، فاندفع إلى طرف ثوبي وراح يقبله، واعترضت بأدب على هذه الطريقة في التعامل مع المرأة.

الشيخ يوسف كان متحيرًا تمامًا في أمر المرأة الأوروبية وصدم قليلًا للحاجة إلى احترام الزوج الظاهرة عندهن، أخبرته أن الاحترام الظاهر الذي يقدمه لنا رجالنا هو قناعنا وشرحت كيف أن الفارق سطحي، إنه يتخيل أن القانون يعطينا اليد العليا. قدم عمر تقريرًا عن خطبة الأمس.. كانت عن "التسامح". أخذ يوسف النص القائل "أولئك الذين يحبون إخوتهم كأنفسهم ولا يأخذون موقفًا منهم بل تكون المعاملة بالمثل"، نسيت السورة والكلام لكن بدا أنه دخل في الموضوع مباشرة وأعلن "أيها الرجال كونوا إخوة ليس للمسلمين فقط"، ورغب في أن ينظر الجميع إلى الأفعال الطيبة للآخرين وليس إلى إيمانهم الخاطئ، (إذ لله العلم كله وهو وحده يعلم ما في القلوب). وإذا شاهدوا بأي حال نقصًا منهم فعليهم أن يتذكروا أن الرجل الفاضل يحتاج إلى القول "أستغفر الله" سبع مرات في اليوم.

أتمنى أن يعرف الإنجليز كيف هو غير سارٍ ومؤذٍ كلامهم لخدمهم عن الدين. كشف عمر لي كيف أنه أمر سيئ أن يتم سؤاله ثم يرى الإنجليزي يضحك أو يغلق شفتيه ولا يقول شيئًا.. "لا أريد أن أتحدث عن دينه أبدًا لكنه إذا أراد أن يتحدث عن ديني فعليه أن يتحدث عن دينه أيضًا، أنتِ يا سيدتي حين أخبرك بأشياء تقولين إنها نفسها لدينا أو إنها مختلفة أو جيدة أو سيئة في عقلك، وهذه هي الطريقة الصحيحة وليست أن تظهري كمن يفكر بلا مبالاة".

إسنا

السبت 30 أبريل:

في مساء الثلاثاء بينما أجلس حالمة على الأريكة فكرت في أن آرثر تايلور سيذهب وحده في دهبيةٍ إلى إدفو. عرضت عليه أن أذهب أيضًا.. قال إنه سيذهب إلى أسوان ليشاهد معبد فيلة مع أصدقاء فذهبنا إلى مصطفى لنعقد صفقة مع ريسه من أجل ذلك، ومن ثم نحن هنا في إسنا. تحركت مساء يوم الأربعاء وأمامنا يومان في الطريق. أمس كانت الحرارة في الترمومتر 110 فهرنهايت، وكنت الشخص الوحيد اليقظ في المركب طوال اليوم. تمدد عمر بعد الطهو عند قدميّ في القارب على السطح، ذهب آرثر بهدوء إلى السرير في الكابينة وكذلك فعلت سالي، نام كل الطاقم على السطح، قام عمر بالطهو ككائن برمائي.. فكان يستحم بين وجبة وأخرى. هدوء النهار مع الحرارة المشعة لَمَعَا على النهر مثل القصدير السائل، والقوارب النوبية الخشنة التي تتحرك شمال النهر الذي ينساب هادئًا دون صوت للمياه على جوانبها كانت رائعة وحقيقة مَهيبة، لا نسمة هواء بينما نتمدد تحت الجوانب العالية للشاطئ. نهر النيل ليس دائمًا منخفضًا هكذا وقد كان مشهده مختلفا العام الماضي، الناس يعتبروننا مجانين لذهابنا إلى أسوان في شهر مايو.. لكنني أستمتع بذلك، وأريد حقيقةً أن أنسى كل الأمراض والأحزان التي شاركتها وشاركتني. حين ذهبت إلى مصطفى أخبرني بأن الشيخ يوسف مريض فقلت إذن لن أسافر، لكن الشيخ يوسف جاء مصابًا بالصداع فقط، أخبره مصطفى بما قلت ولم أشاهد تعبيرًا جميلًا على وجهٍ إنساني مثل ذلك الذي قال به يوسف "إيه يا ست!".. ضحك مصطفى وطلب إليه أن يشكرني فالتفَتَ يوسف إليَّ وقال بصوت منخفض "لا تحتاج أختي إلى شكر، فليحفظكِ الله"، مذهولة وفرحةٌ بـ"شَريف"، وواحد من العلماء يدعو إفرنجيةً بـ"أختي"! ابنته الصغيرة الجميلة لعبت معي وعرضها عليَّ زوجةً لموريس. عالجتُ الجارية الحبشية لخورشيد، ستضحك

وأنت تراه يطيع تعليماتي ويمسح عينيه بكمه المطرز بالذهب. ثم أقبل القسيس القبطي عليَّ من أجل زوجته المريضة.. كان في مأزق كبير لأنها إن ماتت فهو كقسيس لا يستطيع أن يتزوج أبدًا، وكان ينوح بصوت عالٍ أمامها، كان بالفعل حزينًا وكنت سعيدة إذ تركتها ماثلة للشفاء.

دون شك كانت زيارة مزعجة.. القطعان الميتة تطفو في اتجاه الشمال بالآلاف، مسيو مونييه دفن ألفًا في المطاعنة وحدها وفَقَدَ أربعين رجلًا، لم أكن أريد مغادرة الأقصر لكن لم يكن هناك حالات جديدة لأربعة أيام وأخطرها انتهت منذ عشرة أيام. اثنان أو ثلاثة من الفقراء أحضروا لي خبزًا طازجًا وخضراوات لآخذها بالقارب حين رأوني أرحل، وجاء الشيخ يوسف وجلس معنا كلنا في المساء وبدا حزينًا جدًّا. سأله عمر "لماذا؟".. فقال إنه يفكر "كيف ستكون الدنيا حين -إن شاء الله- تتحسن صحتي وأترك مكاني خاليًا في الأقصر وأعود ببركة الله إلى بلدي وشعبي؟"، فتأثر عمر كثيرًا أيضًا وتقريبًا بكى. لا أعرف كيف سيتصرف آرثر من دوننا إذ جاء ومعه فرنسيان معهما خدم خاصون وغادر القارب في جِرجا، ومعه خياط قبطي أحمق قذر رثُّ الملابس كخادم لا يستطيع حتى أن يحيك عروة، هكذا تصبح مصيبة الخدم هنا. أخبرني آرثر بأن رجالًا أقل من أن يشعلوا "بايب" عمر طلبوا إليه عشرة جنيهات في الشهر في القاهرة وليس أقل، وأنه يعطي خادمه القبطي أربعة جنيهات، شعرت حقيقة بأني أقلل من شأن عمر الذي يعمل بثلاثة جنيهات لكن إذا قلت شيئًا يقبّل يدي ويقول "مش لازم".

كان معي خطابات من يوسف إلى بعض الناس في أسوان، إذا احتجتُ إلى شيء سأطلب القاضي. لدينا مركب رائع جدًّا وطاقم عمل جيد ومرتاحون للغاية.. حين سمع أهل الأقصر أن ابن عمي جاء ظنوا أنه زوجي.. أصبحت من ملكية عمر، حكى لمصطفى ويوسف كيف كان عليه أن ينام في الكابينة بين سرير آرثر وسريري وكان هذا يعتبر مُرضيًا بوضوح وبدا مناسبًا جدًّا لعمر أنه

الذي نظم ذلك هكذا باعتباره أرسِل لتنظيم المركب.
لقد عبر آرثر قناة السويس ورأى أشياء مدهشة للغاية.. قال لي إن الدلتا لا تشبه مصر العليا كثيرًا، جماعة قليلة من الحجاج في طريقهم إلى مكة غادروا الأقصر منذ عشرة أيام. كان مشهدًا جميلًا ومؤثرًا.. ثلاثة جمال، خمسة حمير، ونحو ثلاثين رجلًا وامرأة، قليلون يحملون أطفالًا على أكتافهم وكلهم يطلقون الزغاريد، عليهم بالسير حتى القصير رحلةَ ثمانية أيام بالجمال الجيدة، يقولون إن أسعد يوم في حياتهم هو يوم تتوفر لديهم -ولو بشق الأنفس- الأموال للحج.
في هذه اللحظة رجل فقير يبكي جوار قاربنا على بقرة صغيرة مزينة بأحجبة كثيرة لم تُفدها ضد المرض، شيء يوجع القلب أن ترى جثثًا لبهائم بائسة وأصحابها التعساء، بعض الفتيات الراقصات أتين إلى القارب الآن من أجل السجائر التي وعدهن بها آرثر، وليتحرين عن صديقتهن المغربية أفضل راقصة في الأقصر التي قيل إنها مريضة جدًّا. عمر لم يعرف عنها شيئًا وبدت البنات محبطات، كل منهن كانت جميلة جدًا.. إحداهن حبشية. عليَّ أن أغادر لأرسل هذا الخطاب بالبريد، سيكون مكلفًا لكنك لن تتذمر منه.

-43-

إلى السير أليكساندر دوف چوردون

الأقصر - 15 مايو 1864

وقفة العيد الكبير

أَلِيك الحبيب..

عدنا إلى الأقصر أمس في المساء قبل حلول الظلام، أطلق عمر من "طبنجتكَ" القديمة طلقات ترحيب في الفضاء فأقبل علينا كثير من الناس يهتفون "حمد الله ع السلامة يا ستي"، ويقبِّلون يديَّ "أهلًا بكِ في بيتك مطرحك".. و"تعبنا كتير في غيابك". جاء مصطفى ومعه خطابات لي والشيخ يوسف مضيء وجهه بالابتسام، وجاء محمد ومعه خبز طازج مخبوز من محصول القمح الجديد وسليمان بالزهور واندفع أحمد الصغير بقوة ليقبل يدي، حين خفَّتْ الترحيبات أخبرني يوسف الذي جلس يشرب الشاي معي بأن كل قطعان البهائم ماتت؛ خسر مصطفى أربعة وثلاثين وبقيت له ثلاثة، وعمر -المزارع المسكين- خسر الأربعين رأسًا كلها، الكارثة في مصر العليا مرعبة الآن.. خلال ستة أسابيع كل قطعاننا ستموت.. إنهم يدرِسُون الذرة بالحمير والرجال يديرون السواقي والمحاريث ويموتون من فرط العمل وجَوْعَى في كل مكان، الزراعة كلها تعتمد على الثيران.. وكلها ماتت. في المطاعنة والقرى التسع حول أرض حليم باشا هلكت أربعة وعشرون ألف رأس، أربعة رؤوس فقط كانت باقية حين كنا هناك منذ ثلاثة أيام.

أمضينا يومين وليلتين في جزيرة فيلة. والله! كان الجو حارًّا جدًّا حتى إن الصخور البازلتية المجاورة للنهر حول الجزيرة كلها كانت تحترق. نمت أنا وسالي في غرفة أوزوريس على أسِرَّة صيفية على سطح المعبد مكشوفين في الفضاء، نام عمر عند المدخل لحمايتنا، وذهب آرثر وخادمه القبطي مع رمضان البحار المهذب

ليناما دون غطاء في صرح المعبد.
وضع رمضان الحريم تحت عنايته الخاصة المحترمة جدًّا وحَرَسَنا بتفانٍ ولم يرفع عينيه إلى وجوهنا أو يتحدث قبل أن يحدثه أحد قطُّ. جزيرة فيلا على بعد ستة أو سبعة أميال من أسوان وذهبنا على حمير عبر قرية الشلالة الجميلة -قرية الشلال- والمقابر السامية في أسوان، كانت دهشة كل شخص يرى الأوروبيين في غير موسم حضورهم كبيرة جدًّا، كنا مثل طائر السنونو في يناير بالنسبة إليهم.
لم أستطع النوم بالغرفة من الحرارة فوضعت على نفسي عباءة وذهبت ونمت أعلى جدار المعبد.. يا لها من ليلة! يا له من مشهد جميل! النجوم لها ضوء القمر في أوروبا، وكل شيء -باستثناء الشلال- ساكن مثل الموت ويتوهج بالحرارة، وأشجار النخيل أكثر روعة وتثير الأحلام أكثر من أي وقت. نهض عمر وجاء وجلس تحت قدميَّ وراح يدلكهما وأخذ يغني أغنية العبد التركي. قلت "لا تدلك قدميَّ يا أخي فهذا ليس مقامك" لأنه ليس من الكرامة لأي من المسلمين الأحرار لمس أحذية أو أقدام الآخرين، لكن عمر استمر في الغناء وراح يردد "العبد التركي ربما يتحرر بالمال لكن من كان ثمن أعماله الطيبة العطف والحنان كيف يُحرر!"، ثم انفجر النهار من الشفق القرمزي للفجر فنزلت أستحم في النيل ورأيت الفتيات على الجزيرة المقابلة في ملابسهن الصيفية التي تتكون من شرائط جلدية حول أردافهن -رشيقة للغاية- يحملن سلالًا مثل أطباق كبيرة مملوءة بالذرة على رؤوسهن السامقة الصغيرة، ثم ذهبت وجلست عند نهاية بهو الأعمدة أتطلع ناحية إثيوبيا، وحلمت به ذلك "الذي لا ينام ولا يَغفل في فيلة.. أوزوريس"، حتى قبّل آمون رع العظيم وجنتي بحرارة كبيرة ودفعني إلى المعبد لأتناول الفطور والقهوة وأدخن "البايب والكِيف". في المساء جدف بنا ثلاثة نوبيين صغار عراة لساعتين أو ثلاث في النهر العظيم في قارب مصنوع من آلاف من قطع الخشب الصغيرة التي لا يزيد طول أي منها على قدم، وفي

الطريق بين حين وآخر يختفون ثم يظهرون على الناحية الأخرى من القارب. كانت أسوان ممتلئة بالجنود الأتراك الذين جاؤوا وأخذوا حميرنا وحملقوا في وجوهنا دون أي مراعاة للآداب، لم أنزل إلى الشاطيء في كوم أمبو أو الكاب.. فقط في إدفو حيث أمضينا اليوم في المعبد، وأيضًا في إسنا حيث حاولنا شراء سكر وتبغ.. إلخ، ولم نجد شيئًا رغم أن إسنا بها مزارع قصب ولها مدير خاص. فقط في الشتاء يجد المسافرون ما يريدون. كان علينا أن نطلب إلى الناظر في إدفو ليأمر شخصًا يبيعنا الفحم، الناس لا يستخدمون السكر ويدخنون التبغ أخضر ويأكلون الفول وما شاكله وقريبًا سنفعل مثلهم لأن مخروننا تقريبًا سينفد.

توقفنا في المطاعنة وتناولنا عشاء جيدًا في المنزل الجميل لعائلة مونييه وأعطوني صرة من السكر. حكت مدام مونييه عن إقامة راشيل معهم لثلاثة أشهر في الأقصر في بيتي حيث كانوا يعيشون، لقد كرهت راشيل المكان حتى إنها عند الرحيل استدارت وتَفَلَت على الأرض، ولعنت المكان الذي يسكنه متوحشون إذ كانت تشعر بالملل حتى الموت.

مدام مونييه كانت متعاطفة جدا معها وتعتقد أنه لا امرأة تبحث عن الحب يمكن أن تعيش بين المصريين الذين هم ليسوا ظرفاء مع النساء بالمرة. إنها مشرقية Laventine وأعتقد أنها نصف عربية أيضًا، لكن تكره الحياة هنا وتكره المسلمين، وأنا أكتب ذلك الآن أضحك إذ أفكر في الظرف مع النساء والمصريين في جملة واحدة وأحملق في أخي يوسف الذي ينام على الحصير مغلوبًا بريح السموم التي تهب وبالصيام اليوم كوقفة العيد الكبير،إن هذا هو أبرد مكان في القرية؛ درجة الحرارة في الترمومتر 95 ونصف، الآن.. في الساعة الحادية عشر صباحًا في الصالة المظلمة.. جاء القاضي والمعاون ويوسف معًا لزيارتي، وحين غادر الآخران بقي هو وتمدد لينام.. عمر ينام في الممر وسالي تنام في غرفتها، أنا وحدي لا أنام فريح السموم مرعبة. آرثر يتحرك طوال اليوم يتطلع إلى المشاهد ويرسم، ولا يعاني الحرارة مطلقًا، لا أستطيع

المشـي الآن فالرمال تقرّح قدميّ.

الثلاثاء 17 مايو:

أمس كانت ريح السموم مرعبة، والليلة الماضية نمت في الممر وكان حارًّا جدًّا، اليوم الرياح الشمالية انطلقت في الظهيرة ووصلت إلينا رغم أن الحرارة ما تزال 102 في غرفة الجلوس. الجد الأكبر العجوز جاء اليوم عندي من أجل التبغ والقهوة، إنه مساعد بيلزوني[50] ووُلِد ابنه الأكبر قبل أن يتحرك جنود بونابرت إلى الأقصر بسبعة أيام، إنه أنيق جدًّا ومعتدل القامة ومتحدث لبق لكنه فقط يتذكر الأزمنة القديمة ويحدثني عن مدام بلزوني، هو مثل جد لمحمد حارس منزله ومثل جد لجد صغيري أحمد، أحفاده زوجوه بامرأة عجوز متماسكة لتعتني به، يسميني "سيدتي حفيدتي" ويسمي عمر بمصطفى ونحن نحبيه كجد.. أتمنى لو أرسمه، إنه لعظيم المنظر.

أمس وُلِدَ طفل لمصطفى العجوز.. طفله العاشر، عليَّ أن أذهب وأتمنى له الفرح به، وبعدها سأذهب إلى قارب آرثر وأستحم. البحارة يجهزون لي سقيفة.. لدينا قارب جيد وطاقم ماهر، ورجل اسمه محمد ينادونه بالعاطي -المغني- يغني بشكل جميل، وأشعر ببهجة عظيمة والكل رجال ممتازون هادئون ومطيعون، فقط كان لآرثر خادم مثل بهيمة كسلانة، قذر ومغرور، قبطي فسد بالاحتكاك مع الإيطاليين والعلاقات مع اليونانيين ويعتقد نفسه عظيمًا جدًّا لأنه مسيحي، أتعجب للصبر والطيبة التي يعمل بها عمر ويتحمل غطرسة هذا الرجل.

حدث شجار فظيع في أسوان. أقام الرجال شبه خيمة لي لأستحم على جانب من سطح القارب. أمسك رمضان بهذا القبطي وهو يكاد يتسلل إليها وكاد يخنقه.. قال له "يا كلب.. هل أنت كافر وترى أن امرأة مسيحية يحق لك انتهاك حرمتها!".. وفقد عمر أعصابه ونادى الريّس العجوز وكل البحارة.. "يا مسلمون أليس واجبًا أن أقطع رأسه إذ دنس السيدة النبيلة بعينيه التي

تشبه عيني الخنزير؟ إن الله سيغفر لي ذلك بعدما آفعله"، فلعنه الجميع لأنه خنزير وكافر وهددوا بأن يتركوه على الشاطئ لسلوكه الحقير أمام حرمة نبيلة، تنهد عمر أمامي متأثرًا وقال إنني له مثل أمه فكيف يستطيع "مكاريوسي" أن يلوك اسمي في فمه القذر! بعد ذلك حاول القبطي أن يشكو أنه ضُرب لكني أشرت له أنه من الأفضل أن يمسك لسانه لأني أفهم المصريين..وهذا سيكلفه الكثير.

-44-

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 23 مايو 1864

أمي الحبيبة..

كنت أريد أن أرسل إليكِ خطابًا مع آرثر تايلور الذي غادر إلى القاهرة صباح أمس، لكن رياح السموم جعلت مني غبية إلى درجة أنني بصعوبة أنهيت خطابًا لأَلِيك، ومن ثم بدأت في كتابتي لخطاب اليوم لأعيد عجائب الموسم هنا.

لقد ذهبت إلى جزيرة مصطفى لأقضي اليوم في الخيمة أو في الكوخ المصنوع من سيقان الذرة وفروع النخيل الذي أقامه هناك من أجل أن يبقى فيه أيام الدريس والغربلة. لقد دعاني و"صاحب السعادة" المعاون إلى هذه الرحلة. مطر طوال اليوم، مطر هادئ خفيف لكن يكفي ليرطب كل الصحراء، ضحكت وقلت "لقد جلبتُ الطقس الإنجليزي معي" لكن المعاون هز رأسه قائلًا "غضب من الله، المطر في الصيف أمر مخيف"، ورغم ذلك تسلينا بعضنا مع البعض، ونادى مصطفى صبيًّا صغيرًا جميلًا ليرتل القرآن الكريم لإمتاعنا، ولمجاملتي اختار الصبي سورة آل عمران "تاريخ المسيح" ورتلها بجودة رائعة. جاء رجل وسيم من أشراف الجرنة جميل الأخلاق والتحق بنا.. كان مسرورًا لأني أبعدت "البايب" الذي أحضره لي عبد الرحمن -ليس مناسبًا أبدًا أن تدخن خلال قراءة القرآن أو تلاوته- وشكرني على هذا الاحترام وأخبرته بأني أعرف أنه لن يدخن في الكنيسة أو بينما أصلي، فلماذا أفعل أنا؟ يضايقني أن أجد أنهم دائمًا يتوقعون منا الاستهتار بدينهم وهو ما لا يفعلونه بديننا.

الولد الصغير الذي قرأ القرآن كان فلاحًا، وابن صديقي عمر الذي فقد كل مواشيه، لكنه جاء مبتسمًا وراضيًا كما كان دائمًا يقبل يدي ويخدمني. بعد ذلك قرأ المعاون السورة الثانية من القرآن -

سورة البقرة- في ترتيل رخيم مرتعش.. تبين لي ألّا أحد من الحاضرين فهم أيًّا من السورتين باستثناء عدة كلمات هنا وهناك.. ليس أكثر مما يمكن أن أفهمه أنا عندما أقرأ الترجمة، أعتقد أن لغة القرآن أقرب إلى اللغة الشائعة أكثر من قرب اللغة اللاتينية إلى الإيطالية. بعد ذلك جلسنا أنا ومصطفى والمعاون وعمر وسالي حول صينية الغداء وتناولنا غداء طيبًا من شرائح الضأن والطيور والخُضَر مثل البامية والملوخية المطبوخة جيدًا مع اللحم، وأرز، ومشمشية بالبندق والزبيب وخيار وبطيخ، كل ذلك يؤكل بالخبز أو بالأصابع ويُعصر الليمون الأخضر فوقه بينما الملعقة للأرز. كنا مرحين جدًّا إن لم نكن ظرفاء جدًّا.. وهتف المعاون "والله! الإنجليز محظوظون بعاداتهم وبالاستمتاع بصحبة الحريمات المتعلمات الرائعات"، فقال عمر النائم فوق الحشيش "هذه هي سعادة العرب، الخضرة والماء والوجه الحسن.. هذه هي الجنة عند العرب"، مزح معه المعاون بـ"كيف لابن القاهرة أن يعيش حياة الفلاح!".

كنت أنظر إلى أكوام القمح وأفكر في الفتاة راعوث[51] حين بدأتُ أسمع الشفاه المصرية تتحدث بنفس الكلمات التي كانت تتحدث بها الفتاة المصرية منذ أكثر من ألف عام مضى.. "أتبع أمي.. حيث تستقر أستقر، وحيث تذهب أذهب، أهلها أهلي ولا شيء سيفرق بيننا غير مفرِّق الأحباب".

حقيقة لم أستطع أن أتكلم لكني قبّلت قمة عمامة عمر.. على الطريقة العربية، وباركه المعاون بصدق قائلًا "جزاك الله خيرًا يا بني، لقد شرفت السيدة كثيرًا أمام الناس وهي شرفتك، وأنتما مثال للسيد والخادم ومثال للرقة والإخلاص"، وقال العمال السمر الذين يتمددون على الأرض قريبًا منا "حقا.. هذا صحيح، والشكر لله على وجود هؤلاء الناس ذوي السلوك الرائع"، لم أتوقع قطُّ أن أشعر مثل ناعومي Naomi[52]، يمكن أن يفكر العديد من الإنجليز في أن التكرار اللا شعوري من عمر لكلمات راعوث أكثر من عبث،

لكن بالنسبة إليَّ كانت في انسجام تام مع حياة وطرق هذا البلد وهؤلاء الناس الممتلئين بالرقة والمشاعر العاطفية حين لا يكونون مسحوقين. هذا ليس هراء ولا دجلًا فلقد رأيت أفعالهم، ولأنهم يستخدمون مجاملات عظيمة يعتقد الأوروبيون أنهم ليسوا مخلصين لكن المجاملات لا تعني الخداع، إنها فقط شكليات. لماذا يتحدث الإنجليز عن العاطفة الجميلة للإنجيل ويتظاهرون بأنهم يشعرون بها كثيرًا.. وحين يأتونهنا ويرون الحياة نفسها أمامهم يسخرون منها!

الثلاثاء:

لدينا معركة عائلية الآن.. زوجة محمد الفتاة التي في نحو الثامنة عشرة أرادت أن تذهب في العيد الكبير إلى بيت أمها لتغسل لها رأسها وتفكَّ ضفائرها، أخبرها محمد ألا تتركه في هذا اليوم وترسل إلى امرأة لتفعل لها ذلك فقامت بقص شعرها كله، بانفعال قال لها محمد أن تخفي وجهها عنه -هي كلمة تساوي الطلاق- وأن تأخذ طفلها وتذهب إلى بيت أبيها، منذ ذلك الوقت وهو يمشي في الفناء ويدخل ويخرج من المطبخ مكتئبًا وصامتًا.. هذا الصباح دخلت المطبخ فوجدت عمر يطبخ وطفل صغير بين يديه ويعطيه سكّرًا.. "لماذا؟ ما هذا؟" تساءلتُ، أجاب.. "أوه.. لا تقولي شيئًا.. أرسلت أحمد كي يأتي بطفل محمد وحين يأتي محمد هنا سيراه، وأثناء الحديث معه أستطيع قول الكثير، وكيف على الرجل أن يكون طيبًا مع الحريم، وماذا ستفعل هذه الفتاة المسكينة الصغيرة عند أبيها"، باختصار عمر يريد أن يجرب دبلوماسيته في التصالح وإطفاء المعركة، بعد أن كتبت هذا سمعت محمد يتكلم بصوت منخفض هادئ وعمر يضحك بصبيانية ثم صمت، وذهبت لأرى الطفل وأباه.

كان لمطبخي منظر جميل، محمد في ملابسه القاتمة الواسعة وعمة بيضاء، يتمدد نائمًا على الأرض مع الطفل بوجهه الصغير جدًّا الشاحب بجفونه الصغيرة الملطخة بالكحل فوق خدوده

السمراء، نام الاثنان بسرعة.. الطفل بين ذراعَيْ والده، اتكأ عمر على الفرن الكبير بملابسه المنزلية بقميص أبيض مفتوح عند الرقبة وسروال أبيض يصل إلى ركبتيه، مع الطربوش الأحمر والكوفية الحمراء الصفراء تحيط بعمامة الحكيم، يتأملهما بعينيه الرقيقتين جدًّا.. صنع الشابان تناقضًا رائعًا بين مصر العليا ومصر السفلى، محمد نموذج مصري حقيقي.. أسمر كالقهوة، نحيل وهزيل، ملامحه حادة، أنيق اليدين والقدمين، عيناه الصغيرتان متوهجتان براقتان، فمه متسق الزوايا، ليس مجرد مصري أنيق بل شخصية متميزة جدًّا. عمر في لون الخشب أو العاج القديم، شاحب، عيناه واسعتان كعيون البقر، شفتاه ممتلئتان، ذقنه ممتلئ، أنفه قصير، ليس زنجيًّا لكن مصري تمامًا، العينان متسعتان على الجانبين، الشارب مثل حواجب الأنثى، وشعر أسود مجعد، يداه وقدماه ليست جميلة، لكن رشيق في الحركة وفي الملامح، قليل الجمال جدًّا قياسًا على المصريين خالصي الدم الذين يشيعون هنا لكن أكثر حلاوة في التعبير. إنه حقيقةً أخو البنات وفارس حقيقي مع الحريم. كم سيندهش الأوروبيون حين يسمعون فكرة عمر الحقيقية عن معاملتهم للحريم! إنه يذكر إنجليزيًّا طلق زوجته وجعلها سلعة هشة للجمهور، عليك أن تراه وهو يبصق على الأرض في اشمئزاز، هنا.. احتقارٌ كبيرٌ فالمال لا يعوض عارَ الطلاق.

الجمعة:

صار لدينا طقس أفضل من جديد، رياح شرقية وبرد جميل، وأفقدُ السعال والكسل الذي جلبَتْه لي خنقة رياح السموم، الشيخ يوسف جاء توًّا عائدًا من قنا ومعه القاضي وقد ذهبَا على حماريهما من أجل بعض الأعمال القانونية.. لقد أخذ بعض حقائبنا بناء على طلب عمر وأحضر إلينا كمية قليلة من السكر وبعض الأرز والدخان. أليسَ ذلك ما يحدث في روايات فيلدنج[53] كانت رحلتهما ليومين ومن ثم ناما في مسجد قوص في منتصف

الطريق.
أخبرت يوسف كيف أصاب الجدري الطفل ابن سليمان وكيف قال محمد إن هذا "مِن الله" حين اقترحتُ أن يتم تطعيم هذا الطفل فورًا، ناداه يوسف وقال له "يا رجل.. حين تريد بناء بيتٍ.. هل تلقي بالأحجار في كومة على الأرض وتقول إن البناء من الله؟ أم أنك تستخدم مخك ويديك اللتين منحك الله ثم تدعوه أن يبارك في عملك؟ في كل الحالات ابذل أقصى ما تستطيع من المعرفة والوسائل ثم قل هذا من الله. لأن النهاية له!".
ليس هناك فارق هنا بين مسلم ومسيحي، الكسول مثل محمد وسليمان -أحدهما مسلم والآخر قبطي- يقول "مِن الله" أو أي شكل من التواكل تفعله، لكن مذهب المسلم الحقيقي هو ما قاله يوسف "افعَل كل ما تستطيع ولا تفكر في النتائج ماذا ستكون".. أفعَلُ كل ما يجب من أفعال ممكنة.. مذهبٌ جيد. في الحقيقة أنا متحيرة جدًا في اكتشاف الفارق الرفيع بين أخلاق أو اعتقاد المسيحي والمسلم، إذا استبعدت معتقدات جامدة معينة فقليل جدًّا منها تشعر به حقيقةً هنا، لا أحد يحاول أن يطبق معيارين مختلفين للأخلاق أو للتقوى بين المسلم والقبطي. أهل الشرق وأهل الغرب هم المختلفون وليس المسلم والمسيحي، وعن ذلك الاختلاف أستطيع أن أملأ مجلدات!هل هم أسوأ؟ هل هم أفضل؟ كلاهما.. أم العكس؟ ربما لا أكون نزيهة لأني متعاطفة مع أهل الشرق وهم متعاطفون معي وميالة إلى أن أكون "كريمة" مع فضائلهم إن لم أكن "عمياء" عن أخطائهم الواضحة لكل مسافر عديم الخبرة. ترين كل "الهجص" المألوف لدينا -معذرة على السوقية- لا يدخل آذانهم والتبجح بالحديث عن "الشرف" و"الصدق".. إلخ. إنهم يبدون غافلين وضجرين منه، الأخلاق التي يدرسها تلميذ مثل موريس شائعة هنا بين الرجال الناضجين، بالطبع نكذب على الباشا والبيك ونخدعهما.. لم لا نفعل؟ لكن هل أستطيع دعوة البحار الرثّ وأن أعطيه حوالة بخمسمائة جنيه ليصرفها نقدًا من القاهرة

ويعطيها لي حين عودته؟ أستطيع ولن تكون هذه عملية غير عادية.

أنام كل ليلة في الشرفة المفتوحة على كل الأقصر، وليس لدي باب له قفل. إنهم يزعجونني من أجل البقشيش لكن كم فقراء هم، وكم غنية ستكون المرأة التي يشرب خدمها السكر مع القهوة! والتي تعيش في قصر ومحترمة ليزورها علي بيك، وبالمناسبة.. علي بيك يحب الهدايا أكثر من الفلاح الفقير الذي أيضًا يحب أن يقدمها لغيره.

حين عرفت كل استقامة عمر -التي لا يذكرها أبدًا في حديثه- وإنكاره لذاته فيبدو رثًّا في ثيابه -وهو أمر صعب على شاب مصري أنيق- ليدخر أمواله لزوجته وابنه وعدم التفاخر بالحب الذي يوليني إياه، والرقة والنبل في الشعور الذي يظهر بشكل غريب وسط حديث يبدو باهتًا ولتقضية الوقت.. كثيرًا ما أتعجب وأتساءل هل يوجد أي شيء مثل هذا في الغرب المتحضر! وكما تقول سالي "كل أفعالهم الخيرة هي ملكهم وحدهم تمامًا.. فالله يعلم أنه لا يوجد أحد يعلّم أحدًا أي شيء إلا الأذى!"

الثلاثاء:

فلاحان بائسان عادا من العمل بقناة السويس يعانيان حُمّى بالمعدة.. أعتقد هذا، أرجو ألا ينتشر المرض. قالت لي أمس زوجة أحدهما "هل هناك (ستات) كثيرات مثلك في قريتك؟" قلت "والله.. يوجد الكثيرات أفضل مني ودكاترة جيدين الحمد لله!".. قالت هي "الحمد لله، إذن لا يحتاج إليك الفقراء هناك كثيرًا،ولأجل ربنا ابقَي هنا لأننا من دونك لا نستطيع شيئًا، اكتُبي لعائلتك هذا ولا ترحلي وتتركينا".

الخميس 2 يونيو:

وصل مركب بخاري سيأخذ هذا الخطاب ومن ثم أستطيع أن أقول وداعًا أمي العزيزة وليباركك الله. ما زلتُ في حالة جيدة،

الوباء هنا زائد لكن شهرتي الطبية انتشرت حتى إن الفقراء يأتون عشرين ميلًا من قُوص للعلاج. العبارة الدائمة "يا أختنا ربنا أرسلك للعناية بنا"، مثل هذه المساعدة الصغيرة رائعة لفلاحيني الفقراء، أعتقد أن الجو ليس حارًّا كما كان -باستثناء الليل- والآن أنام نصف الليل في شرفة المنزل. كل قطعان البهائم نفقت، ربما بقيت خمسٌ في الأقصر.. الله كريم! يقول الفلاح عمر "بقيت لي واحدة من أربعة وخمسين".. المحصول لم يتم درسه والزبدة بثلاثة شلنات للرطل! لا نستقبل شيئًا هنا بالبريد، لا أوراق.. لا شيء. أعتقد أن قواربَ ستأتي حين يرتفع النيل. النهر الآن في أكثر درجات انخفاضه، والآن أعرف حقيقة كيف يعيش المصريون.

-45-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 12 يونيو 1864

أَلِيك الحبيب..

استقبلت ثلاثة خطابات منك خلال أيام قليلة لأن بريد الصعيد ليس بريد الميديين[54] ولا الفرس. لديَّ وجع أسنان فظيع أربكني تمامًا، وكعادة الناس هنا.. فكل الناس الطيبون سيأتون ويجلسون معي، ويقترحون علاجًا، وينظرون في فمي وكيف تطيب أسناني. ضغط الشيخ يوسف بإصبعين على خدي وتلا آيات من القرآن، وآسفة على القول.. دون أي نتيجة، إلا أنه خلال ملامسة إصبعيه لي توقف الألم.. وجدته مهتمًّا بتهدئة الصداع وآلام العصب وأستطيع القول إني لا شعوريًّا استجبت. في يوم آخر صار معاوننا المسكين مرعوبًا بسبب اتصال من علي بيك -مدير قنا- الذي هيَّجَهُ أنه سمع من الإسكندرية أن أحدًا كتب تقريرًا بأن القطعان الميتة منتشرة في شوارع الأقصر وأن المكان صار وبائيًّا. العقل البريطاني على الفور جعلني أفكر في بيان مضاد موقَّع من أكثر السكان احترامًا.. كتب القاضي مسودة البيان

وجاء يقرؤها عليَّ وأخذَ موافقتي وتوقيعي كشاهدة وانصرف المعاون مبتهجًا قائلًا "كلمات (المرأة الإنجليزية) ستهزم علي بيك تمامًا".. بصدق لقد كان المعاون الجدير بالاحترام يعمل بقوة ويراقب الموت الفظيع للبهائم بنفسه وفي هذا مخاطر، كما أنه ليس أمرًا سارًّا.. لا بد أن تعرف أن موت ثلاث أو أربع مئات من الثيران كل يوم مع عدد من العمال ليس أمرًا تافهًا، وإذا اشتمَّ مسافر إنجليزي ذلك على بُعد ميل سيقول عنا "المصريون الكسالى".. أتمنى لبعض الهواة الذين يضعون أنوفهم بيننا في أزمتنا أن يروا أو يفعلوا ما رأيته وفعلته.

17 يونيو:

رعب لأربعة أو خمسة أيام من الحرارة بسبب رياح السموم حتى إن أحدًا لم يأتِنِي ولم أستطع كتابة شيء. إلى جانب ذلك أجلس في الظلام طول اليوم وأكتب الآن، وبالليل أخرج وأجلس في (الفراندا) ولا أستطيع وضع مصباحٍ بسبب الحشرات.. أنام في الشرفة بالخارج حتى قرابة السادسة صباحًا ثم أدخل المنزل حتى يأتي الليل من جديد. هذان الأسبوعان هما أكثر الأوقات حرارة.. اليوم انخفض النيل من مصدره وسوف يرتفع بسرعة وتبرد البلاد.. لقد ارتفع ذراعًا والماء صافٍ والشهر القادم سيكون الماء أحمر. أزعجني السعال مرة ثانية وافترضت أنه بسبب ريح السموم. لكن لم تعد الأسنان تؤلمني الآن.. الحمد لله! وإلا سأُرعب المزين -الحلاق- بملقاطه فهو طبيب الأسنان الوحيد هنا.

في يوم آخر أسعدني حضور صديقي المعاون ومعه عثمان أفندي والقواس -رجل البوليس- التابع له وحامل الغليون ويحمل طبقًا لفنجان في يده، ويبدو متواضعًا واثقًا كما يتصرف كل الرجال المهذبون، جاريته.. الفتاة السوداء، حامل منذ ثلاثة أشهر في طفل وتتوحم على الزيتون ومن ثم فهو يدور باحثًا في كل الأسواق وعند متعهد الحبوب اليوناني ليشتري، لكن لأنه لا مال

يكفي لذلك فهو يتمنى أن يكون لديّ منه شيءٌ.. معتذرًا عن السؤال لأني بالطبع أعرف أن الرجل يمكن أن يتسول أو يسرق من أجل امرأة في هذه الظروف.. ناديت عمر وقلت له "أنا على ثقة بأن هناك زيتونًا لحريم سليم أفندي الشريفات.. فهن يحتجن إليه هناك"، فهم عمر في الحال وقال "الشكر لله فالقليل باقٍ وكنت على وشك أن أقدمها للحمام يتغدى بها.. يا للحظ الذي لم يجعلني أفعل ذلك"، على الفور هجمنا على سليم بالتحيات. قلت "أشكر الله فالطفل سيكون محظوظًا" وقال عمر لي "حَلِّي بُقِّي يا أفندم.. ألم أقل إن الله سيقدم الخير حين اشتريتِه!"..وبينما كنا نضحك على الطفل الخلاسي الصغير المحتمل لسليم، فكرت كيف ستكون صدمة الجنتلمان الأبيض المسيحي في مستعمراتنا من سلوكنا في تقديم هذا الإطراء للفتاة السوداء -إنه يعطيها ستة بنسات تحت نفس الظروف ويراها تموت أولًا- وقلبي حزين من المسلم العجوز الطيب الآثم! فيما يتناول صحن الزيتون ويمشي حاملًا إياه بيديه طوال الطريق. الفتاة السوداء حرة الآن وتستطيع فقط أن تترك بيت سليم بإرادتها التامة وربما بعد وقت تتزوج ويدفع هو التكلفة. الرجل لا يستطيع بيع جاريته بعد أن يعرف أنها تحمل طفلًا منه، لكن يعد من غير الرجولة أن يدينها إذا أرادت أن ترحل. الطفل سوف يضاف إلى الثمانية الآخرين ويزيد حصة المعاون في القاهرة وسيكون تحت الرعاية الجيدة وله نفس الحقوق حتى لو كان أسود كالفحم.

ولدٌ نصفُ أسودَ ظريفٌ جدًّا عُمره عامٌ ابتهَجَ بي وأتى إليَّ وجلس ساعات يحملق فيَّ ثم رقص ليسرني.. إنه ابن محمد -حارسنا- وسمرته جميلة جدًّا. في إحدى أذنيه حلقٌ من سلك معدني وأساور معدنية حول كاحليه..وهذا كل شيء، وحين أتى أحمد الصغير الذي هو عمه أفرغ جرة من المياه على رأسه وجسمه لإزالة التراب الذي عليه.. والذي لا شك يتدحرج فيه، وليجعله أحسن للرؤية. ربما تود أن تشتري سيد الصغير، أنا

أعرف.. إنه جميل جدًّا ومبهج. إنه يغني ويرقص ويثرثر ثم يجلس مثل تمثال معبود طريف مقرفصًا ساكتًا لساعات.

أكتب الآن في المطبخ الذي هو أبرد مكان حيث لا تقع عليه الشمس أبدًا.. عمر بجدية يتهجى كلمات من الخطابات الستة، حاملًا ملعقة خشبية في يده وسيجارة في فمه. وسالي ممددة على ظهرها على الأرض.. لن أصف ملابسنا.. الآن شهران منذ ارتديت الجوارب، وأعتقد أنك ستدهش للفلاحة التي "تمتلكها" وقد صارت سمراءَ الوجه واليدين والقدمين، قال أحد البحارة في قارب آرثر: "انظروا كيف تحبها شمس مصر.. إنها تقبّلها بحرارة حتى إنها لا تستطيع أن تعود إلى بيتها بين الشعب الإنجليزي".

18 يونيو:

ذهبت أمس إلى الكرنك لأراه في ضوء القمر.. الأعمدة العملاقة لا تقاوَم.. لم يسبق لي رؤية شيء مهيب هكذا! في عودتنا قابلنا شيخ البلد، الذي أمر لي بعشرة رجال يرافقونني إلى البيت، أبهجني على حماري المتواضع أن أكون محروسة -دون ضرورة- بعشرة رجال طِوال أشداء مع الرماح والبنادق. عند بيت مصطفى وجدنا جماعة يجلسون أمام الباب والتحقنا بهم. كان هناك شيخ الإسلام العظيم من تونس، مغربي يجلس على سجادة في مقدمة الجالسين، لا أعتقد أنه يحب المرأة الهيراطيقية على الإطلاق. حتى المعاون لم يستطع أن يكون مؤدبًا كالعادة معي، فأخذ المقعد أمامي فصرت متروكة بلهاء خلف الرجل. مصطفى كان قلقًا خوفًا من ألَّا يقدم الاحترام لي ويهتم بالشيخ، ثم أتى يوسف نشطًا من النهر وقد استحم وصلى وهكذا ترى جنتلمان حقيقيًّا، ألقى السلام على الشيخ العظيم الذي أشار إليه أن يجلس أمامه لكن يوسف دار وجلس جواري على الحصير متكئًا بكوعه على وسادتي وقدم كثيرًا من الاعتبارات لي أكثر من ذي قبل، وحين خرجت جاء يساعدني في صعود الحمار، ذهب الشيخ المقدس إلى الصلاة وألمح مصطفى للشيخ يوسف بأن

يذهب معه لكنه فقط ابتسم ولم يتحرك.. لقد صلى منذ ساعة على النيل.

لقد كان كما لو أن قسيسا مسكينا وضع نفسه في مرتبة البابوية أمام عين أسقف شافتيسبري، ثم أتى عثمان أفندي، التركي الشاب، مع شيطان -لص- فقير متهم في قرية بعيدة بسرقة خطاب به أموال مرسلٍ إلى مرابي أموال يوناني، كانت المناقشة عامة.. الرجل بالطبع ينكر تمامًا لكن الناظر طالب بضربه فانفجر عمر قائلًا "أي عارٍ أن تضرب رجلًا فقيرًا من أجل كلمة لمُرابٍ يوناني يأكل الناس.. على الناظر ألَّا يساعده".

كان هناك يوناني حاضر فكشَّرَ في وجه عمر، وفتح له التركي فاه في اشمئزاز.. قال يوسف بابتسامته الهادئة "أخي.. أنت تتحدث الإنجليزية" وحملق إليَّ، فضحكنا كلنا وقلت "شكرًا جزيلًا للمجاملة"، كل القرية كانت في روح حلوة، النيل يرتفع بسرعة، وظهر "نجمُ سعدِ" كل واحد كما أخبرني الشيخ يوسف، وتنبأ بعام سعيد ونهاية للآلام. أنا أحسن كثيرًا اليوم وأعتقد أنني أيضًا أشعر بعلو النيل، ذلك يبث حياة جديدة في كل شيء. الأسبوعان الأخيران أو الثلاثة كنت متعبة جدًّا مع ريح السموم والحرارة الكثيفة، أعتقد أنني صرت أحسن لأن الناس هنا دائمًا يشكرون الله لتحسن مظهري.. أنا حرانة جدًّا والظلام كثير يمنعني الكتابة أكثر.

-46-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 26 يونيو 1864

أَلِيك الحبيب..

زرت مرة معتقلًا سياسيًّا، أو بمعنى آخر منفيًّا. الليلة الماضية زارني مصطفى ومعه رجل حزين للغاية قال إن ابنه مريض جدًّا على ظهر الصندل القادم من القاهرة إلى أسوان، المراقب على

ضفة النهر أخبره بأن هناك "ست إنجليزية لا تتراجع عن مساعدة أي شخص في أزمة".. ونصحه بأن يأتي إليَّ من أجل العلاج ومن ثم ذهب إلى مصطفى ورجاه أن يأخذه إليَّ وأن يرجو القواس -رجل البوليس- المسؤول عن البدراوي الذي أُرسل إلى فازوجلو للعقاب أن ينتظر ساعات قليلة، ووافق القواس. شرح الرجل الأعراض الظاهرة على ابنه وأعطيته جرعة من زيت الخروع وأخبرته بأنني سأذهب إلى السفينة في الصباح. الرجل البائس تاجر من القاهرة لكنه يعيش في الخرطوم وعبَّر عن حزنه بطريقة شرقية "آه يابني، ماعنديش غيره.. إزاي حقابل أمه الحبشية يا سيدتي وأقول لها إن ابنها مات!"، قلت "الله كريم يا سيدي وإن شاء الله حيكون طيب". وذهبت هذا الصباح مبكرة إلى الصندل.. إنها شاحنة مصرية عادية قديمة محملة بالحبوب وحزم من الحصير.. وخرفان حية.. إلخ. وهناك وجدت ولدًا رشيقًا حلوًا في الخامسة عشرة تقريبًا يعاني حمى شديدة. قال أبوه إنه في الطريق زار أحد الباشوات وإنه قد يكون سمم الولد أو حسده، أكدت له أنه الوباء فقط وسألته لماذا لم يطلب طبيبًا في قنا.. القصة القديمة! كان خائفا، "الله يعلم ماذا يفعل أطباءالحكومة في المرضي" ثم جاء عمر ووقف أمام البدراوي وقال له "يا سيدي لماذا علينا أن نراك هكذا! ما شاء الله، لقد أكلت من خبزك حين كنت جنديا من جنود سعيد باشا ورأيت الأغنياء وعظمتك، فلماذا كتب الله هذا لك؟"، وهكذا البدراوي الذي هو واحد من كبار الأغنياء في مصر السفلى- أو كان كذلك- ويعيش في طنطا حكى كيف أن أفندينا إسماعيل باشا طلب إليه أن يأتي إلى القلعة بالقاهرة ليقوم ببعض الأعمال، وكيف ركب فرسه إلى القلعة ودخلها وهنا أمر الباشا على الفور قواسًا بأن ينزل به إلى النهر على ظهر مركب شحن عادي ويذهب معه ويأخذه إلى فازوجلو. خطابات أرسلت مع القواس ليسلمها لكل مدير في طريقه وأخرى أرسلت باليد إلى حاكم فازوجلو بأوامر تخص البدرواي. لقد توسل لأن يتركوه ليرى ابنه مرة أخرى قبل رحيله أو أيًّا من

عائلته، "لا. عليه الذهاب الآن وألا يرى أحدًا"، لكن لحس الحظ فإن فلاحًا من الأقارب جاء خلفه إلى القاهرة وكان معه 700 جنيه في حزامه.. تابع البدرواي إلى القلعة ورآه مأخوذًا من قبل القواس فتابعه إلى النهر وأعلى ظهر الشاحنة وأعطاه الـ700 جنيه التي كانت في حزامه. كان المديرون -على اختلافهم- متحضرين معه، وأصدقاء في أماكن مختلفة قدموا له الملابس والطعام، لا جنزير حول رقبته ولا قيود، وسُمح له بأن يخرج إلى الشاطئ مع القواس فذهب إلى ضريح أبو الحجاج وحدَّث ذلك الشيخ الميت بكل مصائبه ووعد أنه لو عاد سالمًا سيأتي كل عام إلى المولد ويدفع كل النفقات للمولد ويتكفل بكل تكلفته "إطعام كل الوافدين إلى المولد". أراد منه مصطفى أن يتغدى معه ومعي، لكن القواس أعلن أن هذا ممنوع ومن ثم أرسل إليه مصطفى لحم ضأن لذيذًا وخبزًا وفاكهة.. إلخ. قدمت له هدية من بعض الكينين وأقراص الرواند وكبريتات الزنك لغسل العين، هنا أنت ترى أننا كلنا نتصرف أكثر من كوننا إنجليز، ونؤمن بأن كل سجين هو بريء وضحية -ما لم تتم له محاكمة فلا يمكن أن يكون مذنبًا- إلى جانب أن البدراوي العجوز البائس أعلن أنه لا يعرف أي فكرة عن سبب اتهامه وكيف أذنب في حق أفندينا.

استمعت إلى كل هذا بدهشة كبيرة وقال "أنا أعرف أنكم الإنجليز تديرون الأمور بشكل مختلف، ولقد سمعت كثيرًا عن عدالتكم الرائعة".

كان شجاعًا مهيب المنظر ورجلًا حرًّا كأنه تركي، لكنه يتحدث بطريقة فلاح من مصر السفلى ومِن ثَمَّ لم أستطع فهمه، وقلت لمصطفي وعمر أن يعيدا عليَّ كلامه وأعاد عمر كلماته. أبوه مصري وأمه كانت عبدة شركسية أعطته البَشرة المائلة إلى الحمرة.. إنه فوق الخمسين، سمين وليس بصحة جيدة، بالطبع.. إنه يتوقع أن يموت في لازوغلو وخاصة بسبب الذهاب في هذا الموسم. إنه يمتلك -كان يملك، لأن الله يعرف لمن تكون الآن- 12 ألف فدان من الأرض الخصبة بين طنطا وسمنود، وكان غنيًّا

بشكل خرافي، استشارني في صحته كثيرًا وقدمت إليه نصائح جيدة. لا أستطيع أن أكتب -في خطاب قد يراه غيرك- أي عقاقير زوده بها الطبيب التركي لتقويته في المناخ المتعب لفازوجلو. أنا مندهشة.. هل في ما حدث نية لقتله أو إهمال للقوانين الخاصة بصحة من في سنه؟

بعد قليل صار الولد الجميل أفضل واستعاد وعيه، أما أبوه الذي كان يساعدني بيدين مرتعشتين وعينين سابحتين في الدموع فبكى من الفرح وقال "باسم الله الأعلى من كل شيء، إذا وجدت أي إنجليزي فقيرٍ أو مريضٍ أو حزينٍ منكوبٍ في الطريقٍ إلى فازوجلو سأجعلهم يعرفون أنني أبو محمد لم أَرَ وجهًا مضيئًا قطُّ مثل وجه السيدة الإنجليزية التي اعتنت بابني المريض"، ثم راح البدراوي والفلاح قريبه وكل طاقم المركب يطلبون لي البركة وللقبطان، ثم أعلن القواس أن هذا وقت الرحيل.أعطيتُ أبو محمد الدواء والتعليمات وقبَّلت الولد الجميل وخرجت من السفينة.

جاء خلفي البدراوي على سطحها، وسألني إن كنت أستطيع الصلاة من أجله في هذه المحنة؟ قلت "أنا لست من المسلمين"، لكنه ومصطفى قالا معًا "معلش".

قلت ذلك لأني متأكدة تمامًا أنني لست من "المشكورين" لأننا عندهم نكره المسلمين ونقوم بأفعال شريرة لهم، لكن بارِكْني يا ربُّ، فكثير من الإنجليز يبدؤون في التوبة عن شرهم ويحبون المسلمين ويقومون بأعمال طيبة. بعدها افترقنا في تعاطف كبير. كان شعورًا غريبًا عندي أن أقف على الشاطئ وأرى السفينة البدائية الهزيلة تنسحب بعيدًا عبر التيار، ذاهبة إلى مثل تلك الأرض الموحشة البعيدة ونتبادل الوداع الطيب في سلوك إنساني بمثل هذا الشعور الواضح "غرباء في الدم والدين، فليحفظكِ الله سيدتي".. "فليحفظك الله يا مصطفى"، ومشينا أنا ومصطفى حزينَيْن جدًّا للبدراوي البائس.

الجمعة 7 يوليو:

الجو حار لدرجة الرعب، وليس لدي الجرأة أن أخرج بخطابي، أو لفعل أي شيء غير التمدد على الحصير في الممر بأقل ملابس لا يمكن وصفها بالإنجليزية. الحمد لله! يضحك عمر "لأني أرى الإنجليز النشيطين صاروا مثل العرب الكسالى" الأسوأ ليس الحر الشديد الذي لم يكن فوق 104 درجات ولا أقل من 96 درجة بالليل، لكنها العواصف المخيفة من الرياح الحارة والتراب التي تميل إلى القدوم ليلًا وتمنع الفرد النومَ حتى الثانية عشرة أو الواحدة صباحًا. طيبَةُ سيئةٌ في قمة الصيف باعتبار انفتاحها الواسع على الصحراء، والرمال والتراب. النيل يصب شمالًا الآن بعظمة، وأحمر حقيقةً مثل الدم -قرمزي أكثر من مضيق هيرفورد شاير- وعلى البعد فإن انعكاس السماء الزرقاء الصافية يجعله بنفسجيًّا.. لقد ارتفع خمسة أذرع منذ أسبوع، وبسرعة سنراه أعلى من الأرض هنا.. إنه منظر جميل ومُلهِم أن ترى المجرى النبيل فتيًّا وقويًّا دائمًا. لا عجب أن المصريين عبدوا النيل..فلا شيء مثله.

كان لدينا كل الأوبئة في مصر هذا العام، وبدلًا من القمل صار البقُّ، وبدلًا من الضفادع صارت الفئران، الأول أكلني والثاني أكل ثيابي.. إحنا متبهدلين!

لم يعد لعمر إلا جلباب واحد وصار عليه أن ينام من دونه ويغسله كل ليلة بسبب التراب والعرق الكثيف جدًّا من الجسم وندرة حضور جَواري محمد للقيام بالغسل، مما يدمر كل شيء.

ينوي مصطفى أن يعد لكَ حفلة كبيرة عند قدومكَ، ستكون فيها أجمل الراقصات يأتي بهن من إسنا، لكني فزعة إذ عرفتُ أنك لن تستطيع الحضور حتى ديسمبر، أتمنى أن تأتي مبكرًا في نوفمبر إلى القاهرة ونمضي شهرًا هناك معًا ثم نصعد النيل إلى الجنوب في منتصف ديسمبر حين تصبح القاهرة باردة.

ما زلتُ بشكل عام في صحتي أفضل، لكن عاد السعال يضايقني من جديد فلا أشعر بإمكانية العودة لتنفس الهواء نقيًّا باردًا وهذا يشعرني بالإحباط، ربما تُطَلِّقُني وساعتها سأتزوج

بقاضٍ محترم! أصبحت "مصرية كسلانة جدًّا" -كما يقول عمر- عن الاستمرار في دروسي للغة العربية.. كما أن يوسف مشغول جدًّا بأعمال قانونية متعلقة بالأرض والمحاصيل. بعد كل موسم حصاد تحدث نزاعات وخلافات حول الأرض، القمح يباع بجنيه واحد للإردب في أرض الدريس لكن الشعير يباع بمائة وستين قرشًا. هكذا رأيت بعض النوبيين يدفعون الأسعار لمصطفى، يقول وهو مرتبك من الضحك "الحمد لله على هذه المكاسب الكبيرة"، لا بد أنك تراه عملًا أخرق أن يشكر المسلم الله على ندرة الخبز! ومن ثم كان عليه الوفاء بكثير من الإحسان لفلاحيه، يعطيهم ملابس.. أربعين جلبابًا ورداءً من القطن.

هل تتذكر ما قلته عن المرأة المتحررة في أسيوط؟ حسنًا.. في أحد الأيام رأيت شابًّا حسن المظهر في السادسة عشرة تقريبًا يبيع الذرة لجاري المقابل القبطي، كانت فتاةً لا ولدًا.. وليس لأبيها أولاد، مكتئبة لكن تعمل في الحقل من أجل أبيها وترتدي مثل رجل وتبدو في سلوكها متواضعة جدًّا وأهدأ مما عليه بقية النساء.

أنا سعيدة لأسمع مثل هذه الأحاديث الجيدة عن طفليَّ ريني وموريس، لا أستطيع تحمل فكرة عامٍ آخر دون أن أراهما، على أي حال سأكون محظوظة بنزول نسلي في أماكن سارة. وقت طويل في رأس الرجاء الصالح أو أي مستعمرة سيكون غير محتمل،أجمل حب لجانيت، أنا حقيقة لا أستطيع الكتابة فالجو حار جدًّا ومترب. عمر يهدي السلام إلى سيده العظيم وإلى تلك الغزال "ستي روس".

-47-

إلى السيد ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 13 أغسطس 1864

أَلِيك الحبيب..

طوال الشهر الماضي كنا في عزلة بسبب الرياح الحارة والمتربة، مثل هذا لم أرَ قَطُّ؛ الخروج من البيت مستحيل. من ثم يائسةً التحقتُ بمركب عائد -فرصة- وسأكون بالقاهرة بعد يوم أو اثنين حيث سأبقى إلى أن "إن شاء الله!" تأتي إليَّ. ألا تستطيع الحضور في بداية نوفمبر؟ حاول، هذا هو الوقت الممتع في القاهرة.

أنا مصرية غبية كسولة.. على طريقة عمر في الكلام، أستلقي على الحصير في الظلام في الممر الحجري لستة أسابيع أو نحوها، لكن صدري لم يتأثر، صار أحسن كما أشعر ولا أعاني صحيًّا على الإطلاق. فقط أنا غبية وكسولة، حظيتُ بزيارة جميلة مؤخرًا من طبيب عظيم من مكة.. رجل متعلم جدًّا حتى إنه يستطيع أن يقرأ القرآن بسبع طرق مختلفة[55] وهو أيضًا حكيم تعلم في أوروبا، دهشتي عارمة لعالِم كبير في ملابس حجازية مثيرة يأتي إليَّ ويقول بالفرنسية "مدام، كل ما قيل لي عنكِ يدل على انطلاق قلبك وروحك مما أوقفني لإعطائي متعة التعرف عليك"، كثيرون من أهل الأقصر جاؤوا ليعبروا عن احترامهم للرجل العظيم، وقال لي إنه يتمنى ألَّا يضايقني اختلاف الديانة، وإذا حدث فلأغفر ذلك فالناس هنا جهلاء جدًّا والبرابرة المتعصبون في كل مكان. قلت "والله! أهل الأقصر إخوتي!"، وقال المعاون "صحيح أن الفلاحين مثل الثيران لكنهم ليسوا خنازير ليهينوا ديانة سيدة تخدم الله عن طريق خدمتهم مثل هذه السيدة.. إنها تضحي بحياتها كل يوم"، قال رجل الدين الكبير "وإذا ماتت سيكون مكانها محفوظًا بين شهداء الله لأنها تظهر الحب كثيرًا لإخوانها أكثر مما

هو لنفسها!"
والآن إذا كان هذا لَغوًا فلقد قيل بالعربية أمام ثمانية أو عشرة من الناس بواسطة رجل دين له سلطة كبيرة.
كان عمر مثل الملائكة وهو يسمع "سِتُّه" يقال لها ذلك "بطريقة دينية عظيمة"، أعتقد أن تغيرًا كبيرًا يأخذ مكانه بين العلماء، ذلك أن الإسلام يمنع أن تَرفع علم التعصب، كما جرى مع المسيحية، وكل الجانب الأخلاقي قد استقر كثيرًا، قال العالم الكبير أيضًا إنني تدربت على تعاليم القرآن، ثم ضحك وقال "كان عليَّ أن أقول "الإنجيل"، لكن الجوهر الذي هو الحق واحد سواء قيل من قبل سيدنا المسيح أو سيدنا محمد!"، وطلب إليَّ أن أذهب معه إلى مكة في الشتاء القادم من أجل صحتي حيث تكون حارة وجافة، وجدت أنه قد تعرف على البدراوي وتاجر الخرطوم في أسوان. الولد الصغير صار أحسن ونالني الكثير من التفخيم منهما. الآن نرسل كل حبوب القمح.. جلست يومًا على عتبة بيت مصطفى وشاهدت اليونانيين يراقبون عروض المصريين، منذ ثمانية أشهر اشترى يوناني القمح بستين قرشًا للإردب "كان يتابع جامع الضرائب القبطي مثلما يطارد النسر الغراب"، الآن التسعيرة هي 170 قرشًا للإردب هنا، والفلاح يدفع ثلاثة ونصف في المائة كل شهر إلى جانب ذلك.. يا دين النبي! أعرف رجلين قد أفلسا تمامًا وباعا كل ما لديهما. موت القطعان أجبرهما على أن يقترضا في هذه الحالة من الخراب، والآن -مع الأسف- النيل ثابت على ارتفاعه والناس قلقون جدًّا. مصر مسكينة! أو المصريون مساكين! بالطبع، ولا أحتاج إلى القول إن هناك إهمالًا كبيرًا في حق المنهوبين أدَّى إلى إفلاسهم.
أهل بيت مصطفى كرماء بلا حدود، ومصطفى كريمٌ حتى الإسراف، لكن أي فرصة لمثل هؤلاء الناس غير المتمدينين تمامًا والمعزولين في مواجهة الأوروبيين من الشخصيات عديمة الضمير!
لا أستطيع أن أكتب الكثير بين الريح والتراب، سوف تسمع مني

مرة أخرى من القاهرة.

-48-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

القاهرة - 9 أكتوبر 1864

أَلِيك الحبيب..

لم أكتب منذ وقت طويل بسبب الحمى، الآن أنا أفضل من جديد.. إذ استطعت المجيء، فمن فضلك أحضر الكتب التي في القائمة من أجل عالِمٍ في المصريات أمريكي في الأقصر وصديق لي، حبي الكبير لجانيت وكتاكيتي الآخرين. أتمنى أن أرى موريس، قل لجانيت إن حسن السائس تزوج بفتاة في الحادية عشرة وإنه يتذكر فيليبس برقة كبيرة وفخور جدًّا لأنه قد رسم وجهه.. "مؤكَّدٌ كان من بين الأصدقاء حتى لو لم يكن أخًا للست.. هو أيضًا أحبَّ أفعال المصريين".

ذهبت إلى حفلة الحريم المسائية في بيت حسن قبل الزواج، عند الزواج كنت مريضة. طبيبي الخاص كان في الجنوب وهكيكيان بيك في إيطاليا ومن ثم أنا وحدي هنا، الطقس سيئ.. رطب جدًّا، أغرق في العرق أكثر مما كنت في يونيو في الأقصر، ومن ثم لا أحب المدينة كثيرًا؛ إنها تجعلني أسهر بالليل في محلات المشروبات الروحية وتدق أجراسها المرعبة ومعارك وشجار في الطرقات وتزعج أعصابي "المسلمة" حتى أردد مثل هذه الصفات "كلب".. "خنزير" للإفرنج، وأتمنى لو كنت في حيّ "المصريين البهائم"!

-49-

إلى السيدة أوستِن

القاهرة - 21 أكتوبر 1864

أمي الحبيبة..

وصلني خطابكِ أمس، أتمنى أن يكون أَلِيك قد استقبل خطابي منذ أسبوعين قبل أن يغادر وأَخْبَرَك بأنني بخير. ما زلت منهكة إلى حد ما، وفي كل الأحوال أركب حماري.. والطقس صار فجأة جافًّا وهادئًا بشكل رائع، أرتعش قليلًا في درجة الحرارة 79، لكنني صرت معتادة هذه الحرارة.

لم أكتب عن رحيلي من الأقصر أو عن رحلتي، لأن رحلتنا البحرية كانت هائجة بالريح بعد الثلاثة أيام الأولى وسقطتُ مريضة حتى وصلتُ إلى بيتي هنا، لقد استأجرت القارب بـ18 جنيهًا وكان قد أخذ اليونانيين إلى أسوان ليبيعوا البقالة والمشروبات الروحية ولكن الريس لم يعد ومعه شحنتهم من العبيد السود الذين سيوسخون القارب والتقطنا من الأقصر. أبحرنا مع طلوع النهار بعد انتظارنا ليوم كامل لأنه لم يكن يوم حظ.

بينما أجلس في القارب كان الناس يأتون ويسألون بشوق ما إذا كنت سأعود بسرعة، ويحضرون خبزًا طازجًا وبَيضًا وأشياءَ أخرى كهدايا، وكلهم تشابهوا في محبتهم عند وداعي ويتمنون -إن شاء الله- أن أعود بسرعة آمنةً إلى قريتي، وبفضل الله سأكون معهم لأراهم، ثم يقرؤون الفاتحة من أجل رحلة آمنة ومن أجل صحتي. في الصباح كانت شرفات منزلي ممتلئة بالكثيرين ليرونا ونحن نبحر، جماعة من العبابدة الأقوياء ببنادقهم المصرية الطويلة وشعرهم الطائر في ملابس تركية أنيقة، ومحمد في جلبابه الفاتن وعِمامته البيضاء كالثلج وعدد من الفلاحين. حين بدأ القارب في الحركة أطلق العبابدة رصاص بنادقهم وكذلك عثمان أفندي ببندقيته الطائشة، حتى ثيودور -المعلم القبطي- أطلق مسدسه الأمريكي، وحافظ عمر على العودة بطبنجة أَلِيك التي

يعجبون لها هنا كثيرًا باعتبار الضجة المفرطة التي تفعلها.

"إسماعين" العجوز البائس.. الذي اعتَقَدَ دائمًا أنني مدام بيلزوني ويريد أن يأخذني إلى أبو سمبل لأقابل زوجي كان في إحباط كبير لأنه لا يستطيع أن يأتي معي إلى القاهرة. أعلن أنه ما يزال "شديدًا" ليعتني بي ويقاتل من أجلي. إنه في السابعة والتسعين ويتذكر فقط خمسين أو ستين عامًا سابقة والأزمنة التي كان فيها رائعًا وجذابًا، اعتدت أن أقدم له القهوة وأستمع إلى حكاياته القديمة التي امتلكت قلبه. حفيده الهادئ الرصين محمد الذي هو حارس البيت الذي عشت فيه نسي كل اعتزازه الإسلامي وهبط في منتصف كلامه أمامي يتكلم وينحني ويقبل ركبتيَّ ويحتضنهما ويبكي. وجدت لديه بعض الوساوس عن سوء الحظ القريب ولم يكن سعيدًا برحلتي وفشل البقشيش في أن يواسيه، كان الشيخ يوسف سيأتي معي، لكن أخاه كتب له أنه قادم من الحجاز حيث كان مع الجيش الذي يقضي فيه الخدمة. أسفت جدًّا لخسارة صحبته، مثير جدًّا ومرعب وغير عادي أن يصاحب واحد من العلماء امرأة هيراطيقية في سفر معًا. ماذا يمكن أن يقول أساقفتنا للشخص الذي يفعل مثل هذا؟

كان لدينا وقت جميل لثلاثة أيام فوق النهر، ليالٍ قمرية رقيقة ومحببة، وكان لدينا بحار ماهر في الغناء أيضًا، غنى أغانيَ دينية لاحظت أنها تمتع الناس أكثر من أغاني الحب، الأغنية التي بدأت بـ"اللهم امحُ ذنوبي السابقة قبل الحساب" كانت حقيقةً جميلة ومؤثرة ولم أندهش للدموع التي سالت على وجه عمر. أغنية قوية جدًّا وجميلة مثل "أبعِد عني الريح يا ربي أخشى أن تجرحني"، والريح هنا تعني الحب الذي هو مثل ريح السموم، "مع الأسف.. لقد صدمتَنِي وأنا الآن مريض، لماذا لا تستدعي الطبيب؟ الطبيب أعاد الدواء مكانه لأنه فقط من سبّب الألم هو الذي يستطيع أن يشفيني"، الضمير المذكر دائمًا يستخدم بدلًا من "هي" في الشعر كنوع من اللياقة وأحيانًا في الحوار.

23 أكتوبر:

أمس قابلت صعيديًّا -صديقًا لشقيق شيخ العبابدة- وبينما نقف نتصافح ونقبل أصابعنا في الطريق، مر بعض المسافرين من الهنود الإنجليز -أنجلوإنديان- وحملقوا فينا باشمئزاز، حسن الأنيق لكونه أسود كان حالة فاضحة "للمواطن"، وفي قول آخر إنه ليكسر القلب أن نرى ما نرسله إلى الهند الآن. الأيام القادمة مرعبة، ونحن لا نعرف متى تنتهي بعض الإساءات.

رجال التجارة الإنجليز هنا يشتكون كثيرًا مثل أي شخص، وأنا التي قال عني قاضي الأقصر أني لستُ خارج العائلة -عائلة سيدنا إسماعيل كما أخمن- أسمع ما يعتقده المصريون. يوجد أيضًا زحام -مثل القمل كما يقول محمد- من الإيطاليين الفقراء، والفرنسيين.. إلخ. وأجد حسن بمظهره القوي ليس محل احترام في الحي الإفرنجي، ثلاث مرات يتم تتبعي وبوقاحة يحملقون إلى عمري وكان على حسن أن يحتج مرة. الحملقة مرعبة للمسلم! إنني أكره منظر القبعة الآن هنا.

لا أستطيع الكتابة أكثر الآن، فما زالت عيناي متعبتين. رجاني عمر أن أرسل إليك أحسن السلامات ويقول إنه إن شاء الله سيعتني بإخلاص عظيم بابنتك، وهو ما يفعله بحماس ورقة كبيرة.

إلى السيدة أوستِن

على النهر - الجمعة 23 ديسمبر 1864

أمي الحبيبة..

أنا هنا مرة ثانية بين بني سويف والمنيا، وأفضل كثيرًا بسبب الجو النقي للنهر وحياة المركب الهادئة، سأرسل إليكِ سلامات الكريسماس من أسيوط، لأن أَلِيك معي وعليَّ عمل أكثر مما أقدر عليه، ولذلك لا أستطيع أن أكتب فهناك الكثير لنراه ونتحدث عنه. أعتقد أنه مسرور لكن أخشى أن يكون قد شعر بالحياة الشرقية بائسةً جدًّا وغير مريحة، أصبحت معتادة فلا أتأثر بشيء لأني نسيت تمامًا كيف تبدو الأشياء للغريب.

آسفة إذ وجدتُ كثيرًا من خطاباتي فُقِدَ في الأقصر، في المستقبل سأثق بالبريد المصري الذي هو بالتأكيد أكثر أمانًا من المسافرين الإنجليز. ستصلك ضفائري الطويلة مع إِلِيك لأنني قصصت شعري ليكون قصيرًا لأنه بدأ يتساقط باليد بعد الحُمَّي وكذلك قصُّ الشعر موضة شائعة عند الحريم التركية.

من فضلكِ أخبري "دين ستانلي" كيف بكى ترجمانه القديم محمد غزاوي من الفرحة حين أخبرني بأنه رأى أخت الشيخ ستانلي في طريقها إلى الهند، والسيدات الصغيرات اللاتي يعرفن اسمه وصافحنها يرسلن إليه السلام وكان هذا تقديرًا أكثر من البقشيش. لقد اندهشتُ وسألت "من يكون الشيخ ستانلي؟"[56].. وحدثني محمد الذي هو درويش ومتدين جدًّا أنه "الجِّسّيِس -القسيس- الذي كان إمامًا ومرشدًا روحيًّا لابن ملكتنا"، قال "كان شيخًا حقيقيًّا وواحدًا ممن يؤدون الأعمال الممتازة بما يرضي الدين، حتى إنه كان رقيقًا جدًّا مع حصانِه! وهذا من علامات الرحمة من الله أن يكون للإنجليز مثل هذا الشخص إمامًا لملكتكم وأميركم"، قلت ضاحكة "كيف وأنت

الدرويش بين المسلمين تقول ذلك عن إمامٍ نصراني؟" أجاب "بصدق يا سيدتي.. إن الشخص الذي يحب كل مخلوقات الله يحبه الله أيضًا، لا شك في هذا"، هل هناك أي متعصب لينكر أن ستانلي فعل الكثير للعقيدة الحقيقية في عقل هذا الدرويش المسلم أكثر مما لو كان قد عمّد مائة متوحش وأخرجهم من دين إلى آخر؟

لا أمل في فهم جيد للشرقيين حتى يستطيع مسيحيو الغرب أن يأخذوا أنفسهم إلى التعرف على الإيمان العام الموجود في العقيدتين، الفارق الحقيقي الكامن في كل أنواع المفاهيم والمشاعر -الهامة جدًّا لا شك في هذا- التي نأخذها ليس من الإنجيل بالمرة، لكن من اليونان والرومان، وطبيعي أننا نحتاج إليها كلها هنا.

أَلِيك سوف يخبرك كيف صور عمر بحماس المشاعر الأبوية للشرق بدفعي بحماس لمحبة "السيد".. لأنه "سيدنا نأكل كلنا خبزًا من يده وهو يعمل من أجلنا". أنا وعمر كنا متساوين أمام "سِيدنا"، إنه يستطيع الجلوس بسهولة أمام قدميَّ لكن حين يأتي "السيد" عليه أن يقف بسرعة ويشير لي بأن أقف أيضًا فعليَّ أن أحترمه.

أخذت المركب الخاص بالبعثة الأمريكية بسعر كبير.. ستين جنيهًا، ولم أستطع أن أحصل على تخفيض؛ في المفاوضات قالوا إن هذا المبلغ هدية للبحارة الفقراء الذين يحصلون على رواتب بائسة. كان الطاقم نوبيين.. ريس أنيق وقائد دفة -أخوه- وصبي أسود في الرابعة عشرة أو نحوها له ساقان وقدمان جميلتان جدًّا تدعوان لِلَمسهما، على الأقل دائمًا أشعر بهؤلاء الأبرياء الصغار وأراهم جذابين. مركبنا القديم الخاص بالصيف الماضي -الخاص بآرثر تايلور- يبحر معنا والريس العجوز مُبارك يحييني كل صباح بانتظام داعيًا لي ببركة الرب وسلام النبي. القبطان علي -قبطان مركبنا البخاري- سيعلن قدومنا إلى طيبة، لقد مر بنا اليوم. هذا المركب شراعي جميل لكنه مبني من الحديد ومن ثم هو مزعج

بالضجيج وغير مناسب. طاقم البحارة يشجعونه "هيا تقدم أبو الثلاثة" لأنه قطع ثلاث رحلات والاثنان هو الرقم المعتاد، إنهم ناشطون ولطيفون -رجالي- لكن تنقصهم مجاملة المصريين وطرقهم الودية خفيفة الروح، أيضًا لا أفهم لغتهم التي هي جميلة، منخفضة أصواتهم مثل الطيور ويغنون بها بدلًا من اللغة العربية المجلجلة، أنا الآن أتكلم بشكل مقبول لمسافر، يمكن أن أتابع المناقشة وأفهم كل ما قيل لي أفضل مما أتكلم وأتابع تقريبًا نصف ما يقولونه بعضهم لبعض في المناقشة. حين أراكِ إن شاء الله في الصيف القادم سأكون متعلمة جيدًا.. أتمنى.

الأقصر - من يناير إلى أبريل 1865[57]

أعتقد أن الخطاب الذي فيه حدثتك عن التاريخ المؤلم لجنوح سالي قد فُقد، لا أستطيع كتابته كله مرة ثانية؛ يكفي أن أقول إنها تصرفت بشكل قذر فيما كان عمر جيدًا بقدر ما يمكن تصوره، لم أتخلص منها من أجل خاطر السنوات السابقة لكن لن أبقيها يومًا آخر بعد أن أصل إلى القاهرة، أعتقد أن النهاية ستكون أن تذهب إلى إنجلترا وأن يحتفظ عمر بالطفل.. سوف يدفع لها ثمن رحلة عودتها.

أظن أنه عليَّ القول بأنه قليلون هم الإنجليز الذين يتصرفون كما تصرف عمر كي يكون النبي يوسف، ولقد فعل الكثير كي لا يؤلم سالي بعنفه. كنت مندهشة لكمية البشاعة التي يمكن أن تحملها هذه المرأة الإنجليزية المحترمة "في بطنها" كما تقول العرب! لا تقل شيئًا عن ذلك لأني لا أريد أن أجرحها فربما تكون في البيت.

أعتقد أنني لن أستخدم خادمة إنجليزية أخرى، لكن سآتي بعمر فقط إلى أوروبا وأحصل على امرأة سوداء أو سورية بعد عودتي. إنني أجد هذا الخراب شائعًا جدًّا هنا.. هل هو المناخ أم هو الزي الذي يدهشني جعله الخادماتِ الإنجليزياتِ يغتصبن الرجال المصريين باستمرار! مثير إخفاؤها حالتَها حتى عن عمر، ونومها أربعة أيام بعد إبحارنا عن القاهرة. قالت إنها عرفت أنه لن يتركها تنام في القارب.. طبعا لا! كان لديه شعور ببؤس ما جرى بالنسبة إليَّ. الولد البائس كان حقيقة مريضًا من الشعور بالندم والإحساس بالعار.

الخطة الأفضل هي ما نظمه عمر.. لا أستطيع إبعادها الآن لأنها لا تتكلم العربية وسوف تكون ضائعة في القاهرة لا تحصل على

آي مساعدة، لكن ما إن نصل إلى هناك فلسوف يترك الطفل إلى عناية الحاجَّة "هَنَا" وسوف يدفع لسالي تكلفة سفرها إلى إنجلترا، بينما كان هو الحارس والولد أحمد ينام معه في الصالة الكبيرة بعد غرفتي كانت هي تنزل إلى الناحية الأخرى للمنزل بطفلها بحجة أن الضوضاء يمكن أن تقلقني.. وهذا صحيح.

أتمنى أن تتجه إلى إنجلترا فأنا على يقين بأنها لن تكون هنا، واجبي القول إن عمر أبدى أكثر المشاعر رقيًّا.. لقد تحمَّل كل اللوم وفعل كل ما بوسعه ليسترها ويتزوجها أمام الشيخ يوسف ليكون الولد ابنه الشرعي بأقصى ما يمكن و"يبيّضَ وجهها". لكنه أخبرها بأنه بعد ذلك لن يمسها أبدًا تحت سقف بيتي. وفي نوبة من الغضب اعترفت هي كيف كان كل شيء من فعلها وكيف قاومها هو دائمًا، وإنه بعد أسابيع قليلة من الحمل حاول أن يفصح عن الأمر ويبلغني بما حدث لكنها رفضت أن تتزوجه وأن تبلغني. قال لي "لم أستطع أن أكشف لكِ سرها.. لقد كانت خادمتك عشر سنوات ولا تثق بك. إنها امرأة.. لا أستطيع الحديث، لكن اشتعل قلبي من وقتها"، لقد أخفَتْ حالتها عنه بنفس القوة التي أخفتها عنا وعن الدكتور باترسون الذي رآها قبل أن نبحر قبل أسبوع من الولادة.. لم يكن لديها ملابس أو أي شيء للطفل، لم يسبق لي أن رأيت شيئًا مثيرًا مثل برودها ويأس عمر الكبير، أرادني أن أضربه ولم يتحمل أن أقول له كلمة طيبة دون بكاء! لم أرَ حقًّا ندمًا حقيقيًّا من قبل! الناس عادة يتأسفون بشدة حين يرون نتائج خطاياهم ويتطلعون للغفران.. لكن عمر لم يغادرني وعمل بقوة حتى لا يدعني منزعجة. ستعتبره هو الفتاةَ التي تم اغتصابها وإنها المراوغ القديم المعتاد إذا عرفتَ كيف تعامَلَتْ هي مع المسألة، كانت هي المعتَدَى عليها تمامًا لأن عائلتها لا توافقها ولم تُظهر أدنى شعور بالعار. لم أتصور أن هذا يمكن أن يحدث حتى رأيته.

أرغب في أن تخرج من البيت لكن الطفل بعدُ صغيرٌ على أن نسلمه لامرأة مصرية.. رغم أن عمر يعد كل شيء لرعايته وهو

تَوّاق دون شك إلى فعل الأفضل من آجل طفله.
حين جاء الشيخ يوسف طلب إليه عمر أن يتزوج بسالي وأن يحتفظ بالسر وإلا عليه أن يناديها بـ"الحريم" أمام الناس. هنا صدمني بحق سلوك الشيخ؛ لقد شكرني وقبل يدي لتعاطفي مع المخطئ الصغير وقال إنني لست على حق، ثم التفت إلى عمر وقال "يا أخي لقد سودت وجوه المسلمين بهذا السلوك مع نساء كان عليك الدفاع عنهن، وإذا عاقبتك هذه السيدة بشدة لن تكون فعلَتْ عملًا غير لائق رغم أن الصفح عظيم، لكن تذكّر هذا.. إنها الآن تغطي خطيئتك التي ستعود إليك شرًّا، وعليك ألا تنسى أبدًا أن تقوم على خدمتها بكل إخلاص ممكن وأن تقدّم إليها دمك إذا أرادت. الله يغفر حقًّا خطايا القلوب الضعيفة لكن الغدر والانحطاط مكروه".
ثم رأت سالي الشيخ يوسف يقدم إليها باحترام مقعدًا -وهو شيء لا تفعله العرب لامرأة- وأخذ الطفل بين ذراعيه، وبينما ينظر إليه ظننت أن وجهه مثل وجه المسيح في مناسبات مشابهة. بالطبع الزواج ليس شيئًا من اهتمامات سالي بالمرة وحدثتها في ذلك قائلة إني أتوقع أن تحرص على نفسها إذا سمحتُ لها بأن تبقى هنا حتى نذهب شمالًا، العمل الوحيد أن يكون التعامل مهذبًا معها وأن تبقى وأن يرى الطفل أهالي الأقصر. لكن عمر لم ينظر للأمر كزواج لأن هذا ليس قانونيًّا لها، الحاج علي كان مفزوعًا وقال لعمر ألا يدخل أبدًا منزله أو يذكر زوجته أمامه.
أتمنى أن تعطي سالي شخصيتها وأن تساعدها على بدء خطوتها الأولى إذا ما جاءت إلى لندن. لقد تصرفت بطريقة شاذة حتى إنني لن أندهش إذا ما كانت تجهز لحادثة أخرى غريبة؛ إنها تبدو غير قابلة للتصديق جدًّا. لا فائدة من أن تعطي امرأة في الثلاثين دروسًا حتى لا تشعر أبدًا بالعار لكنني سأكون سعيدة أن أفعل ذلك معها وأن يكون الدرس شفاء لها. أقول إنني فكرت في أنها قد تكون أبقت لي مهمة أن أكون الداية -المولدة- فلا رعاية ولا تمريض في المركب والخوف من المرض. بالطبع يحدث هذا

وسط الليل في الأماكن الموحشة، على أي حال لقد ولدته دون ألم كبير وبشكل جيد وبقوة، لكن عينيها سيئتان الآن ومن ثم أنا مأخوذة من أجل عمر تمامًا.. لا يبدو على سالي أن تتصور أنه يمكن لشيء أن يجعلني أشكوه أو أجد خللًا معه.. يكفي.

أتمنى فقط أن يكون ما فعلتُه حسنًا في عينيك وأن توافق معي أنه لا سبب للتخلي عن عمر؛ إنه في كل الأحداث قد أخذ درسًا في الأسف وفي المال مما لن ينساه. أنت تعرف أسلوب كلام المصريين الآن.. لقد قال حين حدثناه أنه سيكون صعبًا أن أثق به مع خادمة أخرى "والله لو أن فتاة إنجليزية أتت إليَّ وخلعت ثيابها أمامي مرة ثانية فبإذن الله سأصفعها على وجهها.. إنني مصري فقط وهي إنجليزية".

عمر في حالة من البؤس أكبر مما يمكن أن تظن فيه.. وكثير القلق من أن يُطلب إليه أن يتركني، قلت له إن كل شيء سيبقى غير مؤكد حتى أعود إلى القاهرة وأرى كيف تصرَّف خلال ذلك وحتى أسمع منك.

جانيت الأحب.. أتمنى لو أن هنري قد استقبل خطابي عن هذا العمل السيئ لسالي، بالطبع زواجها ببساطة لا يمكن بالمرة وفقًا لقوانيننا وهذا ما قلته لها لكنها صممت هي وعمر. طبعًا فهو ببساطة عبدها الآن.. على أي حال عليها أن تغادرني في يوم وصولي إلى القاهرة وهكذا قلت لهما بوضوح، بالنسبة إلى عمر فهو الضحية التامة في المسألة ومن ثم لن أطرده إلا إذا رأيت أسبابًا أخرى.

عليَّ أن أخبرك كيف تصرف الحاج علي معي.. لقد أتى غاضبًا مع عمر ولم يرَ سالي بالمرة، لكن بالنسبة إليَّ قال إنه شعر بأن أخاه جرحني وإنه مستعد لعمل كل شيء ليكفّر عنه وعرض أن يأتي إليَّ مكان عمر بثلاثة جنيهات في الشهر ليطهو ويفعل كل شيء في حال سفر الأمير والأميرة أوجستنبورج. قال "يمكن أن آتي دون مقابل لكن سيكون هذا بلا معنى لسيدة مثلك".. بل عرض أن يذهب معي إلى أوروبا أو سوريا كخادم وحيد.

من فضلك لا تقولي أي شيء مني عن سالي إلى إلين.. فكما أكدتُ لسالي إنني سأتركها تحكي هي حكايتها بطريقتها الخاصة، فما هي إلا رحلة قصيرة في قطار سفري. الأمر كله مؤلم تمامًا لي وإذا كان يمكنها أن تجد عملًا في القاهرة سأجعلها تبحر من هنا فورًا.. لكن الإنسانية لا تجعلني أرسلها وحدها دون نقود لتبحث عن وظيفة.

إن صحتها عالية وتعمل بقوة وخدمتها جيدة دائمًا، وأفضل حقيقة رغم وجود الطفل. أنتِ مخطئة أن تظنيها صارت مثل إلِين وراية. زواج إلِين قانوني وفقًا للقانون الإنجليزي لكن القانون الإنجليزي يقرر استحالة الزواج برجل متزوج، ولهذا فمسألة سالي هي زنا واضح وزواجها باطل ولاغٍ منذ البداية.

تستطيع أن تترك عمر وتتزوج رجلًا آخر غدًا، إنه متزوج وفقًا للفقه السنِّي لكنها ليست متزوجة بالمرة، عمر يعرف هذا وهو في ندم كبير. تستطيعين أن تخبري عائلتها -أعني بالنسبة إلى موقفها القانوني- من فضلك. طفلها أمام قانوننا غير شرعي وابن زنا وقضية إنجليزية.

ألِيك الحبيب.. سالي بدأت في اكتشاف أن زواجها ليس سارًّا كما توقعتْ هي، وتقول إن في نيتها أن تترك عمر تمامًا وتعمل من أجل نفسها هنا أو في إنجلترا. ستكون أفضل وأعتقد أكثر احترامًا كما قلت لها كثيرًا؛ مثل هذا الزواج ليس شيئًا بالمرة سواء وفقا للقانون أو للتعاطف مع الأوروبيين، ويمكن أن يكون مؤثرًا فقط بين المصريين الذين ليس لهم اتصال بنا.

أمي الحبيبة.. ألِيك يبدو أنه يعتقد أنني قاسية مع سالي، لكني قطُّ لم أكن متوحشة مع الفضيلة وأنا دائمًا رقيقة معها لكني لا أستطيع الاحتفاظ بها معي، إنه أمر يبدو مقيتًا لي، إنها لا تتصرف بصبر كما يحدث من معظم النساء في هذه الحالات، عمر يتحمل الأزمة كلها والتكلفة وهي ستعود إلى إنجلترا وربما محتفظة بسرها. إنها لن تفقد شيئًا غير مكانها معي.. لقد رغبت في أن يطلقها عمر حين نذهب شمالًا وهذا أنا مسرورة من أجله.

لا أحب أن أعترض زواجه مطلقًا لأن الفتى البائس أقبل على عمل كلِّ ما يستطيع عمله ليكفّر عن خطئه وأنا لا أمتلك قلبًا باردًا، لكنه رفض أن يغادر معها أو يطلق زوجته الأخرى.. النقطة التي لا تقبل المناقشة عندي أيضًا.
أحد المترجمين هنا حدث سيدة إنجليزية بأمر الزواج وقال لها إن عمر سيطلق زوجته الأولى، وحين سمعتُ بذلك أرسلتُ في طلبه وفي طلب مترجمَيْن اثنين سكندريين محترمَيْن وقلت لعمر أمامهم وأمام سالي إني لا أحمله شيئًا ولا أشينها هي إذا ما حدث هذا الظلم القاسي من امرأة بريئة.. لأن قانوننا الإنجليزي يعترف فقط بالست الكبيرة في الإسكندرية كزوجة شرعية لعمر وإذا ما أرادت امرأة إنجليزية ألا تراعي القانون الإنجليزي فعليها أن تتحمل النتائج بنفسها. رغبت منهم أن يخبرا أخا عمر بما قلت.. فربما يخبر مبروكة.
قبَّل كل الرجال يدي وقالوا إنني الأب والأم للبؤساء وإن محمود يعتقد اعتقادًا عفنًا بأني مسرورة بالظلم. لكن هل تتصور -فقط لا تقل ذلك حتى تتعرف المرأة على نفسها- أن المرأة الإنجليزية التقية أخبرتني بأن طرق مجال الفقه محيرة وغامضة وأن خطأ خادمتي -ماذا تسميه هي في ظروف أخرى؟- يمكن أن يكون الوسيلة لجعل خادمي المسلم يطلق زوجته الحاليَّة ويؤسس لعائلة مسيحية. (يا لهذا العفن المتطرف!).
أخشى أنني كنت ساذجة لأني تساءلت كيف تتأسس عائلة مسيحية بدهس وصايا قليلة تحت القدم! خاصة الوصية العظيمة بألا تفعل بالآخرين ما لا تحب أن يفعلوه بك.
تأثرت كثيرًا بالطريقة التي تكلمت بها مبروكة عن سالي وكيف هي سعيدة أن تقوم بخدمتها إذا وافقت على العيش معها، لكن لا شيء سيرضي الإنجليز أقل من الإلغاء الكامل لأولئك الذين يقفون في طريق أهوائهم الأنانية، حتى التعليم يبدو لا نفع له، وكما ترى سخط لا يلين من جانيت وروس لأن نظرة جميلة لفتى مصري يمكن أن تفتح الطريق للتقدم له من سيدة بريطانية

متوسطة العمر.
جانيت الحبيبة.. إذا كان العمل في الفندق الجديد سينتهي في الشتاء القادم، وإذا كان هنري سيجد لسالي عملًا فيه.. فسيكون ممتازًا لها، وإلا سيكون عليها الذهاب إلى إنجلترا. لقد أخذ عمر الطفل -عبد الله هو اسمه- ودفع لها ثمن رحلة العودة وأظن أن هذا أفضل شيء لهما.
عيناها في حالة سيئة الآن وهنا طبيب إنجليزي يقول إن عليها أن تفطم الطفل، سأقابله مرة أخرى وأسأله هل يمكن أن تستمر في إرضاعه لشهرين آخرين حتى يكون عليها تسليمه النهائي لعمر؟ وسوف يدفع لمرضعة لتستكمل ذلك. إذا كان الجواب بلا فأعتقد أن عليها أن تتركه هنا لامرأة أخرى. بهذه الطريقة إذا سكتت عائلتها فلا أحد في إنجلترا يكون قد عرف شيئًا عن الطيش هنا.
لقد صممَتْ بقوة ألا تعيش في بيت عمر حيث الطراز العربي وتفضل الذهاب إلى إنجلترا وأعتقد أنها على صواب وهذا سيكون الأفضل من كل الطرق.
في نظري.. الطفل قبيح لكنني أستطيع القول إن المصريين يرونه محببًا بشعره اللامع وعينيه الزرقاوين وجلده الأبيض تمامًا.. ليس قريب الشبه بعمر.
أشكركِ جدًّا جانيت لتنظيمك الأمور.. لا شيء سيكون أفضل. بالطبع سالي توافق على عرضك الطيب بكثير من الامتنان، أتمنى أن تفعل ما هو جيد معك بكل الطرق، ستترك ابنها للعناية بالقاهرة أو سيصل عمر وسيكون أمامها أسبوع لتعد نفسها قبل أن تذهب إلى بيتك. إذا استمر الطفل في الصياح كما هو الآن سأرسلها في "كاسنة" المركب[58] خلال أسبوع أو شهر لأنني أكره صياح الأطفال في المركب إذ لا مهرب منه. إذا ذهبت معي في الدهبية فبالطبع يمكنك التخمين مثلي متى ستصل إلى القاهرة.
هل تعتقدين أنتِ وهنري أنه سيكون جيدًا لموريس أن يمضي

الشتاء القادم معي وأن أجد أفنديًّا لتعليمه اللغة التركية؟ إذا كان سيصبح دبلوماسيًّا فسيكون هذا ورقةً رابحة.. أم إن هذا هوس عندي فقط! الناس الذين يعيشون مثلي ويكبرون كأصحاب أوهام وهوس.. تعرفين ذلك. أنا لست بخير وأعصابي مصدومة كثيرًا منذ رأيت سالي في نِفاسها في منتصف الليل في المركب وخوفي أن يكون عليَّ عمل الداية -مما لا أفهمه- ومن وقتها لم أعوض نومي وبالطبع هذا يفاقم سعالي.

إلى السيدة أوستِن

الأقصر- 2 يناير 1865

أمي الحبيبة..

أرسلتُ إلَيكِ خطابًا من جِرجا بينما كنا نعبر أسيوط وسط ريح طيبة، أتمنى أن تكوني قد استقبلتِهِ. طاقم سفينتي عمل كما لم أرَ طاقمًا يعمل من قبل، لقد تم دفع الأجر لهم ليصلوا إلى الأقصر. لثمانية عشر يومًا لم يستريحوا أو يناموا نهارًا ولا ليلًا، والوقت كله كان ممتعًا ومبهجًا. هذا يوضح أي قوة لهؤلاء "المصريين الكسالى" تتحقق حين يكون لهم أجر جيد في نهاية العمل، بدلًا من العلاج المفضل بالـ"عصا"!.

وصلنا منتصف الليل، وفي الصباح شاع جوٌّ كما لو أن قاربنا قد تم نهبه.. زحام من الضحكات، رجال يثرثرون يجرون إلى المنزل محملين بالسلع المنتزعة بشكل عشوائي، كتل مخروطية من السكر، قدور للقلي، كتب، وسائد، الكل مسرع. خفت أن تتحطم لكنها كلها وصلت إلى المنزل سليمة صحيحة، الأولاد الصغار سمحتُ لهم بدخول الكابينة وخرجوا بشحنات مختلفة من الملابس مثل بقشيش! وسمعت كلماتٍ مثل "حمد الله ع السلامة".. و"يا ست يا أميرة".. حتى فقدتُ رأسي. احتضنني إسماعيل العجوز بحب وأحمد الصغير تعلق بجانبي، مشيت إلى بيت مصطفى بينما يتم تفريغ الأشياء ولأتناول فطوري هناك، ووجدت خطابات منكم جميعًا حتى خطابات ريني الحبيبة، وكان الشيخ يوسف مبتهجًا لكتابة ريني وقال "إن هذه هي أحسن الأشياء".

في اليومين الأولين كان الطقس شديد الحرارة، الآن سماوي نقي النسيم وشمسه متألقة. أحضرت فانوسين عربيين مما هو شائع لضريح أبو الحجاج حيث المولد الآن، أخذهما عمر وأضاءهما

وقال لي إنه وجد بعض الرجال نادوا الباقين ليقرؤوا الفاتحة لأجلي.
كنت أجلس في الخارج أمس مع الناس على الرمال أشاهد الرجال في حفل على ظهور الخيول من أجل الشيخ، بينما الترجمان الماهر كان يحكي للجموع عن موت فتاة إنجليزية صغيرة كان يخدمها، ومن ثم دخلنا من سَمِّ الإبرة وتكلمنا عن الغرباء المدفونين هنا وكيف أن الأسقف يغتصب 100 جنيه في ذلك. قلت "معلش، الذين عالجتهم أحياء ولن ينتهوا إذا مِتُّ.. لكن أعطوني مقبرة بين العرب".
قال رجل عجوز "لعلي لا أرى هذا اليوم يا سيدتي، وحقيقة يجب أن تُدفني كابنةٍ للمصريين لكننا نخشى غضب القنصل والعائلة،على أي حالٍ أينما تُدفنين سوف تنامين في قبر للمسلمين"، قلت "كيف ذلك؟" قال "أقول لك لماذا.. لأنه حين يموت مسلم سيئ فالملائكة تخرجه من قبره وتضع واحدًا من الأخيار من بين المسيحيين مكانه"، هذا اعتقاد شائع في العقيدة أن الخيرين يتحررون من العبودية. توافق معه عمر على الفور "بالتأكيد لا شك في ذلك، وأنا أعرف قصة حدثت أيام محمد علي باشا تثبت هذا"، سألناه عن القصة وبدأ عمر يحكي "ذات مرة كان هناك رجل غني جدا بين المسلمين بخيل جدا إلى درجة الغل من أي شخص يمتلك أي شيء مهما كان ما يمتلكه هينًا.. حين كان يعاني سكرات الموت قال لزوجته "اخرُجي واشتري لي قطعة كبيرة من العجوة"، وحين عادت بها أمرَهَا أن تتركه في البيت وحده، وهنا أخرج كل ما يملك من ذهب من مكمنه ونثره أمامه ثم أدخله في قطع من العجوة وابتلعه قطعة بعد قطعة حتى بقيت ثلاث قطع فقط، حين أتت زوجته ورأت ما يفعل خطفتها من يده، بعدها نام على ظهره ومات وحُمِل إلى المدافن ومُدِّدَ في المقبرة، حين أتى رجال القاضي ليُحْصُوا ممتلكاته ولم يجدوا أموالًا قالوا "كيف هذا أيتها المرأة؟ نحن نعرف أن الزوج كان غنيًّا ولم نجد شيئًا من المال لأطفاله وعبيده أو لكِ"،

حكت المرأة ما حدث وأرسل القاضي طالبًا ثلاثة من العلماء وقرروا أنه بعد ثلاثة أيام عليها أن تذهب بنفسها إلى مقبرة الزوج وتفتحها، وتأخذ المال من معدته، وفي الوقت نفسه يجب حراسة المقبرة من اللصوص، بعد ثلاثة أيام ذهبت المرأة وفتح الرجال المقبرة وقالوا "هيا يا امرأة خذي المال"، فنزلت المرأة المقبرة وحدها ووجدت هناك بدلًا من جثة زوجها كفنًا من أكفان المسيحيين، وحين فتحته وجدت جثة لفتاة صغيرة مزينة بكثير من الجواهر وعقد ذهبي وأساور ذهبية وفي شعرها (بِنَس) من الماس وفوق كل شيء غطاء من الموسلين الأسود مطرز بالذهب، قالت المرأة في نفسها "لقد أتيت من أجل المال وها هو هنا، سآخذه وأخفي ما أفعل خوفًا من القاضي"، ثم أخفت كل شيء في ملاءتها وخرجت. قال الرجال "هل أنهيتِ عملك؟" وأجابت "نعم" وعادت إلى بيتها.

بعد عدة أيام أعطت الغطاء الذي أخذته من الفتاة الميتة إلى سمسار ليبيعه من أجلها في السوق، وذهب السمسار وعرضه على الناس وطلب فيه مائة قرش، كان المعلم الكبير "كاتب تركي" التابع للباشا يجلس في أحد المحلات، ورأى الغطاء وسأله "كم تريد ثمنه؟" قال السمسار "إنه لشرف أن يأخذه الكاتب بأي سعر"، قال الكاتب "خذ مني خمسمائة قرش وأحضر لي الشخص الذي أعطاك الغطاء ليأخذ المال"، أحضر السمسار المرأة وقام القبطي الذي كان رجلًا عظيمًا باستدعاء البوليس وقال "خذوا هذه المرأة وهاتوا حماري وسنذهب إلى الباشا"، ركب في سرعة إلى القصر يبكي ويضرب صدره حتى وقف أمام الباشا وقال "انظُر، هذا النقاب قد دفن منذ أيام قليلة مع ابنتي التي ماتت بِكرًا، وليس عند أحد إلا هي، وأحببتها كعيني ولم آخذ منها زينتها من المجوهرات، وهذا الغطاء -النقاب- صنعَتْهُ بنفسها وكانت تحبه جدًّا، وكانت صغيرة وجميلة وفي عمر الزواج، وها أنت ترى المسلمين وقد ذهبوا يسرقون مقابر المسيحيين وإذا لم تعالج هذا فسنترك نحن المسيحيين مصر لنعيش في بلد

آخر.. أجل أفندينا.. لأننا لا نستطيع أن نتحمل هذا الرجس"
استدار الباشا للمرأة وسألها "من أنت يا امرأة، هل أنتِ مسلمة وارتكبتِ مثل هذا الشر؟" تحدثت المرأة وحكت كل ما حدث، وكيف بحثت عن المال فوجدت الذهب مكانه، فقال الباشا "انتظر يا معلم، ولسوف نكتشف الحقيقة في هذا الأمر"، وأرسل في طلب العلماء الثلاثة الذين قرروا من قبل أن يُفتح القبر بعد ثلاثة أيام وحدثوهم عن المسألة فقالوا "افتحوا الآن مقبرة الآنسة المسيحية"، وأرسل الباشا رجاله ليفعلوا ذلك، حين فتحوها أمامهم هبَّتْ منها النار وبينها كان يرقد المسلم الشرير البخيل".
كان هذا بيانًا للجميع أنه في ليل الرعب فعلت ذلك ملائكة الرب، وأنامت الفتاة المسيحية البريئة بين من التزموا تعاليم الدين وجعلت المسلم الشرير بين المرفوضين.
تعجبت كيف بسرعة تنمو الأساطير هنا! فهذه القصة التي أعلن كل شخص صحتها عُرفت منذ وقت قريب في عهد محمد علي باشا.
المسافرون نادرون هذا العام، وبدلًا من مائة وخمسين سفينة أو أكثر ربما نجد عشرين سفينة. أحد أبناء عائلة روتشيلد.. غلام في حوالي الرابعة عشرة من عمره أبحر جنوبًا مثل أمير ملكيّ في أحد القوارب البخارية للباشا -إسماعيل باشا- مجانًا ومحاطًا بكثير من المرافقين، "كل هذا الشرف لأموال اليهودي!" هكذا قال لي فلاح عجوز بإيقاع فيه نوع من الاحتقار ترك صداه في قلبي. لقد أنهى الغلام ابن عائلة روتشيلد عمل دليله ومترجمه في الرحلة العجوز المحترم المريض جدًّا، وأعطاه أجره الضئيل وأضاف إليه بسخاء خمسة جنيهات ثمن عودته إلى القاهرة. على السفينة كان هناك طبيب والكثير من الخدم وتخلى عن الرجل هنا تاركًا إياه لمصطفى. أحضرت الرشيدي -الرجل المريض- هنا ، أنا آسفة فكلمة "يهودي" هنا تنطق دائما من خياشيم المصريين .
أنا بخير جدًّا.. لقد اختفى سعالي وأستطيع المشي بخفة

وأستمتع به، أعتقد يا أمي العزيزة أنني جدًّا بخير. منذ مرضي لم أشعر بالبرد قليلًا كما هو في هذا الشتاء، الصباحات والليالي قارسة البرد لا تظهر أبدا الآن، والمناخ أكثر روعة مما كان دائمًا.

عاد الرسام مستر هيربرت إلى القاهرة من فرشوط شمال قنا، ومن ثم لم يعد أمامي أي إفرنجي للصحبة بالمرة، لكن الشيخ يوسف والقاضي كانا يأتيان كثيرًا يجلسان ليشربا الشاي معي ولأنهما رجلان مقبولان عندي فأنا راضية بصحبتهما.

وبالمرة سأحدثك عن تملك الأراضي في مصر التي دائمًا يتصارع الناس عليها كما حدثني القاضي، كل الأراضي ملك السلطان العثماني والباشا هو ممثله ووكيله كما نعرف.. وهكذا لا يوجد مُلَّاك، فقط مستأجرون يدفعون من مائة قرش "جنيه واحد" نزولًا إلى ثلاثين قرشًا كلَّ عام للفدان وَفْقًا لجودة الأرض أو لصالح الباشا حين يجود بها على أحد، هذا الإيجار يرثه الأطفال فقط - ليس لفروع أخرى من العائلة ولا للأكبر- ويمكن أن تباع ولكن في هذه الحالة لا بد من تقديم طلب إلى الحكومة. إذا مات المالك دون أطفال فالأرض تعود إلى السلطان ممثلًا بالباشا، وإذا أراد الباشا أخذ أي أرضٍ من أي شخص فيمكن أن يدفع له أو لا يدفع. لا تتركي أحدًا يقولً لك إني أبالغ في القول، أعرف أن هذا يحدث، أعني أخذَ الأرض دون ثمن ويحصل الرجل على فدان مقابل فدان لكن في الصحراء مقابل أرضه التي حرثها ورواها.

غدًا الليلة الكبيرة لمولد "سيدي أبو الحجاج" وأرغب في الذهاب إلى الجامع من أجل صحتي لأن أصدقائي سيصلُّون من أجل أطفالي. الترحاب الذي أجده هنا من القلوب الطيبة مصدر سرور حقيقي والكل مسرورون هنا لأني في بلدي وكلهم يرون أنه أمر جميل أن يأتي سِيدي -زوجي- من بعيد ليراني لأني كنت مريضة، كلهم ما عدا التركي الذي نظر بسخرية لمثل هذا المأزق لسيدة مريضة عجوز.

تركتُ خطابي لوقت طويل.. لن تندهشي، لأنه بعد عشرة أيام من الحمى مات اليوم ضيفي المسكين محمد الرشيدي، طبيبان

بروسيان ساعداني في الأربعة أيام الأخيرة لكنهما غادرا الليلة الماضية. لقد غرق في النوم عميقًا في الظهيرة ويده في يدي، ورجل عجوز مسلم طيب يجلس عند رأسه من ناحية وأنا من ناحية، وعمر يقف عند رأسه وعبده الولد الأسود "خير" عند قدميه، وجَّهْنا وجهه إلى القِبلة وحدثته لأرى هل يعرف أي شيء، وحين رأى المسلمين الثلاثة ردد "لا إله إلا الله".. إلخ. بينما أُغلق عينيه. دخل الرجال المحترمون وراء بعضهم وأخذوا أشياءه التي سلموها لي وأحصَوْها، وغسَّلوا الجسد. وخلال ساعة ونصف ذهبنا كلنا إلى المدافن، تبعتني مجموعة من النساء يولولن من أجل "الأخ الذي مات بعيدًا عن بلده"، كان المشهد بين الصخور العملاقة المكسورة وأبراج المعابد في الطريق إلى الجامع فوق الاحتمال، بعد الصلاة في الجامع خرجنا إلى المدافن وكان الأقباط والمسلمون يساعدون في حمل النعش وقبعتي الإفرنجية في الوسط بين النساء المنتقبات المولولات، المشهد كله أعرفه لكنه بدا غريبًا جدًّا.. بعد الدفن جاء الإمام الشيخ عبد الوارث، وقبَّل كتفيَّ وقام الشريف -رجل في الثمانين تقريبًا- بوضع يديه على كتفي وقال "لا تخافي يا ابنتي لا في كل أيام حياتك ولا في ساعة موتك لأن الله معكِ"، قبَّلت يد الرجل العجوز واستدرت لأذهب لكن عددا لا يحصى من الرجال جاؤوا "ألف شكر يا أختنا لما تفعلينه بيننا".. وكلام كثير من هذا. الآن الأداء الوقور للفقي.. الصوت الواضح للولد الذي يرتل القرآن في الحجرة التي مات فيها الرجل يدوي في البيت، سيمضون الليلة في الصلاة وغدًا ستكون هناك صلاة العزاء في الجامع. المسكين "خير" ابتعد لينفرد بالبكاء، إنه ميراث وعليَّ أن أسلمه غدًا إلى السلطات ليرسلوه إلى القاهرة مع ما تبقى من الأشياء الخاصة بالفقيد، كان قبيحًا جدًّا بوجهه الأسود المتورم المتهدل، لكنه قبل يدي وناداني بأمه بشكل طبيعي.. هكذا ترين أن اللون لا يصنع حدودًا هنا.

الطقس عظيم هذا العام، ورغم بعض التعب فأنا بخير تمامًا

وقوية، وليس لدي سعال بالمرة. آنا آسفة لأن روتشيلد الصغير كان فظًّا مع الرشيدي وأن طبيبه الفرنسي رفض أن يأتي ويراه.. إنها طبيعة الدم السيئ. ورغم ذلك كان الأطباء الألمان أكثر طيبة ومساعدة.

الاحتفال بأبو الحجاج مشهد رائع، ليست روعة مادية فقط لكن تأثيرًا في الروح. ترفع الأعلام من أجل الشيخ من عائلته، ويغنون والرجال يصيحون ويندفعون في قتال تمثيلي على ظهور الخيل برماحهم. عبد المتولي! الشيخ المتعصب من تونس الذي تعرفت عليه العام الماضي كان هناك، في البداية كشر في وجهي، ثم أخبره شخص ما كيف أن روتشيلد ترك الرشيدي فأدان بقوة كراهية الكفار للمسلمين وانتهى بالسؤال "أين الرجل المريض؟"، ابتسامة صغيرة هادئة بانت في عيني الشيخ يوسف النديتين ثم عقد شاربه الحريري وهو يقول برزانة "فخامتك يجب أن تذهب وتزوره في بيت السيدة الإنجليزية"، ووجدت نفسي ملتزمة أن أقول إن الفريسي[59] Pharisee أعدم نفسه بـ"شياكة".. فبعد دقائق قليلة جاء إليَّ وأخذ بيدي وتمنى لو زرت ضريح أبو الحجاج معه!

منذ كتبت خطابي الأخير وأنا مسكينة أعاني سعالًا أكثر ويتملكني الضعف. إنجليزي شاب مسكين مات هنا في منزل وكيل القنصل النمساوي، كنت مريضة لا أستطيع الذهاب لكن شابة إنجليزية طيبة هي مدام وولكر التي كانت هنا مع أسرتها في القاربٍ بقيت معه ثلاث ليالٍ تمرضه كأخت. أمريكي شاب يرقد مريضًا في الوقت نفسه في المنزل، لقد ذهب إلى القاهرة لكنني أشك في أنه سيصل إليها حيًّا. كان دفن الإنجليزي في أول يوم من رمضان حيث يدفنون الغرباء في أرض كانت سابقًا مكانًا لكنيسة قبطية. الأرشيدوق مور -رئيس الشمامسة- يقرأ التراتيل، وعمر وأنا نفرش عَلَمي القديم على النعش والأقباط والمسلمون يحملون الغريب المسكين، لقد كان مشهدًا مؤثرًا جدًّا؛ الأوروبيون جميعًا كانوا غرباء عن الميت لكنهم تحركوا كلهم

في حزن، جماعة الأقباط أصحاب الروب الأسود المُعَمَّمين، البحارة من القوارب، الترجمانات بملابسهم الرقيقة، قليل من الفلاحين بملابسهم الداكنة وزحام كبير من الأطفال، كل العبابدة من الأطفال عراة ويتصرفون بأدب والتعبير على وجوههم الصغيرة أثَّر فيّ أكثر من غيرهم. ومثل المسلمين مدَّدَه عمر وبحارة القارب أسفل القبر في الوقت الذي يقرأ فيه الكاهن الإنجليزي، هبطت الشمس في شكل رائع من الضوء على عطفة النيل البعيدة.. قالت امرأة من العبابدة لي وهي تبكي "هل له أم؟ إنه صغير"، ثم ضغطَتْ على يدي متعاطفة مع هذه الأم البعيدة من الجنس الآخر.

سفن المسافرين تأتي الآن كل أسبوعين لكني لم يصلني خطاب منذ شهر، ليس لدي روزنامة وفقدت متابعة الزمن الأوروبي.. اليوم هو الثالث من رمضان، هذا كل ما أعرف.

العبد الأسود المسكين أُعيد من قنا، الله يعرف السبب.. السبب أنه لا يملك المال والمدير لا يستطيع أن يمده بالأكل بينما لا يملك هو مالًا أو متاعًا، هكذا يعتقد أنه شخص جيد وكي يعوضني عما يأكل اقترح أن يغسل لي، وستكونين مسرورة وأنت ترين "خير" بوجهه الأسود المتفحم وأسنانه المنظمة يقوم بغسل الثياب في الفناء الخارجي، إنه يخشى أن تبيعه العائلة ويتمنى أن يحصل على سعر جيد لـ"ابنه" - من ناحية أخرى يحب أن أشتريه أنا- ومن ثم فعقله مضطرب. في الوقت نفسه فإن غسل كل ثيابي أمر رائع جدًّا.

جاءت الباخرة وعليَّ أن أنتهي بسرعة.. قمت بإصلاح بروفة الخطاب. لا يوجد الكثير لتغييره وتأسفت لأحرف كثيرة مفقودة لم أستطع وضعها، حاولت لكن بدا الأمر مثل التزوير، هل تستطيعين إبرازها وإصلاحها، أمي الحبيبة.. ستقومين بذلك أفضل مني.

إلى الأرملة الشريفة.. ليدي چوردون[60]

الأقصر - 8 يناير 1865

عزيزتي السيدة العجوز.

تلقيت خطابكِ الرقيق وسط الطبول وموسيقا المزامير والغناء وإطلاق النار من البنادق والمسدسات ورقصات الخيل التي تشكل احتفالًا دينيًّا في مصر. اليوم الأخير لمولد سيدي أبو الحجاج تناسب مع أول يناير، وفيه كانت أمنياتك لي "لعل أيام السنة كلها تكون خيرًا لكِ"، والناس هنا كانوا متحضرين بما يكفي في معاملتي حين أخبرتهم بأن هذا هو أول يوم في السنة الإفرنجية، السنة القبطية هنا تبدأ في سبتمبر.

أحزنتني جدًّا وفاة الليدي تريزا لويس، أشعر كأنه ليس من حقي أن يظل الناس الذين تركتهم أحياء في حالة جيدة وأقوياء بعد أن ابتعدت مريضة عنهم، كالعادة هواء مصر العليا أعاد إليَّ الحياة ثانية لكني ما زلت مرهقة ونحيلة وأسمع رثاء كثيرًا على شكلي المتغير. رغم ذلك يقال دائمًا "إن شاء الله ستكونين أفضل قريبًا".

لماذا لا تجعلين ألكساندر يترجم خطاباتك الإسبانية؟ أنا متأكدة أنها ستكون ممتعة جدًّا أكثر مما أستطيع أنا، فأنتِ تستطيعين كتابة الخطابات بالإسبانية وأنا لا أستطيع ذلك، أتمنى لو أن لديَّ خطابات من ميس بيري رغم أني لم أعتقد قطُّ أنها بارعة مثل معظم الناس، لكن خطاباتها لا بد أن تكون سارة منذ اللحظة التي كتبت فيها. سوف يخبرك ألكساندر كم هي ثقيلة يد الفرعون على هؤلاء الناس المساكين. "كان أبي يضربكم بالكرابيج لكني سأضربكم بالعقارب" ..ألم يقل رحبعام [61] ذلك؟ أم أنني نسيت أي ملك كان ليهوذا!

الألم هنا مرعب في كل الطبقات ولا حياة آمنة لأي شخص.

أخبرني علي بِيك رضا بأن الأمير آرثر سيأتي هنا معه بعد أن

يصحب أمير هوهينزولِّيرن Prince of Hohenzollern عائدًا إلى القاهرة. سيكون هناك كل احتفال ممكن به هنا.. كل من يملك حصانًا سيأتي به ويرقص على شرف ابن ملكة إنجلترا علنًا ولن يكون هناك تعتيم على ذلك.

إذا رأيتِ لايارد أخبريه بأن مصطفى أغا قرأ كل القرآن من أجله في ضريح أبو الحجاج إلى جانب كثير جدًّا لا يحصى من قراءة الفاتحة التي قال إنها لنفسه. استشارني في إرسال بقشيش له لكني أخبرته بأن لايارد كان أميرًا للعرب ومعطاءً وليس آخذًا للبقشيش.

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 9 يناير 1865

أمي الحبيبة..

أعطيت الشيخ يوسف سِكِّينَكِ ليبري قلمه الرصاص، وأعطيت ابنته الإبزيم مرجاني اللون لحزام الوسط الذي أعطيتنيه كأنه منكِ؛ كان مسرورًا جدًّا، أيضًا أحضرتُ للشريف المزامير مترجمةً إلى اللغة العربية وكان مبتهجًا جدًّا. لقد استدعى الرجل العجوز كل "عائلتنا" ليقرؤوا الفاتحة لأختهم، بعد أن أضحكنا جميعًا بصياحه قائلًا "الحمد لله! لقد عادت عزيزتنا آمنة مرة ثانية"

أتمنى لو رأيتِني في زحام قنا وأنا ممسكة بالفَرَجِيَّة -ثوب العلماء- الخاصة بالقاضي، إنه القاضي الحقيقي الأصلي لألف ليلة وليلة، هل قام قاضٍ من قبل بسحب سيدة إنجليزية حول ضريح شيخ؟ لكني أعتقد أن تصميمه على أن يُري الناس أنه يؤمن بأن للمسيحي مكانًا في بيت المسلم المقدس أمر حقيقي وواضح.

رجل يَسُر كثيرًا جدًّا وبشكل كبير، من العبابدة هو، شيخ عظيم جدًّا من بلاد وراء الخرطوم، إنه في الخمسين فيما أعتقد، له أخلاق النبيل الإنجليزي، بسيط ومهذب وذكي للغاية، يريد أن يأخذني إلى الخرطوم لشهرين ثم أعود، وأن يكون لي خيمة وتَخْتَرَوان ليريني البشارية في الصحراء. فحصنا الطريق على خريطتي ولدهشتي فهمَهَا واكتشفت أنه سافر إلى زنجبار ويعرف بوجود رأس الرجاء الصالح والمستعمرة الإنجليزية هناك، لقد سافر أيضًا إلى بلاد الدنكا والشروق Dinka and Shurook حيث الرجال طولهم سبعة أقدام وأكثر، رأى ألكساندر يومًا فتاة من الدِّنكا في القاهرة أطول منه بثلاثة أقدام.

انحنى وقال "إنها على رأس كل فرد وفي عيونهم حيث تكون"،

ربما تفرحين لأني وجدت صحبة الشيخ علي طيبة جدًّا.
اليوم احتشد فوق الرمال أمام البيت كل البؤساء بعد أن قررت الحكومة ضريبةً ثمانيةَ جِمال لكل ألف فدان، الحيوانات المسكينة أرسلت لنقل الحشود العسكرية إلي السودان، ولأنها لم تتعود السير في الصحراء فستموت جميعها وفي كل الأحوال لن يرى مالكوها أيًّا منها ثانية؛ الغضب يزداد بقوة كل يوم. الأسبوع الماضي كان الناس يلعنون الباشا في شوارع أسوان وتحدثوا بصوت عالٍ بما يشعرون.

11 يناير..

المكان كله في عزاء، تم ضرب الرجال.. واحد لأن جمله ليس جيدًا بما يكفي! وآخر لأن سرج الجمل قديم مهترئ، والباقون لأن ليس لديهم نقود تكلفة شهرين طعامًا وأجرًا لرجل واحد، وأربعة جِمال لتُدفع للحكومة مقدمًا[62].
كان الكرباج على ظهر جيراني وأقدامهم كل الصباح، إنه إحساسُ فزعٍ جديدٌ أيضًا حين يرفع صديق أكمامه ويظهر علامات الأصفاد الخشَبية وأثر السلسلة الحديدية على عنقه، نظام الابتزاز والنهب بالجملة وصل إلى نقطة ليس هناك أبعد منها.

حكاية أرض نابوث[63] تعاد كل يوم على أوسع مدًى. كنت حزينة على عبد الله الحبشي ورجال في منزلة عالية مثله، يُرسَلون للموت بالمرض أو القتل في فازوجلو، لكنني ما زلت حزينة أكثرعلى الكرب اليومي للفلاحين الفقراء المساكين الذين يُجبرون على السُّخرة وأن يأخذوا الخبز من أفواه عائلاتهم، ويكدحون من أجل فائدة رجل واحد. مصر مزرعة واحدة واسعة يقوم فيها السيد بتسخير عبيده دون حتى إطعامهم. من نافذتي الآن أرى الرجال يحيطون بجمالهم المسكينة التي تنتظر قوارب الباشا لتأخذها.. وتلال الذرة التي أُجبروا على إحضارها لإطعامها. أستطيع أن أخبرك بأن الدموع التي تطل من عيْنَيْ الناظر إليهم

ساخنة وحادة، لا مظالم لهم تحرك أحدًا ولا جوع ولا ألم.. وعمل دون مكافأة، ولا أمل. مرارة دائمة من الاستياء الدائم، بالنسبة إليكِ فإن هذا قد يكون بعيدًا وغير متصور، لكن حاولي أن تتصوري فلاحًا إنجليزيًّا اسمه سميث مثلًا وجد العاملين في مزرعته وقد اقتيدوا بعيدًا بالبوليس وتم ضربه هو أيضًا حتى سلم محصوله.. الشوفان والتبن وخدم مزرعته من أجل اللورد حاكم المقاطعة، وأنه تم جرّ ابنيه في السلاسل ليعملا في إنشاء السكك الحديدية، وسيكون لديك فكرة عن حالتي وعقلي الآن. إنني في دهشة وفزع من أعداد فرق الجيش التي تذهب إلى أسوان لأن هناك تذمرًا بين الزنوج، بعض جماعات الزنوج ثارت في السودان في الصيف الماضي، والآن أسمع أن شاهين باشا سيكون هنا خلال يوم أو اثنين في طريقه إلى هناك وأن الجمال تُرسَلُ بالمئات من القرى كلها كل يوم، الآن أنا أولول في الحديث وستمرضين لسماع عويلي المستمر.

جاء الشيخ حسن وتعشى معي أمس وشرح لي قوة أمه وفضلها عليه، بدا أن له ضعف الشباب. لقد دافعت أمه عنه أمام استياء أبيه منه لكن حين مات الشيخ العجوز أعلمت ابنها بأنه إذا تصرف مرة أخرى بسلوك يغضب شيخ العرب فلن تعيش لتراه.. "الآن إذا قالت لي أمي أن أقفز في النهر وأغرق سوف أقول "حاضر"، لأنني أخشاها بشكل كبير وأحبها فوق كل الناس في العالم، وأترك كل شيء بين يديها".

كان طيبًا بما يكفي وهو يخبرني بأني المرأة الوحيدة التي رآها شبيهة لأمه وهذا هو سبب حبه الكبير لي، عليَّ أن أزور هذه السيدة الرائعة في قرية العبابدة التي تبعد يومين عن الشلال الأول. حسن كان رائعًا وهو يشرح لي كيف يخشى أمه بشكل كبير.

سُررتُ اليوم للقائي العالم التونسي الرائع الشيخ عبد المتولي، الذي اعتاد النظر إليَّ بجهامة، كان متحضرًا جدًّا ومسرورًا وسألني أسئلة لا تنتهي عن السفن البخارية والتليغرافات

والكيمياء، وسؤالًا خاصًّا "هل حقيقي أن الأوروبيين ما زالوا مولعين بصناعة الذهب؟".. قلت إنه لا أحد يعتقد ذلك منذ نحو قرنين من الزمان، قال إن الكلام عن أن المصريين يعرفون ذلك كذب وأنه مندهش أن يسمع عن الأوروبيين الذين هم مهرة جدًّا أنهم قد اعتقدوا ذلك. كان يعبر النيل ليرى مقابر الملوك وبالطبع حَسّن المناسبة فتحدث بأقوال جميلة عن الغرور الزائل للأفعال الإنسانية، حدثني أني الإفرنجية الوحيدة التي تحدث معها في حياته، لاحظت أنه لم يتفوه بكلمة عن الدين أو استخدم عبارات تقوى. وبالمرة ملأ الشيخ يوسف محبرتي في ذات المساء وقال وهو يصب الحبر "بسم الله الرحمن الرحيم"، قلت "أحب هذه العادة.. من الخير أن نتذكر أن الحبر قد يكون سُمًّا شديدًا أو دواءً نافعًا".

أنا الآن أحسن ونادرًا ما أسعل، الناس هنا يعتقدون أن ذلك بسبب شفاعة أبو الحجاج الذي يحميني بشكل خاص، أرغموني أن أتغطى بالغطاء الحريري الأخضر لضريحه حين حُمل الغطاء إلى الموكب، خاصة من أجل صحتي وبشكل عام للخير، وكنوع من التبني لي داخل عائلة أبو الحجاج. لم يمنعني كوني نصرانية من الموافقة وقيل لي "لا تخافي، ألا يعرفك الله ويعرف الشيخ أيضًا؟ لذلك لا شرٍ سيلحق بكِ لكنه الخير"، واعتبرت هذا أمنية طيبة للجميع ورفقًا منهم.

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 7 فبراير 1865

محبوبتي..

أنا في حالة رضا لكن ينمو فيَّ حنين إلى الوطن.. أو حنين إلى الأطفال. وبمرور الوقت يزداد شعوري بافتقاد أطفالي على أي شعور آخر. لدينا طقس لطيف هنا كل الوقت، ولم يكن هناك برد طوال الشتاء.

مسيو بريفوست بارادول هنا لعدة أيام، إنه رجل يبعث على السرور حقًّا، أوروبي شاب جيد يتقبل العربُ كلامَه وتراه النساء في جاذبية الأطفال. كنت أبحث عن قواقع وأحضروا لي قليلًا منها من الشلال، لِمَ لَمْ أعرف شيئًا عن القواقع من قبل ولم أرَ واحدة! لم أستطع اكتشاف أن في طين النيل أي قواقع، عند الشلال الأول وجدوها ملتصقة بالصخور، الناس هنا ساذجون جدًّا فيما يخص الأشياء الطبيعية التي لا يستخدمونها أو تفيدهم، مثل الطيور الفرنسية الصغيرة تكون العصافير ولا توجد زهور برية، وفقط نحو خمسة أنواع من الأشجار في مصر كلها.

هذه سنة محزنة؛ كل القطعان ماتت، النيل منخفض جدًّا الآن كما كان في يوليو، وأغاني الرجال الذين يروون الأرض بالشادوف محزنة حقيقةً، وهم يغنون "أنا جائع أشتاق إلى رغيف من الذرة"، يغني واحد ويردد الآخرون "مسكين.. مسكين"، أو يغنون أغنية عن سيدنا أيوب وصبره. مع الأسف هي مناسبة الآن وتدق في كل ناحية بينما الشواديف تئن بقوة وقد زادت في كل مكان بسبب نقص الثيران التي نفقت فتعطلت السواقي، كل شيء مرعب عزيزتي، والكثيرون مرضى من الهزال الذي تسببه قلة الطعام، ثم سمعت أن خمسين ألفًا سَيُؤخَذُون للعمل في القناة من الجيزة إلى أسيوط عبر الفيوم، الشيء المريح الوحيد هو

ارتفاع الأجور الكبير الذي كذلك كان صعبًا على الأغنياء، البحار الذي كان يحصل على أربعين أو خمسين قرشًا في الخمس سنين الماضية الآن يحصل على ثلاثمائة أو أربعمائة قرش كل شهر. أخشى أن تجبرني الظروف على ترك مشروعي لامتلاك "دهبية". إذا كان القنصل العام الفرنسي سيخرجني من البيت فعليَّ أن أكون في بيت جديد يبنيه الشيخ يوسف الآن ومنه يمكن أن يعطيني الممر ويبني ثلاث غرف عليه لي. أتمنى أن أستطيع -سواء كنت بخير أو متعبة- أن أذهب إلى البيت.

إنني أتحسن لكن ببطء، أسعل كثيرًا الآن وصرت نحيلة جدًّا لكن لست ضعيفة جدًّا كما كنتُ ولا تضيق أنفاسي.

-56-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 7 فبراير 1865

أَلِيك الحبيب..

استمتعت بحديث متسامح عظيم مع مسيو بريفوست بارادول الذي تحدث من قلبه كأي زنجي، إنه شخص مبهج. في المساء سيأتي مع أراكل بيك وبعض أصحابه الأرمن وسوف أدعو قليلًا من العرب ليراهم. أرسلت أمس المسودات عن طريق مركب بخاري، أثق بأنها ستصل سليمة. إنه شيء محبط أن تفقد كثيرًا من الخطابات، أنا يائسة إلى درجة كبيرة في خطاباتي وأعتقد حقيقة أنها ليست جيدة وأعرف أنني أمزح في أدائي الخاص، سعيدة بمحبتكم لخطاباتي من رأس الرجاء الصالح التي نسيتها لكن بأمانة لا أعتقد أن خطاباتي المصرية جيدة، تعرف أنني لا أدَّعي إذا اعتقدتُ أنني قمت بعمل جيد، وأنني حقيقةً راضية بما أعبر عنه لكنني أشعر بأنها كلها بائسة، أو ما يسميه موريس "ناشفة" قياسا على بلد في الحقيقة شائقٍ وسارٍّ وشاعري أيضًا.

زرت فاضل باشا في قاربه وكان الأمر مثل العصورالوسطى، حتى يَسُرَّني نادى صبيًّا أسودَ صغيرًا مرعوبًا في الرابعة ليقوم بحركات مثل كلب راقص، انتهت بتمثيل شيخٍ مسلمٍ. الحيوان الصغير كان مرتديا زيًّا إسطنبوليًّا باللون القرمزي.

كل الأطباء المصريين يأتون ليروني الآن في رحلاتهم أعلى وأسفل النيل ليساعدوني إذا احتجت إلى مساعدة، بعضهم رجال يسرون جدًّا.. مراد أفندي يتحدث الألمانية جيدًا كالألمان.. شيخ البلد العجوز الأرمنت الذي يزورني كلما جاء إلى هنا وله أحلى صوت سمعته يشتكي المناخ في القاهرة.. "لا توجد شمس هناك بالمرة ولا ضوء ولا دفء إلا بالقمر"، لدينا هنا شتاء

رائع ومثل جو الصيف يكون رائعًا في البيت فقط.
جانيت ترغب في أن تأتي معي إذا ذهبتُ إلى السودان، عليَّ أن أعرف وضع المناخ، يخشى روس أن يكون باردًا جدًّا لـ"مصرية" مثلي، سأستمتع بأن تكون الأسرة كلها معي. سوف أغادر الأقصر في مايو وأصل إليك بالقرب من نهاية يونيو إذا كان يروق لكَ ذلك. إن شاء الله!

-57-

إلى السيدة روس

الأقصر - 7 فبراير 1865

جانيت الحبيبة..

شيء يفطر القلب حدث لخطاباتي.. واضح أنني "أخذت عين". "خير" العبد الأسود للمترجم الذي مات في بيتي ما يزال هنا، يبدو مثل كلب فقد سيده. يبدو أن أحدًا لن يأخذه كما فعل القاضي الذي أخذ مال وأشياء المترجم ومن ثم يبدو أنني سأرث "خير" القبيح المسكين، إنه على درجة من القبح فائقة وله أسنان منتظمة حادة مخصصة لأكل البشر كما يقول هو، لكنه مخلوق حسن الخُلُق جدًّا وغاسل ملابس مخلص جدًّا، لم أهتم لأن أرسله ليباع في القاهرة ومن ثم انتظرت الحدث، وإذا لم يستهدفه أحد سأحتفظ به بأي أجر يبدو مناسبًا، إنه يستحق الحرية ويقول المعاون إنه يستحقها قانونًا. إذا تركني القنصل العام الفرنسي أبقى هنا سأترك أثاثي وأذهب مباشرة إلى سطح مستشفاكِ في الإسكندرية في طريقي إلى أوروبا، أخشى أن تكون مسألة امتلاك "دهبيةً" مكلفة جدًّا؛ إن رواتب رجال المراكب العاديين الآن هي ثلاثة نابليون في الشهر. مسيو بريفوست بارادول الذي كانت صحبته من حسن حظي سوف يتحدث إلى القنصل العام، كل أهل طيبة يريدون عودتي لأنني معروفة جدًّا هنا و"الحكيمة" الوحيدة، لقد شفيت الكثيرين وحصلت على هدايا كثيرة.. بيض.. ديوك تركي.. إلخ، إنه لأمر سار تمامًا أن تَرَيْ الفقراء بدلًا من أن يتخلصوا من شخص يتوقون إلى عودته لطيبته، لم أقدم لهم شيئًا غير عمل طبي، أهل هذا البلد طيبون جدًّا. قواس شركسي شاب جميل جلس مع غريب.. إنجليزي يموت، جلس جواره الليلة كلها لأنني شفيت زوجته طبيًّا، لدي أيضًا تلميذ، ابن مصطفى الأصغر، الفتى الذكي الحلو الذي يتوق

متلهفًا إلى التعلم، أتمنى أن يستطيع الذهاب إلى إنجلترا، إنه يتحدث الإنجليزية جيدًا ويكتب ويقرأ بامتياز ولم يسبق لي أن رأيت ولدًا مقبلًا على التعلم هكذا، هل من الصعب إدخال ولد إلى كلية العباسية؟ باعتبارها مجانًا أعتقد أنه صعب! أنا حزينة جدًّا لأن أحمد الصغير أُجبر على تبديد وقته ومَلَكاته العقلية هنا.

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 13 مارس 1865

أمي الحبيبة..

أرجو ألَّا يرتبك عقلك لأي إشاعات عن قتلي المعارك والموت المفاجئ في هذا الجزء من العالم. منذ أسبوع سمعنا بأنه تمت مهاجمة باخرة بروسية وقتل كل من كانوا عليها واحترقت الباخرة، وبأن عشر قُرى كانت في ثورة لا تنتهي وأن أفندينا "نائب السلطان العثماني" بنفسه أتى ومَحَا القرى كلها وأباد سكانها، الحقيقة ظهرت الآن وهي أن درويشًا مجنونًا أحدث فوضى وسأروي الحكاية كما سمعتُها.. لقد فعل كما كان أبوه يحب أن يفعل منذ ثلاثين سنة.. جعل لنفسه اسمًا بترديدٍ واحدٍ من أسماء الله الحسنى، مثل "يا لطيف"، ثلاثة آلاف مرة كل ليلة لثلاث سنوات فجعله ذلك منيعًا محصنًا، ثم عقد صداقة مع الجن الذي علمه كثيرًا من الحيل مما يفعله السحرة في بلادنا حين يفكون كل القيود التي قيدوا بها، ثم خدع أهل الصحراء بأن أعطى نفسه لقب "المهدي المنتظر" الذي سيأتي مع السيد المسيح ويذبح عدو المسيح في نهاية العالم، واستهدف ثورة ضد الأتراك، ثلاث قرى شمال قنا هي: جاو والريانية والبيادية اشتركت في الفوضى وجاء فاضل باشا بالقوارب البخارية فأحرق القرى وأطلق النار على نحو مائة من الرجال ودمر الحقول، في البداية سمعنا أن ألفًا قُتلوا والآن مائة، النساء والأطفال توزعوا هاربين على القرى الأخرى، قال البعض إن الدرويش قُتل والبعض قال إنه ذهب إلى الصحراء مع شخص بدوي وقليل من الفلاحين من القرى الثلاث التي أبيدت.

قرية جاو كبيرة.. تقريبًا في حجم الأقصر، الدرويش من أبناء السالمية.. قرية قريبة من هنا، وأمس تم نقل أخيه الرجل

المهذب وحَمِيْ أبيه الحاج سلطان العجوز مسجونَيْنِ إلى القاهرة أو قنا.. لا نعرف إلى أيهما. يبدو أن القارب المسلوب ملكٌ لتجار يونانيين، لكن لا أحد أصيب فيما أعتقد، ولا قاربَ أوروبيًّا تم الاعتداء عليه.

البارون كيفينبرينك كان هنا أمس ومعه زوجته، رَأَيَا كل النهب الذي جرى للقرى وقالا إنه لم تكن هناك أي مقاومة من الأهالي الذين أطلق عليهم الجنود الرصاص بينما يفرون، وكذلك شهد كيف يدفع الجنود الشياه وغيرها إلى المراكب. أريدكِ أن تكوني غير قلقة عليَّ، الدرويش ومن معه من الرجال لا يستطيعون الهجوم علينا لأننا على بعد ثمانية أميال كبيرة من الصحراء، وهناك جبل بيننا وبينهم ومن ثم لدينا الوقت لرؤيتهم، ولقد نظمنا أنه في حالة ظهورهم قريبًا منا فعلى النساء والأطفال في الأكواخ العارية أن يأتوا إلى منزلي المحصن كقلعة وكذلك أي مسافر على البواخر، وجمعنا نحو سبعمائة رجل قادرين على المعارك شاملة منطقة الكرنك، علاوة على أن فاضل باشا والجنود في قنا على بعد أربعين ميلًا.

جاءت ثلاثة قوارب إنجليزية اليوم من الجنوب وواحد من الشمال، أسرة كيفينبرينك اتجهت جنوبًا أمس، تعشيت معهم، أسرة تسر وحيوية؛ كدت أموت ضحكًا اليوم وأحمد الصغير يأتي من أجل الدرس، أعلن لي أنه مريض بحب البارونة.. لقد لعب "الكارت" معها أمس في الظهيرة وبدا قد فقد قلبه معها -إنه في الثانية عشرة وطفولي تمامًا رغم مهارته العالية- وقال إنه يريد لعب مباراة من أجل قُبلة كَرِهانٍ. لقد وضع عمة اليوم على رأسه لتقوية مشاعره وليبدو رجلًا وأهمل ملابسه لأن (الشباب حين يمرضون بالحب يفعلون ذلك).. الحقيقة إن البارونة كانت رقيقة ومحبوبة وأرادت إسعاده كما تفعل مع أي ولد أبيض، لكن قلب أحمد الرَّهِيفِ اشتعل من أجلها. أيضًا سألني هل لديَّ أي دواء يجعله أبيض ليبدو محبوبًا في عينيها! إنه لا يعرف كم هو جميل جدًّا بوجهه الأسمر بينما يجلس مربعًا قدميه على السجادة عند

قدميَّ بعمامته البيضاء والجلباب الأزرق يقرأ بصوت عالٍ. إنه لوحة فنية. أصبحت مغرمة جدًّا بالولد الصغير، إنه مشتاق جدًّا للتعلم ليحسن بشكل ملحوظ مهارته.

"أحمدي" الصغير الذي هو سائس الحمار وعبد صغير، أصغر الضامرين والمخلوقات الهادئة، يناشدني أن آخذه إلى إنجلترا، أتمنى أن تراه ريني، ستنخطف أمام وجهه الصغير الأسمر الخادع وعينيه اللتين تشبهان عينَيْ السنجاب، إنه حقيقة مصري صغير يستطيع الجري طول النهار تحت الحرارة وينام على الحجر ويأكل أي شيء، سريع وهادئ لا يحدث ضوضاء، وغيور جدًّا؛ إذا تحدثتُ مع أي ولد آخر يندفع ويبعده بعيدًا، بينما يكون "خير" الأسود في المنزل يعاني العذاب وكأن المطبخ ساحة مشاحنة متواصلة بينهما حول القهوة؛ خير يريد إحضار قهوتي وأحمد يعتبرها اغتصابًا لوظائفه، وطبعا بلا أمل.. إذ إن خير أسود ذو أكتاف قوية في الثامنة عشرة وأحمد الصغير المسكين ليس أكبر من ريني، حاولت حقيقة أن أتبنى هذا المخلوق الصغير النشيط اليقظ.

15 مارس..

عاد الشيخ يوسف من زيارة قرية السالمية الليلة الماضية، أخبرني بأن الدرويش أحمد الطيب لم يمت، وبأنه يعتقد أنه متعصب مجنون وشيوعي، إنه يريد أن يقسم كل الممتلكات بالتساوي ويقتل كل العلماء ويدمر كل التدريس الديني ويعظ بنوع من إعادة تفسير القرآن من تفكيره هو! "يريد أن يكسر ساعتك الجميلة".. قال يوسف "ويعطي كل رجل قطعة مكسورة منها، وهكذا في كل شيء".

أحد المترجمين هنا حثني على الذهاب إلى الوجه البحري لكن يوسف ضحك من فكرة الخطر، قال إن الناس هنا قاتلوا البدو من قبل ولن تتم مهاجمتهم بمثل هذه الحفنة الموجودة في الجبل الآن.

عائلة أبو الحجاج "سيضعون بصمتهم" على ذلك لأني أختهم

ويبذلون حياتهم من أجلي. من الحماقة الذهاب شمال النهر عند أي فوضى.. فقد أكون وحدي على قارب صغير وغير معروفة. عرفنا أن الباشا بنفسه في جِرجَا ومعه قوارب بخارية وجنود وإذا زاد الخوف البسيط فالسفن البخارية ستُرسَل لالتقاط كل الأوروبيين. ما يحزنني هم القرويون البؤساء الذين صودرت كل ممتلكاتهم، مذنبين كانوا أم أبرياء، وكثير منهم قتل بالرصاص وهو يهرب. يخبرني الحاج علي بشكل خاص بأنه يؤمن بأن الغضب من الحكومة يزداد عمقًا وصار شاملًا وسوف يكون هناك انفجار لكن ليس الآن. إن محاولة الباشا تنظيم أسعار الطعام باللوائح والمراسيم كارثية جدًّا، وبالطبع أسعار المجاعة الحالية وُضِعت على مسؤوليته.. فإذا كان رجلًا قادرًا عليه تحمل التوابع حين يفشل. لا أُوْمِنُ بانفجار ما؛ أعتقد أن الناس اعتادت -مع الأسف الشديد- المعاناة والطاعة إلى جانب أنه ليس لديهم أي وسائل اتصال والمراكب البخارية للحكومة يمكن أن تجري شمالًا وجنوبًا وتستهدفهم. إن الريف ممتد إلى ثمانمائة ميل طولًا ومن واحد إلى ثمانية أميال عرضًا، والسكان قليلون. فقط هي القاهرة يمكن أن تفعل أي شيء، وكل شيء يسرّ القاهريين يتم عمله على نفقة الفلاحين.

بدأت الحرارة الشديدة في الثلاثة أيام الأخيرة.. سعالي أقل وأزدادُ سمنة من جديد، النيل منخفض حتى إنني أخشى أن أستغرق من ستة أسابيع إلى شهرين حتى يكون عليَّ الذهاب شمالًا في قاربين.. فحتى الآن لم أفعل. وعَدْتُ بعض الجيران أن أعود إليهم ببعض تقاوي الحبوب لهم، بعض من أحسن القمح الإنجليزي دون حَسَكٍ؛ كل القمح هنا له شُوشَة -حَسَك- ولديهم طموح لبعض ما عندنا. أشتاق إلى أن أحضر لهم عربات يد وجواريف ومعاول، الملاك الأغنياء لديهم محاريث بخارية لكن العمال سيعملون بأيديهم العارية وسلال فقيرة لكل المحاصيل ويحتاج العمل إلى ستة للقيام بعمل فرد واحد لديه المعدات الجيدة.

إلى السيدة روس

الأقصر - 25 مارس 1865

جانيت الحبيبة..

أتمنى ألَّا تتملككِ الخيالات بأني نُهبتُ أو ذُبحتُ عن طريق ذلك الدرويش المجنون الذي تسبب في خراب قرية جاو وثلاث قرى أخرى، أؤكد لك أننا بخير جدًّا هنا وأكثر من ذلك نظمنا الخطوات للدفاع عن أنفسنا إذا شرفنا أحمد الطيب بالزيارة! الحرارة تستقر عند 89 درجة اليوم.. بالطبع أنا أفضل، أزداد سِمنةً وأسعل أقل.

شكري كثير لهنري وما فعله من أجل أحمد بن مصطفى، وسيرسله أبوه إلى إنجلترا في ورشة مستر فولر التي ستكون فيما أعتقد تدريبًا أفضل، سيأخذه مستر فولر دون تكلفة وهذا كرم كبير. اللورد دودلي سيخبرك أي تسلية رائعة قدمتها له، أعتقد أنه كان خائفًا تمامًا من منظر"الصواني" والأصابع السوداء في الأطباق.

يقترح شيخ العبابدة وأخوه الأنيق أن يأخذاني إلى مولد الشيخ الشاذلي -وليُّ القهوة- في الصحراء لأرى كل العبابدة البدائيين والبشارية. إنه شيء جدير بالتجربة وسأذهب إذا شعرتُ بتحسن أكثر فربما يجعلني التغيير أفضل. يعتقدون أنه لم يذهب أي أوروبي إلى هذا المولد، سيكون هناك سباق للجِمال وعرض جميل لفتيات جميلات كما يقول الأنيق حسن، قواس شركسي شاب جميل هنا تطوع ليكون خادمي في أي مكان وأن يقاتل أي شخص من أجلي لأني عالجت زوجته الجميلة، ستحبين خورشيد بعينيه الزرقاوين الصافيتين ووجهه الجميل وهواء الجندية القوي الذي يطل منه، إن لديه ميدالية من القرم وكثير من الخناجر والمسدسات وإلى جانب ذلك هو مسلم قوي ويحبني ويحدثني عن كل شؤونه وكيف أن حماته مضجرة، قلت

له إن كل الحماوات هكذا فأقسم "والله"، إن الخواجة -مستر روس- لا يقول هذا.. "والله".. "إن شاء الله"!

-60-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 30 مارس 1865

أَلِيك الحبيب..

تسلمتُ الآن خطابك المؤرخ في 3 مارس مع آخَرَ من جانيت التي تتساءل كيف كانت لحظات قليلة التي شغلتها إبادة أربع قرى في البلاد، لم يكن الأمر ذا بال عندها وبدا أنها لم تعرف عن الثورة هنا ولم تسمع بها.

في خطابي الأخير إلى أمي حدثتها كيف أن درويشًا مجنونًا اسمه أحمد الطيب أثار القلاقل في "جاو" شمال قنا، وكيف سرق مركبًا وكيف نظرنا جميعًا إلى "الرزية" وصممنا على قتال أحمد الطيب وأنصاره، ثم سميناهم "حرامية" ومتعطشين للدم فانتظمنا لمواجهتهم لنحمي أملاكنا، لكن نقول الآن "ناس مساكين".. ويهمس كل واحد إلى الآخر بأن الله لن ينسى ما فعله الباشا. بالطبع لن نعرف الحقيقة، لكنني أعرف أن أحد الباشوات قال إنه شنق خمسمائة، وقال آخر إنه أرسل ثلاثمائة إلى فازوجلو وكلهم بسبب سرقة قارب يوناني مات فيه فقط رجل واحد هو قائد الدفة! لا أستطيع أن أقرر أن شيئًا حدث من المتمردين بعد خروجهم إلى الصحراء للاستماع إلى كلام الدرويش الذي بلا معنى، ورؤية العصي تهتز بالرياح. قيل لي إن الجماعة التي سرقت القارب كانوا قرابة أربعين رجلًا قويًّا، لكن القصص الأكثر رعبًا جرت بين الناس عن الأعمال الوحشية التي اقترفها الجنود في القرى البائسة، ليس من قُتلوا بالرصاص دون مقاومة فقط لكن قتل النساء والفتيات الغاضبات وشنق الرجال وشحن المراكب عنوة بالمسروقات، الأسوأ أن كل واحد يعتقد أن الأوروبيين ساعدوا وحرضوا والجميع يعلن أن الأقباط تم تجنبهم ليشكروا الفرنجة، أنا لا أخبرك بالحقائق.. فقط ما يقوله الناس

لأريك مشاعرهم. واحد من أكثر الشباب احترامًا جلس أمامي على الأرض وأخبرني بما سمع من هؤلاء الذين جاؤوا عبر النهر.. حكايات مرعبة عن تعفن الجثث التي تركت بلا دفن بأوامر الباشا.. عن جثث نساء مفتوحة حاملةً أطفالًا.. إلخ. "هل عرفتِ هذا يا سيدتنا؟ إننا شعب مسالم في هذا المكان، ومنذ الآن إذا جاء مجنون وتبعه بعض الحمقى إلى الصحراء سيرسل أفندينا جنوده لهدم المكان ويأخذ فتياتنا البائسات الصغيرات كغنيمة ويشنقنا.. هل هذا عدلٌ سيدتي؟".. لقد رأى أحمد البربري الأوروبيين بقبعاتهم مع أفندينا على المركب البخاري ومعهم الجنود. "في الحقيقة لا يوجد أكثر بؤسًا منا نحن المصريين في كل العالم؛ الأتراك يضربوننا والأوروبيون يكرهوننا ويقولون إننا نستحق ما يحدث، باسم الله.. الأحسن لنا أن نضع رؤوسنا في التراب ونموت ونترك الأغراب يأخذون أرضنا ومحاصيل قطننا لهم، بالنسبة إليَّ فإني متعب من هذه الحياة البائسة وأخاف على بناتي البائسات الصغيرات".

كان محمد بليغًا بحق فيما قال وحينٍ وضع كوفيته على وجهه وبكى لا أخجل من القول إني بكيت أيضًا. أعرف جيدًا أن محمد لم يكن مخطئا في ما قاله عن الأوروبيين، أعرف أشكال العقاب المفزعة القديمة لحكم الشرقيين بالرعب الذي التقطه الإنجليز من الأتراك مثلما تلتقط الطيور الحبوب، أعرف كل شيء عن "العصا" و"القوة" وكل ذلك، لكني ما زلت بين الناس وأعرف أيضًا أن محمد يشعر مثلما يشعر جون سميث أو توم براون John Smith or Tom Brown[64] إذا وُجِدا في مكانه، وأعلم أن أولئك الرجال الذين كانوا متوحشين جدًّا ضد مثيري الشغب في البداية.. هُم الآن في مزاج للثورة على الأتراك أنفسهم، تمامًا كما لو كانوا بريطانيين مولودين أحرارًا، حتى إنه صار هناك رجال من الطبقة التي لديها ما تخسره يُعبِّرون عن احتقارهم بحرية كبيرة.

شاهدت المركب البخاري يعبر إلى فازوجلو المساجين في

أسفله من الداخل، كان على شيخ العبابدة هنا أن يرسل فريقًا من رجاله ليحرسوهم عبر الصحراء. بشكل عام هذه سنة بائسة في مصر؛ لم أسمع الزغاريد مرة، كل واحد قلق ومحبط ويخشى الجوع، فالأرض عطشانة من انخفاض النيل، والحرارة استقرت ستة أسابيع أقل من العادية، والحيوانات فزغة من الجوع، والآن هذه الحكايات المرعبة عن إسالة الدم والعنف والسرقة.. "لأن الباشا أخذ الأرض في هذه القرى لنفسه"، أرى الحزن في كل مكان.. أعتقد أن الحاجَّ علي كان محقًّا وسوف يكون هناك مزيد من الاضطرابات، إذا حدثت فستكون جرَّاءَ العنف والاضطهاد في "جاو" والقُرى الثلاث المجاورة لها. من السالمية على بعد ميلين جنوب الأقصر أُخِذ كل رجل وامرأة وطفل -علي أي صلة قرابة لأحمد الطيب- مقيدًا في السلاسل إلى قنا، ولا أحد هنا يتوقع أن يرى أحدًا منهم يعود حيًّا، بعضهم رجالٌ خَيِّرُون معروفون كما عرفت، وسمعت الرجال يقولون "إذا قُتِلَ الحاجُّ سلطان وعائلته فلن نقوم بعملٍ جيد مرة أخرى، لأننا نرى أنه لا فائدة منه".

كان هناك نِقَاش بين ثلاثة أو أربعة أوروبيين هنا عند بداية الإشاعات عن الثورة عن تنظيم دفاع عن المسيحيين فقط، تصور أي إثارة سخيفة مجانية للغضب! لم يكن هناك علاقة بالدين في العمل بالمرة وبالطبع كان الرجل المناسب لتنظيم الدفاع هو المعاون.. هو ومصطفى وآخرون قاموا بالتخطيط واختاروا بيتي كقلعة للدفاع إذا جاء مُثيرو الشغب، ليس لديَّ شك في أن السبب الحقيقي للقلاقل كان الجوع وارتفاع سعر الطعام، كان مثل انتفاضنا أو شغبنا من أجل الخبز لا أكثر وشيئًا ضعيفًا جدًّا أيضًا، إنه لمثير وغريب أن ترى الوجوه الجميلة للمسافرين على الدهبيات كالعادة والأوروبيين بعيدًا عن أي اهتمام بمعرفة الخراب كما لو كانوا في بيوتهم! حين أذهب وأجلس مع الإنجليز أشعر غالبًا كأنهم أجانب بالنسبة إليَّ أيضًا، هل صرتُ الآن "بنت البلد" تمامًا هنا؟

تعشيت الأيام الثلاثة الماضية مع عائلة كيفينبرينك، في أحد

الأيام بعد العشاء دعونا كثيرًا من مشايخ العرب ليتناولوا القهوة معنا، اثنين من العبابدة وقريبَهم من الخرطوم، وشيخ الكرنك، ومحمد الفلاح الغني، وانضم إلينا أغا حريم حليم باشا وكان حيوانًا قبيحًا، البارونة الصغيرة خطفت كل القلوب؛ كانت لا تكف عن الحركة، أو كما نقول هنا عفريتة، وكنت أرى الوجوهَ السود تلمع بالبسمات السعيدة حين ينظرون إليها ضاحكين، لم يحدث قطُّ أن رأيت كائنًا إنسانيًّا مسرورًا بجدية مثل الشيخ الأسود من السودان. في اليوم التالي تعشينا عند الوكيل النمساوي وجعلَتْ البارونة أخيرًا المعاونَ يرقصُ رقصة بوهيمية معها، بينما كان الوكيل النمساوي يعزف على الجيتار، كان هناك كثير من الأقباط الذين تقريبًا ماتوا من الضحك وكذلك كنت أنا. في اليوم التالي تعشينا عشاء رئيسيًّا في بيت مصطفى، وتعشَّى معنا شيخا العبابدة وشيخ الكرنك والمعاون والشيخ يوسف، شيخ الكرنك قدَّم درسًا في طريقة الأكل البدوية.. أسمعك تتحدث عن "الشجاعة المرنة

Tripas elasticas" في إسبانيا لكن.. والله! أي شيء مثل أداء الشيخ عبد الله لا يمكن أن تصدقه عين! كيف اقتطع من رأس الخروف وأعطاني وهو يتكلم باحترام رفيع، وكيف تكسرت العظام بين أصابعه! كيف أنزلَ ملءَ يديه من كل شيء في حلقِهِ ساخنًا وحارقًا! شجعتُه بالطبع مرددةً السيرة الشائعة عن "فِعل أشياء لم يفعلها عنترة".. وأصبحنا جميعا نضحك في صخب، حين طلب الشيخ عبد الله أن يشرب صِحتُ "أحضروا (البلاص) للشيخ".. وقارن الشيخ يوسف بينه وبين شمشون ويأجوج، فيما أحكي كيف كسر عنترة العظام وبعثرها. البارونة الصغيرة كانت مبتهجة، فقط عبرت عن ألمها لأن أحدًا لم يَحْشُ فمها بشيء، حدثَتْ المعاون عن خيبة أملها التي تسببت في ضحكٍ أكثر لأن مثل هذه العادة غير معروفة هنا.. لكنه بالطبع لم يتوقف عن الأحاديث الحلوة معها. بعد العشاء أظهرت للعرب كيف تنحني النساء لملكة إنجلترا، وحكى العبابدة عن الاحتفال بالحضور في قصر دارفور

حيث عليك أن تفرك أنفك في التراب عند قدمَيْ الملك. ثم خرجنا بالفوانيس والمشاعل فقام العبابدة برقصة السيف من أجلنا، رجلان بدرعين مستديرين وسيفين كبيرين مستقيمين فعلاها.. واحد يرقص متحديًا بقفزات رهيبة ويدور حول نفسه صائحًا "ها.. ها.. ها"! فيأتي الآخَرُ وتبدأ المعركة. حين اختير الشيخ حسن -الذي رأيته في القاهرة- صارت بطوليةً فعلًا؛ كل تحركاته كانت محبوبة وعظيمة اللياقة، أراد الجميع الشيخ يوسف أن يلعب بـ"النَّبُوت".. وقالوا إنه أحسن رجل يلعب بها هنا، لكن أخته ماتت منذ وقت قريب ومن ثم فلا يستطيع. حسن ينظر إلى الأمام حيث موريس ويطلب إليه أن يعلمه "قتال الإنجليز" لكن كيف يضربه موريس!

في الليلة الرابعة ذهبت لأشرب الشاي في قارب اللورد هوبيتون وقدم البحارة حفلًا عظيمًا مثل أعياد الكريسماس؛ رقص واحد مثل امرأة وكان يرتدي سروالًا عاديًّا فقط ويقدم نوعًا من التهريج في جلد شاةٍ وقناع زهري اللون يضربه بملعقة خشبية كبيرة وهو يقفز، كان مشهدًا مضحكًا حقًّا ومسليًّا رَغم أن السيدات لم يفهمن الحوار أو ذلك الجزء من الرقص الذي جعل المعاون يخور بالضحك. عائلة هوبيتون تمتلك قاربين جميلين ويعيشون مثلما في ماي فير May fair.

تعودت الآن حياتَنَا الرثة البائسة التي جعلتني أشعر بانطباع غريب حين أرى كل هذه الروعة -الروعة التي لم أرَها منذ عام أو عامين-، وهكذا بعيدًا عن "وعيي الداخلي" -كما يقول الألمان- كثير من الخصائص والأخطاء الخاصة بالشعب المصري قد صارت مفهومة لي ومحل اعتباري.

2 أبريل

الجو حار جدًّا ومترب إلى درجة الرعب حتى إنني قد أسرع في الرحيل إذا استطعتُ، بدأت الريح.. والأرض التي كانت خضراء كلها العام الماضي صارت صحراء جافة والتراب فيها مضاعف، إذا

سمعت أن چانت روس اشترت دهبية وأرسلتها لي سأنتظر من أجل ذلك، إذا لم يحدث ذلك سأذهب إن استطعتُ خلال ثلاثة أسابيع.

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 3 أبريل 1865

أمي الحبيبة..

انتهيت من كتابة خطاب إلى أَليك لأرسله بالمركب البخاري اليوم.. سوف ترينه، ومن ثم سأَدخل في الحديث عن قصص الشغب. حدث شيء هنا خلال عدة أسابيع وعبر ستين ميلًا، والأحداث تلخص شخصية أسطورية.. أحمد الطيب لم يمت، وفي موضع إصابته بالرصاص تظهر علامات صغيرة خفيفة مثل آثار حروق. القصة بدأت هكذا: قبطي يمتلك جارية مسلمة تستطيع أن تقرأ القرآن وتخدمه، أراد أن يجعل منها "حريمه" فرفضت وذهبت إلى أحمد الطيب الذي أعطاها مالًا تشتري به نفسها منه، لكنه رفض وأصرَّ على حقوقه المقررة وساندته الحكومة، وهكذا أعلن أحمد الثورة ومعه الناس المتعَبون من الضرائب والاضطهاد.. وقالوا "سنذهب معك"، هذا هو الملمح الوحيد الديني المتصل بالعمل، أحمد الطيب ما يزال مقيمًا في الجزيرة غيرَ مرئيّ للجنود الأتراك الذين ما يزالون هناك.

والآن.. في الحقيقة.. الرجل الذي أخبرني بأن ألفًا وأربعمائةً تم اقتيادهم إلى السجن كان حسن شيخ العبابدة الذي ذهب إلى جاو لإحضار المساجين. توقف المركب على بُعد ميل جنوب الأقصر، ومحمد الخاص بي -وهو الرجل الأكثر احترامًا وتهذيبًا وليس مخترعًا للقصص- قد ذهب عليه إلى المطاعنة، ركبت معه فوق حماري إلى الجزيرة وحين اقتربنا من المركب أسرعت مبتعدة عن الجزيرة وعدت أنا بعد أن نظرتُ فقط إليها من الضفة وشممتُ رائحة سفينة عبيد.. لم يحدث لي ذلك من قبل، وعرفت فيما بعد أن "البيك" على سطح المركب قد هرب من أمام امرأة وحيدة فوق حمار. هكذا حدث.. وكان قد أخبر شيخ العبابدة على

ظهر السفينة بألّا يتحدث معي أو يسمح لي بالصعود إلى سطح المركب، وأن يطلب إلى القبطان أن يبتعد ميلًا أو ميلين. كان محمد قد سمع كل ذلك، وجد على السطح مائة وثمانية وتسعين سجينًا بينهم مدير سوهاج التركي مقيدًا بالسلاسل وأقفال خشبية في يديه مثل الباقين. قدم محمد له بعض القهوة وكان متحضرًا معه، يقول إن المخلوقات المسكينة تعامَلُ بسوء مرعب من قبل العبابدة والنوبيين "البرابرة" الذين يحرسونهم.

إنه مثير أكثر مما تتصورين أن تسمعي حكايات الناس كلها، إنه بالضبط مثل العودة أربعة أو خمسة قرون إلى الخلف على الأقل لولا وجود البواخر العصرية المختلفة والتليجرافات الكهربائية، وخوف ذلك البيك التركي من قلم السيدة الإنجليزية. فَسَّر محمد هروب البيك خوفًا من هذا السلاح على الأقل.. سلاح القلم. كان واضحًا جدًّا أن الحكّام يخافون عيون الأوروبيين فمشى المركب ثلاثة أميال جنوب الأقصر بعيدا عن الذهبيات الراسية على الشاطئ .. لقد أخذوا كل شيء تحتاج إليه السفينة بعيدًا كلَّ هذه المسافة.

يوسف وعمه يريدان أن يأخذاني العام القادم إلى مكة، الزحام الخيِّرُ في مكة لا ينظر إلى وجهٍ هيراطيقي تحت النقاب الأخضر لشريفةِ أبو الحَجَّاج. الحُجَّاجُ يتحركون من هنا إلى القصير بالجِمال والحمير وأغلبهم على الأقدام، إنهم أعداد كبيرة هذا العام، النساء يغنين ويطبلن طوال الليل على ضفة النهر وكان جميلًا أن نرى خمسين أو ستين رجلًا في خطٍّ يصلون خلف الإمام في ضوء الغسق الأحمر اللامع للغروب خلفهم. الصلاة عامةً هي مشهد كامل وجليل أن تريها، هناك دائمًا عديد من النساء وعديد من الرجال والواحد يندهش كيف يقاومون المسيرة والصعوبات.

"أحمدي" الصغير يزداد ضغطًا.. عليَّ أن آخذه معي، سآخذه إلى الإسكندرية.. هكذا أفكر، وأتركه في بيت جانيت ليتعلم أكثر الخدمات المنزلية، إنه ولد صغير نادر ونافع جدًّا، لا أظن أن أخاه سيهتم، كما إنه يتيم الأبوين. أحمد بن مصطفى أيضًا يقنعني

بآخذِهِ إلى الإسكندرية وأن أحاول ثانية إقناع أبيه بأن يرسله إلى إنجلتراعند مستر فولر، أتمنى من قلبي أن أستطيع؛ إنه طفل نادر ممتلئٌ حبًّا للعلم وعملَ شيء ما، في نفس الوقت طفوليٌّ ساحرٌ ممتلئٌ بالفرح.. وجهه الأسمر اللامع مصدر سرور تام لي، تعليقاته على العهد الجديد تعلمني أكثر مما أستطيع تعلُّمَهُ، الولد تقي وليس مشوَّهَ التعليم على الإطلاق، يكون مسرورًا جدًّا حين يجد اختلافًا قليلًا بين القرآن والإنجيل، يريدني -في حالة تخلف عمر عن الذهاب معي- أن آخذه ليخدمني. هنا لا توجد فكرة ازدراءٍ لابن رجلٍ مهذبٍ إنْ يسهر على راحة شخص يُعَلِّمُه.. إنه واجب، هو يقوم بكل المهام الخدمية لأمه، يناولها القهوة، يضع الطعام على المائدة، يساعد عمر في أي شيء إذا كان عندي أصحاب، لا يأكل ولا يدخن أمامي، ويجلس صامتًا حتى أحدثه، شيء مثل الخدمة في العصور الوسطى.

إلى الصغيرة ريني[65]

الأقصر

حبيبتي ريني، لا بد أنك ستحبين خطابًا لكِ من (ماما) وأستطيع القول إن خالتي شارلي ستقرؤه لكِ، أنا أكتب اسم المكان الذي أعيش فيه بالحروف العربية، من الصعب جدًّا تعلمها وأعتقد أن الأولاد المصريين الصغار الذين يجلسون في فناء الجامع -كما هو في الكنيسة- مع ألواحهم يجدون صعوبة في الأبجدية (ألف.. باء..) أكثر مما تتخيلين. هم أيضًا يقرؤون ويكتبون بطريقة أخرى غير طريقتنا -يمكن أن نسميها الطريقة الخاطئة- فهم يبدؤون كتابهم من النهاية.[66]

ذهبت إلى بيت ريفي قريب من هنا منذ أيام قليلة وتمنيت لو أنك معي لتلعبي مع الأولاد والعجول والخرفان الصغيرة، إنهم جميعًا غير خطرين ومستأنسون، الأولاد الصغار يقفزون في حضني يقدمون لقمة صغيرة من الخبز آكلها ويلعبون هكذا مع الأطفال، أيضًا دجاج كثير وديوك تركية وكثير من الحمام وجواميس كبيرة سوداء قبيحة لكنها تعطي من الألبان أكثر مما تعطي الأبقار الجميلة، الجواميس تذهب وتستحم في النهر الكبير غاطسة وفقط خياشيمها تكون أعلى الماء لساعات ثم تعود صاعدة مبتلة وبها طين مثل ثعالب الماء، الدجاج والديوك التركية والحمام كلها تعيش في أعشاش مبنية من الطين وتبدو كبيرة وأطول من (بابا) وتحيط بالفناء، إنها تجري طوال اليوم وتدخلها في المساء لتكون في مأمن من الثعالب.

ولد قبطي أحضر لي سحلية كبيرة جميلة طولها نحو ياردة، إنها تعيش في الأشجار لكنها تخدش ومتوحشة حتى إنني تركتها تذهب بعد عدة أيام لأنها لم تأكل وخفت أن تموت، كانت جميلة أيضًا! المنزل مليء بالسحالي البنية التي تجري فوق السقف وتمسك بالحشرات الطائرة وتسقسق بصوت عالٍ. إن لديها

أقدامًا مثيرة مستديرة حول أصابعها حتى تلتصق بقوة بكل الجدران والأسقف وتجري بسرعة متدحرجة رأسًا على عقب.

عندي دجاج وديك تركي كستنائي اللون ومئات من الحمام أعلى قمة منزلي والصقور تأتي وتطير بينها ولا تؤذيها أبدًا. أتمنى لو أستطيع أن أرسل إليكِ حمامي الأبيض الذي يصدح "الله .. الله" -يقول المصريون إنها تصلي- وهو حمام رقيق جدًّا يهتم بالحمام الأصغر الذي يشتريه عمر من السوق ويطعمه كأنه أطفاله. مثير جدًّا أن ترى الحمام الصغير وحوله خمسة أو ستة طيور من أجل الطعام، يوجد أيضًا بعض البُوم الجميل الذي يعيش في الخرائب تحت منزلي والذي يطير ثم يعود يركن مثل الكلاب الصغيرة دون اهتمام بأشعة الشمس البارقة وينظر إلينا بغضب كأنه يعلن لنا أنه لا عمل لنا في بيوتها.

بنت صغيرة اسمها زينب تأتي لتراني أحيانا، أبوها عجوز مهذب جدا ورقيق أسود الوجه ولحيته بيضاء يعيرني حصانًا لأركبه واسمه مصطفى أغا. زينب الصغيرة في حجمك وإذا كنتِ سمراء كنت ستشبهينها جدًّا ومن ثم أستمتع برؤيتها لأنها تشبه حبيبتي ريني. أعطيتها دمية صغيرة وبعض الخوخ المسكر وضعته في طبق مستدير تدور به في الغداء المصري على الحاضرين.

أعيش في منزل كبير دون أثاث كثير، الحجرة التي خارج حجرتي مفتوحة دائمًا من ناحية على الريف وطيور السنونو تبني أعشاشها فيها وغالبًا تطير حيث أجلس لأنه لا باب يغلق.. فقط ستار معلق. في الليل تجري السحالي البنية الجميلة على السقف وتمسك بالحشرات الطائرة وتسقسق عاليًا، وخفافيش صغيرة بيضاء البطن بنية الظهر تطير في الغرفة أحيانًا.

اشتريت حمارًا بنيًّا صغيرًا لأركبه، إنه صغير جدًّا لكنه يجري بسرعة شديدة ولا يتخيل أنني ثقيلة عليه أبدًا. الحمير هنا مزاجها جميل ولا تحتاج إلى سرج فقط تمسكها بلجام صغير من حول رأسها وتغمزها إلى أي ناحية لتعرف أين تتجه وتجري وتقفز على الشواطئ برشاقة.

لم يصلني خطابك الجميل حتى بداية السنة الجديدة لأني كنت أبحر جنوب النيل، وصلني بعدها بالبريد الذي قطع ستمائة ميل برجال تجري به من مكان إلى آخر. أنا مسرورة جدا أن أرى كتابتك وأن أضع خطاب حبيبتي ريني الأول في الصندوق لأحتفظ به دائما.

بنت مصرية صغيرة -فاطمة بنت الشيخ يوسف- أتت إليَّ، إنها أصغر منك لكنها تستطيع أن تكتب قليلًا، قليل من الفتيات الصغيرات يستطعن هذا في الريف؛ أبوها يعلمها. نظرت إلى خطابك واعتبرته جميلًا جدًّا رغم أنها لم تستطع قراءته وأعجبت به جدًّا كما لو كنتِ معها. إنها سعيدة جدًّا بعصفور الجنة الذي رسمتِه وتقول عنه "عصفور إنجليزي".

الطقس دافئ جميل هنا، عندكم جليد وثلج بينما لدينا شمس حارة وهواء دافئ كأواسط الصيف عندكم، ربما حين يأتي الصيف الحقيقي يكون لديَّ مركب خاص ووقتها أتمنى أن يأتي (بابا) وأنتِ معه لتعيشا معي فيه الشتاء كله، كم سيكون هذا جميلًا!

رجل فقير مسافر كان مريضًا جدًّا ومات في بيتي وعبده الأسود الذي هو ولد أكبر من موريس ما يزال هنا. إنه يسمى "خير" ولم يكن ذلك اسمه في قريته البعيدة في إفريقيا، لقد تمت سرقته من قبل جنود أتراك ويتكلم فقط قليلًا من العربية، حين عرفت أنك تقرئين رواية روبنسون كروزو تمنيت أن أرسله إليكِ ليكون رجل الجمعة لك حين تلعبين في الجزر الخالية.-2 إنه ولد جيد جدًّا مبهج جدًّا وهو الآن رجل الجمعة لولدي أحمد الصغير جدًّا الأسمر جدًّا الماهر جدًّا الذي يعلّم خير الأخرق كيف ينظف السكاكين ويساعد في الطهو ويغسل الملابس وكل شيء. خير أسود كالحبر وقبيح وأسنانه كانت حادة كالكلب حين كان صغيرًا في قريته. لكنه ولد لطيف جدًّا وأنا أحبه وسأكون آسفة جدًّا حين يذهب إلى وريثه الصغير لكن إذا باعته عائلة وريثه فهو يريد أن أشتريه أنا.

حبيبتي الصغيرة ريني أشتاق إلى رؤيتك جدًّا وأتمنى أن

أستطيع ذلك الصيف القادم، صورتك فوق منضدتي حيث أكتب ومن ثم أنظر إلى وجهك الآن.

البستاني هنا الذي اسمه سليمان والذي هو مسيحي أعطاني صليبًا جميلًا قديمًا جدًّا من أجلك، سأرسله إلى جانيت لتحتفظ به حتى يمكن أن ترسله إليكِ. عمر يرسل إليك حبه الكبير ويقبل يديكِ والشيخ يوسف الرجل المصري المهذب الجميل الذي يعلمني القراءة والكتابة يرسل إليكِ محبته وسعيد جدًّا بأن يسمع أنك تتعلمين الكتابة.

ذهبت أمس في المساء وتناولت العشاء مع عبد الرحمن، الرجل المهذب الذي كان يراقب دريس قمحه. هنا يدرسونه في الحقول ويخرجونه من بين القش الذي تأكله الأبقار، آلة الدريس تدور وتدور ببقرتين يقودهما ولد عارٍ تقريبًا وأسمر يغني للبقر وكل شخص يأخذ أجره قمحا ويعود الأولاد السمر إلى بيوتهم مسرورين بحزم الحبوب الصغيرة بين أياديهم. إنه مشهد جميل جدًّا يستحق أن تريه.

أتمنى لو أستطيع أن أرسل إليكِ إبريقًا من لبن الناقة كل صباح لتشربيه، إنه أحسن من أي لبن؛ متماسك مثل الكريم، العرب يعتقدون أنه مفيد جدًّا للمرضى ورجل يسمى شريف يأتي بناقته هنا كل صباح ويحلبها لأجلي. إبنها الجمل الصغير جميل جدا بأقدامه وعينيه الكبيرتين السوداوين وشعره الجميل البرتقالي وجسمه الصغير بالنسبة إلى سيقانه، عليكِ أن ترَيْ الجِمال وهي تأكل. هنا الناس هم الوحيدون الذين يستخدمون فرش الطاولة القماشي. قائد الجمل ينشر القماش على الأرض ثم يسكب عليه كمية من الذرة ثم يأتي السيد جمل والسيدة ناقة ينزلان إلى الأرض ويأتي بعدهما الآخرون يأخذون أماكنهم في نظام جميل ويأكلون بأدب رافعين خافضين رؤوسهم مثل الطفل الشقي وأحيانًا لا يأكلون بالمرة.

هذ العام رجل أميركي مهذب وسيدة جاءا مع ولدين صغيرين وبنتين صغيرتين، الأكبر في الثامنة من العمر والأصغر في الثانية.

كانوا أطفالًا جميلين وكنت سعيدة برؤيتهم وكل المصريين الصغار جروا وراءهم مندهشين من وجوههم البيضاء وشعرهم الناعم، إنهم لم يروا أطفالا بيضًا من قبل وأُعجبوا بهم جدًّا وأعجبوا مندهشين من ملابسهم.

لا شيء يسلي أصدقائي المصريين كثيرًا مثل الأطلس الذي أحضرته معي، الشيخ حسن العبابدة -الشيخ الأسود- يجلس بشكل خاص على السجادة بالساعات يحملق في الخرائط ويسأل أسئلة. إنه لم يرَ أيًّا منها من قبل لكنه يفهمها جيدًا ووجدت أنه يعرف أن الأرض كروية.

أتمنى أن تكوني هنا لتري كل الأشياء الغريبة وتبحري معي في المركب الذي اسمه أورانيا ويسميه المراكبية "عروسة الغالية"، كل البنات الصغيرات تسمى "عرائس" هنا حين يكون الناس مؤدبين.

النهر عالٍ الآن.. إنه يرتفع في كل عام ويملأ مصر كلها بالمياه ثم يحصن الناس حقولهم، إنها لا تمطر أبدًا وحين تجف الأرض يملؤون الحقول كلها بالماء من السواقي التي تديرها الثيران أو بالشادوف وتكون خضرة الحقول بعدها أجمل منها في إنجلترا.

إلى السيدة روس

الأقصر - 13 أبريل 1865

جانيت الحبيبة..

الطقس فظيعٌ جدًّا، تراب إلى درجة أنني سأكون سعيدة إذا رحلت عن هنا بأسرع ما يمكن، إذا كنتِ اشتريتِ دهبية فلن أستطيع بالطبع انتظار وصولها، إذا لم تكوني اشتريتِ سآخذ قاربين صغيرين من قنا حتى أتجنب الاصطدام بسبب هذا الانخفاض الكبير في الماء. الشيخ حسن سيسافر في مركبه خلال عشرين يومًا وحثني على أن أسافر في رفقته، حيث بالطبع خرجَتْ الشياطين الصغيرة من مكامنها بعد ما جرى في قرية جاو، ولم يعد هناك معنى لبقائي وهناك خوف من السرقة، ومع فريق الشيخ حسن سبعُ أو ثماني بندقيات. ستضحكين لإنصاتي لمثل هذه الاقتراحات الجبانة لكن أصدقائي هنا يميلون إليها وحسن هو القبطان. لذلك إذا كانت الدهبية في حالة طبيعية سليمة وتستطيع الحركة في الحال فحسنٌ وجميلٌ.

14 أبريل.

الدهبية صفقة رائعة لي وجيد لكِ أيضًا أن تأخذي الناس إلى أسوان أولًا.. شكرًا كثيرًا للتنظيم والإعداد.

ما كتبتِه عن مذبحتنا مثير جدًّا لنا، أعرف بعمقٍ شيخَ العرب الذي ساعد على القبض على الفقراء وأيضًا التركي الشاب الذي وقف مستعدًا بينما فاضل باشا يجعل الرجال ينامون على الأرض بالعشرات ويُقطِّعون بالفؤوس. صديقي التركي -الشاب ذو الخلق الرائع- مندهش جدًّا من القضية وعبَّر عن رغبته في أن يفعل شيئًا حسنًا لكل الفلاحين في مصر. لقد رأيت بأم عيني قاربًا ثانيًا للمساجين، تمنيت من الله أن يعرف الباشا السخط العميق الذي سبَّبَهُ معاونوه. لا أحب قول كل ما أسمعه عن العلماء، والقضاة،

والمُفتِين.. إلخ، أعرف الكثيرين من المدن والقرى وكلهم يقولون "نحن مسلمون لكن يجب أن نطلب إلى الله أن يرسل الأوروبيين ليحكمونا"، الشعور ضد الحكومة والأتراك يرتفع هنا..ليس ضد المسيحيين. صديق قبطي لي فقد كل عائلة عمه في جاو.. كلهم أطلقت عليهم النار مسلمين وأقباطًا. بالنسبة إلى الحاج سلطان المقبوض عليه مكبلًا بالأغلال في قنا وصعدت عائلته إلى إسنا.. فلم يكن هناك أحسن منه ولا أكثر منه ليبرالية مع المسيحيين، لقد قُبض عليه هناك لأنه حمو والد أحمد الطيب لكن السبب الحقيقي أنه غنيّ وبعض الأعداء يشتاقون لثروته.

اسألي مسيو مونييه عمَّا يعرف.. ربما أعرف أنا أكثر من الشعور بأنني دائمًا متبناة من قبل أتباع أبو الحجاج، وأجلس كل مساء مع بعض الجماعات أو غيرها من الرجال المهذبين، أؤكد لكِ أنني في يأس بسبب كل ما أرى.. وما فعله الجنود أسوأ من وباء الحيوانات، أليس القواسون قذرين بما يكفي؟ ألا يشترون السلع في الأسواق بأسعار يحددونها هم ويضربون السقَّا للدفع من أجل قِرَب الماء؟ من ينكر هذا هنا؟ القاهرة مثل باريس، كل شيء جميل هناك لكن هنا...! بالطبع يسمع أفندينا "النبوءات الماكرة" للطغاة الذين أرسلهم أعلى النيل، حين كتبتُ من قبل لم أكن أعرف شيئًا مؤكدًا لكن الآن لدي شهادة شاهدي عيان، وأقول إن الباشا يقوم بالخداع أو تم خداعه.. أتمنى الأخيرة. إن أمرًا منه يوقف ذبح النساء والأطفال الذي على وشك أن يفعله فاضل باشا.

لِنَعُدْ إلى الموضوعات الأقل رداءة، سأنزل إلى الإسكندرية مع المركب، سأفرح بلقائكِ من جديد، ربما يأتي معي شيخ العبابدة وأتمنى الشيخ يوسف، "قسيسي" كما يسميه آرثر تايلور. سنهرب قليلًا.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون.

13 أبريل 1865

أليك الحبيب..

أمس كان العيد الصغير، أمر مبهج.. لقد قمت بعلاجات كثيرة لمن أضر رمضانُ أمعاءَهم، لقد أقنعت مستر فولر المهندس الذي كان مع اللورد دودلي بأن يجعل تلميذي الصغير العزيز أحمد بن مصطفى يتعلم الأعمال في ليدز بدلًا من الكسل والوقت الضائع في بيت أبيه هنا، سأعطي الطفل خطابًا لكِ في حالة ذهابه إلى لندن. لقد قرأ برغبته الإنجيل معي، لقد رفضتُ حتى سألتُ عن موافقة أبيه.. ورجاني بعمق الشيخ يوسف الذي سمعني أن أجعله يقرأ الإنجيل بعناية مني حتى أصونه من التلفيقات الهيراطيقة من النوع الفج الذي يمكن أن يطاله بين الإنجليز.. يا لها من مهمة صعبة!

أرسلت شمالًا الفتى الأسمر الفقير مع أراكل بيك، لقد تركني بوجهه القبيح منتفخًا متأثرًا مثل فرس بحر حزين.. لقد قال أراكل "من ناحيته يريد أن يبقى معي لكن ماذا يمكن أن يفعل وهناك زوجة أب قد أخذت كل المال وستعمل من أجل الحصول على الولد".. أحمد الصغير كان مسرورًا برحيل خير الذي كان يغار منه كثيرًا وكان غاضبًا من كل ما يفعله لي. الآن شيخ البلد لقرية البياضية أخذ حارسي، وشيخ الحارة المسيحي لحيِّنَا في الأقصر أخذ الولد يوسف إلى القنال، عارضت الأول ونجحت في استعادة منصور، ليس سالمًا تمامًا لأنه كان مكبلًا بالأصفاد ومضروبًا بالعصا ليجعلني شيخ البلد أدفع مائتي قرش، أخذها كأنه لم يطلب نقودًا.. وتركه، لكن شيخ الحارة القبطي كان أكثر صرامة.. فسيريد نقودًا أكثر وسيكون أكثر تصميمًا عليها.. سوف نرى. أعتقد أن عليَّ الذهاب إلى ناظر القنال -التركي- وأرجوه لإعادة سائق

حماري.
رأيت حسن شيخ العبابدة أمس، كان محملًا بالشكر لأخلاقكَ العظيمة الطيبة.. "ما شاء الله.. سيدك رجل حلو سيدتي!"
أمس كان العيد وكثير من الحريم جئن في أحسن ملابسهن ليتمنين لي عامًا سعيدًا واستمتعنا كثيرًا بالكعك الحلو والقهوة والتبغ. زوجة خورشيد -التي شفيتها تمامًا- بدت أنيقة، خورشيد شركسي، وشاب جميل مقاتل وحاصل على ميدالية في حروب القرم، إنه قوَّاس هنا وصديق عظيم لي، يقول إنني إذا احتجت إلى خادم سيذهب معي إلى أي مكان ويقاتل أي شخص ولا شك في هذا، لقد كان مملوكًا تركيًّا ويبدو تواضعه في رغبته في خدمة امرأة مسيحية.. أمر مذهل، وجهه المنبسط وعيناه الزرقاوان الصافيتان ورشاقته وخفته وما يهب منه من مظهر الجندي متناقض تمامًا مع الفلاحين السمر، إنه مثل رجل إنجليزي أكثر عدلًا فقط ومثلهم مغرمٌ بالكرباج. ماذا ستقول إذا ظهرتُ أنا في ألمانيا يحرسني مملوكٌ بمسدسه وسيفه وخنجره وبندقيته الصغيرة والكرباج وبأخلاق حادة وتصميم، معاكِسًا تمامًا للين المصريين والمسلمين أيضًا الذين يصلون خمس مرات في اليوم وزيادة في الأعياد ورمضان؟
"ضربتُ زوجتي" قال خورشيد.. "أجل ضربتُها بقوة، إنها تثرثر كثيرًا وأنا مثل الإنجليز لا أحب الكلام الكثير"، وكان مندهشًا متفاجئًا وأنا أقول له إني سعيدة لأن سيدي -زوجي- لا يكره الكلام الكثير.
في يوم آخر تحدثت مع الشيخ يوسف عن الذين يحاولون تغيير الأديان وقلت إنه غباء قديم، قال "حقيقي سيدتي.. ربما يتصورون أنهم يفعلون شيئًا حسنًا لكن الله قال في القرآن الكريم إن من يجرح أو يعذب المسيحيين الذين هم لا يمارسون الشر، معتمدًا على العقيدة، لن يشم أبدًا رائحة الجنة. الآن حين يبدأ الناس في الضغط على الآخرين لتغيير عقيدتهم سيكون صعبًا عليهم عدم إيذاء الآخرين أو جرحهم ومن ثم أعتقد أنه من الأفضل أن نمتنع

كلنا عن ذلك ونتمنى أن نرى المسيحي خيِّرًا كمسيحي والمسلم خيِّرًا كمسلم".
لا غرابة في أن إسكتلنديًّا عجوزًا وَرِعًا جدًّا أخبرني بأن الحق الذي لا يمكن إنكاره الموجود في اعتقاد المسلمين كان من عمل الشيطان والعلماء هم أصدقاؤه!
قديسي العزيز يوسف صديقٌ للشيطان! أعتقد بحق أنني تعلمت شيئًا من "تواضع المسلم"، ولذلك تحملت الخطاب وقبلت الكلام التافه برقة وأدب ولم أتناقش معه، وكما يريده صديقه الشيطان كان الفقي يقرأ القرآن في الصالة من أجل عمر الذي ختم القرآن ذلك اليوم، وجاء عمر وقدم له بأدب بعض الحلوى المجهزة للمناسبة. كنت مندهشة حقًّا لبعض الخرافات الإنجليزية هذا العام، لماذا يأتي الناس إلى بلد المسلمين يحملون هذه الكراهية الحادة في قلوبهم كما رأيت ثلاث أو أربع مرات!
أفكر في الترجمان الذي صعد أعلى النهر منذ مات الرشيدي وأتى إليَّ يشكرني بدفء كما لو قمتُ بخدمة كبيرة له، وليقدمَ لي هدية صغيرة، حين كان الرجل مريضًا أحضر عددٌ كبيرٌ من الفلاحين البيضَ والحمامَ.. إلخ. حتى الديك التركي، والطعام مُكلف الآن وليس كما كان معتادًا، إنني متأثرة للغاية بسماع "من كل الفرنجة لم أقابل قطُّ سيدة مثلكِ"، ألم يكن هناك أي شخص يتمتع بالإنسانية من قبل؟ وللذكرى فقط.. أنا لا أعطي أحدًا نقودًا، فقط بعض العلاج والمعاملة المتحضرة، كما يمكن أن يشكرك سكان الأكواخ الإنجليز للا شيء، يفعل جيراني الشيء نفسه.
بعد مناقشات طويلة استعاد مصطفى صبي يوسف لكن شيخ الحارة المسيحي جعل أخاه يدفع جنيهين.. ما أحزن محمد جدًّا. مائتان من الرجال ذهبوا للعمل -تقصد بالقنال طبعًا- وبالطبع تعاني الحريم الفقيرة قلةَ الخبز ليأكلن، فقد أخذ الرجال كل ما لديهم معهم. إنني أرسل إليكَ قصة جميلة جدًّا مثل قصة

تانهوسر الخيالية[67]

ذات مرة أحب رجل امرأة تسكن في نفس الحي، لكنها كانت مخلصة لزوجها، وكان هو يعاني في حبه بشدة لأنه لا أمل له في هذا الحب. ذات يوم وهو مُستلقٍ على السجادة في حالة من الكمد جاء إليه شخص وقال "إيه يا رجل.. المحبوبة ماتت الآن وهم يحملون جثتها إلى المقابر"، قام المحب وتبع الجنازة وأخفى نفسه قريبًا من القبر حتى إذا انصرف الجميع فتح المقبرة وكشف وجه محبوبته وتطلع إليها وشملته الشهوة وقام بالفعل الذي أنكرَتْهُ وهي حية دائمًا، لكنه عاد إلى منزله في المدينة حزينًا جدًّا مرتبكَ العقل مأزومًا من فعلته، ذهب إلى القاضي، وهو ورعٌ جدًّا دارسٌ للقرآن، وأخبره بحالته وقال "آه يا سيدي القاضي.. هل يمكن لمثلي أن يجد سبيلًا للخلاص ومغفرة من الله؟ أخاف ألَّا يحدث"، أعطاه القاضي مجموعة من عيدان الخشب في يده وقال "من يعرف رحمة الله وعدالته غير الله وحده! خذ هذه الأعواد وضعها في الرمال جوار المقبرة حيث قمت بخطيئتك واترُكها الليل واذهَبْ في الصباح التالي وتعالَ أخبِرْني بما ستجد، ربما يسامحك الله.. فهذا ذنب عظيم"

ذهب الرجل وفعل ما أراده القاضي وذهب مرة ثانية عند شروق الشمس ووجد الأعواد الخشبية قد نمت أشجارًا وتفرعت وغُطيت بالأوراق وثمر الفاكهة، عاد وأخبرالقاضي بما حدث فقال القاضي "اشكُرْ الله المشفق الرحيم".

-65-

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 29 أبريل 1865

أمي الحبيبة..

بعد خطابي الأخير استقبلتُ الطرد وبه الجبن -طازجًا وذا طعمٍ رائع- والأشياء الأخرى، لا شيء أقوى من صيحتي بالفرح حين رأيت صورك لبيت الفلاحين في القرية.. كم هي طبيعية طازجة ومكتملة! أكثر من "ما شاء الله" قيلت على بيت الفلاحين في إنجلترا، الأسوار بشكل خاص رائعة جدًّا، سمعت أيضًا من جانيت أن روس اشترى لي مركبًا بمائتي جنيه وسيأخذ أربعة من وكلائه إلى أسوان ثم يعود إليَّ.. ومن ثم انتهت مهمتي وإن شاء الله سأرحل خلال ثلاثة أو أربعة أسابيع.

الطقس بارد تمامًا ونقي من جديد لكن الريح عنيفة والتراب يسقط علينا كالماء من الأراضي الجافة، كما لو كان من جبل جوما.

عدم راحة وبؤس لكن صحتي أفضل كثيرًا من جديد.. لا شيء يهم.

عملي كحكيمة مستمر بمستوى جيد، نحو أربعة حالات تصل إليَّ كل يوم، أحيانًا "دستة". زبائن كثيرون من معسكر الغجر.. الأرواح الفقيرة يُحضِرون لي كل أنواع الهدايا التي تؤثر على قلبي بالطعام ولا يمكن أن أرفضها، إنهم مندهشون لسماع أن هناك أناسًا من دمهم يعيشون في إنجلترا وأعرف كثيرًا من عاداتهم التي هي شبيهة بالعادات هنا.

خورشيد باشا سيذهب إلى قنا، لقد كان في جاو، وقد رأى فاضل باشا جالسًا وقد أمر الجند أن يُنِيُموا ستين رجلًا على ظهورهم فوق الأرض عشرةً بعدَ عشرةٍ ثم يقطعون رؤوسهم بالفؤوس الحادة. لقد قُدِّرَ من قُتِلوا من الرجال والنساء والأطفال بألف وستمائة، لكن مسيو مونييه أخبرني بأنهم أكثر من ألفين.

الشيخ حسن وافق تمامًاعلى كلام خورشيد. المصري ممتلئ بالرعب والشركسي -خورشيد باشا- ممتلئ بالبهجة، حديث خورشيد باشا ذكرنا بما كنا سمعناه مرة عن "البانديت"[68]، وكان ينظر ويتحدث ويضحك مثل جندي إنجليزي شاب وسعيد، لكنني خجلت أن أقول له "أنت كلب" التي ارتفعت إلى لساني ونسبتها إلى فاضل باشا بدلًا منه. عليَّ أن أقول أيضًا إن ابناء وطني في الهند كانوا يجدون ما يستفزهم.. لكن هنا لا شيء. الحاج سلطان البائس ممدد في الأغلال في قنا، واحد من أحسن وأرق الناس! عليَّ أن أذهب وأحمل رسالة سرية له ونقودًا من بعض الرجال من مِلَّتِه لرشوة المدير، "الأشراف" الذين طلبوا إليَّ أن أفعل ذلك من قُرًى أخرى باعتبارهم من أتباع أبو الحجاج. شريف عظيم جدًّا حقًّا من مصر السفلى قال لي في يوم آخر "أنتِ تعرفين ما إذا كنتُ أنا مسلمًا أم لا. حسنًا، أنا أبتهل إلى أكبر الراحمين أن يرسل إلينا أوروبيين يحكموننا ويتسَلَّموننا من هؤلاء الأشرار"، كنا جميعًا نجلس بعد جنازة لأحد الأشراف وكنت أجلس بين شريف الأقصر والإمام، ولقد قيل هذا أمام ثلاثين أو أربعين رجلًا وكل الأشراف، لم يقل أحدٌ "لا" والكثيرون وافقوا بوضوح.

طلب إليَّ الشريف أن أعيره "العهد الجديد" وكانت طبعة جميلة، حين رآها وأعجب بها قلت "مني إليكَ يا سيدي الشريف، اكتُب فيه كما نفعل نحن للذكرى من صديق.. هدية من نصرانية تحب المسلمين".. قبّل الرجل العجوز الكتاب وقال "سأكتب ما هو أكثر.. إلى المسلم الذي يحب كل المسيحيين" وبعد ذلك أخذني الشيخ العجوز الشريف أبو علي وطلب إليَّ أن أذهب كرسول إلى الحاج سلطان لأن أحدهم لو حمل المال سيأخذونه منه ولن يرى الرجل.

الجنود الآن يتفرقون على الصعيد، وهذا وباء أسوأ من كل ما سبق، ألم يسرق القواسون الفقراء؟ إنهم يحددون أسعارهم في الأسواق ويضربون السقائين من أجل سعر منخفض، فما الذي سيفعله الجنود؟ الضرائب غير القانونية فرضت على الأراضي

الشراجي! التي لم تُروَ منذ انخفاض النيل الأخير ومن ثم معفاةٌ بالقانون. والناس يُساقون لليأس، أشعر بأنه ستكون هناك بالتأكيد قلاقل حين يظهر بينهم أي ديماجوجيٍّ آخر مثل أحمد الطيب ليشجع الناس الذين هم الآن متعاطفون كلهم معه. جانيت كتبت لي عن القاهرة التي تُعد على الذوق الأوروبي، جريمة بشعة. الباشا اتهم أحد شيوخ العرب بالذهاب من الصعيد إلى الهند لتأليب المتمردين عليه! لماذا لا توجد مؤامرة في باريس أو لندن؟ إنه أمر صغير جدًّا كلَعِبِ العيال أن تتحدث عن أن عربيًّا صعيديًّا فقيرًا يذهب إلى بلد لا يعرف لغته ويجهله تمامًا من أجل التآمر على ناس لم يؤذُوا ذلك البلد قطٌّ! ربما تتخيل كيف ناقشتُ أنا والشيخ يوسف هذه الأمور، لقد حثني على أن أحاول بقوة أن آتي بزوجي إلى هنا قنصلًا عامًّا لأن هذا ما يجب فعله، قلت إن زوجي ليس صغيرًا والمكان الخطأ للرجل الصحيح قد يكون لاستشهاده. قال "أكيد تتسرعين في قول ذلك، لكنها الشهادة التي نريدها نحن المصريون ،أليس الذي يعاني يوميًّا من أجل تحصين إخوته مساويًا لمن يموتون في معركة من أجل الحق وسينال مكافأتهم؟ إذا كنتِ رجلًا سأقول لكِ ابدئي في العمل وستكون كل قلوبنا مكافأة لك"، وتحدث أيضًا مثل الشيخ العجوز "أنا أصلي للأوروبيين من أجل أن يحكمونا.. فوضع الفلاحين الآن أسوأ من العبيد".

تعبت من الحديث كل يوم عن الاضطهاد واللصوص، إذا امتلك الفرد خروفًا يأتي المدير ويأكله، وإذا امتلك ثمار شجرة تذهب إلى مطبخ الناظر، السقا الذي يزودني بالماء تم ضربه من القواسين بسبب الضريبة المفروضة على كميات الماء والقرب، ثم يندهش الناس من أصدقائي البؤساء متصورين أنهم يكذبون ويخفون أموالهم.

الآن أعرف كل شخص في قريتي و"النساء الماكرات" وضعن نظريةً، أن عيني جالبة للحظ، ومن ثم طُلب إليَّ أن أذهب وأنظرإلى العرائس الصغيرة، أزور البيوت التي تُبنى، أفحص

القطعان.. وهكذا. لقد منحني التعريف كجالبة للحظ كثيرًا من الشوق لي.

ذهبت منذ أيام قليلة إلى زواج الأنيق حسن شيخ العبابدة الذي تزوج بابنة الجزار الصغيرة الجميلة. مجموعة النساء والفتيات اللاتي رأيتهن في ضوء الفانوس الذي يحمله أحمد الصغير من أجلي كان أجمل شيء رأيته وتوقفت أمامه. العروس.. البنت الجميلة ذات العشرة أو الأحد عشر عامًا في ثوبها القرمزي، عبدة سمراء لِحَسَن، تلمع بالعقود والأساور الذهبية والفضية، مع الضفائر المثنية "بالتوكات" للشعر الأسود الفاحم، وعينين وأسنان لامعة، والنساء العجائز المتغضنات الرائعات، والأطفال المدهشون غير الخائفين.. فوق الوصف. أحضرت الأم العروس لي وكشفت عن وجهها، وطلبت إليَّ أن أتركها تقبِّل يدي وأن أتطلع إليها، قلت ما تعودنه "بسم الله ما شاء الله"، وبعد قليل ذهبتُ إلى الرجال الذين كانوا يأكلون جميعًا بينما حسن الذي كان يجلس وحده ويرجوني أن أجلس معه همس لي يسألني في قلق عن شكل العروس. بعد قليل ذهب إليها وعاد بعد نصف ساعة خجولًا مغطيًا وجهه ويده وراح يقبل أيادي الضيوف الرئيسيين. ثم غادرنا كلنا المكان وأخذت الفتاة إلى شاطئ النيل لتتطلع إليه، ثم إلى منزل زوجها.

الليلة الماضية قدَّم لي حسن عشاءً،عشاءً جيدًا جدًّا بحق في منزله الذي يشبه حظيرة بائسة، كنا خمسة فقط.. الشيخ يوسف وعمر وتاجرٌ كهل وأنا. أراد حسن أن يخدمنا لكني جعلته يجلس. التاجر المُرَبَّى جيدًا في عالم يعشق الحياة.. يتزوج في كل مكان، حين وصل ذلك اليوم وجد ابنةً له قد ماتت هنا، قال إنه شعر بالبؤس الشديد وكل واحد قال له ألا ينشغل وواسَوْهُ بشكل غريب على الطريقة الإنجليزية، ثم بدؤوا يحكون القصص.. حكاية عمر كانت عن الرجل وزوجته اللذَيْن لا يغلقان الباب، ووافقا على أن أول من يتكلم هو من يفعل ذلك.. كانت لذيذة حقًّا. حكى يوسف حكاية جميلة عن السلطان الذي تزوج ببنت العرب "بنت

بدوي"، وكيف كانت لا تريد العيش في قصره وقالت إنها ليست فلاحة لتسكن البيوت وكانت تحتقر ملابسه الحريرية ويذبح خروفًا لها يوميًّا، وجعلته يعيش في الصحراء معها. عبد أسود حكى حكاية سخيفة عن اللصوص، والحكايات الأخرى أطول من أن يمكن الإشارة إليها.

مشاعر حسن المصرية كانت مجروحة من كمية اللحم القليلة أمامي.. "لا يستطيعون ذبح خروف الآن على شرف الضيف!"، لكنني قلت له إنه لا شرفَ عظيمٌ يمكن أن يقدَّم إلينا نحن الإنجليز أكثر من أن تتركنا نأكل شُربة العدس والبصل كأفراد من العائلة، ومن ثم لا نشعر بأننا غرباء بينهم، ما أسعدَ كلَّ الحاضرين. بعد وقت أخبرنا التاجر بأن قلبه بطريقة ما قد اتسع، وكرجل.. يحب أن يقول إن وجع أسنانه انتهى، وقلنا نحن جميعًا "الشكر لله"، منذ وقت قصير وقع على رأس صديقي البائس المعاون حَجر مرعب. زوجته.. ابنتان متزوجتان.. وتسعة أطفال مختلفين وصلوا فجأة، وهو الفقير الآن يذوق المسرات التي ذاقها ذات مرة إبراهيم بين سارة وهاجر. زرت السيدات ووجدت سارة القديمة جدًّا وفتاة رائعة الجمال، شاب هنا -شريف- سألني أن أتوسط لزواجه بابنة المعاون الأكبر، الفتاة التي في الثامنة تقريبًا، وهكذا ترى كيف أنني واحدة من العائلة تمامًا.

لم يظهر مركبي بعد، أنا بخير جدًّا حقًّا الآن، بالرغم من -أو ربما بسبب- الحرارة العالية. لكن يوجد عمل كثير مع المرض.. الدوسنتاريا بشكل رئيسي. لا أستقبل أقل من أربعة مرضى في اليوم وعملي أصبح عملًا جادًّا تمامًا. أمضيت يوم الجمعة كله في بيت العبابدة حيث الشيخ حسن وعبدُهُ رحمة مريضان. الاثنان بخير الآن. رحمة هو أحسن زنجي عرفته في حياتي، وصديق عظيم لي. إنه أكثر الرجال مهارة وأمانة وإخلاصًا، وأفندي -يقرأ ويكتب- أكثر مما يفعل سيده. إنه علامة على الناس غير العاديين في قلب إفريقيا.

شيخ البشارية -التي هي بعد أسوان بمسافة ثمانية أيام-

دعاني ووعدني بكل اللحم واللبن الذي أستطيع أكله، لا شيء غير ذلك لديهم. إنهم يعيشون على جبل عالٍ وهم ناس وسيمون جدًّا. إذا كنت قوية كنت سأذهب إلى أماكن عجيبة ليس بها فرنجة. أقرأ رواية غبية -كقصة- عنوانها "سر السعادة " Le secret du Bonheur إنها تعطي أصدق انطباع قرأته عن أخلاق العرب بواسطة إرنست فيدو Ernest Feydeau[69].

وفقًا لكتابه نحن "خوات " -إخوة-.. طرق المداعبة العربية موصوفة جيدًا.

الأمر نفسه هنا.. الناس يأتون ويقتربون ويربتون عليَّ بأيديهم، وأحد أركان عباءتي البنية شحب من كثرة التقبيل، ينادونني بـ"الست بتاعتنا".. "سيدتنا"، والآن الناس مبتهجون بحق لأني رفضت عرضًا من بعض القواسين كحارس يخصصه البكباشي لي. كما لو كان هؤلاء الناس سيساعدون في البلطجة على أصدقائي. البكباشي -الثاني في الرتبة بعد البيك- رجل خشن مثل أرناؤوط، توقف هنا يومًا وليلة ولعب ألعابه التركية وأخبرني بأن أحذر -فالعلماء يكرهون الفرنجة كلهم ويُعِدُّون الناس لكراهيتنا- وأخبر المصريين بأن الحكماء المسيحيين كلهم يعملون على تسميم المسلمين. ومن ثم في الليل ذهبت إلى المعاون مع الشيخ يوسف حاملة فانوسي ونودينا بصوت عالٍ بـ"السلام عليكم" من الشريف العجوز نفسه، الذي بدأ يمدح في الإنجيل الذي أعطيته إياه، وفي الوقت نفسه كان مع يوسف قصبة خشبية نحيلة في يده -قلم للكتابة طوله نحو قدمين وفي حجم الريشة- أخذته وأريته للبكباشي وقلت "أمسك النبوت الذي به سيميتنا جميعًا هذا الشيخ"، شارب البكباشي المنتصب انتصب بتوحش لأنه شعر بأن "الكلاب المصريين" و"الخنزيرة المسيحية" كانوا يضحكون منه معًا.

مر علينا قارب بخاري آخر يحمل مساجين من جاو. قليل من الراحة جاءت بها الأخبار بأنه "بفضل الله، مات موسى باشا حاكم السودان وذهب إلى الجحيم". سيُرسَلُ إلى هناك بسرعة

ويحاسب بالطريقة التي سيحاسَب بها فاضل بيك.
ستظنيني ثورية تمامًا.. لكن عليَّ أن أقول لكِ إن أكثر ما قد يفكر فيه الناس مثلي لا معنى له. لكنها شفقة الفرد أصبحت تعاطفًا تامًّا حين يكون بين الناس كما أفعل وأرى كل شيء، ليس قليلا أن أغفر للذِين من بين الأوروبيين والمسيحيين يستطيعون المساعدة في كسر هذه "الحاجات الدامية"، ورغم ذلك ففي القاهرة وأكثر في الإسكندرية كل شيء مختلف تمامًا، نفس النظام الذي نُقل بنجاح من فرنسا هو الشائع هناك.. العاصمة تتدلل على حساب الفلاحين.. الأسعار في القاهرة للحوم والخبز منظمة كما هي أو كما كانت في فرنسا، و"الطبقات الخطيرة" تتمتع بكل الإعفاءات.. تمامًا كما بفرنسا! القاهريون يأكلون الخبز والفلاحون يأكلون الضرب.
الناس هنا اعتادوا كراهية مسيو مونييه الذي جاء فقيرًا ثم صار غنيًّا ذا قوة، لكنهم يباركونه الآن ويقولون في المطاعنة إن الرجل يأكل اللحم الذي يملكه وليس من كرباج المدير -ولقد رفض مونييه أن يتواجد عنده الجنود بدعوى حمايته كما رفضتهم أنا رغم صغر وضعي- و"من فضلك يا رب" لا تجعله يندم على ذلك. يقول الشيخ يوسف "إن ما تخشاه الحكومة التركية ليس من أجل أمنك لكن أن نتعلم حبك أكثر"، هنا لا صوت إلا صوت واحد "اللهم ائتِ بالفرنجة واللهم اجعلنا نملك قوانين المسيحيين".
في القاهرة بدد الإفرنج هذا الأمل الناعم للفلاحين وقاموا بعمل الأتراك ما داموا قد دُفعت لهم أجورعليه. وهنا يأتي فقط مسافرون يدفعون الأجر مالًا وليس ضربًا.. وهذه درجة من الكرم ليست كافية للإعجاب.
أتصور أني مزعجة، لكنك ستغفرين غضبي تعاطفًا مع الناس الطيبين الذي يعاملونني معاملة جيدة. طلب إليَّ الشيخ يوسف أن أجعل الصحافة الإنجليزية تعرف ما جرى في جاو.
عالم الدين والإسلام يريد أن يطلق نداء استغاثة في التايمز! تغيرات غريبة وعلامات للزمن هذه.. أليست كذلك؟

ذهبت إلى الكنيسة يوم جمعة الرب مع الأقباط.. المشهد آخَّاذ جدًّا؛ الكهنة في ملابس مثل ملابس الصليبيين في أوشحة بيضاء بتقاطعات قرمزية. شيء واحد خطف إعجابي من القلب.. الأطفال القليلون الذين أُخذوا إلى الكنيسة سمح لهم باللعب! يا أيها البروتستانتيون المسيحيون الصغار.. هل لكم أن تتصوروا عقيدة بهذه المسرة التي تسمح بهذه الزقزقة خلف ستار الهيكل! لقد شاهدت قديسين أطفالا فيها في كل وقت، والقسيس فقط ربّت على رؤوسهم الصغيرة بينما ينقل الأسرار المقدسة إلى الحريم[70] غريب هو الشخص الذي يربت برقة على رؤوس الأطفال المسببين للضجة بدلًا من أن يبعدهم الشماس، لقد تصالحت من الأعماق مع القواعد القبطية.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

القارب النيلي - أورانيا

مايو 1865

أَليك الحبيب..

سعيدة كما كنت لاحتمال رؤيتكم جميعًا، وبائسة بسبب ما آل إليه جنوب مصر. لم أستطع أن أرحل دون ألم.. عيدنا الأضحى لم يكن مبهجًا، كان هناك رقص بالخيل من أجل الشيخ جبريل -ابن عم أبو الحجاج- وكان المشهد أجمل من كل ما رأيت. صديقي القديم الشريف يونس أصر على أن يريني أنه في الخامسة والثمانين وما يزال يستطيع أن يركب الفرس ويلقي بالجريد "للشيخ جبريل والسيدة" كما قال. ثم وصل مفتش الزينية ومعه تابعوه الشباب وملؤوا الميدان الصغير أمام منزل القاضي الذي يشبه القلعة حيث كنا نجلس. شيخ السلامية الشاب كان يتحرك بفرسه بشكل جميل وكان هناك تحطيب جميل بالنَّبُّوت.

في اليوم التالي قدم محمد ومصطفى عشاء عظيمًا خارج بيت محمد المقابل لضريح الشيخ جبريل. تناول مائتا شخص الطعام عند البوابة، ذهبت لأرى ذلك وبالطبع دُعيت لتناول الطعام.. "هل يمكن لمثلكِ أن يأكل ملوخية الفلاحين؟"، ومن ثم التحقتُ بخمسةٍ حول طبلية خشبية صغيرة.. ورفعت كمي وأكلت، غمس الخبز في الملوخية مثل غمسه في السبانخ لكن أفضل كثيرًا، ثم جاء رئيس الطهاة ومعه خدمه لإخراج قطع اللحم من إناء كبير - لحم مسلوق- ومثل بنيامين Benjamin[71] كانت قطعتي الأكبر، ومن ثم قطعت منها وأعطيت من حولي الذين قالوا "أعادك الله سعيدة إلى بلدك وأولادك وأعادك إلينا سالمة ونأكل اللحم معًا مرة أخرى"

ارتفع القمر متلألئًا خلف النخلة العالية التي تكلل ضريح الشيخ

جبريل. إنه "وليٌّ" الطعام المنزلي ومن ثم لا قبة فوقه أو غطاء لضريحه، المحاط فقط بحائط عريض عالٍ بينه فسحة صغيرة من الأرض هي والقبر في جانب واحد. في كل ركن كان هناك عَلم وفانوس خافت معلق على رأسه، كان المائتا رجل يأكلون في هدوء كبير حتى وهم ينهضون واحدًا بعد الآخر لغسل أياديهم وينصرفون. ذاب الزحام في الخارج كما لو كان حلمًا، لكن قبل أن ينصرف الجميع جاء "البولوك" أو نائب الحاكم جاك التركي، وبدا

في ملابسه أنه واحد من فريق عسكري، الزواويون [72] Zouave [تحول إلى شماس أبرشية، بدأ يسخر من ملوخية الفلاحين وأقسم أنه لا يستطيع أكلها حتى لو جلس أمامها ألف سنة. هنا بدأ عمر يمزح معه "كل يا بولوك باشا وإذا حدث لك انتفاخ في بطنك فالسيدة سوف تعالجك بالعلاج الإنجليزي الذي ينظف الأمعاء من أعلى ومن أسفل من كل ما أكلته سابقًا من طعام الفلاحين".

البولوك كان معروفًا بالعنف وبأنه "يأكل الناس"، ومن هنا كان الضحك عظيمًا. في اليوم التالي أصاب عمرَ المسكينَ مرضٌ شديدٌ وكل واحد اعتقد أنه قد أصابته عين البولوك.

ثم جاء المفتش الرسمي ليدفع نصيبه "واجبه" للشيخ في الضريح، جاء وتحدث إلى مصطفى والشيخ يوسف وأحصوا الناس الذين أخذوا للعمل، 200 من الأقصر، 400 من الكرنك، 310 من البيادية، و380 من السالمية، أكثر من نصف الشباب قد أخذوا لستين يومًا بعيدًا عن حقولهم التي تركوها بلا رعاية وحريمهم وأطفالهم جوعى خلفهم.. لأن عليهم أن يزودوهم بالطعام.

أوجعني قلبي من صوت المفتش الجاف القاسي، ونزلت أستمع إلى المنشدين ينشدون عند الضريح وحاضري الذكر يرددون في شجن "الله.. الله".

مِلت على الحائط الطيني أرقب الأشكال النحيلة ترقص في ضوء القمر حين أتى فلاح أنيق طويل في جلبابه القاتم ولبدة على رأسه وعباءته الزرقاء القطنية مرفوعة إلى أعلى فوق ظهره

مملوءة بكثير من الخبز الجاف. إنه النموذج المصري. لقد وقف قريبًا مني ومن ضريح الشيخ جبريل ودعا لزوجته وأطفاله.. "قل لربنا أن يرعاهم يا مولانا، ويطعمهم بينما أنا بعيد عنهم، أنت تعرف كيف سهرت زوجتي طوال الليل لتخبز لي كل القمح ولم يبق لها شيء ولا لأطفالي"، ثم استدار إليَّ وأمسك بيدي واستطرد "أنت تعرف هذه السيدة.. شيخ جبريل، اجعلها تعود إلى بلدها سعيدة ثم أعدها إلينا".. "الفاتحة يا بشوشة!" وقرأناها معًا. وضعتُ رأسي على حائط الشيخ جبريل متأثرة، شكرت للرجل كثيرًا اهتمامَهُ بواحدة مثلي بينما هو يعاني مآزق كبيرة. لن أنسى أبدًا هذا الجسم الطويل الرياضي ووجهه الأسمر الرقيق، مع قمر اليوم الحادي عشر من ذي الحجة وظل النخلة.. هكذا كان وداعي "صوت البائس كان صوته، ألن يسمعه الله ويستجيب؟".

في اليوم التالي هاجَمَتْ عمرَ حمى حادة أصابته بالهذيان -استمرت يومين فقط لكن جعلته ضعيفًا جدًّا- وكان القلق والأزمة كبيرة وكانت مساعدتي رائعة كما توقعوا.

خلال أيام قليلة وصلت السفينة أورانيا. إنها جميلة جدًّا بحق.. صالون صغير، غرفتان جيدتان للنوم، حمام ومرحاض، و"كاسنة" [73] كبيرة جدًّا. كانت متسخة لكنها ستكون مريحة تمامًا بعد أن يتم تنظيفها ودهانها.

في الخامس عشر أبحرنا، جاء الشيخ يوسف معي إلى قنا، ذهب مصطفى وسيد إلى البر.

واحد من أتباع الحاج سلطان وبعض رجال من الأقصر كانوا مسافرين على ظهر السفينة، الشريف أعطاني الخبز وجرارًا من الزبد لأحفاده في الجامع الأزهر وجاء يودعني. جلسنا على السطح نودع زحامًا من المودعين وكان لدينا حريم كثير في الكابينة، الشريف العجوز جعلني أجلس على سجادة قريبًا منه ثم قال "نحن نجلس هنا كحبيبين"، في الخامسة والثمانين يمكن لمصري من الأشراف أن يكون عملاقًا. صحت "يا شريف..

ماذا لو أن عمر أخبر زوجي بالسرالذي قلتَه! ليس جيدًا لك" وكان ضحك كبير انتهى بالشريف يقول "لا شك أن سِيدك -زوجك- من أحسن الناس، دعينا نقرأ الفاتحة له"، ونادى الناس كلهم "الفاتحة لسيد السيدة!"، أتمنى أن تفيدك الدعوات التي دعوناها من أجلك في الأقصر.

كتبت كثيرًا ومررت بالمنيا فسقطت مريضة بالتهاب في الغشاء البللوري للرئتين.

لدي الكثير لأقوله عن الرحلة لكني منهكة جدًّا بعد أسبوعين في السرير، وغير قادرة على أن أستلقي من الاختناق، لكني بخير أكثر الآن. رجل من الأزهر يقرأ القرآن لي بالخارج بينما الآخر ذهب بالشموع إلى السيدة زينب ليدعو الله أن يشفيني.. "هؤلاء هم المتعصبون!"

-67-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

القاهرة - 16 يونيو 1865

أَلِيك الحبيب..

سأذهب شمالًا إلى الإسكندرية في المركب وسيعمل عمر عليه، إنه يحتاج إلى أعمال صيانة كبيرة، وإشرافه على ذلك سيوفر كثيرًا من النقود -إلى جانب أنه سيقوم بعمل رجل واحد باعتباره نجارًا جيدًّا جدًّا أحسن من كثيرين- وكان قد تعلم من العمال الإنجليز في السكة الحديد. الريس قال إن القارب يجب أن يخرج من الماء إذ إن قاعه غير سليم، إنها باخرة رائعة ومريحة بشكل واضح؛ الأسرَّة في الكاسنة -غرفة المؤخرة- صنعت لجاكوب أُومنيوم Jacob omnium[74] ومن ثم حين "تشرف بيتنا" ستكون سعيدًا.. الصالون صغير وغرف النوم عادية أيضًا، شكلها لطيف لكنها تحتاج إلى صيانة لا تنتهي. وهكذا كان عمر راضيًا بالمغادرة لأنه "سينقذ نقودنا"، كثير من الأشرعة الممزقة والمقطوعة التي تحتاج إلى ترقيع والكشط والدهان نفسه.. فقط كان خائفًا مني، ورغم ذلك.. الله كريم. أعتقد أن معي ريسًا ممتازًا جدًّا.. شاب عادي أسمر صغير أنيق من قرب أسوان.. بارع جدًّا ونشيط وجيد الحركة، الأمر نفسه مع مدير الدفة الذي أخذناه بعد البدرشين.. إنه يعرف عمله جيدًا، كانت تقابلنا عواصف متعاكسة طوال الطريق، فعل رجالي أقصى ما يستطيعون وشدوا الحبل طول النهار وجدفوا طول الليل يومًا بعد يوم، لكننا أمضينا ثمانية وعشرين يومًا إلى الشمال، لا أستطيع أن أكتب أكثر.

إلى السيدة أوستِن

الإسكندرية - 28 أكتوبر 1865

أمي الحبيبة..

أنا حزينة بصدق للسماع بألم رسغك، ولأني أرى كتابتك تبدو مرهقة، وصلت إلى هنا يوم الخميس بعد رحلة رائعة وكنت مرتاحة جدًّا على سطح السفينة. وجدت مسيو أولاجنييه في انتظاري وعمر بالطبع، واستقرَرْتُ في منزل روس حتى يتم إصلاح سفينتي في ستة أيام، ستكون مريحة بشكل خاص؛ قام عمر بعمل نوع من المقاعد الكبيرة لها سقف وظهر يتم وضعه خارج باب الكابينة حيث دائمًا أجلس كل مساء، والتي ستكون الخلية الصغيرة الأكثر بهجة التي يمكن أن يتصورها المرء.. سأجلس مثل الباشا هناك.

سعالي ما يزال مزعجًا لكن صدري أقل ضيقًا وألما وأشعر قليلًا بالدوار، الطقس جميل هنا حتى الآن.. دافئ وليس رطبًا كالمعتاد.

اللورد إدوار سانت مور كان في الرحلة، فيه الكثير من لطف عمته. أيضًا الشاب الصغير تاجر بومباي.. المسلم الذي لم يتحدث بحرف واحد لأحد سواي، حديثه تمامًا مثل حديث إنجليزي شاب ذي تربية جيدة. أنا سعيدة لقول إن رؤيته لحالة الهند كانت مشجعة جدًّا. لقد بدا مقتنعًا بأن المواطنين عرفوا بالتدريج طريقهم إلى نفوذ أكثر وقال "علينا أن نشكركم بسبب الحكومة الجيدة أكثر من أي حكومة وطنية يمكن أن تكون"، وأضاف "نحن المسلمين لنا هذه الميزة على الهندوس، لأن عقيدتنا ليست مغلقة أبدًا، اجتماعيًّا أو سياسيًّا وبيني وبينك ليس هذا حال الهندوس، أعني أنه يحدث هذا حين تكون العقيدة خالية من الأساطير والخزعبلات". تكلم بقوة عن السير بارتل فرير

وقال "أتمنى لو كان سهلًا أن يأتي معظم الإنجليز إلى الهند"، لقد أمضى عامين في إنجلترا في أعمال تجارية وكان عائدًا إلى أخيه علاء الدين مسرورًا للغاية من الإنجليز في إنجلترا، هذه واحدة من أكثر الظواهر المريحة التي رأيتها قادمة من الهند، إذا كان هذا النوع من الإحساس الجيد شائعًا بجمالٍ ما بين الشباب الصغير بالتأكيد سيعرفون طريقهم إلى الأمام.

عليَّ أن أرى مقال بايلي رغم أنني متوقفة عن القراءة تمامًا، إنه أمر سخيف مني لكنني لا أستطيع أن أخرج منه.

إلى السيدة أوستِن

الإسكندرية - 2 نوفمبر 1865

أمي الحبيبة..

المركب مثل كل الأشياء الأخرى يتقدم لكن ببطء رغم أن الطقس هنا جاف لدرجة غير معتادة وجميل.

كنت في زيارة صديقتي البائسة ستي زبيدة، أرملة حسنين أفندي الذي مات في إنجلترا، وامتلأتُ إعجابًا بحسها الجميل وشجاعتها، لقد صممَتْ على أن تقوم بنفسها بعمل زوجها في تأجير القوارب، وأن تعلم أطفالها اعتياد الاستقلال بأفضل ما تستطيع من قوتها، أتمنى لها النجاح، وأن تلقى الاحترام من الإنجليز على سلوكها النادر كامرأة تركية.

شعرت بالرضا كثيرًا لأن أسمع منها كيف عوملت برقة في جلاسكو، قالت إنه لا شيء كان يمكن عمله لها لم يتم. لقد وصلتْ هذا الصباح وذهبتُ لأراها مباشرة وكنت بحق مندهشة من كل ما قالته عن خطتها لنفسها وأطفالها.. شيء بائس! إنها ضربة محزنة، لأنها هي وحسنين كانا متحدين تمامًا كما يمكن لأي أوروبيَّيْن.

ذهبتُ بعد ذلك إلى مركبي الذي أتمنى أن تتم صيانته في خمسة أو ستة أيام. إنني غير صابرة تمامًا على انتهائها. سيكون أحسن باخرة فاتنة، مريح وجميل معًا. ذراع الشراع الطويل جديدة ولقد تعجبت وسألت عمر "لماذا كسرت الذراع الجديدة ورتقتها بالجلد؟"، لكن عمر كان قد وضع اللصق المزيف لتجنب شر الحسد لمثل هذه القطعة الجديدة من الخشب!

هناك كوليرا جديدة.. سمعت بذلك، عشرة موتى أمس. هكذا أخبرني أولاجنييه. تخيلت أن اندفاع الأوروبيين هنا ثانية وكل منهم يُحضر "سبعة شياطين أخرى أسوأ منه" هو السبب.

أعتقد أني أبدأ في التحسن قليلًا، سعالي مزعج جدًّا خاصة

في الليل، لكن الطقس جميل جدًّا، بارد وليس رطبًا.

-70-

إلى السيدة أوستِن

القاهرة - 27 نوفمبر 1865

أمي الحبيبة..

وصلت إلى هنا الليلة الماضية ووجدت كومة كبيرة من الخطابات وسأرد على خطابك أولًا. ليس لدي رغبة في قلبي لأكتب أكثر من الإسكندرية، حيث لا شجاعة ولا قوة أمام القلق. أخيرًا بعد تأخر كبير وغيظ لا ينتهي انتهت الدهبية بطريقة أو بأخرى.. لا معنى للحديث عن تلكؤ المصريين! بعد أن قطعت شوطًا في ما بدأته وعليَّ الآن أن أنتظر هنا من أجل الإصلاحات الأخيرة، ونحن على وشك أن نبدأ طريقنا، وأخشى أن ألعن العمال المسيحيين غير المتقنين لعملهم بشكل مشين.

ورغم ذلك انتهى كل شيء، وأنا أفضل والسعال ذهب كله. كان عمر مريضًا جدًّا فلقد أصيب بالدوسنتاريا منذ شهرين لكنه أيضًا صار جيدًا من جديد، إنه ممتن جدًّا لذكركِ إياه، ويقول "أرسلي للأم العظيمة سلامي وقولي لها إن أهل ابنتها هم أهلي وحيث تذهب سأذهب، وبفضل الله سوف أخدمها غنية أو فقيرة حتى يفرقنا هو الذي يفرق ويأخذني منها"، إن كلمات راعوث جاءت بعد كل هذه القرون طازجة من شفاه المصريين الرقيقة.

سأشرح لكِ جملة "هو الذي يفرِّق".. إنه واحد من أفعال الله، الفصل بين الأديان يفرض التسامح والصداقة بنسبة العقيدتين إلى الله.

كان هنا حاجز على السفينة بيني وبين البحارة.. البعض مريض لكن الأكثرية جاؤوا للحديث.

المناخ تغير فجأة بينما أترك الدلتا، وهنا أجلس في الثامنة مساء بأبواب ونوافذ مفتوحة.

أنا سعيدة جدًّا لسماع النجاح العظيم لكتاب والدي العزيز وأفكر في شجاعتك في العمل فيه حتى الآن.

أعتقد أنني سأبقى هنا أسبوعًا آخر حيث لدي أعمال مختلفة أقوم بها لسفينتي، وسأحاول أن أنهيها بأسرع ما يمكن لأغادر هنا. سيدفع علي 80 جنيهًا شهريًّا للسفينة إذا حصل على جماعة من أربعة يتحرك بهم، دفعت لريسي خمسة نابليونات في الشهر أثناء السفر وثلاثة في حالة الراحة، إنه شاب جيد ونشيط، كدنا نصطدم تحت جسر لخطوط السكة الحديد بصندل حديدي، اعتقدتُ ذلك خسارة محزنة للوقت لكن الريس علي وريسي محمد أنهيا التصاق الباخرتين، طاقمي لم يستطع القول "أورانيا" ومن ثم غنَّوْا "إلى الأمام عروسَنَا العزيزة"، "عروس الغالي" كما وصفها طاقم الست و"عروس الغالي" سيكون اسم الدهبية المدللة كما أن"البشوشة" اسمي الشائع.

إلى السيدة أوستِن

القاهرة - 5 ديسمبر 1865

أمي الحبيبة..

الحمد لله.. أنا مرتاحة الآن. تتهيأ السفينة للعمل، قبطاني - الريس محمد- راضٍ جدًّا، واليوم سنبحر ما إن يأتي عمر باللحوم وغيرها من السوق.

قرأت عرض ميدو Meadow الصحفي، كنت أتمنى لو لم يكتب كثيرًا فيه عني.

محمد غزاوي رجاني أن أوصل أحسن سلاماته إلى الشيخ ستانلي الذي أشتاق إلى رؤيته مرة ثانية، يقول إن كل الناس قالوا إنه ليس مسيحيًّا لأنه لم يكن يتفاخر عليهم كما يفعل المسيحيون، لكنه كان شيخًا حقيقيًّا، وما يزال البدو يتحدثون عن الشيخ ستانلي وتقواه. وجدني مهرج الأقصر العجوز نصف العاقل، إنه يدور هنا ليرى ابنه الأكبر الذي خدم في الجيش، أحضر معه صبيًّا صغيرًا لكنه كان يخاف عليه هنا لا أدري لماذا، ورجاني أن آخذ الصبي وأعيده إلى أمه. هؤلاء المهرجون المرخص لهم مثل مجانيننا في الأزمنة القديمة.. لكن أقل جنونًا مما نتصور.. شكرًا لشكسبير. في كل منطقة هناك شخص يَحْضر الموالد كلها وتجمعات الناس الأخرى ويحصل على ما يجعله يعيش. لقد أخبرني بأن ناظر "الزينية" التركي بدأ في بعض الأعمال ضد قاضينا والشيخ إبراهيم والشيخ يوسف، متهمًا إياهم بشيء لا يعرفه! ربما بأنهم أصدقاء للحاج سلطان أو ربما بسرقة الخشب! وإذا تم اتهام كل أصدقاء الحاج سلطان بذلك فهذا يعني أنه سيتم اتهام كل الصعيد.

طبعًا أنا قلقة على أصدقائي، كل قرى حليم باشا أوغدي تتم مصادرتها -تلك التي أُوكِلَت إليه ليديرها- بحجة سوء استخدام الناس، ملحوظة.. وحده الذي يدفع لهم. هذا مثال سيئ. يرتب

الفرعون حقّا أعباء قاسية لا على الإسرائيليين لكن على الفلاحين.

تحدث عمر عن العشاء العظيم الليلة.. "أظن أن الأكل كله سيكون له طعم الدم.. دم الفقير وأكثره حرام أكثر من لحم الخنزير أو النبيذ أو دم الحيوانات"، بالطبع هذه العواطف ليست للتكرار لكنها شائعة. المُنَجِّدُون الذين نَجَّدُوا عشر مراتب وأربع عشرة وسادة لي في نصف يوم كانوا يضحكون ويقولون "نحن نعمل أيضًا لسفينة الباشا كثيرًا ونقوم بذلك في أربعة أيام"، قلت "وبالنسبة إليَّ إذا كنتُ دفعت يومية بدلًا من الدفع بالقطعة.. كم يومًا كنتم ستعملون؟".. قالوا "يومًا بدلًا من نصف يوم سيدتي، خوفًا أن تقولي لنا لقد انتهيتُم في نصف يوم ونصف الأجر يكفيكم"، تلك هي الطريقة التي يتم بها العمل عند أفندينا ولا دهشة أن سفنه لا تدفع.

رأيت روس أمس.. أخبرني بأن شَريفَ مكة أرسل إليه فرسًا.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

طيبة - من 25 ديسمبر 1865 إلى 3 يناير 1866

أَلِيك الحبيب..

"كل عام وأنتم بخير" لكم جميعًا.. كما نقول هنا، والآن إلى أخباري.. لقد غادرنا القاهرة في الخامس من ديسمبر، لم أكن في صحة جيدة، لم تكن هناك رياح كالعادة فاستغرقنا أسبوعًا حتى وصلنا إلى بني سويف حيث أتت إلى المركب السيدة اليونانية التي قامت برعايتي الصيف الماضي في مرضي، أتت ومعها امرأة مصرية مؤدبة للغاية، كنت مريضة في السرير ومن ثم توقفنا فقط ساعات قليلة، أخذنا طريقنا إلى المنيا لخمسة أو ستة أيام أخرى، وصلنا ومشينا فيها قليلًا ورأينا الاستعدادات لوصول الباشا، لا شيء أتفه من هذا العمل هنا. لا أحد يمكن أن يقترب من منطقة رسو السفينة غير خدمه وجنوده وموظفيه.. تذكرت صغار الأمراء الألمان والضجة الكبيرة التي تحدث في استقبالهم. تابعنا إلى أسيوط وكنت مريضة مرة ثانية فلم أتوقف بالسفينة لأنزل إلى البر ولم أرَ أحدًا. بعدها إلى جِرجَا، حيث توقفنا بما يكفي لتسليم نقود وهدايا أعطاني إياها بعض البحارة القدامى ورجوني أن أوصلها إلى أمهاتهم وزوجاتهم. بين أسيوط وجرجا جاء عبدٌ حبشي صغير وأرادني أن أسرقه، قال إن سيده قبطي ويعامله معاملة سيئة وإن سيدته تضربه. لكن عمر لاحظ البحارة الذين كانوا قلقين من أن آخذه لأن السيد السيئ لا يعطي عبدَه هذه الثياب الجيدة ولا هذين الزوجين من الأحذية. أي تبذير! هذا كثير ليحدث من سيده القبطي ولا شك أنه شخص كسول وربما هرب ومعه شيء مما يملكه سيده من مال. بعد ذلك بسرعة صرت أجلس في مكان مختار من مقدمة السفينة مع الريس الذي كان يدق بعصاه الملونة على أرض المركب -راجع

التماثيل والرسوم القديمة- بينما الرجال يجذبون الحبل، ارتفع فجأة شيء إلى السطح قريبًا منا.. صرخ الرجال "أوه.. بني آدم!". بينما الريس راح يطلب الرحمة للميت، كان الغريق امرأة.. الأساور الفضية تلمع في الذراعين المرفوعتين المتصلبتين من عذاب الموت، الركبتان مرتفعتان والثديان المصريان الجميلان مرتفعان يطفوان فوق المياه. لن أنسى أبدًا هذا المنظر المرعب. "الله يرحمها".. دعا رجالي وأضاف الريس لي "فَلْنَدْعُ أيضًا لأبيها المسكين، كما ترين.. لم يفعل هذا لصوصٌ -باعتبار وجود الأساور-، نحن في الصعيد ولا بُدَّ أنها سوَّدت وجه أبيها وكان مضطَرًّا إلى أن يغرقها.. مسكين، قلت "وا أسفاه!".. وتابع الريس "أجل. إنه أمر ثقيل لكن الرجل لا بد أن يبيض وجهه، مسكين.. مسكين.. فليسامِحْهُ الله". هكذا الشرف في الصعيد، ولقد ظهر بعد ذلك أنها غرقت وهي تستحم.

بعد جِرجَا توقفنا قليلًا في دِشْنَا، قرية كبيرة.. جُلتُ فيها وحدي ويداي في جيبي، ثم بسرعة دُعيت إلى شرب القهوة والتدخين في "مَضْيَفَةٍ" للغرباء.. غرفةٍ مفتوحةٍ من ناحية واحدة يتوسطها عمود يحمل قوسين مثل أعمدة الدير، ومثل هذه "المضيفة" موجود في جميع القرى بالقرب من المساجد، عباءتان أو ثلاثٌ خُلعت من أجلي وافتُرِشت على الأرض لأجلس عليها وأحضروا لي اللبن الذي طلبته بدلًا من قهوة القرية. في دقيقة جاء "دستة" من الرجال وجلسوا حولي وسألوني كالعادة "من أين أتيتِ وإلى أين تذهبين؟".. ودار قفازي وساعتي وخواتمي بينهم يتطلعون إليها وفاز القفاز بأكثر "ما شاء الله". قلتُ "جئتُ من بلد إفرنجي وذاهبة إلى بيتي قرب ضريح أبو الحجاج"، في الوقت نفسه كان كل واحد يلمس يدي ويقول "الشكر لله أننا رأيناكِ.. لا تذهبي.. ابقَيْ هنا.. خذي مائة فدان من الأرض وابْقَيْ هنا"، ضحكتُ وسألتهم "هل عليَّ أن أرتدي "الزعبوط" واللبدة وأعمل في الحقل؟ إذ كما ترون لا رجل معي"، ضحكوا كثيرًا ثم بدؤوا يحكون قصصًا عديدة عن النساء اللاتي يزرعن أملاكًا كبيرة بنجاح.

هذه المساهمة من النساء تبدو شائعة هنا كما هي في أوروبا وأكثر شيوعًا عما هي في إنجلترا.

غادرتُ أصدقائي الجدد الذين قدموا لي أول ترحاب في الصعيد بعد عودتي، وصعدنا إلى قنا التي وصلنا إليها مبكرين في الصباح، ووجدت سائِسِي الحمير مِن معارفي مستعدين بسرجي على الحمار، والد واحدٍ منهم والأَخَوان لواحد آخر كانوا قد اقتِيدوا للعمل قسرًا في السكة الحديد لستين يومًا، عملٌ بالسخرة، وأخذوا معهم خبزهم وتركوا الصغار البؤساء وحدهم ليعتنوا بالحريم. ما كدنا نصل إلى المدينة حتى جاء خلفي اثنان من الجنود الصغار الطِوال في زي "النظام" الرسمي وألقيا عليَّ التحية بالإنجليزية، كانا من شباب الأقصر يقضيان خدمتهما، بالطبع لازَمَانَا بقية اليوم، اشترينا أواني للمياه، الشيء المميز في قنا.. "الجُلَّة" والزير.

ذهبت إلى بيت القاضي لأعطيه مسبحة حتى أُظهِرَ أنني لم أنسَ مجاملته المحترمة حين أحضرَ ابنته الصغيرة لتؤنسني وقت الطعام حين كنتُ هنا الصيفَ الماضي. رأيت القاضي لديه كثير من الناس ومِن ثم أرسلت المسبحة وسلامي إليه، لكن القاضي الجميل جرى بسرعة في الشارع واحتضنني بحماس حتى طارت قبعتي الإفرنجية وهي تلمس عِمامة الإسلام.

قاضي قنا هو القاضي الأصلي الذي قابلناه هنا في أيامنا الأولى، عَذْبٌ خجولٌ مؤدبٌ، قاضٍ أول درجة ومساعد أسقف في نفس الوقت، يجمع بين لطف القانون والكنيسة وله قلب قوي وعمامته قوية مستقرة فوق رأسه، أخذوني إلى الحرملك فقوبلت بالترحاب والولائم ودعيت إلى الاحتفال بـ"سيدي عبد الرحيم القناوي" الولي الأكبر لقنا. ترددت وقلت إن هناك زحامًا شديدًا والبعض قد يسوؤُهُ حضوري، لكن القاضي أعلن "بِحَقِّ مَنْ فَرَّقَنَا".. فإذا كان هناك جهلة حاضرون فهذا هو الوقت ليتعلموا الأحسن، وقال إنه لا توجد أي طريقة قانونية لإبعاد المسيحيين، بل ليس مكروهًا أو محتَقَرًا من المسلمين أن يحضروا معهم

احتفالاتهم الدينية أو يشتركوا فيها، ومن ثم سأجلس أمام ضريح الشيخ معه ومع المفتي وسيقدمون الشكر لله لوصولي سالمة.
إن مثل هذا النوع من التسامح الواضح لا يُقاوَم. وهكذا بعد أن عدت إلى الاستراحة وتناولت غدائي في السفينة عدت إلى المدينة مع قدوم الليل وذهبت إلى مقام الوليّ، الطريق كله كان مضاءً ومكتظًّا بالحشود المختلفة ألوانها والخليط المعتاد من القداسة والدنس الذي عرفناه في الأعياد الكاثوليكية أيضًا، لكنه أكثر وضوحًا هنا؛ البنات الراقصات يلمعن بالملابس المطرزة بالذهب والصَدَف يتبخترنَ بين الفلاحين في جلابيبهم السمراء والآلاتية يعزفون ويختلط الغناء الخليع مع مدح النبي العربي يغنيه المنشدون والألحان العميقة.. "الله.. الله" من أهل الذكر. الصواريخ النارية سرت في الفضاء فانطلقت صيحات الذعر من النساء ثم شاع المرح في كل مكان، كنت متعلقة بجبة قاضي الإسلام - الذي لم يكن يرتدي سترة فوقه كما يفعل الكاهن الميثودي Methodist[75] وهو يهدد المتجمعين حوله بما يمكن أن يفعله يوم القيامة، واندفعنا إلى ضريح السيد عبد الرحيم القناوي وسط هذه الحشود. لم يبدُ أحدٌ مستاءً أو مندهشًا لوجودي، افترضت أن وجهي معروف جدًّا في قنا، حين ردد من معي "الفاتحة" لي ولعائلتي انسحبنا إلى قبة أخرى لا يوجد بها ضريح، حيث وجدنا المفتي وجلسنا هناك كل المساء نشرب القهوة وندخن ونتكلم، سُئلت عن إدارة العدالة في إنجلترا وأن أصف المحاكمة عن طريق هيئة المحلفين.
كان المفتي شخصًا جليلًا ومهذبًا جدًّا ورقيقًا تمامًا ومتحضرًا، وألحَّ عليَّ القاضي أن أبقى اليوم التالي وأتغدى معه ومع المفتي لكنني قلت "لدي فانوس في الأقصر أريد تقديمه ومن ثم أريد أن أصل قبل أن ينتهي المولد، ولم يتبقَّ لي غير ثلاثة أيام"، فصحبني القاضي عائدةً إلى المركب، ونظر في خرائط معي أعجبته كثيرًا وتتبع خط السكة الحديد الذي سمع به وشرب الشاي.

في اليوم التالي بدأت أول الرياح الطيبة فدفعتنا إلى الأقصر في يوم واحد ووصلنا بعد مغيب الشمس بقليل. على الفور امتلأت السفينة بالزوار، وفي الحال نظَّم عمر والريس كيف يأخذاني والفانوس إلى ضريح أبو الحجاج، كانت الليلة الأخيرة لكنها إحدى ليالي المولد، صار الفانوس معلقًا على عصا بين رَجُلين من بحارتي وانضمَّ للبقية رجال من مركب بخاري كان هناك يؤجره أمير بروسيٌّ، غنوا ودقوا الدَّرَبُكَّة ومشينا كلنا إلى الضريح بعد أن تمت تحيتي بكل الأشكال.. من أول عناق الشيخ يوسف إلى تقبيل الأولاد الصغار ليدي. كان أول ما سمعته هوصوت الشريف العجوز من قلبه وهو يشكر الله لأن "حبيبتنا" عادت سالمة، ثم جلسنا جميعًا نتحدث، ثم قُرِئَت الفاتحة كثيرًا من أجلي ولكَ ولأطفالنا، ثم عدت لأنام في مركبي، وجدت محمد -حارس البيت الفرنسي- قد أُخذ إلى قنا للأشغال العامة، بعد أن تم تكبيله ثمانية أيام بالسلاسل والقيود لرفضه وطلبه حقوقه كحماية فرنسية. انتظرنا عودته لأنه أخذ المفاتيح معه آملًا أن تهتم السلطات في قنا بأن أكون في المنزل ولست خارجه. كتبتُ إلى وكيل القنصل الفرنسي في قنا وإلى القنصل في الإسكندرية وأعدتُ محمد الحارس في اليوم الثالث، ماذا يمكن أن تقولوا في أوروبا وأنتم ترونني أرحب بحماس بخادم خارج للتو من القيود والأغلال؟ في نفس الوقت الذي كنا نتحدث فيه أنا ومحمد مرَّ مركب بالنهر تصدر من سطحه الموسيقا والأغاني، لقد كان شيخ بلد من قريةٍ أعلى إسنا قد أُطلق سراحه وكان مسجونًا لثلاث سنوات في القاهرة وأقام أصدقاؤه كل هذا الاحتفال به وبانتهاء سوء حظه ونكبته، لم يكن هناك عار عيله، ولماذا يجب أن يكون؟ هكذا يذهب كثير من الأمناء الأبرياء إلى السجون بلا أي قرائن تدعو إلى ذلك.

كان اليومُ التالي لوصولي هو الأعظم والأخير في المولد لكن قلَّ الزحام ولم يعد حيًّا، فالأيام صعبة. لكن ركوب الخيل كان جميلًا وقام شابان من الحجاز بعروض جميلة على ظهر الخيل.

تغديت مع المعاون، أعدَّتْ زوجته لي أحسن غداء أكلته في هذا البلد، أو تقريبًا في أي مكان.

الصديقة ماري التي كانت مدعوة أبهجت قلب السيدة العجوز بتقديرها لطريقتها البلجيكية في الطهو، فقالت "كُلي.. ابنتي، كلي"، وهكذا أكلتُ لأُظهر الرضا، مثل هذه البقلاوة لم آكل قطُّ! انتقلنا إلى المنزل أمس وعاد الناس إليَّ.

الشيخ علي الرجل المقبول جدًّا من الخرطوم، عرض عليَّ أن يأخذني إلى الخرطوم وأعود على ظهر التختروان في صحبة مصطفى أغا والشيخ يوسف وفريق من قبيلته العبابدة. إنه إغراء رهيب.. لكنه سيتكلف 50 جنيهًا ومن ثم رفضت. الشيخ علي ماهر جدًّا ومهذب سأستمتع معه كثيرًا، والمناخ في هذا الفصل جميل. لقد كان في بلاد الدِّنكا[76] حيث الرجال لهم أذرع أطول من ذراعَيْ الشيخ حسن الذي عرفتَهُ أنت والذي كان يعتني بك برقة.

الآن دعني أصف لك الأحوال.. من مديرية قنا فقط أُخِذَ خمسة وعشرون ألف رجل للعمل سُخرةً بلا طعام أو أجر لستين يومًا، ولا بد لكل رجل أن يأخذ سلته معه مملوءة بالطعام. واحد من ثلاثة يأخذ فأسه معه وليس سلته، إذا أردتَ أن تدفع تعويضًا -بَدلًا- لابنك الذي تحبه أو المريض فسيكلفك ما بين ألف قرش وستمائة على الأقل، ومن ثلاثمائة إلى أربعمائة مقابلَ طعامه. من الأقصر فقط أُخذَ مائتان وعشرون رجلًا ثلثهم سيموت من التعرض إلى البرد والبؤس.. الطقس بارد بشكل غير عادي، ذلك لتقول إن هذه القرية الصغيرة التي بها على الأقل ألفا رجل وامرأة -عادة من اللياقة لا يتم إحصاء النساء- ستدفع في العمل سخرةً ألفًا وثلاثمائة وعشرين جنيهًا في ستين يومًا. أيضًا أُخِذَ إحدى عشر جملاً للذهاب إلى السودان، والجمل قيمته من 18 إلى 40 جنيهًا.

العامَ الماضي قام مارييت بيك بالتنقيب في الجُرنة مُرغِمًا الناس على العمل واعدًا أن يدفع لهم بمعدلٍ حسنٍ، حين رحل أتى المشايخ الأربعة لقرية الجرنة إلى مصطفى ورجوه أن يدفع نقود

الناس من مال الحكومة لأن الناس تعاني الجوع، وافق مصطفى ودفع فوق الثلاثمائة كيسٍ -نحو ألف جنيه من القروش- باعتبار أنه سيحصل على المال من الحكومة بالتعريفة المعروفة، وكي يحتفظ بالفرق كربحٍ له. إذا لم يستطع أن يسترد الفارق نهائيًّا فالفلاحون عليهم أن يعيدوا إليه النقود دون فائدة عليهم، بالطبع قياسًا على قيمة النقود هنا فربحه سيكون قليلًا إذا لم يستطع أن يحصل على المال بشكل مباشر من الحكومة، ولقد انتظر حتى الآن ستة أشهر عبثًا.

منذ أسبوعين جاء عبد الله بن الحبيشي من دمنهور عبر النهر مكبلًا بالأغلال إلى فازوجلو، وقال عثمان بيك منذ أسبوعين إن البدراوي مات هناك.. طبعًا.

هل أخبرك بمصائر مئات المسجونين بعد اضطرابات قرية جاو؟ بينما كانوا يعبرون الصحراء كان المملوك اليوناني ينظر في قائمته كل صباح ويقول "حسني، أحمد، فلان.. أنتم أحرار، فكوا عنهم الأغلال"، ثم يأتي بعض الأرناؤوط ويخفون الثلاثة أو الأربعة الذين فكوا عنهم الأغلال عن الحياة، هذا هو النفي إلى فازوجلو. هل تذكر مذبحة سبتمبر في باريس والحديث عن حقوق المواطن أثناء الثورة الفرنسية[77] مصادفة مدهشة.. أليس كذلك؟ الكل ساخط، هذا كلام الحريم الخاص بالحكومة. السخط يملأ الهواء.

لم أمضِ أكثر من خمس دقائق في قِنا وعرفت كل ذلك وأكثر منه، عن نهاية الحاج سلطان لن أتحدث حتى أمتلك الحقيقة مؤكدة، لكن أعتقد أن ما مضى كان كما شرحتُه.. أُطلق سراحُهُ في الصحراء وقُتِلَ بالمصادفة! أريدك أن تنشر هذه الحقائق؛ إنها ليست غائبة عن أي شخص لكنها غائبة عن أولئك الأوروبيين الذين تجعلهم الفوائد يغلقون أعينهم تمامًا عنها، لكنهم قريبًا سيفتحونها. إن الجشع الأعمى للحاكم الحالي سوف يجعله يندهش من الإفرنج يومًا ما.. أعتقد هذا.

القمح الآن بأربعمائة قرش للإردب هنا، الرغيف الصغير -ليس كبيرًا مثل رغيفنا المستدير الذي يباع ببنس- يباع بقرش صاغ أي

بنحو ثلاثة ونصف بنس، والغلاء في كل شيء، لا أريد أن أحكي كيف هو البؤس هنا.. تذكر أن هذا هو التجنيد الثاني لمائتي وعشرين رجلًا خلال ستة أشهر للعمل سُخرةً، وكلٌّ منهم لستين يومًا كما هي المصادرة الثانية للإبل، وإلى جانب التجنيد الذي يخدم الأغراض نفسها باعتبار أن الجنود يعملون في مشروعات الباشا، لكن في القاهرة يدفعون لهم ويدفعون جيدًا.

مثير أمر أخبار السفر هنا، أهل الأقصر عرفوا اليومَ الذي غادرتُ فيه الإسكندرية، واليومَ الذي غادرت فيه القاهرة قبل أن أصل بوقت طويل. يقولون هنا إن أبو الحجاج أعطاني بَرَكَتَهُ في قنا لأنه لم يشأ أن ينهي مولده دوني، وإنه من المفترض أنني في حمايته والدليل على ذلك هو صحتي التي صارت جيدة جدًّا هنا عن أي مكان آخر.

بالمرة حدثني الشيخ علي عبابدة أن كل القرى الملاصقة للنيل قد تخلصت من الكوليرا تقريبًا، بينما القرى التي على بعد ميل أو ميلٍ إلا ربع قد خربت. في قنا يموت 250 كلَّ يوم، في الأقصر طفلٌ واحد يقال إنه مات بها لكنني أعرف أنه كان مصابًا بالمرض في كبده منذ عام أو أكثر. في الصحراء عانى البشارية والعبابدة أكثر من أهل القاهرة رغم أن الصحراء كما تعرف هي عادة المكان الصحي، لكن يبدو أن مياه النيل المتجددة هي الترياق الوحيد من المرض. يردُّ الشيخ يوسف معدل الوفيات الكبير في قنا إلى مياه القنال التي يشرب منها العمال المساكين هناك، أعتقد أن الحقيقة هي كما أخبرني الشيخ علي.

الآن سأقول وداعًا لأني متعبة وسأكتب بعد الراحة مباشرة، دع أمي ترى هذا.. كنت بائسة جدًّا حتى تجاوزت أسيوط جنوبًا، وبعد ذلك بالتدريج أصبحت أحسن، بصاق من الدم استمر وضعفٌ شديدٌ وصرت نحيلة جدًّا لكن برعاية وحماية أبو الحجاج أفترض أنني أحسن كثيرًا، وبدأت أتناول الطعام من جديد. لم أخرج حتى الآن منذ اليوم الأول، لدي الكثير لأفعله في المنزل ليكون أفضل، شعرت باكتئاب شديد يوم الكريسماس وأنا بعيدة عنكم كلكم

وحلوى البرقوق التي أعدَّها عمر لم تبهجني أو ترفع روحي المعنوية بالمرة كما تمنى هو أن يحدث، إنه يرجوني أن أقبِّلَ يدكَ من أجله، وككل واحد يرسل إليك السلام، والكل حزين لأنكَ لست القنصل الجديد في القاهرة. قبِّل كتاكيتي.. حبي لكم جميعًا. أتمنى أن أرى جانيت في مصر.

إلى موريس دوف چوردون

الأقصر - 3 يناير 1866

حبيبي موريس..

أبهجني خطابك الذي وصلني في رأس السنة الميلادية وسط الهرج والمرج للاحتفال الكبير بمولد وليّ الأقصر، أتمنى لو أنك استطعت أن ترى شابَّين عربيين -عرب حقيقيون من الحجاز في شبه الجزيرة العربية- وهما يركبان الخيل ويلعبان بالحِرَاب والرماح، لم أرَ من قبل مثل هذا.. الرجل الذي يلعب دور المتحدي يقف في المنتصف وهم يندفعون حوله ويقتربون بحرابهم حتى تصبح الدائرة ضيقة على الأرض، حتى إن ملابسه تطير حوله من الهواء الذي تطيره سيقان الخيول، ثم يلقون بالجريد عاليًا ويلتقطونه وهم يقتربون، الشيء الجميل كان التمكن من الخيول، "كانت مثل الميه في أيديهم" كما يذكر الشيخ حسن، بدا أنني لم أرَ فروسية من قبل.

أنا الآن في القصر في الأقصر ومعي دهبيتي "عروس الغالية".. "عروس العزيزة" تحت نوافذي تمامًا مثل الباشا.

حين وصلنا تم تحذيرنا من اللصوص، تحت جبل يسمى جبل فودا تورطنا في مياه ضحلة تعود إلى التغير في مستوى النهر وأُجبِرنا على أن ننتظر طَوال الليل، وفي الثالثة صباحًا أرسل الريس صبيًّا ليقول لي إنه يرى رجلًا يزحف على أربع، فهل يطلق عليه الرصاص؟ ولأن مسدسي كان قد سُرق في بيت جانيت اضطررت إلى أن أرجوه أن يستقبل أي فريق من اللصوص المسلحين بهدوء وأن يتركهم يأخذون ما يحبون، رغم ذلك تحرك عمر بعيدًا بسرعة بـ"طبنجة" أبيك القديمة الخاصة بسلاح الفرسان.. الخالية من الرصاص، وسواء خاف اللصوص أم كان الرجل مجرد ذئب.. لم نسمع بالأمر مرة أخرى. لقد خاف طاقم سفينتي جدًّا وظلوا ساهرين حتى طلوع النهار.

الليلة الأخيرة قبل الوصول إلى قنا التي تبعد أربعين ميلًا شمال الأقصر قام رجالي بحفلة كبيرة على الشاطئ، لم تكن هناك رياح ووجدنا كثيرًا من عيدان الذرة القديمة ومن ثم أُوقِدَت النيران ولم ينتهِ الطبل ولا الغناء ولا الرقص، حتى عمر تخلى عن كبريائه بعيدًا ورقص رقصة الشباب السكندري وكان مفرحًا جدًّا. ضحكتُ باستغراق خاصة من الجو البسيط والأشياء الجميلة التي يقوم بها الرجال، واحدٌ قام بدور العروس في تمثيل الاحتفال بالزواج في النوبة، الأغنية الجديدة هذا العام جميلة جدًّا.. إعلان بالحب لمحمد الصغير وتُغنَّى بلحن رائع جدًّا. كان هناك أخرى صنعت موسيقاها جوًّا مثل جو "من بروفانس إلى البحر" Di Provenza al mar في أوبرا "لاترافياتا" لجيوسيبي فيردي مع كلمات جميلة جدًّا. كما هو في إنجلترا.. لكل عام أغنيته التي يغنيها كل الأطفال في الشوارع.

أتمنى يا عزيزي أن تهزم هذا العام وأن تعوض الوقت المفقود، علمت أنك لم تفقد الوقت في النمو لتكون أطول رغم أي شيء، عمر يرسل إليك كل أنواع الرسائل الحلوة.

إلى السير أليكساندر دوف چوردون

الاثنين - 15 يناير 1866

أَلِيك الحبيب..

علمت أن مستر ومِس نورث سيكونان هنا خلال يوم أو اثنين، أتمنى أن تكون أرسلت سرجي معهما لأنني في حاجة ماسة إليه؛ إن ما عندي فقط للحمار لكنه أقل من أن يصلح لفرس.

أتى إلى هنا شيخان كبيران من البشارية والعبابدة، لقد التقياني وأنا أتمشى وحدي في الخارج، ذهبنا وجلسنا في أحد الحقول ورَجَوَانِي أن أتصل بملكة بريطانيا أخبرها برغبتهما في الالتحاق بجيشها إذا أرادت غزو مصر. أحدهما أراح يدي في يده وقال "لديكِ ثلاثة آلاف رجل في يدك"، الآخر قال إنه يسيطر على عشرة آلاف. قالا إنهم ثلاثون ألفًا من العرب البدو مستعدون للالتحاق بالإنجليز لأنهم يخشون نائب السلطان أن يُسَخِّرَهُم في العمل أو يسرقهم كما يفعل مع الفلاحين، وإذا فعل ذلك سيقاتلون للنهاية أو يهربون إلى سوريا. كنت أكثر من خائفة عليهما وقلت لهما إن ملكتنا لا تستطيع فعل شيءٍ حتى يجتمع أربعمائة أو ستمائة شيخ وأمير من مجلس الشيوخ ومجلس اللوردات ويعلنون ذلك، ويتم طبع حديثهم ونتائج مناقشاتهم في إسطنبول والقاهرة ومن ثم لا يجب أن يفكروا في شيء من هذا من ملكتنا، لكن إذا ساءت الأمور فالأفضل لهم أن يرحلوا إلى سوريا. طلبت إليهما اتخاذ الحذر الكبير ولا أريد أن أعيد عليك ذلك فحياة الآلاف قد تكون في خطر. قد يكون طريفًا أن يشتهر هذا في المستويات العالية من السلطة لكن في سرية تامة كواحد من المؤشرات على ما سيحدث هنا.

إذا جاء السّرج كما أتمنى سأذهب جنوبًا إلى أسوان وأترك السفينة والخدم وأذهب إلى الصحراء لعدة أيام لأرى أماكن البشارية، لن يأخذوا أحدًا غيري. ولا تقلق سأكون تحت "وجه

شيخ العرب"، الشيخ حسن الأنيق الذي رآيتَهُ أنت في القاهرة سيذهب معي. لكن إذا لم يأتِ سرجي أخشى أن أتعب جدًّا من ركوب الجمل.

المقاطعة الصغيرة لقُوص شاملةً الأقصر تعاني نقصَ الجِمال، ما يحتاجون إليه من جِمال وحمالين وطعام يساوي ستة آلاف محفظة نقود.. في الحقيقة 18 ألف جنيهٍ الأسبوع الماضي، لقد أحصيت العدد وطابقته مع ماحصلت عليه من موظف سابق، لم يعد هناك همس بعدم الرضا.. كل شخص يصيح عاليًا، وسوف يستمرون.

إلى السيدة أوستِن

الثلاثاء 7 رمضان - 11 فبراير 1866

أمي الحبيبة..

الآن فقط استقبلتُ خطابكِ بمناسبة الكريسماس وأنا سعيدة أن أردَّ عليه بتقرير أفضل عن حالتي، عاد إليَّ الهزال الشديد منذ أسبوع، لكن بالنسبة إلى الأيام الخمسة أو الستة الأخيرة توقف الإسهال والحمى أيضًا. أرسلتُ في طلب الطبيبِ المصري في المركب البخاري "العزيزية" ليرى عمر ويراني أيضًا، وكان مهتمًّا جدًّا وحدد لي أسماء أدوية سيرسلها لي من القاهرة عن طريق زميل له. وحين عرضت أن أدفع له نقودًا قال "ربنا ينهى عن ذلك، إنه من واجبنا أن نفعل أي شيء في العالم لكِ"، مثله فعل الطبيب الرائع الدكتور إنجرام حين رأى بعضًا من حالاتي السيئة وأعطاني نصائح ومساعدات جيدة، لكنني أحتاج إلى كتبٍ أحسن.. كُتُب كِسْتِيفِن Kesteven مفيدة جدًّا لكنني أريد شيئاً أكثر تفصيلًا وأكثر علمية.

رمضان مأزق كبير لي رغم أن الشيخ حسن قال للناس ألَّا يصوموا إذا منعتُهُم أنا، لكن الكثيرين مرضى منذ بدؤوا الصيام، رجل جميل عجوز في قرابة الخامسة والخمسين مات بالسكتة الدماغية في الليلة الرابعة. مريضي المسيحي عنيد ويصوم رَغمًا عني وأعتقد أنه سينهي مصيره، لكنه صار أحسن كثيرًا بعد استخدام خليط دكتور إنجرام. أتمنى لو ترين الشاب الذي في الثامنة عشرة أو نحوها الذي جاء اليوم من أجل الدواء، لا أظن أني رأيت إفرنجيًّا أجمل منه.. أخلاق جذابة، كما لم أسمع أحدًا يعبر عن نفسه أحسن منه، إنه صاحب طبيعة مميزة جدًّا، ليس أقلها الأناقة لكنه الأكثر فتنة في طلَّتِه وهو يتكلم.

أمضى صديقي الجميل المعاون المساء معي، وأخبرني بقصة زواجه كلها، رغم أنه "غير مناسب تمامًا أن يقابل العيون القوية

ذات الخاصية البريطانية"، وكما قرأت يومًا في إحدى الصحف تتحدث عن موضوع نسيته فإن هذا سيعطيكِ فكرة عن مشاعر المسلم الأمين التي يعيش بها سليمًا دائمًا. لقد عرف زوجته قبل أن يتزوجها، كانت في الخامسة أو السادسة والعشرين وهو غلام، وقعت في غرامه وفي السابعة عشرة من عمره تزوج بها وصار لهما الآن عشرة أولاد كلهم أحياء عدا اثنين وكلهم يعيشون في روعة. أخبَرَني بكيف توددت إليه بزجاجات من الشربات وصَوانٍ من اللحم الشهي، وكيف اقترحت أمها الزواج وكيف ترددت هي باعتبار فارق السن بينهما، ولكن بالطبع في النهاية وافقت. حكى لي كل ذلك بغروره الفطري بجاذبية شبابه والتمجيد الكبير لمفاتنها الشخصية وفضائلها العديدة، حين أرسل إليها لتأتي إلى هنا معه لم تكن تريد ترك أطفالها أو لم تستطع، وحين وصلت "الست" فإن جاريته المغرورة رفضت أن تقبل يدها وتحدثت بسخافة عن عمرها، ما جعل سليم يزوجها بعبدٍ أسودَ ويدفع لها ثمن إرضاعها الطفل الذي جاء لسَليم منها، فالطفل في وقت مناسب سيعود إلى منزله. باختصار إن الفكرة الرئيسية في ذلك كله في عقل الرجل المستقيم هي أنه إذا استمرالرجل مع امرأة طويلًا فعليه أن يعتبر نفسه مسؤولًا عنها أمام العالم، وأكثر من ذلك عن مصير أي طفل قد يكون له منها.. أنتِ ترين نبي العرب لم يفكر في نساء ينجحن في السباحة في مياه الحياة الصعبة كما نفعل نحن، ولا أعني أن أقول إن كثيرًا من الرجال هنا مدققون جدًّا مثل صديقي الرائع سليم أو حتى في مجتمعنا الأخلاقي، كل هذا تم قوله بتعبيرات من عدم التوافق الكامل مع سلوكياتنا، ولقد أسهب سليم في الحديث عن فتنة زوجته بكل الطرق الطريفة، السيدة الخيِّرة الآن فوق الستين لكنه مغرم بها إلى الأبد. وبطريقته البدائية حدثني عن ورعها وكرمها الذي لا نهاية له، إذ كيف جاء بعض الأصدقاء متأخرين ذات مساء وعلى غير توقع وكان لديهم فقط قليل من اللحم وكيف ذبحت خروفًا وطهته من أجلهم بيديها! وهكذا هي سيدة قاهرية وسيدة أيضًا

في المظهر والسلوك. في اليوم الذي تعشيت فيه معهم كانت ترتدي ملابس قطنية قديمة حقًّا لكن نظيفة تمامًا وجلست معي بسرور وطِيبة الأم، ما أخذ بإحساسي بعيدًا بالحرج الذي شعرت به وأنا أجلس فيما هي واقفة. خلال أيام قلائل كان عليها وزوجها أن يتعشيا معي،شيء لم يفعله زوجان مصريان من قبل -أعني العشاء معًا في الخارج- وكانت السيدة العجوز مسرورة جدًّا بالفكرة. عمر سيطهو وكل الزوار الذكور سيأكلون في المطبخ.

الآن أفهم كل مايقال لي، وبدرجة كبيرة الحديثَ الجماعيَّ فهو ممتع جدًّا، ضحك سليم أفندي معي كثيرًا من حماقاتي، وبصفة خاصة حاجتي لنوع من "البولوتيكا"، الكلمة اليونانية لما يجب أن نسميه بـ"الهراء"، وقَوْلي "لازم" -التي تعني "يجب عليك" أو "يجب"- بدلًا من توسل الطلبات، قلت له أن يعلمني أفضل لكنه ضحك من قلبه وقال "لا لا.. حين تقولين "لازم" لشخص فهي "لازم"، ولا أحد سيستخدم العصا لإجباره أن يقول حاضر يا شيخ العرب.. حاضر يا أميرة".

كانت دهشتي متوهجة في يوم آخرَ حين أملى عليَّ الشيخ يوسف "خطابات مقدمة لوكيل شركة روس" مع ثلاثة أو أربعة رجال آخرين هنا. بينما أمشي رأيت مِس نورث التي لم أرها منذ كانت طفلة كانت هي وأبوها ذاهبَيْن إلى الشلال الثاني، لقد رسمَتْ بعض الصور التي رغم عدم مهارتها كانت ذات ألوان جذابة وتأثير حقيقي، وكانت أول ما رأيت على هذا المستوى الجيد. سوف أرى شيئًا منها عند عودتهما، لقد بدت مسرورةً جدًّا، لكن مستر نورث بَدَا مرعوبًا في مجتمع العمائم الذي وجد نفسه فيه، لقد بدا مجتمعًا غريب الأطوار للعيون الإنجليزية.

لثلاثة أيام كانت الرياح الجنوبية التي قالت عنها صحيفة ستراداي ريفيو إنه ماكان عليّ أن أسميها ريح السَموم، كنت بائسة وبقيتُ في السرير يومين أعاني البرد. من المناسب أن أعطيكِ نبذة عن حالةَ الأقصر تجاه الفوضى التي تثيرها رياح السَموم أو "السِموم" المزعجة. قلت للشيخ يوسف إن جريدة

إنجليزية يكتبها كُتَّاب ماهرون وإني كنت على خطأ أن أسمِّي الرياح السيئة هنا "سَموم"، كان ذلك مقالًا في كِتَابِ بَالجْرِيف فيما أعتقد[78].

قال الشيخ يوسف "صحيح سيدتي، لا شك في هؤلاء الكتاب المهذبين المتعلمين"، وبأدب حياهم بيده.. "أعتقد أن شخصًا مثلكِ يمكن أن يكتب العربية الكلاسيكية -العربية الفصحى- وتسمينها "الدبور"[79]، على أي حال صحيح أن تكتبيها "سَموم" وليس كما ينطقها البعض "سِموم" التي هي جمع لـ"سم". ضربتُ يدي وقلت "لا أتذكر الدبور"، ثم قدم الريس الجالس عند الباب اقتراحه.. "من المحتمل أن الإنجليز المعروفين جيدًا كأمَّةٍ من البحارة يستخدمون الاسم الذي أُعطي للرياح الأرضية بواسطة البحرية وسموها "المِريسة"، قلت "الرجال المهذبون المهرة يقولون إني مخطئة تمامًا وإني لم أشاهد السَموم الحقيقية لأن ذلك سيقتلني فى عشر دقائق"، خلال ذلك انفجر الشيخ محمد من العبابدة -الذي لم يكن مهذبًا كأخيه حسن- في زئير بدوي معتاد من الضحك وقال "ياه، هل يعاملك الجناتل -يقصد الأوروبيين- كفأر يا سيدتي؟ من سمع من قبلُ عن بني آدم قتلته الرياح؟ الرجال يموتون من العطش بسرعة حين تهب السُموم وليس لديهم مياه، لكن لم يمت أحد بالريح وحدها قطُّ إلا الفئران"، إنني أعطيكِ فكرة عن ثلاثة رجال يمثلون المتعلم والبحار والبدوي. هل هذا يساعدك على حل المعضلة.

لدينا مشهد حقيقي من التصورات عن القَدَرِيَّة، بالنسبة إلى نقل كميات كبيرة من القطعان من السودان، يوجد توقع بشيوع الجدري وحلَّاقو القرية مشغولون بالتطعيم في كل مكان لمنع العدوى التي ستأتي إما من القطعان وإما ممن يقودونها، الآن خادمتي لم يتم تطعيمها من قبلُ ولقد أرسلتُ إلى الحاج محمود ليقص شعري ويقوم بتطعيمها، لدهشتي الكبرى.. الفتاة التي لم تُظهر أي تعصب ديني ولا تصوم أو تقدم أي مظاهر دينية

رفضت بشكل قاطع! يبدو أن القساوسة والأخوات الذين تم اختيارهم من الإدارة المستنيرة لبروسيا غرسوا في تلاميذهم والمرضى أن التطعيم "إغواء من الله"، قالت "أجل، أعرف جيدًا أنه إذا أراد الله فسوف أصاب بالجدري وإذا لم يكن يريد ذلك فلن أصاب". وبَّخْتُها بحدة ظاهرة وقلت إنه ليس غباءً فقط لكن أنانية، "لكن ماذا يمكن أن يصنع الواحد؟".. كما قال الحاج محمود وهو يهز رأسه بشفقة "هؤلاء المسيحيون جهلة جدًّا!"، ثم احمرَّ خجلًا واعتذر لي وقال "إنها ليست غلطتهم، كل هذا النقص في الفهم أتى من القساوسة الذين يتحدثون إليهم بحماقة من أجل المال وليبقوهم خائفين أمامهم، أمر بائس أنهم لا يعرفون كلمة الرب"

"ساعِد نفسَكَ خادمي وسوف أساعدك".. كانت هذه هي المحاولة الثانية في هذا الموضوع مع قبطي من نوع "الله كريم" عن طفله، طفله الذي في الرابعة ويكاد يموت بالجدري، قال الشيخ يوسف "أيها الرجل..إذا سقط الحائط الذي أجلس إليه الآن على رأسي هل أثني قدمي تحتي وأقول "الله كريم"؟ أم عليَّ أن أستخدم رجلي التي وهبني الله وأفر بعيدًا".

زارتني في يوم آخر السيدة التي كما علمت كانت عاهرة في أسيوط، لقد تابت وتزوجت بقبطي غيَّرَ دينه، إنهما اثنان من التائبين أنيقان جدًّا في ملابسهما وسلوكهما، لكن لم يتوقف أحد عند فضيحتهما السابقة، ليس صحيحًا أن تندم وترتدي الخيش والرماد أو تعترف بخطيئة إلا إلى الله وحده. وهنا أنت لست مدللا أن تخبر الآخرين فهذه جريمة، التوبة إلى الداخل في القلب ومن العار أن تُظهرها أمام الناس، اسأل الله وحده العفو . أعتقد أن قليلًا من هذا لن يضر في أوروبا.

هنا حكاية جميلة من أحاديث النبي "نبيان كانا يجلسان معًا ويتحاوران في أمر الصلاة وصعوبة تركيز الانتباه كاملا أثناء الصلاة، قال أحدهما للآخر "حتى لركعتين لا يستطيع الإنسان أن يركز عقله مع الله وحده" قال الثاني "لا. لكني أستطيع أن أفعلها!"،

قال أكبرهما "صلِّ ركعتين إذن وسأعطيك عباءتي إذا نجحتَ في ذلك"، وكان يرتدي عباءتين واحدة حمراء جديدة رشيقة وواحدة قديمة رديئة زرقاء، وقف النبي الأصغر ورفع يديه إلى رأسه وقال "الله أكبر" وانثنى إلى الأرض في ركعته الأولى وبينما يرتفع ثانية فكر "هل سيعطيني العباءة الحمراء أم الزرقاء؟ أنا في حيرة"[80]

إنه غباء كبير مني أني لا أكتب كل القصص الحلوة التي أسمعها لكن هذه عينة رئيسية لخفة الدم المصري. يومًا ما سأحضر عمر معي إن شاء الله إلى إنجلترا وسوف يحكي لك قصصًا مثل شهرزاد نفسها، في ليلة أخرى أخبرني عالم نوبي مرح كيف لا يأكل اللحمَ أحدٌ في قريته إلا في العيد الكبير، لكن ذات ليلة أعطى مسافر امرأةً قطعة من اللحم، وضعتها في الفرن وخرجت، خلال غيابها جاء زوجها وشمَّ رائحة الشواء، ولأنه كان وقت صلاة العشاء -أول صلاة بعد المغرب بساعة- جرى خارجا إلى تل خارج القرية وبدأ يصيح مكبرًا بكل قوته "الله أكبر.. الله أكبر".. إلخ. حتى يجري الناس ليروا لماذا يفعل هذا، سألوه فقال لأن اليوم العيد الكبير".. "ما علامتك يا رجل؟".. هتف "اللحمة في الفرن.. اللحمة في الفرن".

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 15 فبراير 1866

أمي الحبيبة..

لدي وقت قليل لخطاب صغير لأقول إن الطقس البارد يشملنا وإنني أستمر في التحسن ليس بسرعة لأني ما زلت حساسة جدًّا.

رجلي الفرنسي الشاب أصبح مسيو برين M.Brune المعماري الفائز بالجائزة الكبرى لروما[81]، وهو شخص جميل جدًّا حقًّا، وجنتلمان تمامًا لكنه كان مغتاظًا لأنه وجد نفسه مضطرًّا إلى أن يأوي على غير إرادته عند غريب.. امرأة. لكننا صنعنا صداقة عظيمة وجعلته سعيدًا جدًّا بإخباره بأنه سوف يدفع مساهمته في الطعام، كاد يهرب من الخجل رغم أنه بدأ عملًا هنا قد يبلغه المجد. إنه يخرج إلى المعبد عند شروق الشمس ويعود للعشاء في المساء، يعمل جيدًا ورسومه ماهرة جدًّا. باختصار أنا ممتنة جدًّا للقنصل الفرنسي لإرساله مثل هذا الرجل الذكي رغم أني كنت مغتاظة في البداية؛ رجل جاد لديه إصرار شامل دائمًا وهي صحبة جيدة على المدي البعيد، أكثر من ذلك فإن مسيو برين جنتلمان كامل في كل تصرفاته. إذن كل شيء إلى الأحسن.

أنا آسفة أن أقول إن ماري جاءت في ضجر كبير ساخطةً وتقول "المرض"، ومن ثم سأرسلها مرة أخرى بدلًا من أن تكون قلقة هكذا، فيكون هذا نهاية للخادمات الأوروبيات، بالطبع فتاة جاهلة قد تضجر إلى درجة الموت هنا؛ إن أرضًا بلا مباهج ولا دلال لا تحتمل. سأستعير جارية من صديق هنا، سوداء قديمة قادرة ولديها رغبة كبيرة في خدمتي، وحين أذهب إلى القاهرة سأحصل على جارية من النوع القديم أو امرأة مصرية أكبر. لقد نصحني الدكتور باترسون بقوة بأن أفعل هذا العام السابق، إن لديه بوابًا في الثالثة عشرة من عمره.. بدوي سابق كما أعتقد،

وحيث إنه لا يُنظر إليَّ الآنَ كإفرنجية سأكون قادرة على الحصول على امرأة مصرية محترمة، أرملة أو مطلقة في عمر معين تكون سعيدة بامتلاك "بيت خير" كما تقول خادماتنا. أظن أنني أعرف واحدة.. فطُّومة الأرملة بلا أطفال التي تقوم بالغسيل والخياطة في القاهرة. ما تريدينه لي لن يكون صعبًا بالمرة، سأحصل على عناية جيدة إذا سقطتُ مريضة أكثر مما أحصل عليه من أوروبية عابسة العقل. عرض الحاج علي برقَّةٍ أن يأخذ ماري إلى القاهرة ثم الإسكندرية حيث تستطيع عائلة روس أن تعيدها إلى وطنها، إذا أرادت أن تبقى في الإسكندرية ووجدت مكانًا بين الراهبات اللاتي حرضنها على أن تأخذ مني تسعين فرنكًا في الشهر سيكون ذلك أحسن لي. رفض الحاج علي أن يأخذ مني بنسًا واحدًا لرحلتها إلى جانب أنه أحضر لي بطاطس وكل أنواع الطعام وإذا اعترضت يقول إنه وكل عائلته وكل ما يملكون من أجلي..هذا نتيجة علاجي لأخيه.

ستكونين مسرورة لسماع كيف كان الشيخ يوسف حائرًا ومرتبكًا تمامًا من الملاطفات التي أستقبلها من المسافرين هذا العام، حتي قال أمريكي لمصطفى إني كتبت ما جعله يتمنى الخير لفقراء هذا البلد ويتمنى أن يتعامل معهم برقة أكثر مما كان يفعل من قبل. غدًا العيد الصغير وسوف يزورني كل الحريم هنا.

إنجليزيان جذابان حدثاني في يوم بأنهما يعيشان في شارع هيرتفورد في مقابل منزل الليدي دي جي. ويريان ألكساندر يدخل ويخرج يقابل موريس في الحديقة، دق قلبي في حُمُوّة مرعبة من الشوق لكنني أعتقد أنه أمر طيب وجميل أن يأتي الرجلان ويخبراني كيف يبدو ألكساندر وموريس وهما يمشيان في الشارع.

إلى السيدة روس

22 فبراير 1866

جانيت الحبيبة..

تلقيت أمس خطابكِ المكتوب في اليوم الرابع من هذا الشهر. حزينة جدًا أني لم أسمع شيئًا حسنًا عنكِ، لماذا لا تذهبين إلى القاهرة بعض الوقت؟ إن تجربتك مع الخادمة الألمانية تؤكد لي -إذا احتجتُ إلى الخدمة- أن أقرر ألَّا يخدمني أوروبيون إذا لم أعثر على شخص مخضرم؛ إن الإزعاج كبير.

في حال وصول ماري -خادمتها الجديدة- بهذا الخطاب أرجوكِ أن تدفعي لها فاتورة الفندق وأعطِها المال الذي يجعلها تسافر إلى فرانكفورت بالدرجة الثانية بالقطار، إذا أرادت أن تبقى معك فارفضي ولا تكوني حمقاء وعطوفًا لتأخذيها إلى منزلك؛ سوف تغير أفكار خادمتك الألمانية الجديدة. وأيضًا لا ترسلي خادمتك الألمانية الكاثوليكية للاعتراف في كنيسة الأخوات الخيرية.

ترى ماري السعادة مثل حياة فندقية ظريفة في منتجع صحي، إذا كنتُ عرفتُ أنها كانت خادمة في فندق ألماني على الشاطئ ما أخذتُها؛ إنها ماكرة للغاية وشرهة جدًّا ومسرفة، أقول لكِ ذلك فقط لتعرفيه في حال أن فكرتِ في استخدامها. تعرفين أنني أكره الضجيج وأسمح لها بأن تقول إنها تتركني برغبتها وهي في الحقيقة صادقة، إنها مجنونة بالرغبة في الرحيل.

الأقصر:

البارون كلاري الذي أتى إلى هنا في باخرة أُعطُيت له من قِبَل الخديوي إسماعيل أخذ ماري شمالًا إلى القاهرة وسوف يجعلها فيما بعد خادمة لصاحباته النساء، لم أرهم ولم يسألوني أي سؤال ومن ثم لا أشعر بالرغبة في معلومات تطوعية منها، وهكذا إذا استمرت رقيقةً لأسابيع قليلة سأوفر تكلفة عودتها إلى

وطنها، في كل الأحوال هي تتجه إلى القاهرة من أجل لا شيء. وللآن لم أجد أي امرأة.

الحمار عبد الرحمن أفندي عرض عليَّ أن يبيعني حبشية برخص التراب لأنها لا تنام معه، لكني لم أهتم بفتاة تخرج من منزل تركي قذر عادي. اضطراب وفوضى.. أحمد الصغير يزداد مهارة وعمر يزيد موهبته في كيِّ الملابس وكلنا يعمل جيدًا جدًّا. لا تقعي تحت أي خوف على صحتي لأن ماري كانت معي فعُمَرَ دائمًا هو الذي يعتني بي ومن ثم فلستُ في وضع سيئ.

جاءني خطاب مباشر من ماري ومن ثم فتحته وقرأت ما يكفي قبل أن أعرف ماذا تقصد، لقد كانت أمها تذكِّرها بما اكتسبته من نقود لعامين ولم ترسل لها شيئًا قط، أخبرتني ماري بأنها أرسلت كل ما تقاضته مني وتقريبًا كل أجرها إلى بيتها! وترجوها أمها أن ترسل شيئًا لطفلها الذي بدا أنها نسيته منذ كانت تحصل على المتعة من الأجانب وعلى الفرنكات، ماري كانت عاهرة ولا بد أن عقلك الآن كما أتصور.

إنه شيء مثير أن أرى هذا النوع من الرعب الذي أشاعته ماري هنا، كانت تنهب وتشرب معًا وناقصة في أخلاقها تعمل بعقلها الأوروبي على إرباكي وتتصرف من وراء ظهري وتحاول أن تجعل طاقم بيتي ضدي. باختصار.. هي خادمة فجة ترى سيدتها عدوًّا طبيعيًّا وتثير الفزع وتعلق ذلك على شماعات أخذت أجرها أو لم تأخذه.. تلك هي ابنة الشيطان.. والشكر لله على رحيلها من المكان كله. لقد نشرت نوعًا من الفزع في كل شخص ما عدا ريِّسي الذي -لكونه نصف نوبي لا يخاف الأوروبيين- سماها ببساطة "شرموطة"، وهي تعني قماشة للمسح لكنه يقصد المعنى الثاني الذي تشمله الكلمة الفرنسية.

لقد وصلتُ إلى نتيجة غير طيبة وهي أننا لا نعرف حياة خدمنا السابقة في بيوتهم. علي أحد المترجمين الثقال في مصر ظل لسنوات يرفض بشدة أي ارتباط بالسيدات الأرستقراطيات.. يقول "لأنه حيث تكون سيدة أرستقراطية تكون هناك خادمة وأسقُط

معها بشكل ما.. إذا رفضتُها تروج عني الأكاذيب بكل الطرق وإذا فعلتُ لها ما تحب سيكون هناك أذًى"، عليّ شاب أنيق جدًّا وهكذا وصلت به خبرته.

لا توجد امرأة فسدت بالبقاء طويلًا في الشرق.. لكنهن الخادمات بعد حضورهن بثلاثة أشهر يفسَدْنَ. انتهت زوجات المبعوثين الأمريكيين مثلي إلى استخدام الرجال والأولاد فقط بعد هذا الألم الذي لا ينتهي من الخادمات الأوروبيات.

أخيرًا أصبحت أتحسن من جديد، أتمنى ذلك. مررنا بشتاء بارد لكن ليس متعبًا، لا توجد رياح كثيرة والطقس مستقر جدًّا ونقي، أتمنى لو عندي كتابُ بَالجْرِيف. كان على الحاج علي أن يحضر الطرد الخاص بي، لكن الطرد لم يكن قد وصل عند إبحاره. سأرسل شمالًا سرجي القديم حين أجد فرصة وأستقبل الآخر.

شكرًا كثيرًا لكل هذه الصحف التي خففت عني كثيرًا، أتمنى لو تعطينني صورتكِ بحجم كبير لأعلقها مع صور ريني وموريس هنا وفي المركب، لقد قلتِ إن لديك نسخًا أكبر من الصورة الصغيرة التي أعطيتنيها في سودِن. Soden.

أعمالي الطبية أصبحت عظيمة جدًّا، أريد بيع خبرتي لأي جرَّاح صغير صاعد، إنها تعود عليَّ بدخل كبير من الخضراوات والبيض وديوك الرومي والحَمَام.. إلخ. كيف حال فرس شريف مكة؟ لدي طموح أن أركب هذا الفرس المقدس.

-78-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 22 فبراير 1866

أَلِيك الحبيب..

بدأ الطقس في الدفء وبالطبع أنا أصبحت أحسن، متاعب كثيرة من أثر الصداع عند الناس في رمضان هذا، عليَّ أن أتابع القاضي وآخرين كثيرين. جاري التركي في الكرنك أصابه الشيطان.. نوبات صرع، وأرسلوا إليَّ لأطرد عنه الروح الشريرة، وحاولت أن أفعل بِنَتَراتِ الفضة وغيرها، ولأني أخشى أن تقتله الخيالات نصحته بأن يذهب إلى القاهرة ويترك منزل الشيطان. الآن منذ دقيقة قتلتُ أول ثعبان لهذا العام، الثعابين علامة على الصيف.

سرني جدًا أن أرى اثنين من عائلة واتسون جيرانك المقابلين اللذَيْن قالا إنهما يريانك كل صباح تتمشى في الطريق، أنا أفعل ذلك أيضًا! أحببت كثيرًا مستر ومدام ويب قاطني قصر نيوستيد آبي[82] Newstead Abbey. إنهم إنجليز طيبو القلب جميلون يسرًّون.

لم يزد عدد السفن والقوارب على عشرين أو ثلاثين هذا العام ومعظمها أمريكية، البعض منها هنا الآن، ناس جميلون جدًّا ومعهم أربعة أطفال صغار يشيعون البهجة في المكان، وما شاء الله لا يتوقفون عنها. وجوههم الصغيرة الحلوة تبدو جميلة جدًّا هنا وتثير كثيرًا من الإعجاب.

أتى سيد آلان ليأخذ خطابي إلى المركب البخاري الذي سيبحر شمالًا، إذن وداعًا إِلِيك الحبيب، أنا أتحسن أكثر لكن ما زلت منهكة وحزينة لطول فراقي عنكم.

-79-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الثلاثاء 6 مارس 1866

أَلِيك الحبيب..

أكتب لأكون مستعدة للمركب البخاري الذي سيبحر شمالًا والذي سيكون هنا خلال أيام قليلة. مستر ومسز نورث هنا يعملان كثيرًا في الرسم، وسيأخذ مسيو برين مكانًا له في دهبيتهما -زينة البحرين القديمة- وسيتركني خلال ستة أو سبعة أيام، سأحزن كثيرًا على خسارة صحبته، إذا حدث وقابلتَهُ أنت أو أيٌّ منكم فاحرص على معرفته، إنه ماهر جدًّا كثير العمل و"جنتلمان متربي تمام" كما يقول عمر. أرواحنا منخفضة تمامًا بسبب الفراق بعد شهر قضيناه معًا في طيبة.

سمعت أن أولاجنييه امتلك بيتًا كبيرًا في القاهرة القديمة وسوف أنزل به. عائلة نورث تذهب اليوم -الخميس- ولن يذهب مسيو برين معهم كما نوى بل سيبقى وينهي عملًا كثيرًا قبل الانتقال.

أمضيت الأمس بالخارج في خيمة مصطفى بين جامعي محصول الفول وسأذهب ثانية؛ هذا يجعلني أفضل فالمكان ليس بعيدًا لأركب له كثيرًا، فجأة استقر الطقس حارًّا جدًّا مما أتعب الجميع لكن الهواء نقي تمامًا، أتمنى أن يصلكَ خطابي هذا فسيأخذه حسن السمين العجوز إلى المكتب في القاهرة بنفسه لأن البريد غير آمن بحق، أكتب قليلًا. إذا لم تصلك خطاباتي فتكون فَضَّلَتْ قصر الفرعون.

-80-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

طيبة - 17 مارس 1866

أَلِيك الحبيب..

بدأت الرياح العالية بانتقام وإزعاج هائل.

لقد ذهبت منذ عدة أيام إلى قرية ميدرنوط وتغديت في خيمة مصطفى بين جامعي محصول الفول، لقد كنت مسرورة جدًّا بالرجل الذي صحبني إلى ميدرنوط، اسمه "شريف" وكان سابقًا لصًّا شهيرًا والآن هو حارسٌ وأمين جدًّا. كان يركب حمارًا صغيرًا جدًّا جدًّا فضحكت وقلت "هكذا الرجل هو الذي يجب أن يحمل الحمار"، ماكدت أقول ذلك حتى فعل.. انحنى شريف ودخل تحت الحمار ووضعه على كتفه وجرى به! طريقته في أن يبقى يقظًا في الليل خاصةٌ به جدًّا، ما تزال الليالي باردة ومن ثم هو يخلع كل ثيابه ويثنيها في دائرة ويضعها تحت راسه ويجعله البرد يقظًا دائمًا. لم يسبق لي أن رأيت حيوانًا بهذه القوة والنشاط والصحة. كان ممتلئًا بالحكايات عن كيف تم جلده ألف جلدة بالكرباج على قدميه وخمسمائة على ظهره مرة واحدة. "لماذا؟" سألته.. أجاب "لماذا! غرستُ سكينًا في القواس الذي أمرني بأن أحمل البطيخ له.. قلت له إني لست حمارَهُ فقال إني قذر، جرى الدم في عروقي وقد كان! ضربني الباشا الذي يتبعه القواس، أجل.. هذا كله حدث ولم أقل "أخ" مرة".. "هل قلتُها؟" كان يسأل شخصًا آخر، كان واضحًا أنه لا يحمل حقدًا كما لا يشعر بالعار. لديه حكاية كبيرة عن مدينة تبعد يومين عن هنا في الصحراء حيث لا يجدها أحد إلا بالمصادفة بعد أن يفقد طريقه، وحيث الأرض منثورة بالأنتيكات الثمينة.. ضحكتُ وقلتُ "إذن لدى والدك كثير من الذهب والجواهر" قال "حقًّا.. حين كنت صغيرًا كان الرجال يبصقون على تمثال أو غيره مما يجدونه أثناء عزق الأرض والآن الواحد

منها يساوي ثروة".

-81-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

31 مارس 1866

أَلِيك الحبيب..

بالنسبة إليَّ صرت أحسن من جديد، هدأ السعال وأعتقد بحق أن وصفة لبن البعير العربية جعلتني أفضل كثيرًا، لم أتعب منذ شربته وله ميزة أنه لذيذ الطعم. أمس كنت سعيدة جدًّا حين ذهبت لأشرب منه بعد الظهر، حيث وجدت حارسًا ثائرًا جدًّا لأنه تمت سرقته من قِبل امرأة أمام عينيه، رآها تجمع الحمص من الحقل الذي يحرسه فذهب ليأمرها بالتوقف فأسقطت ببرودٍ البردة التي تغطي رأسها وكتفيها لتمنعه من الاقتراب منها وحملت صرتها ومشت. احترامه للحريم لم يمنعه على أي حال من الشتيمة.

قام مسو برين برسم لوحات جميلة للجامع هنا من الخارج ومن الداخل، المسجد مثال جيد جدًّا للعمارة العربية الحديثة، وهو لا يصدق أن ذلك تم دون رسومات ولا خرائط.. إلى آخر ما يُضحك الناس هنا، فهم يبنون دون أي من هذه الاختراعات.

الحصاد رائع هذا العام..الفول والقمح، والأسعار انخفضت بشكل واضح لكليهما لكن اللحم والزبد وغيرها بقيت غالية. شهرتي كحكيمة صارت كبيرة ومنتشرة وفي أيام نزولي إلى السوق عليَّ أن أغلق المحل! أمس جاءتني امرأة وسيمة جدًّا من أجل الدواء الذي يجعلها جميلة لأن زوجها تزوج بأخرى تسخر منها فيما أهملها هو. وعرض عليَّ رجل حِملَ جَمَلٍ من القمح إذا قرأتُ عليه وعلى زوجته شيئًا يجعلهما ينجبان. لا أحاول أن أشرح للناس كيف هم غير عقلاء لكني استخدمت نقاشًا أكثر ذكاء عن كيف أن ممارسة الرقية -مساوية للسحرالأسود- حرام إلى حد بعيد إلى جانب أنها كلها أكاذيب لجمع المال. طالبوا ولادة الأطفال

وقراءة السحر هم من الأقباط والمسلمين بأعداد متشابهة ويبدون غير مهتمين بأي "كتاب ديني"، وهم من الجنسين وإن كان الرجال أكثر تعقلًا في ما يخص الدواء وطريقة الطعام.

أجد كثيرًا من عدم الرضا بين الأقباط عن قساوستهم وعن كثير من عاداتهم القديمة. عديد من الشباب حدثوني كثيرًا جدًّا عن حماقة أعيادهم وسوء وجهل القساوسة، أومِنُ بأن كثيرين ممن يتحولون للإسلام الاعتقاد الحقيقي عندهم أن الإسلام هو ديانة أحسن من ديانتهم، وليس كما اعتقدتُ من قبل للفائدة فقط، فالحقيقة أنهم لا يجنون كثيرًا من هذا ودائمًا يعانون اضطهادًا من عائلاتهم، وحتى لو لم يهربوا فالميول العاقلة تتسع الآن بين النصرانية، فزواجهم الأبدي المبكر يشعرون به مهمة صعبة، فالولد يتزوج في الثامنة من عمره ربما من ابنة عمه التي تبلغ السابعة عشرة -أعرف حالة كهذه هنا- وحين يكبر يتمنى لو كانوا تركوه وحيدًا. ولد في السابعة عشرة حدثني عن عدم رضاه وميله إلى الإسلام، أعطيته طبعة عربية جديدة من العهد الجديد -الإنجيل- وأخبرته بأن يقرأه أولًا ثم يحكم بنفسه ما إذا كان لا يستطيع أن يظل منتميًا إلى كنيسة أهله واعتقادهم أو يحاول أن يتبع الإنجيل. قلت له إن هذا ما يجب أن يفعله معظم المسيحيين، فكل واحد لا يستطيع أن يكون طائفة وحده بينما قليلون يستطيعون الإيمان بكل شيء في أي كنيسة. افترضتُ أن عليَّ أن أقدم له التسعة والثلاثين سِفرًا المعتمدين في الكنيسة الإنجليزية، ربما يصبح التحول للإسلام بعيدًا عن يديه.

سألني بحدة عن أمور مختلفة، قال لي إنه لم يستطع أن يجدها في "الكتاب" لكن بالإجمال كان راضيًا عن نصيحتي.

نخلة القبط.. الأحد 1 أبريل:

سمعنا بأن فاضل باشا تلقى أوامر في أسوان بأن يذهب إلى الخرطوم ليشغل مكان جعفر باشا.

إذا كان هذا صحيحًا فإنها الطريقة المتحضرة لقتل تركي عجوز

سمين، لقد كان فاضل باشا هنا منذ آسبوع آو آسبوعين ومصدرُ معلوماتي هذه هو واحد من طاقم سفينتي القدامى كان في مركب فاضل باشا.

سأنتظر الحصول على امرأة خادمة حين أسافر إلى القاهرة، النساء هنا لا يستطعن الكيَّ أو الحياكة ولذلك تقوم زوجة عبد القادر بغسل ثيابي وعمر يكويها وسنستمر حتى نموت. أحمد الصغير يقوم بالخدمة، وأظن أنني مرتاحة هكذا أكثر مما لو كان لدي خادمة؛ لا معنى لشراء جارية حيث أزمة تدريبها ستكون أكبر من العمل الذي يجب أن تقدمه لي.

سُمعتي الطبية صارت عظيمة جدًّا وكل أدويتي الشائعة -الملح الإنجليزي، نبات السِنا، الصبر، الراوند، نباتات طبية- تنتشر. كل الفقراء والمتعبين والنساءِ العجائز غيرِ الجميلات يعبدونني ويزعجونني بأوجاعهم وآلامهم، إنهم دائمًا وباء الطبيب الكبير. علامة الثقة أنهم الآن يأتون بأطفالهم المرضى وهذا فيما أعتقد لم يعرفوه من قبل في هذه الأماكن، أنا متأكدة أن هذا قد يدفع لاستئجار طبيب أوروبي ليقيم هنا، سيدفع له الناس قليلًا وسيكون الدخل الجيد من راكبي السفن في الشتاء.

حصلت على ديوك رومية حين كانت تساوي ستة أو خمسة شلنات للواحد في السوق، وكانت قد فرضت عليَّ هديةً من الفلاحين. لا بد أن أغلق هذا الخطاب خوفًا من أن تصل السفينة ولا أدركها؛ إنها ستلتقط فقط مسيو برين وتذهب.

إلى السيدة روس
العيد الكبير
الأربعاء - أبريل 1866
جانيت الحبيبة..

لم أسمع كلمة عن مرض هنري حتى وصل مستر بَالجْرِيف وأخبرني، وإنه أيضًا صار أحسن.. الحمد لله! فقط أتمنى ألَّا تكوني أُصبتِ بالصدمة يا عزيزتي. لستُ مريضة لكني ما زلت أشعر بإعياء لا يتوقف ولا يغادرني، لا أسعل كثيرًا، وأصبحت أكثر سمنة رغم الريجيم بسبب لبن الناقة، ومن ثم أرجو أن أخرج من الكسل. لم يظهر الجدري. أي رجل ماهر هو مستر بَالجْرِيف! لم أعرف مُلِمًّا باللغات مثله، الناس هنا معجبون بلغته العربية، أتمنى أن تَرَي مسيو برين.. متأكدة أنك ستحبينه؛ إنه رجل عملي جدًّا ومهذب جدًّا.

لم تخبريني قطُّ عن خططك هذا العام وما إذا كنت سأجدك حين أبحر شمالًا، في الأيام الثلاثة الأخيرة بدأ الحر الشديد وعليه شعرت بتحسن، عدت إلى البيت مباشرة بعد صلاة العيد في الصباح الباكر في منطقة المقابر التي بها أيضًا كان بَالجْرِيف حاضرًا، لم يكن على ما يرام وأخبرني بأنه سيغادر الأقصر غدًا صباحًا. سأبقى هنا حتى إذا زاد الحر جدًّا، فالصيف -كما هو واضح- يناسبني.

شكري كبير للآنسة بيري وللنبيذ الذي هو أجمل من النبيذ السيئ الذي كان عندي. قرأت كتاب بَالجْرِيف بسرعة لأنه أراد أن يأخذه معه إليكِ.. إنه ممتع جدًّا.

إذا أتيتِ هنا الشتاء القادم فمصطفى يتمنى منك أن تحضري سرجًا وتركبي "كل خيله". أعتقد أنني أستطيع أن أقدم لك فرسًا جيدًا جدًّا من الخيل الخاص بالشيخ عبد الله هنا، حسنًا.. يجب أن أقول وداعًا.. "كل سنة وأنتِ طيبة". محبتي لهنري.

-83-

إلى السيدة أوستِن

العيد الكبير

أبريل 1866

أمي الحبيبة..

أكتب هذا الخطاب لأعطيه إلى مستر بَالجْرِيف الذي سيبحر شمالًا صباح غد، لقد كان هنا مع مصطفى بيك يديران تحقيقًا في مسألة مصطفى أغا؛ لقد صفع مارييت بيك مصطفى أغا وأخذتُهُ أنا وبعض الأمريكيين غاضبين وكتبنا شكوى قوية جدًّا إلى قنصلينا المحترمين، أنكر مارييت ضرب مصطفى أغا أو أنه شتمه بكلمات مثل "كذاب وابن كلب"، ومن ثم أرسل القنصل الأمريكي والقنصل الإنجليزي بَالجْرِيف كمفتش ليحقق في الموضوع وأرسل الباشا مصطفى بيك معه. بَالجْرِيف رجل ممتع لا شك ومعرفته باللغة رائعة، يقول الشيخ يوسف إن قليلًا من العلماء يعرفون ما يعرفه في الأدب وقواعد النحو والإنشاء، مصطفى بيك رجل محبوب، إنه يعرف أصدقاء كثيرين لي.. حسن أفندي، مصطفى بيك السُّبكي.. وآخرين، ومن ثم تصادقنا بسرعة.

لم أحصل على امرأة خادمة حتى الآن لكني لا أفتقدها أبدًا، فأحمد الصغير تحت يدي والفتاة -جارية محمد- تقوم بالغسل وعمر يكوي وينظف البيت ويقوم بعمل الخادمة وأحتفظ بالطاهي اللطيف عبد القادر الذي بدأ عندي حين كان الفرنسي مسيو برين هنا. ليس لديَّ القلب الذي يجعلني أستبعده فهو "مسكين". كان نادلًا مسافرًا أنيقًا لكن أخاه مات تاركًا أرملة سليطة اللسان مع أربعة أطفال، وعبد القادر المسكين شعر بأن واجبه أن يقيد رقبته بالنِّيرِ فتزوج بها وصار له طفلان آخران فوق الأربعة، إنه مخلوق يستحق الرثاء.

أسمع أن قبطيًّا رقيقًا هنا يريد بيع امرأة سوداء لتعثره المالي

وقد تناسبني، أنكر الشيخ يوسف الأمر ليرى أولًا ما إذا كانت المرأة نفسها تحبني كسيدة للبيت وأن عليَّ أن أجربها بعض الوقت، فإذا أحببتها وأحبتني سيقوم الشيخ يوسف بشرائها بنقودي باسمه هو. أعترف بأنني أصابتني الوساوس من الموضوع، وهكذا فكرت في أن أعتبر سعرها كمقدم يساوي راتب عامين أو ثلاثة وأمزق ورقة البيع بعد انتهاء سعرها، وهكذا ستكون الصفقة عادلة. لكن عليَّ أن أرى أولًا ما إذا كان "فلتاس" القبطي حقيقة يريد بيعها أم فقط يريد أن يحصل على أعلى سعر من المسألة، في كل الأحوال سأنتظر حتى أذهب إلى القاهرة. أي شيء أحسن من استقدام خادمة أوروبية إذ على الفور يُعتَبَر المرء تحت رحمتها باعتبار تكلفة رحلة إعادتها.

خرجت مبكرة هذا الصباح لصلاة العيد التي كانت في منطقة المدافن، محمد بن مصطفى كان يعظ، لكن الأولاد والنساء أحدثوا ضجة خلفنا حتى إنني لم أسمع الخطبة. استقر الطقس حارًّا هذه الأيام الأخيرة، وأنا أحسن كثيرًا. إنه لغريب أن ما يضعف الناس يقويني! كنت ضعيفة جدًّا كسولة كل الوقت لكن لبن الناقة أعطاني شيئًا من السِّمنة الاستثنائية مما أبهج الشرايف "الأشراف". وبدأت الأيام الحارة تذهب بعيدًا بالشعور البائس بالتعب والوهن.

بَالجْرِيف ليس على ما يرام بالمرة ويخشى خادمُهُ الأسود الصغير أن يموت. عديد من الناس على السفينة مرضى لكن في الأقصر لا يوجد مريض واحد، فقط عجائز جدًّا قبيحات يتألمنَ ولا أعرف ماذا أفعل لهن باستثناء الاستماع إلى شكواهن التي تبدأ بـ"يا راجلة ".. والرجل هو الذكر و"الراجلة" هي الكلمة المهذبة لمخاطبة المرأة الصعيدية، أعطيت عجوزًا مسحوقًا ملفوفًا في قصاصة من صحيفة الستورداي ريفيو، عادت إليَّ مرة ثانية قائلة "ما شاء الله! الحِجاب كان قويًّا"، ورغم أنها لم تكن قادرة على محو كل الكتابة الحلوة الخاصة بالورقة لكن القليل الذي محته جعلها أحسن كثيرًا!

أنا آسفة لأنني لا أستطيع أن أخبرك ماذا كان موضوع المقال في السترداي ريفيو الذي كان له كل هذا الأثر النافذ!

إلى اللقاء أمي الحبيبة، عليَّ أن أنام قبل أن يأتي وقت استقبال زوار اليوم -إنه الاحتفال الكبير- لقد استيقظتُ قبل شروق الشمس لأشاهد الصلاة ومن ثم لا بدَّ لي من قيلولة في مكان بارد. صباحَ غدٍ سيسافر الخطاب مبكرًا وأتمنى أن تكوني استقبلتِ الخطاب الذي أرسلته منذ عشرة أيام أو نحوها.

-84-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 10 مايو 1866

أَلِيك الحبيب..

استقرت "الشمس الكبيرة" وبدأ الصيف الحقيقي هنا. وبالطبع أنا أفضَلُ من كل ناحية. سوف تعطي ناقتي بقشيشًا جيدًا إذا رأيتَ كيف سَمِنْتُ بشكل مدهش بسبب لبنها، إنه أفضل من كبد السمك، تستطيع أن تشرب جالونًا دون أن تشعر به وهو سهل الهضم جدًّا.

أعرت "الدهبية" لمصطفى ولواحد أو اثنين معه للذهاب في عمل إلى قنا، وعند العودة -التي ستكون اليوم- سأستعد للرحيل أيضًا وأنزل شمال النهر. عمر يريدني أن أذهب إلى دمياط لأمتع عقلي وأملأ معدتي قليلًا، وأفكر في فعل ذلك.

بَالجِرِيف هنا منذ أسبوعين تقريبًا للتحقيق في مسألة مصطفى وميريت[83]، "والله هذه الطريقة الإنجليزية رائعة".. هكذا قال أحد الشهود وأضاف "لأن البيك الإنجليزي سألني لغاية ما جِبت اللي في بطني"، أحببت مصطفى بيك الذي كان معه فهو مخلوق مهذب طيب حلو وذكي جدًّا وممتلئ بالمشاعر الطيبة، أبتهج لسماع أنه يَرُدُّ لي الحب ويعلن نفسه "واحدًا من دراويشي". الحديث عن الدراويش ذكرني بمولد الشيخ جبريل هذا العام،

كنت قد نسيت اليوم، لكن في المساء آتى بعض الناس لي من أجل أن أذهب وآكل بعضًا من لحم الشيخ الذي هو أيضًا راعٍ جيد لي. يقولون إنه لكونه وليًّا فقيرًا وذا روح متواضعة فهو يحابيني. كان هناك كثير من اللحوم والملوخية والخبز ثم أُقيم الذِّكر من كل نوع ثم "جمع الفقراء". اللقاء الذي يتكون من دائرة كبيرة من الرجال يجلسون ملتصقين بالأرض ومعهم شاعران يواجه كل منهما الآخر، ويتلوان قصائد دينية في هذه المناسبة، قاعدة المباراة أو المناظرة هي أن ينتهي المقطع الشعري بكلمة "الواحد" أو "الأحد". وهكذا يستمرون وكلٌّ ينشد شعرًا بالتناوب، شخص ينطق تقريبًا مثل إيطالي ويتحدث بجَمَال.. الآخر هادئ لكن له صوتًا جميلًا والاثنان معا جميلان جدًّا. في نهاية كل مقطع شعري يقوم الناس بعمل نوع من الكورس.. كان محزنًا مثل نهيق الحمير. ذِكْر رجال إدفو كان مثيرًا، أهلنا قاموا به بهدوء، وإنشاد المنشد كان جميلًا جدًّا حقًّا، "أغنية المنشد هي السكر في الشربات للذَّكِّير".. هكذا قال رجل وهو يخرج حين انتهى الذِّكر مبلَّلًا بالعرق وتشع ابتساماته. يومًا ما سأكتب لك كل الفكرة الأساسية للذِّكر، التي هي في الحقيقة محاولة لعمل "كوميونة للأولياء" أحياء أو أموات. بينما أكتب وصلت "عروس الغالي" وقام طاقمي بلف شراعها الطويل على طريقة السفن في ميناء بريستول.

عاد رجالي معًا مرة أخرى، البعض من النوبة والبعض من الدلتا وسوف أرحل شمالًا مع مجموعتي القديمة.

ناشدني عمر وأحمد ألَّا يكون لي خادمة أخرى أبدًا، يقولان إنهما يعيشان مثل الباشا الآن ولديهما السيدة التي يسعدانها، وإنه سيسرهما أن يلمِّعا حذائي النظيف بينما الأمر مع حذاء "الكاميريرا" مستحيل. إن شعور الخدم المصريين تجاه جماعات الأوروبيين يشبه قليلًا شعور الزنوج أمام البيض، مزيج من الكراهية والخوف والاحتقار. الاثنان فَعَلَا كل جميل لراحتي، ومن ثم ليس عندي سبب ممكن بالتأكيد لإثقال نفسي بـ"عجوز

البحر" في شكل خادمة، والفارق في التكلفة كبير. الطبق الواحد من عشائي له متعة كبيرة من خبزهم والفول، بينما طهو الخادمة والبيرة والنبيذ التي تستخدمها يكلف كثيرًا جدًّا، أعترف بأنني خففت على نفسي جدًّا بغياب "العنصر المتحضر" وكذلك خففت على خدمي.

هل شرحت لكَ الجمعة الكبيرة للأقباط؟ تخيل 450 ركعة في الكنيسة! رأيت أشياء غير عادية كثيرة لكن ليس أغرب من تطوح الأقباط.[84]

ذهبت في يوم آخر إلى الكنيسة القديمة على بعد ستة أو ثمانية أميال حيث دفنوا الأسقف العجوز البائس الذي مات منذ أسبوع، شهيد مسيحي يدعى باخوميوس Abu khom مدفون هناك، لقد ظهر لأبي مصطفى حين تاه في الصحراء وأعاده سليمًا إلى البيت. في تلك المناسبة كان راكبًا جواده ويرتدي زيًّا أبيض وعلى وجهه لثام ولا أحد يستطيع أن يسرق أي شيء قرب مقبرته ولا حتى كوز ذرة، لقد كشف عن نفسه منذ زمن بعيد إلى أحد أحفاد أبي الحجاج، وحتى اليوم.. أي قبطي يتزوج في الأقصر يقدم زوجين من الطيور إلى عائلة ذلك المسلم في ذكرى أبو خوم[85]

سأترك الأقصر خلال خمسة أو ستة أيام وأكتب الآن لأتوقف عن كل الخطابات في القاهرة. لا أعرف ماذا أفعل مع مرضاي، إنهم يأتون من أربعينَ ميلًا ويصلون أحيانا إلى عشرين شخصًا أو ثلاثين ينامون خارج بيتي. تعشيت مع المعاون الليلة الماضية "اغتنمت الفرصة" وكان العشاء لذيذًا جدًّا، السيدة العجوز العزيزة كانت مغتاظة جدًّا لأن العشاء لم يكن الأحسن لي ومن ثم أرسلت إليَّ بقلاوة هذا الصباح لتجعله حلوًا.

-85-

إلى موريس دوف چوردون

القاهرة - 22 يونيو 1866

موريس حبيبي..

أُرسل إليكَ عملة رومانية أعطاني إياها رجلٌ كأجر على رعايتي الطبية له، أتمنى أن تعجبك وتضعها في سلسلة ساعتك. لقد جعلتُ الجواهرجي القبطي يثقبها. لماذا لا تكتب لي أيها الوغد الصغير؟ أنا الآن أعيش في دهبيتي وكثيرًا ما أتمنى لو كنتَ أنت هنا لتركب الحمار معي. لا أستطيع أن أكتب لك خطابًا مناسبًا الآن لأن عمر ينتظر أن يأخذه إلى مستر بَالجْرِيف مع الرسومات من أجل أبيك، كما يرسل عمر إليكَ وإلى ريني أحسن السلام ويشعر بخيبة الأمل لأنك لم تأتِ في الشتاء لتذهب جنوبًا إلى الأقصر. هاجمنا إعصار متجه شمال النيل وأغرق سفينة خلفنا، فقدنا نحن المرساة فقط وكان علينا الانتظار حتى ينتهي عمل مثلِها من قبل صيادي السمك في القرية المجاورة. في بعض الأماكن كانت المياه ضحلة لدرجة استدعت أن يدفع الرجال المركب بالقوة والجميع نزل إلى النهر. أنا والكابتن صحنا معًا نشجعهم على الدفع بالمركب إلى الأمام. تقام هنا إضاءة كبيرة لأن الباشا يجهز ليجعل ابنه الأصغر خليفة له وأُمرَ الناسُ بالفرح والاحتفال وهم يقومون به في تبرُّمٍ كبير.. سوف يكلفهم كثيرًا.

إلى السيدة أوستِن

بالقرب من بولاق - القاهرة

10 يوليو 1866

أمي الحبيبة..

أنا أفضل كثيرًا من جديد، البرد الذي أصابني مضى دون مرض شديد، جعلني فقط ضعيفة ومتوترة الأعصاب لكني مرتاحة جدًّا هنا، راسية قرب بولاق مع ريسي وواحد من البحارة يغسل وينظف ملابسي التي يكويها عمر كما كان يفعل في الأقصر. لقد وجد البحَّار أن النساء اللاتي يقمن بالغسل هنا يأخذن من خمسة فرنكات إلى اثني عشر لغسل أشياء صغيرة وأكثر من ذلك لبعض الثياب .. فقام هو بذلك. ولد حشَّاش أدار رأس أحمد الذي هرب ليومين وأنفق دولارًا في حياة صاخبة، لقد عاد تائبًا ولم يحصل على عجل سمين لكن على خبز جاف ومصادرةِ ثيابه الجديدة.

كانت الحرارة شديدة حين غادرت الأقصر، حُجزت ثلاثة أيام بسبب موت زوجة الشيخ يوسف الصغرى المسكينة والطفل أثناء الولادة، ومن ثم اضطررت إلى البقاء والأكل من وليمة الجنازة وأن أحضر الخاتمة -قراءة القرآن في الليلة الثالثة- ولو فعلت غير ذلك لا يكون طيبًا. أعطاني القاضي كتابًا دينيًّا شائقًا جدًّا عنوانه "مرشد المؤمنين" The Guide to fathful..

كُتِبَ في دارفور! كتاب بحروف جميلة وبزينة متفردة جدًّا وذو غِلاف رائع، يحتوي جميع أسماء الأنبياء والمائة لقب لمحمد ولذلك هو "حِجاب" قوي أو تعويذة. طلب إليَّ ألَّا أبعده عني أبدًا وأن يظل دائمًا معي، مثل هذه الكتب لا تُشترى بالمال. أنا أيضًا اشتريت "حِجابًا" جميلًا جدًّا من العقيق الأحمر مطليًّا بالميناء، آية العرش محفورة عليه بروعة ويعود تاريخه إلى مائتين وخمسين

سنة سابقة. أرسلتُ عن طريق بَالجْرِيف إلى آلِيك رسوم مسيو برين المحببة للأقصر والكرنك وإلى موريس عملة ذهبية أعطاني إياها بدوي عجوز كأجر.

كان الجو حارًّا إلى درجة أنني لم أستطع ركوب الحمار إلى قنا حين جاء أصدقائي هناك ليأخذوني، كما لم أستطع الذهاب إلى أسيوط؛ لم أشعر بحرارة مثل هذه من قبل. في بني سويف ذهبت لأرى ابنة المعاون الخاص بنا المتزوجة بمعاون آخر هناك، كانت زيارة سارة. سيد البيت -رجل البيت- كان في الخارج واستقبلتني أمه وزوجته كواحدة من العائلة، سيدة جميلة وأطفال جميلون! فتاة شاحبة نحيلة قليلًا في الخامسة وطفل قوي في الرابعة وطفل في السنة الأولى من عمره. كرم الضيافة العميق من هذه الكائنات الصغيرة كان مؤثرًا جدًّا، طلبت البنت الصغيرة أن ترتدي أحسن فساتينها ثم وقفت أمامي ودارت بجدية وحماس وصارت تسأل في كل وقت "هل أعمل لك شربات؟".. "هل أحضرإليكِ قهوة؟"، ثم أسئلة عن جدها وجدتها وعن عبد الحميد وعبد الفتاح، بينما يجلس الولد على كعبيه أمامي ويسألني عن عائلتي بلغته الطفولية ويؤكد لي أنه يوم جميل له ويريدني أن أبقى ثلاثة أيام وأن أنام معهم. جاء أبوهما وأعطى كل واحد منهما "عشرة فضة" أي نصف قرش. بعد أن تشاورا وضعاها في ركن من منديلي "لأنفقها في رحلتي". اهتمت الفتاة الصغيرة بقبعتي وقفازي وحذائي فكلها ملبوسات غريبة جدًا بالنسبة إليها، لكن الأدب كان أقوى من الفضول بالأشياء الصغيرة. تناولت فطوري معهم في اليوم التالي وكان الطعام كثيرًا. كنت أخذت عروسًا لصديقتي الصغيرة عيوشة وقطعًا من السكر لمحمد، وضعاها جانبًا حتى يكرِّسَا وقتهما للغريب، وكل ذلك بهدوء ودون أي نوع من الاستعراض أو الاقتحام. حتى الطفل بدا أنه يمتلك غريزة الكرم وكان ممتلئًا بالابتسام. كل ذلك كان شيئًا من خير السيدة العجوز.. جدتهما في الأقصر التي أرادت أن تغسل ملابسي بنفسها لأني قلت مرة إن غسل عبد

محمد الأسود سيئ. تذكر أنه أن تقوم "بأعمال خدمات" للضيف هنا لهُوَ أمرٌ يدعوِ إلى الشرف والسرور وليس أمرًا محل ازدراء أبدًا. السيدات يطهونَ من أجلك، وتقول المرأة منهن "سأطهو أحسن ما عندي لك"، السيئ أنهم يجبرون الإنسان على تقبل هذا، الأسوأ أنهم يُتْخِمون الإنسان هكذا. عيوشة الصغيرة سألت عن أطفالي وقالت "ربنا يحفظهم ليكي! قولي للبنت الصغيرة إن محمد وأنا بنحبها من بعيد"، فيما أعلن محمد أنه خلال سنوات قليلة بفضل الله حين يصبح "بَلال" أو بالغًا -أي قادرًا على الزواج- سيتزوجها ويعيش معي. حين عدت إلى القارب ولأن "الأفندي" -الزوج- كان مريضًا بالربو لم أتركه يخرج معي في الحر -الرجل المؤدب يصحب ضيفه المحترم في عودته لمنزله أو قاربه أو خيمته- وهكذا تطوع الولد الصغير وركبنا حمار الأفندي، ووضعت ساقيَّ حول محمد الذي على حدبة السرج أمامي، كان سعيدًا بالقارب طبعًا وجرى في كل اتجاه ولعب حتى جاء عبد أسرته وأخذه إلى البيت وأبحرنا، لقد منحني هذان الطفلان يومًا سعيدًا بكرم ضيافتهما الحماسي اللطيف.

الرابع عشر من يوليو..

منذ كتبت هذا الخطاب انقلبَ المركب رأسًا على عقب بأعمال النجار والمنَجِّد ولا يوجد حتى مكان لأكتب، أنا في وضع أفضل لكن ما زلت أسعل كل صباح. رغم ذلك أنا أحسن وأتجاوز الاكتئاب العصبي الذي يجعلني أشعر بأني غير قادرة وخجولة أن أكتب. نجاري الشاب -المسيحي- نصفه سيرياني ونصفه قبطي، ذو عادات يونانية وأيضًا من القاهرة وهو ممتن لك. إنه لا يعمل يوم الأحد، وبدلًا من ذلك يأتي على ظهر حمار أسود طويل مرتديًا ملابس أنيقة ليزورني ويخرج معي في نزهةٍ راكِبَيْن، وهكذا ذهبنا أنا وهو وعمر إلى جامع "ستي السيدة زينب" لنبحث عن مصطفى بيك السُّبكي.. الحكيم باشي الذي عرفته في الأقصر. أخبرني حارس الجامع بأن أبحث عنه في محل بقال حدده لي إذ

صاحب المحل صديقه الخاص ويجلس عنده كل مساء، حين ذهبنا وجدنا باب المحل الجرار مغلق إلى أسفل، المحل مثل الصندوق يتم إرخاء جانبه -بوابته- عند إغلاقه ورفعُها عند فتحه، مثل كشك الإسكافي في أوروبا، كان البقال الشاب في حفل لزواجه ومصطفى بيك كان مريضًا؛ ذهبت إلى بيته في زقاق ودلني عليه خَصِيٌّ صغير ممن يكونون بين الحريم ووجدت صديقي القديم بائسًا جدًّا لكني أمضيت مساءً سارًّا معه ومع زوجته الصغيرة، والجارية الچورچية التي تزوج بها -وابنته من زوجته السابقة- والزوجة التي تزوج بها وهو في الرابعة عشرة من عمره والقزمة المهرجة للوالدة باشا أم إسماعيل باشا التي كسبت قلبها بالوقوف لها.. هي العجوزة جدًّا القبيحة. ضحكت بقية النساء لكن أحبت القزمةُ العجوزُ ذلك، كانت شركسية وتبدو ماهرة. ترى الآن كيف هي حقيقية ليالي ألف ليلة وليلة وصادقة، وكيف يجلس البكوات الكبار مع البقالين والنجارين دون أي تردد في معاملة متحضرة منهم للناس الأُمَرَا! هذا ما يجعل المجتمع العربي مستحيلًا ولا يمكن فهمه بالنسبة إلى معظم الأوروبيين.

صبيٌّ نَجَّارِي كان ابنًا لمُنْشِدٍ، وفي الليلِ كانَ معتادًا أن يجلس، وبصوتِهِ الطفوليّ ووجهه البريء المستدير يغني لنا أكثر أغاني الحب العميق، إنه في الثامنة من عمره تقريبًا ويغني بإحكام وتحكُّمٍ رائع لكن بلا تعبير على وجهه، حتى سألته عن أغنية مقدسة تبدأ بـ"لا أستطيع النوم من شوقي إليك أيها القمر المكتمل (النبي)" وعلى الفور ضربَ الشجنُ والدفءُ في أدائه وظهرت مشاعره.

ترك بَالجْرِيف في مسؤوليتي صبيًّا أسودَ صغيرًا يملكه، الصبي الآن في الأقصر حيث تركه بَالجْرِيف مريضًا جدًّا مع مصطفى أغا، أخبرني الصبي بأنه نيان نيان "آكل لحوم البشر" لكنه لم يبدُ مثل غُول، أرسلت إلى مصطفى أن يرسله إليَّ في أول فرصة، تعافى أحمد تمامًا من الحمَّى وقمت بأعمالي جيدًا دون خادمة وهذا يعني أنه يمكن أن أظل هكذا؛ الفارق في التكلفة كبير جدًّا، وعاد

السلام والهدوء أكبر من جديد، لا ضجر ولا ضرورات ولا قلق.. عمر يكوي ثيابي راضيًا والبحار يغسلها أفضل وأنا لا أريد حمَّامًا على أي نحو،ارتدي سترة واسعة أفضل من التجريب مرة أخرى، الأوروبي غير المتعلم ذو العقل الجامد مزعجٌ جدًّا حين يكون عنصرًا في الحياة العائلية للشرقيين؛ نوع العلاقة الأبوية القائمة على الطاعة والطريقة التبجيلية من الخدم للسيد الذي يحبونه بغيضةٌ للخادم الإنجليزي وأكثر للفرنسي، إذا وجدت ذلك عند امرأة مصرية أو حبشية سوف آخذها لكن بالطبع هذا نادر، العبد الخام لا يستطيع فعلَ شيءٍ ولا الفلاحةُ ولا المرأة القاهرية التي ترى الموت في الصعيد. بالنسبة إلى العناية والاهتمام فأنا لا أريد شيئًا؛ يقوم عمر بعمل كل شيء بفخر وسرور ويبتهج بالتوفير في الصرف على النبيذ والبيرة واللحم.. إلخ. الإنسان يستطيع إطعامَ ستةٍ أو ثمانيةٍ من المصريين جيدًا بما ينفقه لإطعام أوروبي واحد.

بينما كان هنا النجَّار وصبيُّهُ ومنجِّدَان.. كان يوضع أمامي طبق لطيف من الخضراوات المطهوة مع رطل من اللحم، ومعه دجاج أو حمام، ولي وحدي. اللحم بالخُضَر كان يوضع لكل الرجال مع رغيفين كبيرين -يساوي كل منهما قرشًا- لكل شخص وقُلة مياه، والحمد لله يتعشى أربعة رجال وولدان بارتياح. في الإفطار بطيخ وقطع من الخبز وكوب من القهوة للجميع. وأتعامل مع المصريين بكرم، بالطبع لا يستطيع أي أوروبي أن يعيش هكذا، يحتقرون المصريين ولا يفعلون ذلك بينما الخادم المصري لا يهتز حين يرى الأوروبي يحصل على كل أنواع الترف المكلف الذي يراه غير ضروري.

ما يفعله عمر الآن يبدو رائعًا، ويقول إنه يشعر كأنه سلطان ليس عنده من يَسُرُّه غيري.

الخامس عشر من يوليو..

أمس زارني المُنَجِّدَان كصديقين وجلسا وحَكَيَا حكاياتٍ، طلبت لهما قهوةً فقام أحدهما بإخراج السكر من جيبه ليضعه في

الكوب.. ما أضحكني من قلبي. الحكاية عن صياد سمك أوقفَ قاربه قريبًا من أجل حديث قصير، حكى له قصة اثنين من الصيادين أحدهما يهودي والآخر مسلم، كانا يعيشان في عصر الرسول -عليه أفضل الصلاة والسلام!- حين قذف اليهودي شبكته نادى نبيَّ اليهودِ وكان يرفعُها مملوءةً سمكًا في كل مرة.. المسلم نادَى نبيَّهُ محمد وابتهل إليه وكان يرفع الشبكة وفي كل مرة لا يجد إلَّا الحجارة.. حتى قال اليهودي "اذهَبْ يا رجل.. أنت تجلب لنا سوء الحظ، هل أستمرُّ حتى آخُذَ نصفَ حجارتِكَ وأعطِيَكَ نصفَ سمكي! ليس هكذا".. فذهب المسلم إلى نبينا محمد وقال "انظُر. لقد ذكرتُ اسمَكَ حين ألقيتُ بشبكتي لكنها خرجت فقط بالحجارة والقشر! كيف حدث ذلك؟".. قال له النبي المبارك "لأن قلبك أسودُ في داخله وتفكر في بيع السمك بسعر ظالم، وتحتال في الميزان على الناس، بينما قلب اليهودي أبيضُ أمامَكَ وأمام الناس، ولذلك استمع الله له ولم يستمع لك". أتمنى أن يزدان صيادونا بهذه الأخلاق، لديَّ أيضًا قصصٌ جميلة عن رئيس الغواصين بالقاهرة الذي جاء يفحص قاع سفينتي وحدثني هامسًا بحكاية طويلة عن سقوط جدِّهِ أسفلَ ماء النيل حيث أرضٌ يعيش فيها ناس يربون التماسيح لتصطاد لهم الأسماك.. أعطوهُ كيسًا من القماش مملوءًا بقشر الأسماك وقالوا له ألَّا يعودَ أبدًا ولا يتحدث لأحد عنهم.. وحين وصل إلى البيت تحول القشرإلى نقود. لكن الحكاية الأكثر روعة بينها كانت حكاية الحاجة هنا عن حياتها الخاصة، ورحلة أم عمر حاملةً أمَّهَا العجوزَ في سلة على رأسها من دمياط إلى الإسكندرية وهي تسحب عمر الصغير وقتها بيدها.. إن طاقة النساء هنا مذهلة.

مياه النيل ترتفع بسرعة ويأتي البشير -المراسل الذي يسبق الحاج ويأتي بالخطابات-، والبشير من البشرى لتفهم الصياغة، قلوب كثيرة أنارت اليوم وقلوب كثيرة كُسِرت. سأذهب إلى العباسية لأقابل المَحْمَل وأرى وصول الحُجَّاج. يوم الجمعة القادم عليَّ أن أُخرِجَ دهبيتي من المياه.. أو على الأقل أُميلها كثيرًا

لإصلاح ما أصيب منها في الإسكندرية، لقد عالجتُ رِيّسَ مركبِ الباشا في المنيا من الدوسنتاريا ولم ينسَ ذلك، ومن ثم فالريّس عوض سيعطيني مكانًا جيدًا على ظهر مركب الباشا وسيُعيرُني الحبال والروافع التي ستوفر كثيرًا من التكلفة وتخفف الأزمات. سأنقل نفسي وكل الأشياء إلى مركب عائلة زبيدة لأربعة أو خمسة أيام وأبقى قريبًا لأتابع أعمال اللحام.

مِس بيري مملة.. لا شك في ذلك، لكن أستطيع أن أقول لك إن قليلًا من الكتب يبدو مملًّا لي الآن. ابتهجتُ كثيرًا بقليل من المقاومة، مِس إِيدِن لا أرغب فيها؛ هذا النوع من المسرح الهزلي الذي يُظهر عادات بلدٍ غريب.. مضجرٌ غيرُ معبرٍ لشخص متعايش مع بلدٍ قريبٍ منه. هناك كثير مما يُضحِك حقيقةً يمكن تناوله هنا لكِن هذا النوع مضحك فقط لأهل لندن، أتمنى جدًّا أن أقرأ كتاب باكَر Baker,s Book.

أنا مسرورة جدًّا بكتاب الأمير عبد القادر[86] الذي أرسله لي دوزون Dozonومتشوقة إلى أن أُهديَ الشيخَ يوسف الطبعةَ الأصليةَ لأُرِيَه أن كلينا مدعومان بمثل هذه السلطة التي للأمير العظيم في فهمنا للوحدة الحقيقية للإيمان . الكتاب خليط مثير من المعاني الجيدة وسهلة التصديق يمثّل العرب تماما ..سأكتب ورقة بهذا المعنى عن المعتقدات الشائعة في مصر وستكون حسبما أعتقد شائقة، بالمرة أرى في الصحف والموضوعات تخمينات متخيَّلة عن مؤامرة محمدية، بسبب الأعداد الهائلة جدًّا من الحُجَّاج العام الماضي من كل مكان إلى مكة.

في العام الماضي جاء يوم تضحية إبراهيم -وهو لذلك يوم الحج- والوقوف على جبل عرفات وكان يوم جمعة، وحين يحدث هذا يكون هناك دائمًا حشودٌ كبيرة وَفقًا لتصور العامة أن حج يوم الجمعة بسبع مرات من الحج، أو على الأقل كما لو كنت قمتَ به سبع مرات في العمر، ولأنه يمكن لأي متسول في الطريق أن يقول ذلك لرجل.. فسيعطيك ذلك فكرة كيف بلا عقل يصنع الناس نظريات بعيدة عن كل شيء من أجل الحصول على قليل من

العدل.

لقد حلَّ "مولد النبي"، عليَّ أن آخذ مكانًا في خيمة الدراويش الضخمة لأرى "الدوسة".

النيل يرتفع بسرعة، سنذبح الشياه الصغيرة السوداء التعسة يوم افتتاح القناة، وسيكون هناك حفل في الليل، أنا حزينة على قِطّي الأبيض الصغير الذي ينام كل ليلة على عنق الخروف الصوفية ويحبه كثيرًا.. بوسي -بِس هي العربية-. لقد كان هدية من ولد قبطي في الأقصر وهو قط مرحٌ جدًّا ونشيط جدًّا وأكثر رشاقة ومرونة من القطط الأوروبية. هو وأحمد والخروف يلعبون ويمرحون في صخب، نقش عمر قلبه علامةًعلى ختم إنجليزي محاطٍ بحجر بيضاوي لينقشَ عليه اسمه، هنا كما تعرف يوَقِّعون الورق بالختم لا بالقلم، لا بد أن تكون صلبًا لتواجه العمل الصعب.

حسنًا.. يجب أن أنهي هذا الخطاب الذي لا ينتهي، وصلني بوكيه ورد من حديقة الباشا، أحضره لي ابن أخت شخص ما خادمٍ لكبير الخصيان، دائرة كبيرة من الورد القرمزي محاطة بالورد الأبيض والأخضر طويلة العيدان حول كلٍّ منها عقد من زهرة المسك، ويخرج منها كزهرة كبيرة ذات أوراق بيضاء، البستانيون العرب يتفوقون على بائعات الزهور الفرنسيات.

إلى السير ألكسندر دوف چوردون

القاهرة - 17 يوليو 1866

أَلِيك الحبيب..

أنا الآن مرتاحة في حياتي المنزلية؛ الريس يعمل جيدًا وبثبات وعناية وكأنه آكلُ لحوم بشر متوحش، عمر بالطبع يعمل بلا كلل.. يذهب إلى السوق، يطهو، ينظف، يكوي، وبشكل عام يحافظ على كل شيء في نظام جميل، لكنه لا يريد أن يسمع عن خادمةٍ من أي نوع.. لا دهشة!

الريس العجوز جاء وعايَنَ قاع السفينة، ويقول إنه يستطيع إصلاحها دون إخراجها من المياه.. سنرى، سيكون حظًّا عظيمًا إذا استطاع ذلك، ولأني طبيبة النهر فكل المبحرين من الرجال سعداء بمعاملتي بتحضر.

هذا الصيف هو الأحَرُّ، الحرارة الآن 98 درجة فهرنهايت في الكابينة، أشعر بتعب كبير، لكن شياطيني الزرقاء ذهبت وصرتُ بخير تمامًا. أي حرب بائسة في أوروبا! إنني مشتاقة للصحف القادمة، هنا بؤس مالي.. الباشا يقترب من الإفلاس ولم يتقاضَ أحد يوميةً خلالَ هذه الشهور الثلاثة، حتى الستون قرشًا شهريًّا -سبع شلنات- التي كانت منحة للنساء العبيد العجائز منذ عهد محمد علي قد توقفت.

الرابع من أغسطس:

الحَرُّ باقٍ وهناك شيء فيه مخيف.. نحن نلهث وننفخ، لا أستطيع أن أفكر فيما يعنيه بَالجْرِيف بكَوْني متعبةً بسبب مصر العجوز الفقيرة. أنا سعيدة جدًّا ومرتاحة، فقط أشعر بالضعف الإضافي والتوعك هذا العام، وشيء مثل "الوَحَم" كما يقول المصريون عن الحوامل، جعلتني الحرارة أيضًا كسولة؛ إنها 110 في الكابينة و96 في الليل.

رأيت مولد النبي و"الدوسة" الرائعة، إنه مشهد مهيب ومن ثمَّ كثير من الناس سكارى بالحماس الديني.[87]

ذهبتُ أيضًا إلى الحرملك التركي حيث أرسلني أصدقائي الدراويش، إنه بالضبط مثل حفل شاي في قاعة هامبتون.. النساء أنيقات، ليس كسيدات، لكن بالملابس والأثاث والمجوهرات، ولا توجد قطعة مثل الموصوفة في الكتاب غير العادي لمدام لوت Mrs Lott. لا شيء نظيف جدًّا ولطيف مثل الحرملك التركي، الأثاث ألماني نظيف وشُخُوصه لها طابعها الخاص لكن.. أوه.. كم يشعرن بالملل والحزن! سيدة حلوة قالت لي "إذا كان لديّ زوج وأطفال أفضل أن أموت مائة مرة ولا أتركهم ساعة"، أخرى حسدتني على جرأتي بالمشي في الشوارع ومشاهدة الدوسة، إنها لم ترها قطُّ ولن تستطيع.

غدًا سيتعشى هنا أولاجنييه ويقضي الليلة، ليرى قطع الخليج و"عروس النيل" في صباح الاثنين. سوف نبحر إلى القاهرة القديمة في المساء، أيضًا ستأتي الحاجَّة "هَنَا" إلى الحفل، بعد ارتفاع النيل سنأخذ القارب خارجه ويقوم العمال بصيانته. إذا استمرت الحرارة المفرطة سأفكر في رحلة لشهر في بيروت لأنعش نفسي. الحاج علي هناك ومعه كل أدوات السفر والخيمة ومن ثم أريد فقط أخذ عمر وحوض الحمَّام وسجادة، إذا صار الجو باردًا سأبقى في سفينتي. الحرارة قاسية هنا أكثر مما هي في الأقصر منذ عامين، إنها ليست جافة تمامًا. نائب السلطان يخشى الكوليرا، ويرعب الحجاج البؤساء هذا العام بـ"الكرانتينة" التي لا فائدة منها. تم تهريب المحمل إلى القاهرة قبل شروق الشمس وليس في الساعة المعتادة وكل المتابعين والمحتفلين شعروا بالخيبة، وكل المسلمين الطيبين شعروا بالإهانة الكبيرة. فكرة أن الباشا أعاد المسيحيين أو حتى اليهود انتشرت بسرعة، سمعتها في كل مكان. الفرمان الجديد الذي يمنع كثيرًا من أولاده من الحكم بالطبع مقبول عند المسلم المُخلص كقانون لمعاقبة تعدد الزوجات في العائلة الحاكمة لنا.

-88-

إلى السيرألكساندر دوف چوردون

بالقرب من بولاق - 20 أغسطس 1866

أَلِيك الحبيب..

منذ كتبت أُصِبتُ بهجوم حاد من "الصفراء" التي بالطبع زادت من سعالي. كل واحد أصيب بها وأسوأ مني لكنني كنت بائسة جدًّا وخجلى من شكلي، قال عمر "إنه ليس أنتِ لكنه المرض"، حين رآني أُخطئ في كل شيء وكان هذا حقيقي جدًّا، ما زلت مليئة بالبثور، أيضًا -بعيدًا عن الروتين- مستاءة مما يحدث لمركبي. ذهبت إلى "قطع الخليج" لأرى المشهد العظيم لـ"عروس النيل".. مشهد محبب، وفي العودة أسرعنا وتركت قارب عائلة زبيدة به كل أشيائي، وجذبنا قاربي ووجدنا قاعَهُ خربًا من المقدمة إلى المؤخرة ومن ثم أنا هنا بين تجار الأخشاب والمناشير وكل شيء ينفع لنعيد بناء قاع المركب. قال ريِّسي إنه "حملها على رأسه طول الوقت"، لكن "ماذا يستطيع الواحد في مواجهة كلمة خواجة مثل أمين مخزن روس؟ "عندما يغش الإنجليز بعضهم البعض لا يبقى شيء إلا اللجوء إلى الله. اشترى عمر الخشب وراقب العمل ومعه الريس وبدا العمال جيدين ويتعاملون بلا تحيز، كنت أدفع يومًا بيوم ولديَّ كاتب يكتب الحسابات المالية، إذا تكلفت مائة وخمسين جنيها سأفكر أن عمر فعل المعجزات لأن كل ذرة يجب تجديدها، لم يسبق أن رأيت شيئًا يُفسِدُ شيئًا طافيًا، إذا صعدت إلى الشلال لن أعود حية أبدًا.. إنها معجزة أننا لم نغرق منذ وقت طويل.

وصل مبروك صبي بَالجْرِيف مشفيًّا وصار بحالة جيدة، إنه سمين وشجاع أخرق ولديه روح دعابة لا تنتهي وليس غبيًّا بالمرة، ويضحك كزنجي آكل لحوم بشر حقيقي فيعيد النسائم العليلة والجبال الحُمْر لرأس الرجاء الصالح أمامي حين أسمعه. حين

أطلب إليه فعلَ أي شيء يفعله بنشاط ثم يسأل "طيب.. هل هذا جيد؟"، وإذا قلت "نعم" ينصرف، وكما يقول عنه عمر "مثل مدفع في وجه صاحبة السمو"، ومبروك يقهقه راضيًا. أحمد الذي هو في نصف حجمه يأمره ويعلمه في جو من الفخر ويقول لي مشفقًا "ترين يا سيدتي أنه جديد تمامًا.. لسَّا أخضر خالص"، أحمد الذي لم يسبق له أن رأى ملابس أو شيء من الحياة الأوروبية قبل عامين.. الآن خادم رشيق لديه أفكار مميزة للجلوس إلى المائدة، ينظم أشيائي.. إلخ. ويطهو بمهارة تامة، الأولاد العرب مدهشون، رقَّيته ليحصل على واحد نابليون في الشهر وهكذا منذ الآن سيساعد عائلته. إنه أطول من ريني.

أنوي أن أكتب عن الاحتفالات والعادات المختلفة للقبط والمسلمين، لكن عليَّ أن أنتظر لأرى عيد الشهيد أبو سيفين قرب الأقصر.. القديس المسيحي العظيم حيث يذهب الجميع للشفاء من ركوب الشيطان لهم.. كل المجانين. شنَّ نائب السلطان -الخديوي- حربًا شعواء ضد كل الاحتفالات والعادات، أُخفِيَ المحمل هذا العام وتم منع مولد طنطا -مولد السيد البدوي- ثم أفسد الأوروبيون كل الاحتفالات، فالمصريون لم يعودوا يذهبون إلى قطع الخليج ولا إلى الدوسة، ومركبات الإفرنج كانت مثل سباق الدِّربي في إنجلترا، فقط في جنوب البلاد بقيت الأشياء الحقيقية.

غدًا سيتم ذبح خروفي الأسود المسكين فوق مقدمة مركبي، ستجري دماؤه فوقها، وستُسْلَق لحومه ويأكلها كل العاملين في المركب لحمايته من عين الحسود. وفي اليوم الذي سيبحر فيه سيقرأ الفقي القرآن في الكابينة، ومرة أخرى سيكون هناك لحم ضأن مسلوق وخبز. "المعلّمين" الأقباط يقيمون مثل هذا الاحتفال بالخروف مثل الآخرين تمامًا وعادة يفعلون ذلك بَرَكَةً للبيوت والقوارب والطاحونة والساقية الجديدة وكل جديد.

هل قلتُ لكَ إنه صار لعمر فتاة أخرى منذ نحو شهرين؟ كان على زوجته وأطفاله أن يأتوا من الإسكندرية ليَرَوه لأنه لن يتركني في

أي وقت باعتبار مرضي وضعفي المستمر. آتمنى إن متَّ بعيدًا عنكم جميعًا أن تفعلوا شيئًا لعمر لأجل خاطري، لا أستطيع تصور ماذا كان يمكن أن أفعل دون عنايته المخلصة وحبه، أنا لا أعرف لماذا هو هكذا يكرس غرامه لي لكنه بالتأكيد يحبني كما يقول "مثل أمه"، وأكثر من ذلك مثل ابن عطوف جدًّا يحب أمه. كم سيكون جميلًا إذا استطعتَ أن تأتي.. لكن في وقت لا تخاطر فيه بأي تعب أو تعرُّضٍ للبرد في عودتك، إذا لم تستطع أن تأتي سأذهب إلى الأقصر مبكرًا في أكتوبر وأعيد إرسال القارب للإيجار. سمعت عن الأقصر أن الناس كلهم يهربون من الأراضي غير قادرين أن يدفعوا الضرائب التي تضاعفت ثلاث مرات ولا حتى أن يأكلوا الخبز.. الخراب عام. شيخ البلد البائس الذي كان له شرف العشاء مع نائب السلطان في المنيا تعرض لابتزاز مالي من الإدارة، إنه شيطان بائس أعرفه كان عليه أن يقدم "هدية" من 50 صرة نقود!

كيف حال حبيبتي ريني؟ أشتاق كثيرًا إلى عينيها الجادتين كل وقت، وأتساءل هل سأكون يومًا قادرة على أن أعود إليكم جميعًا مرة أخرى! أخشى أن يكون سقوطي في Soden سببًا في سقوطي من الشرفة، لم أفقد الألم والسعال ليوم كامل، لم أخرج مع أحد ولم أرَ أحدًا، هل ستعرف الزوجة التي في حضنك وهي في سروال ورديٍّ وسترةٍ تركية؟ هكذا وأنا أكتب.. المرأة التي جاءت للخياطة لم تستطع عمل فستان فخاطت لي بنطلونًا بدلًا منه، وداعًا عزيزي، أستطيع بصعوبة أن أقول كيف جعلتني إشارتك بإمكانية الحضور راغبةً في ذلك وأخاف أن أحفزك؛ الحرارة شديدة علينا تمامًا مع ارتفاع النيل، والهواء على النهر نقي وبارد.. بارد في الليل أيضًا.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بالقرب من بولاق

27 أغسطس 1866

أَلِيك الحبيب..

وصل اليوم خطابك المؤرخ في الثامن عشر من هذا الشهر. أنا سعيدة جدًّا أن عرفتُ أنك في حال أفضل، مازلتُ أعاني البثور لكن ليس إلى درجة سيئة، كل الناس مريضون هذا العام، إنني أوزع "الكالوميل" و"الجالِب" في كل مكان حولي باستثناء نفسي.

في اليومين أو الثلاثة الماضية كنا في محنة كبيرة خوفًا على المركب. يوم السبت انتهى العمل في كل ثقوبه والخشب والموانع جاهزة للتركيب، لكن النيل شهد اندفاعًا في مياهه وهدد بحملها بعيدًا، بفضل أبو الحجاج والشيخ البسطاوي تم إنقاذه بمهارة. تتذكر رجل الدفة الطويل الذي ذهب معنا إلى البدرشين والذي ظنناه مريضًا؟.. إنه يعمل على دهبية قريبة ونادى كل الريسين ورجال الدفة للمساعدة "يا رجال البسطاوي هذه سفينتنا.. كلنا خدم لمالكها، وما يحدث لها في وجوهنا"، ثم قدم المثل تعرَّى وحملَ ترابًا وصار يجعل منه أكوامًا طوال الليل.. وعند الصباح صارت محاطة بحواجز بارتفاع الصدر. رجال شاطئ بولاق الطويل لم يفاجَؤُوا برؤية الريسين المحترمين يعملون مجانًا مثل الفلاحين، أثناء ذلك كان "معلّمِيني" الثلاثة.. رئيس البنائين وعامل الجلفطة ومراقب العمال.. قد انتظروا طوال الليل مع عمر وريِّسي الذي عمل كالباقين، وذهب شيخ كل بنَّائي المركب ليزور واحد من معلميني الذي كان ابنَ أخيه وعرف أن حالة المركب تتدهور كل يوم، وبينما كان العمال يمرون ذاهبين إلى أعمالهم المحترمة ناداهم قائلًا "تعالوا وأنهوا العمل في هذا

المركب، لا بد أن ينتهي العمل فيه مساء غد"، تلقّى بعضٌ ممن اعترضوا وقالوا إنهم ذاهبون إلى حوض الباشا لبناء السفن ضرباتٍ سريعة، وفي النهاية وجدتُ ستة وأربعين رجلًا تحت مركبي يعملون مثل "العفاريت والشياطين"، حين ذهبت لأرى في الصباح ما يجري.. حدد الشيخ العجوز مكانًا لكل أربعة رجال ثم قال "إذا لم يتم عمل هذا الليلة يا كلاب.. غدًا سأرتدي البرنيطة. اليوم أضربُ باعتدال كمصري لكن غدًا بفضل الله سأضرب كإفرنجي وكمجنون بالعصا".. إيجاز حلو. المركب الذي كان أمس هيكلًا انتهى العمل به الآن والساعة الرابعة عصرًا؛ تمت الجلفطة وسُدّت الثغرات وكل الأعمال الرئيسية، وهكذا إذا أذاب النيل السدود التي أقاموها في الماء سيسبح المركب جيدًا وآمنًا، الشاطئ مغطًّى بالحطام الناتج عن المراكب الأخرى التي لم ينتهِ فيها العمل. أعتقد أن حماسة المعلم وشيخ البنائين غير المعقولة لواحد من أعمالي تعود إلى كياسة المصريين. في اليوم الذي ذبح فيه عمر الخروف -خروفي الأسود- فوق المركب وأسال دمه عليه جاء المعلمون الثلاثة إلى السطح ليتناولوا الطعام واتَّبعتُ التقليد العربي القديم وأكلت على "الطبلية" معهم ومع الريس لِحُسن الحظ أو للبركة كما نقول هنا، وكان هذا مصدر رضا كبير.

لقد بكى الريس عند ذبح خروفي الأسود الذي كان قد اعتاد أن يتبعه إلى المقهى أو إلى السوق، وكان بالنسبة إليه مثل ابنٍ كما يقول.. لكنه رغم ذلك أكل منه، اقتطع عمر بشكل خرافي أفضل القطع تكفي لعشائي لثلاثة أيام؛ عيناه على الاقتصاد. ثم أشعل النار بخشب قديم مستعيرًا قِدرًا من أحد الدراويش، قطّع الخروف، أضاف إليه الماء والملح والبصل والتوابل وسلقه معها، ثم امتلأت الصينية النحاسية الكبيرة بالخبز المكسر إلى قطع وعليها صب الشُّربة ببطء حتى نقع الخبز، ثم وُضِعت طبقة من الأرز المسلوق وأعلاها قطع من اللحم المسلوق، وفوق الجميع صُبَّت الزبدة والخل والتوم المغلية معًا.. هذه تسمَّى "فتَّة"، وهي

الطبق الديني الذي لا يتغير للدراويش وتقدم مع كل "خاتمة" وفي المناسبات الأخرى شبه الدينية والاحتفالات وأيضًا صدقة، إنها رائعة وليست مكلفة. سألتُ "كم شخصًا أكل؟"، قالوا "مائة وثلاثون" وقبَّلوا يدي. لقد أنفقت مائة وستين قرشًا في الخبز والزبد والخل.. إلخ. والخروف كان يساوي اثنين نابليون، أي أنفقت ثلاثة نابليونات إجمالًا أو أقل قليلًا لأني وفرت طعامًا ليومين من لحم الضأن.

المعلمين الثلاثة أتوا إلى هذا القارب كما قلت وأكلوا، وكان جميلًا أن نسمع الجميع بأدب.. "حتة كمان يا معلم".. "الشكر لله أكلنا كويس وسنعود لعملنا".. "والنبي قهوة ودخان".. "الحقيقة أنتِ من أكثر الناس نُبلًا".. "أوه يا معلم شرفتنا وأسعدتنا".. "الحق دا يوم أبيض بين الأيام"..إلخ.

مهندس مصري ماهر هو تلميذ لمدرسة وايتوورث يعيش في قارب إلى جوار قاربي كان مسرورًا جدًّا وقال "أوه.. أنتِ تعرفين كيف تديرينهم".

عرفت حكاية الميتَيْنِ اللذَينِ التصقا بسلسلة مرساتي من قبل، لم يكونا أوروبيين كما اعتقدتُ بل شركسيَّيْن.. شاب وأمه، اعتادت الأم أخذه إلى زيارة زوجة موظف صارت من حريم أم الباشا، الزوج أمسك بهما وقتلهما وربطهما معًا وألقى بهما في النيل قرب الروضة وسلم نفسه للبوليس، كل ذلك تم التكتم عليه، ذهبوا به إلى فاظوجلو ولا أعرف ماذا حدث للجارية زوجته. هذا النوع من الحوادث يحدث كل يوم بين الأتراك والأجساد شاهدة لكن لا يسمع عنه الأوروبيون. لقد سمعت عنه بالمصادفة الغريبة.

الرابع من سبتمبر..

سينتهي العمل في مركبي بسرعة والآن صار جيدًا كأنه جديد، عمر يعمل باجتهاد كبير من الصباح إلى الليل باحثًا ومشتريًا كل المواد، مشتريًا كل الخشب والحديد القديم.. إلخ. وكل الأعمال

الرئيسية انتهت. سآخذ شهادة ورقية من معلمي الذي هو من رجال الطبقة الأولى تشهد بما فعلوه وأن المركب جيد كأنه جديد، جودة أفندي تابع السفينة مرات عديدة من أجلي ووافق على الأعمال التي تمت، لم يحدث أن رأيت رجالًا يعملون يوميًّا بشكل أفضل مما رأيت من هؤلاء الذين عملوا في مركبي، جميل أن ترى النجار يمسك الخشب بيد واحدة ويحمله على قدم واحدة بينما ينشره جالسًا على الأرض مثل لوحة جدارية قديمة، هل تتذكر الصورة المنحوتة لبناء المركب في المقبرة في هرم سقارة؟ حسنًا.. إنه مثله تمامًا؛ كل شي يتم بالقطع والنحت، وهكذا أستطيع أن أقول لك إنه عمل قوي.

إذا لم تأتِ -وأنا لا أحب أن أضغط عليك إذ أخاف أن تتعب وأن تعود في الشتاء البارد- سأذهب إلى الأقصر بعد نحو شهر ومن هناك سأعيد المركب للإيجار. لديَّ جارٌ الآن هو جُودة أفندي، مهندس درس في إنجلترا وتزوج منها، زوجته سافرت إلى هناك مع أطفالها وهو يعيش في مركب قريب مني ولذلك يأتي في بعض الأماسي وأنا سعيدة بصحبته، إنه شخص مستقيم خيّر وذكي جدًّا.

حبي الكبير لكل من في البيت.. حصلت على زند من خشب الأرز اللبناني وابتلع نجاري المسلم الذي قام بتنعيم النهاية المكسورة النشارةَ الساقطةَ منه لأنه يؤمن بأن سِتِّنَا مريم جلست تحت شجرة الأرز مع سيدنا عيسى.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

خارج بولاق

21 سبتمبر 1866

أَلِيك الحبيب..

أنا الآن عدتُ أفضل وأذهب مرتاحة جدًّا إلى كل مكان مع صبيَّيَّ، عمر من الفجر حتى المساء يعمل في مركبي ومن ثم معي فقط مبروك وأحمد، وستَعْجَبُ للخدمة الجيدة التي تقدَّم لي، أحمد يطهو عشاءً جيدًا، يعتني به ويأمر مبروك بما يريد. أحيانًا أُصَفِّرُ معجبة وأنا أتناول الخضر صافية من الماء، أو لتعثر أحمد في الماء الجاري ووقوعه على أنفه ومظهره كنصف إله إغريقي حول نافورة من العصور الوسطى بردائه الأزرق وعلى رأسه غطاء، مبروك ولد أخرق جدًّا سمين جدًّا، أهوج لكنه ليس غبيًّا بل خيِّرٌ جدًّا وطيِّع.. ستبتهج بقهقهاته، أما ألعابُه الحلوة وضحكُه من القلب على ما أفعله فيسُرُّني جدًّا. ولد يسبح من قارب جودة -هو أحمد الذي يخصه وليس أحمد الذي يخصني- فينضم إليه آخرون ويكون هناك سباق للقرصنة وسرقة كبيرة للقدور الحُمْر من مركب القدور، المضحك أن ذلك يحدث تحت أنف مالك المركب! ويسبح السارقون ملوحين بها بينما يناديهم رجل المركب بلغة المندهش والأولاد يتجاهلونه وكل منهم سعيد جدًّا، أتمنى فقط ألا يعود بَالجْرِيف مثل نمرود قويا في طلبه ويأخذَ مبروك لأنه صار ماهرًا.. ليس في سرقة الأواني لكن في عمله؛ إنه يغسل ملابسي بطريقة حسنة حقًّا، ذراعاه القويتان خُلقتا لغسَّالٍ للملابس.

أحمد يتطلع بشوق كبير إلى قدومك، مجنون بالرغبة في السفر إلى إنجلترا وفي روحه خطةٌ للتواصل معكَ وأن يصبح خادمًا عموميًّا، إنه صغير على هذا، أكبر من طفل في السابعة.. لكنه ولد مصري لا شك في هذا أبدًا ويقوم بالخدمة بشكل يدعو إلى

الإعجاب، ماذا يمكن أن يقول طاهٍ إنجليزي محترم حين يرى طبقين من الحلوى تم طهيُهُما على نيران الخشب القديم بين قوالب قليلة من الطين بواسطة طفل بجلباب أزرق؟ ومطهوة جيدًا جدًّا أيضًا.. ثم بعدها يقدم قهوةً لا تقارن.

هل يمكن لك أن تدخر إجازاتك وتأتي هنا لأربعة أشهر مع موريس في الشتاء القادم؟ في كل الأحوال ربما تضجر من الإبحارعلى النيل، الناس يفعلون هذا في نشوة كبيرة أو في ضجر. أنا سعيدة لأني سمعت من جانيت أنك بخير.. أنا أفضل كثيرًا. سينتهي عمل النجار في المركب اليوم ثم يبدأ الدهان وفي أسبوع إن شاء الله سأعود إلى هنا.

إلى السيدة أوستِن

بالقرب من بولاق

21 سبتمبر 1866

أمي الحبيبة..

من جديد أنا أفضل كثيرًا، الطقس منعش والنيل يفيض بقوة مما يجعل مشهده من المركب جميلًا جدًّا. أَلِيك أسالَ لعابي بوصفِه رحلته مع جانيت إلى إقليم سُرّي[88] Surrey country القديم الجميل، اصطحابها معه يبدو قد أراحه تمامًا. لم أرَ شيئًا ولا أحدًا إلا جاري في المركب الخلفي جودة أفندي، لأن عمر في العمل طوال اليوم في المركب وأنا أشعر بالكسل وغير متعلقة بالخروج وحدي. حسن السائس العجوز أيضًا صار كسولًا جدًّا ولا أهتم بأن أخرج وحدي مع صبي صغير، رغم ذلك أخرج بين أفضل الهواء طوال اليوم وأتحسن كثيرًا. صبياي الصغيران منتبهان جدًّا ويخدمانني جيدًا جدًّا، الأخبار من أوروبا بسبب جهلي بها محزنة وتعيدني إلى الاستبداد العسكري الذي كان محل سخطنا الكبير أيام آبائنا. أحصل على كثير من الصحف من روس التي تذهب بعد ذلك إلى البقال الذي يقرأ التايمز وساترداي ريفيو في دكانه في السوق! ماذا بعد؟ حمولة الكتب التي أرسلتِها وأَلِيك ستكون مناسبة جدًّا للاستهلاك في الشتاء، لو كنت رسامة لرسمتُ من تراث المسلمين صورًا عن يوسف ومريم، يجب أن تعرفي أن يوسف لم يكن عجوزًا أنيقًا ذا لحية بيضاء، لكنه كان صغيرًا محبوبًا وطاهرًا مثل "سيدتنا" نفسها، لقد كانا أبناء عم كبرا معًا وكانت تتجنب اللغو مع الفتيات الأخريات وتعودت أن تذهب إلى البئر بإنائها الفخاري يدًا بيد مع يوسف الذي يحمل وعاءه، بعد أن أعلنها الملاك جبريل بإرادة الرب ونفخ في روحها فاستقبلت روح الرب، رأى يوسف فزعها وكان الحل أن يقتلها كواجب عليه

باعتباره الأقرب من الرجال إليها، تبعها والسكين في يده مقررًا أن يقتلها تحت الشجرة التالية وفي كل مرة بعد كل شجرة يخونه قلبه حتى وصلا إلى البئر والشجرة التي تحتها يقف الملاك المبعوث المقدس مرة أخرى ويقول "لا تخف يا يوسف.. ابنة عمك تحمل بداخلها عيسى.. المسيح.. روح الرب"، تزوج يوسف بابنة عمه دون خوف. أليست حكاية جميلة؟[89]

النموذجان الشابان للنقاء والورع يقفان يدًا في يد أمام الملاك، أعتقد أن هذه صورة لا بد للرسام أن يضفي فيها جمالًا على الشاب رقيق العينين حاملًا إناءه على كتفه -هي تحمل جرَّتها على الرأس- وكذلك يفعل الرسام مع الفتاة العذراء الجليلة البعيدة عن صحبة المدنسين.

الآن أعرف كل شيء عن الشيخ سليم ولماذا يجلس عاريًا على شاطئ النهر مِن شيخ له نفوذ كبير ضاع كل نفوذه، كان قد عهد إليه -في رؤيا- بالعناية ببعض الجِمال المقدسة مثل تلك التي ركبها النبي إلى أورشليم ذات ليلة والتي لا يراها إلا المختارون، فقد واحدًا منها وهو الآن سجين لله حتى يجده.

خطاب من الخالة تشارلي كله عن حياتها وريني في الريف.. أعياد المدارس.. إلخ. جعلني أبكي تمامًا وجسّد أمامي بوضوح شديد الفرق بين الشرق والغرب، ليس تمامًا لحب الوطن كما يتصور معظم الناس. ما يبعث على السرور هنا هو الحياة البدائية، ثلاث مرات منذ صرت هنا يأتي أولاد من أكثر العائلات احترامًا في الأقصر ويطلبون الضيافة على ظهر المركب والحرية في أن يغمسوا خبزهم في الطبق العام مع عبدي الصغير وأحمد، أحضروا الخبز معهم، لا يسألون عن الخبز والماء حيث ينامون منفردين، في إنجلترا عليَّ رفض الضيافة باعتبار الضيق والتكلفة، أهم شيء للأولاد كان الاحترام لكونهم تحت عيني بينما هم بعيدون عن آبائهم وهذا ما يرضي عائلاتهم، وبينما كانوا يأكلون وينامون مثل المتسولين -كما نقول- كانوا يقرؤون كتبهم ويتحاورون معي حين أكون فوق سطح المركب بتعبيرات رصينة

كلها تحمل الاحترام الخاص لعمري، أفكر في الأيتام ومعاهدهم وكل الصعوبات التي لا تحصى فيها، وأتعجب لأنهم لم يقولوا شيئًا عن غياب مظهر التمدين في السكاكين.. والشوك.. الأسرَّة.. الجعة، المهم وجود المناضد للجميع.

وداعًا حبيبتي أمي. اليوم هو يوم البريد والريس محمد على وشك المضي إلى البلدة مرتديًا عمامته البيضاء اللامعة ومعطفه الأسود الكبير، زوجته الأولى التي كان سيطلقها لحاجته إلى الأطفال أنجبت له ولدًا ولقد ضحكنا منه قليلًا لما سيجده في الأقصر من الثانية، وتمنينا له اثنين أو "دستة" من الأطفال.

-92-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

القاهرة - 15 أكتوبر 1866

أَلِيك الحبيب..

عدت إلى قاربي منذ أربعة أيام وهو مريح جدًّا، كبَّرتُ الصالون وصنعتُ منضدة جيدة للكتابة ومقاعد كبيرة منخفضة سهلة الجلوس عليها بدلا من المقاعد العالية، وأضفتُ حجرة مؤن وحجرة نوم في المقدمة وهكذا لا يكون على عمر أن يأتي للنوم في الصالون ويصبح كل الجزء المخصص للحريم لي أنا، كذلك في المؤخرة غرفة كبيرة وخزانة غسيل وغرفتان صغيرتان مع أسرَّة طويلة بما يكفي حتى لك. إن شاء الله تأتي أنت وموريس الشتاء القادم وتصعدان أعلى النيل وتستمتعان به معي، أنوي الإبحار في عشرة أيام ثم أعيد إرسال السفينة أورانيا للعمل في الشتاء. كانت لدينا فرصة ضيقة للهرب من أن تفيض علينا المياه هذا العام، أخشى أن يكون قد حدث دمار لمحاصيل الذرة والقطن، لقد كان محزنًا أن ترى القرويين يقتربون ويحاولون أن يخلعوا القليل من عيدان الذرة الخضراء لأن النيل أغرق الحقول.

كنت مضطرة إلى ضرب مبروك أمس بسبب تدخينه، جريمة خطيرة هنا من جانب الولد، إنها تعتبر غير محترمة، ومن ثم أمر بأن يرقد وقام عمر بضربه ضربتين بنهاية الحبل كبديل عن الجلد. العصا هنا معروفة لكن لا يستخدمها الموظفون.. يستخدمون الجلد. لا أستطيع أن أقول إن مبروك بدا متأثرًا لأنه كان يضحك من قلبه مع عمر لعشر دقائق على الأقل، لكن الموضوع تم بإجلال كما لو كان حكمَ إعدام.

الشيخ غزاوي صديق ستانلي زَوَّج عبده الزنجي بأخته بذريعة أنه أفضل شاب عرفه.. ماذا ستقول عائلة مسيحية عن مثل هذا العمل؟

مركبي طافٍ بروعة كبيرة الآن وصارت له جوانب مستديرة في طراز جميل، لم أبحر به بعد، لكن لا أشك في أنها "هتمشي حلو" كما يقول المصريون. حصل عمر على عشرة جنيهات ببيع الخشب القديم والمسامير وأيضًا أعطاني 2000 قرش، نحو 12 جنيهًا أعطاه إياها العمال كبقشيش، كلهم يدفعون قرشًا أو اثنين أو ثلاثة لأي وكيل يراقبهم، وكان هذا ربحه وهو كبير في نسبته، قلت "لماذا لم ترفض؟".. لكن عمر قال إنهم دفعوا ما يكفي بعد التخفيض الذي يتم معهم وهذا في رأيه يأتي من جيب المالك وهو قليل، كيف يتحدث الناس عندكم حديثًا لا معنى له عن جامايكا؟ لدي شك قليل في أن ما فعله إيار Eyre[90] كان محقًا فيه، وما يزال هناك شك قليل في أن الزنوج كان لديهم ما يكفي من الإثارة التي أعرفها جيدًا باعتبارها تنتهي بانفجار، ربما يوجد زنوج مثل النمور وبِيضٌ في لندن كذلك، عن نفسي رأيت على الأقل خمسة أنواع من السود -زنوج ليسوا مصريين- أكثرهم لا يشبهون بعضهم بعضًا أكثر مما يشبه السويديون الإسبان، وكثيرون يشبهوننا. صحيح أنه لا بد من حكمهم بيد قوية مثل كل المخلوقات البدائية الجاهلة، لكنني مقتنعة جدًّا بأن العادات والتعليم هي الفروق الحقيقية الوحيدة بين مجموعة من البشر وأخرى، إن فطرتهم الداخلية هي نفسها فطرة الناس في العالم كله.

قال رِيِّسي حديثًا دينيًّا جميلًا في يوم آخر سأحتاج إلى كتابته، سرق رِيِّس قبطي بعضًا من خشبي الذي استرجعناه بالقوة، وكانت هناك بعض اللعنات للنصارى بالتالي من حسين وعلي لكن الريِّس محمد قال "ليس هكذا.. جرجس حرامي، هذا حقيقي، لكن كثير من المسيحيين أمناء، وعليه.. فكل الناس في العالم مثل الجنود، البعض يرتدي الأحمر والبعض الأزرق، البعضُ يخدم على قدميه والبعض على ظهور الخيل والبعض في السفن، لكن الجميع يخدمون سلطانًا واحدًا، وكل منهم يحارب في المكان الذي وضعه فيه السلطان، والذي يقوم بواجبه أفضل

هو الرجل الأفضل سواء كان معطفه أحمر أو أزرق أو أسود"، قلت "كلمات رائعة يا ريّس ومناسبة لتقالَ من أحسن الوُعّاظ". إنه لمدهش ما يصل إليه الكلام المفرح للناس هنا، إنهم يزرعون كلامًا يحتاج المرء إلى قراءته، والنتيجة هي سهولة عظيمة للسرد والإيضاح. كل واحد يقوي أفكاره مثل المسيح بالإيمان. الحاجّة "هَنَا" حدثتني بحكايتين جميلتين سأكتبهما لريني مع بعض التنقيح، وقصصٍ ضاحكة متعددة سأتركها ولا أسجلها، وهي أحلى كثيرًا من قصص بوكاشيو أو تلك التي لملكة نافار.

Qween Of Navarre[91] طلبت إلى أحمد أن يمسح السطح الآن، تردَّدَ فقلت مرة ثانية "أي سلوك هذا! ألا تمسح حين أصدر لك أمرًا؟"، قال الولد "وحياة ربنا الأعلى يدي لن تمسح في القارب بعد غروب الشمس يا سيدتي، أراها تتقطع أحسن من أن أمسح فيكون الحظ سيئا"، وجدت أنه ليس عليك أن تغسل في الليل ولا حتى لثلاثة أيام بعد رحيل ضيف تتمنى عودته، ولا حتى صاحب البيت. ثم أكمل الحديث "هل تعتقدين أن أخي سيكنس التراب الذي عليه آثار أقدامي في الأقصر؟ إنه يخشى ألا يرى وجه الحظ ثانية"، إذا كنت تريد ألا ترى وجه زائرك مرة أخرى اكسِر قُلَّةً وراءه بعد أن يترك البيت وامسح آثار أقدامه عن الأرض.

أي إشاعات كاذبة تقولها الصحافة في أوروبا عن الدستور هنا! لا أريد الكتابة في السياسة؛ إنها كلها كئيبة ونميمة القاهرة بغيضة. فقط تذكر هذا.. لا يوجد قانون ولا عدالة، هي الإرادة أو نزوة رجل واحد، من الصعب تقريبًا على أي أوروبي أن يدرك حالة الأمور كما توجد حقيقة هنا، لا شيء لكنه اعتياد المحكومين والمضطهدين، ستدرسه المدارس يومًا. حميمية الاختلاط مع المحكومين المظلومين هي السبيل لمعرفة ما يحدث، أنا في القلب هنا ولا أحد من الذين أعرفهم قادر على أن يأتي ليحدثني.. أعني المصريين، لقد تم الهمس بها في أذني في الشارع من صديق قابلته. إن سرور إسماعيل باشا الأكبر هو النميمة، وعدد معروف من الأشخاص -أوروبيون بشكل رئيسي-

يملؤونه بها يوميًّا حقيقيةً أو مزيَّفة، إذا تمت المسرحية الهزلية للدستور هنا ستكون فوق الخيال.. شيئًا مثل القنصل الذي ذهب في مهمة ليسأل الفلاحين كم هي الأجور التي تقاضَوْها. أستطيع أن أخبرك قليلًا عن قيمة المعلومات القنصلية، لكن ما فائدتها! أوروبا مسحورة مع الباشا المستنير الذي يخرب هذا البلد الجميل.

أشتاق كثيرًا إلى رؤيتك وريني! لا أحب التمني كثيرًا لكن إن شاء الله العام القادم سأراكم جميعًا.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بالقرب من بولاق

19 أكتوبر 1866

أَلِيك الحبيب..

سأبحر قريبًا إلى الجنوب، وصل أمس سيد مصطفي الذي قال إن اليونانيين جميعًا رحلوا وإن النمساوي المسكين في طيبة قد مات ومن ثم سأمثّل وحدي أوروبا من أسيوط إلى الخرطوم.

ستبتهج مع مبروك؛ سأله رجل يومًا -بعد أن تم ضربه- أن يهرب، ليرى ماذا سيقول كما زعم، وساورني الشك في أنه يريد سرقته وبيعه، فقال مبروك "أهرُبُ لآكلَ عدسًا مثلكَ! و"أفنديتا" تعطيني لحمًا وخبزًا كل يوم وآكل عندها كثيرًا"، أليس هذا رأيًا عمليًّا للحرية؟ إن متعة الولد بالحياة شيء سار حين تشاهدها، وهو فعلًا يعمل جيدًا جدًّا وبنشاط كبير وإذا أراده بَالجْرِيف سيكون عليَّ أن أشتريه.

أسمع عن أشياء محزنة في الصعيد.. الضرائب الجديدة والتعبئة الجديدة للجنود أصابت الناس باليأس وكثيرون هربوا من أراضيهم -التي لم تعد تطعمهم بعد دفع كل الجبايات- ليلتحقوا بالبدو في الصحراء، وهذا بالضبط مثل تحوُّلِ الفلاحين في بلادنا إلى غجر. زارني رجل من دِشنا، الناس هناك يريدونني أن أقيم في قريتهم وسيتطوعون بالعمل لي دون أجر إذا اشتريتُ أرضًا، ويقوم كل رجل بالعمل لي يومين بلا أجر في الشهر. ليس عندي تصور لماذا يفعلون ذلك، إنه مكان يقع على بعد خمسين ميلًا شمال الأقصر.. قرية زراعية كبيرة.

أمس زارتني مبروكة زوجة عمر.. شابة صغيرة جميلة وأطفالها مبهجون وحلوون في حركتهم. قالت لي إن تمثال رأس الأسد الذي أرسلته شمالًا إلى الإسكندرية ليتم إرساله إليكَ كان في

حجرتها ورآته جارة لها لم تنجب قطّ فحبلت بعدها. العبادة القديمة للصور تحيا في الاعتقاد الذي يشمل كل مصر بأن الأنتيكات الأثرية يمكن أن تشفي من العقم، بالطبع كانت مبروكة ترتدي ملابس رشيقة جدًّا والطريقة التي تتعامل بها النساء مع ملابسهن الجميلة تعطيهن فضاءً من العظمة لا تحلم أي دوقة باريسية بتقليده، ليس هذا فضيلة لكن بعض الرذائل جميلة.

الليلة الماضية كان "مولد الشيخ الكبير"، طبل وغناء وانتقال عبر النهر بالقوارب، النهِر ينخفض بسرعة غير عادية وأظن أن الأفضل أن أذهب بسرعة، فَطِينُ القاهرة ليس بحلاوة طين الوجه القبلي.

إلى السيدة أوستِن

بالقرب من بولاق - 25 أكتوبر 1866

أمي الحبيبة..

أنا على أهبة الاستعداد وسأبحر يوم السبت، رجالي خزنُّوا الخبز وأخذوا أجورهم للذهاب إلى الأقصر ثم سيعودون بالمركب لتأجيره، الطقس يتحول إلى البرد لكني لا أشعر بأي سوء ومن ثم سأكون سعيدة بالذهاب، لقد قضيتُ وقتًا سيئًا مقلقًا هنا وتعبتُ من سماع كل التفاهات والشرور التي في الأحاديث، ليس لأنني سمعت الكثير لكن لأنه لا شيء آخر، سأكون أحسن في الأقصر.. والآن جاء الشتاء مبكرًا. ستضحكين لمثل هذ الأشياء حين يجلس المرء في الخارج كل اليوم تحت السقيفة بملابسه الصيفية الإنجليزية ويحتاج إلى بطانيتين فقط في الليل، لكن لا داعي للمقارنة فأنا أسميه شتاءً، ومبروك توقف عن اعتبار ملابسه محزنة كما كان يشعر في البداية، ويرتدي "كابوت" خشنًا في الليل. ريّسي وواحد من رجالي أوقفاني لأرى قطعتين من قماش القطن رائعتين اشترياهما، أحدهما لزوجته في الأقصر والآخَرُ لمخطوبته قرب أسوان.. الثانية في الثامنة من عمرها تقريبًا وحسين كان يكسيها ودفع فيها الكثير خلال هذ السنوات الخمس كما هي العادة في هذه المنطقة، الريس اشترى غطاء رأس من الحرير بتسعة شلنات وكان هذا في عقد الزواج، عليَّ إذن أن أرى وأعجب وأتمنى الحظ الحسن للأناقة وللفتيات اللاتي سيرتدينه. ثم دخلنا في حديث قصير عن احتمالات ترك القارب.. وإن شاء الله.. تدبير بعض المال للجماعة.. "كل صحبتنا أو نحن جميعًا معًا " يتمنى الريس ألَّا يكون الخواجات فظيعين جدًا في معاملاتهم أو يستعملون العصا كحَلٍّ عند كل مشكلة.

"الأشراف" الشباب التابعون لعائلة أبي الحجاج جاؤوا من الجامع الأزهر اليوم ليُوَدِّعُوني ويعطوني خطاباتهم إلى الأقصر، سألتهم عن إشاعة أن العلماء يقدمون الخطب في الجوامع ضد الإفرنج - هذا يقال دائمًا- لكنهم لم يسمعوا شيئًا من هذا الحديث وقالوا إنهم لم يسمعوا بأي شيء فعله الإفرنج مؤخرًا ممكنٌ أن يؤثر في المسلمين بالمرة، إنهم ليسوا الإفرنج الذين يجندون الناس بالقوة أو يفرضون مثل هذه الضرائب الثقيلة قبل موعدها بثلاثة أشهر! قريبًا سأكتب مرة ثانية، أشعر كما اليهودي التائه وأشتاق إلى البيت والراحة دون سخط مما أفعله وأستمتع به، الله يعلم ذلك. آه لو استطعت أن أكون أحسن وأعودَ إليكم الصيف القادم.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 21 نوفمبر 1866

أَلِيك الحبيب..

وصلتُ صباحَ يوم الحادي عشر من الشهر، أنا مثل جثة لا تستطيع أن تكتب لأنني أُصبت بالبرد بعد أربعة أيام ولستُ بخير.. لذلك اغفر لي، ورغم ذلك سأحكي ولن أعتذر. جئنا في أكبر سرعة فالقارب يطير الآن، فقط أربعة عشر يومًا إلى طيبة وإلى قنا أحدَ عَشَرَ يومًا فقط. ثم هاجمتنا الرياح السيئة وصار رجالي يجذبون الحبال ويغنون لريّس العروسة الذاهب إلى عروسِهِ، وحتى عمر جذب الحبل معهم. كنا جميعًا سعداء نضحك ونقول نكتًا عن الوغد الذي يريد جُنيهًا ليرشدني إلى المقابر، جعلناه يجري أميالًا يأتي بعدد لا يحصى من الحمير ثم ضحكنا من لحيته؛ هكذا يضحك رجال القوارب. عند وصولنا إلى الأقصر سمعت جلبةً من الأصوات، وعرفت أني في المنزل من صيحات الأطفال وزغاريدهم "الست.. الست"، زوار طوال اليوم بالطبع، وفي الليل جاءت دهبية أخرى عليها تجمُّعٌ كبير وكان هناك برقية لإيقافها، من ثم قلت ببرود "يا مصطفى.. القديس الهندي "الوليُّ" يرى أن الهندي هو يساوي الجميع كما يرى الإنجليزيُّ"، كيف عرفت أنه يوجد هنديٌّ ووليّ؟ لأن الوليَّ قد تقرَّحَتْ إبهامُهُ وأخبر أحدُهُم عبدَه بأن هناك طبيبة إنجليزية رائعة ومن ثم أرسل إليَّ في الصباح وذهبت إلى الحرملك. كان يتعامل كصديق وجعلني أجلس قريبة منه وأخبرني بأنه الرابع في سلالة عبد القادر الجيلاني من بغداد، لكن أباه استقر في حيدر آباد حيث كانت له ممتلكات عظيمة. قال إنه كان وليًّا وباعتباره كذلك فقد صرتُ أنا في مسار الدراويش، أعطاني دواءً لسعالي وسألني أسئلة كثيرة وفي النهاية أعطاني خمسة دولارات وسألني إن أردتُ أكثر.. شكرته

من القلب وقبِلت النقود بأدب وقلت له "لستُ فقيرة لأحتاج إليها"، وسوف أعطيها باسمه لفقراء الأقصر لكني لن أنسى أن الشيخ الهندي تعامل كأخ مع امرأة إنجليزية في أرض غريبة، حينئذ تحدث في مدح كبير عن قوانين الإنجليز وقال أشياء طيبة كثيرة لي مضيفًا مرة أخرى "أخبرتكِ بأنكِ درويشة..لا تنسَيْنِي"، هندي آخر من لاهور -أعتقد أنه خياط الشيخ- جاء ليراني، ورجل ذكي.. وطبيب سوري.. ولاعبٌ قال الناس عنه إنه كان بهلوانًا من قبل. حجزَتْ السلطاتُ القاربَ بكلام رسمي حتى جاءت الأوامر من قنا بأن يتحرك جنوبًا، خلال ذلك ظهر الشيخ ومارَسَ بعض المعجزات التي لم أكن موجودة لأراها، مُعَطِّرًا أيادي الناس بلمسها بيده مخرجًا بعض الجنيهات الذهبية من "الجاكت" الذي بلا جيوب، وحكى الطبيب عجائب عنه، على أي حال لقد أنفق عشرة جنيهات في يوم واحد هنا، وهو من الدراويش المعتادين، هو وكل الحريم كانوا يرتدون ملابس بائسة ولا يرتدون أي مجوهرات. أتمنى أن يعود سيد عبد الرحمن آمنًا من جديد، لكن لا أحد يعرف ماذا تريد الحكومة منه أو لماذا هو تحت المراقبة هكذا.

لأول مرة أرى مسافرًا شرقيًّا للمتعة، إن لديه نحو عشر أو اثنتي عشرة امرأة من الحريم، بينهن فتياته الثلاث الصغيرات، وربما عشرون رجلًا في الخارج، هنود وعرب من سوريا.. شيء خيالي.

في اليوم التالي تحركتُ إلى البيت القديم ووجدتُ جانبًا خربًا بسبب ارتفاع النيل ويحتاج إلى صيانة، رغم ذلك هنا أمان وراحة أكثر، وضعت كل أغراضي مع رجالي وجَرَدْتُها بالعربي الذي كتبه الشيخ يوسف لي.. ما جعلنا نضحك على نحو مذهل، كيف تصف قارب صلصة.. طبق فطير.. إلخ، باللغة العربية؟ في الأمر صعوبة. أفندي أنيق جالس قريبًا انفجر في ضحك لا يمكن التحكم فيه.. "لا إله إلا الله.. هل يمكن لأربعة أو خمسة من الإفرنج أن يستخدموا كل هذه الأشياء للأكل والشرب والنوم في رحلة؟" أخشى أن يظن الإفرنج أن المخزون قليل جدًّا.

أثناء ذلك كان السيد أحمد يتطلع إلى الأمام باختيالِ مَن رأى مدنًا ورجالًا.. ثم قال "أوه أفندم.. هذا لا شيء. سيدتنا أقرب إلى أطفال المصريين.. طبق واحد أو اثنان، قطعة من الخبز، قليل من البلح.. والسلام، لكن عليك أن تَرَي تجار الإسكندرية.. ثلاث مناضد مغطاة، أربعون طبقًا.. لكل روح سبعة أطباق من كل الأنواع، سبعُ سكاكين وسبعُ شوكات وسبع ملاعق، كبيرة وصغيرة، وسبع زجاجات مختلفة من النبيذ والجعة والماء"، رد الأفندي "إنها إرادة الله".. وسكت ثم أضاف "لا بد أنه أمر متعب إلى درجة الرعب لهم أن يتناولوا عشاءهم". ثم جاء تاجر صفيق يريد أن يبحر شمالًا مع صررٍ بضائعهِ وخمس أرواح على سفينتي دون أن يدفع شيئًا لكني قلت "يا رجل إنها ملكي وأنا آكلُ من نقودها"، عرض عليَّ جنيهًا لكني أبعدته ولُمْتُه على جشعه الذي يسبب العار، بعدها قال كل الأصحاب "فتة" -لنجاح الرحلة- وتمت توصية الريس محمد بأن يفتح عينيه وسيكون له طربوش إذا عملَ جيدًا.

بعدها ذهبت لأزور صديقتي الطيبة زوجة المعاون وحدثتها عن كل شيء عن ابنتها الأنيقة وحفيدها، كنت بالطبع لساعة في الشارع للسلام.. "شرفتي بلدنا، شرفتي بلدنا وكل نواحيها".."البركة جاية معاكي".. إلخ.

كل شيء أرخص من العام الماضي، لكن لا توجد نقود للشراء والضرائب تزداد فوق الاحتمال، وكما قال فلاح "الرجل لا يستطيع أن "يحك مناخيره" دون قواس خلفه ليفرض الضريبة على ما فعل". البصل الذي نشتريه والذي هو بنصف بنس في السوق تدفع عليه الضرائب في لحظتها، والسمك الذي يصطاده الصياد تحت نافذتي، أنا أدفع ضرائب حين أشتري الفحم وغيرها حين أزِنُه، يُضربُ الناس ليدفعوا ضرائب العام القادم وليس لديهم ما يدفعونه.

أعضاء مجلس النواب النوبيون مروا علينا منذ أيام في ثلاثة قوارب يجرُّها مركب بخاري خائفين منكمشين، قابلت وأنا في

الطريق بعض المصريين، وكلمتهم كأوروبية "الآن ستشتركون في حكم بلادكم، ما أجمله لكم!". فنظروا إليَّ في عتاب حزين.. "لا تضحكي -أفندم- على ذقوننا! يا رحمة الله.. أي كلام هذا؟ ومَن على ضفاف النيل يستطيع قول أي شيء أو لديه استعداد للقول، ليس لدينا غير يدين نرفعهما فوق الرأس ونلمس بهما الأرض طاعة للمدير، وتتحدثين عن الكلام أمام أفندينا! هل أنتِ مجنونة يا أفندم؟"، من بين كل المضايقات لا شيء كان أكثر إرهاقًا في الضرائب من الزيادات التي فرضت على مشايخ البلاد ذوي الحظ التعس، في خوف وارتعاش أكلوا على مأدبة أفندينا ودفعوا الفاتورة في حزن، وهؤلاء الذين حصلوا على النيشان (النظام المجيدي) كان عليهم دفع رسوم تُسيل لعاب الموظفين عند اللورد تشامبرلين، والآن ممثلو الأمة التعساء في مجلس النواب المصري يذهبون وقلوبهم في أحذيتهم. النوبيون يقولون إن الديوان سينعقد في القلعة وإن الطريقة التي بها تمت مذبحة بكوات المماليك لم تتوقف بعدُ وقد تحدث سرًّا يومًا ما.[92]

27 نوفمبر..

وصل المركب البخاري الأول مكتظًّا بالمسافرين، ومعه إزعاج السيدات الذين يُردن كلهن سروجي، منعت مصطفى أن يرسل لإحضارها لكنهنَّ أخفنَ الرجل العجوز المسكين فأتى وقبَّل يدي ألَّا أسبب له مأزقا مع سيدة عجوز قالت إنها على صلة قرابة بالقنصل وإنها سيدة عظيمة في بلدها، تنازلتُ أمام مخاوف مصطفى وأعطيته ما كنت أقسمت على رفضه من الآن فصاعدًا؛ في العام الماضي خمس نساء على مركب بخاري أرسلنَ كلهن يطلبن سروجي إلى جانب أشياء أخرى- مظلات، شمسيات، جعة.. إلخ. هذا العام سأغلق الباب حين أرى باخرة على الماء قادمة. أسمع أن الناس الكبار غاضبون جدًّا من الولي الهندي لأنه عاملهم مثل الأوساخ في كل مكان، ذهب رجل تركي مشهور منهم مع المدير لزيارته، وسأله أن يبيع له مملوكًا صغيرًا، انفجر

فيه الهندي الذي لم يكن قد تكلم أو قام بتحيته "اسكت أيها الكريه! كيف تجرؤ أن تطلب إليَّ أن أبيعك روحًا لتأخذها معك إلى الجحيم!".. أذهلت المفاجأة التركي الشهير، لم يسمع هذه اللغة من قبل. سافرت القصة بطول النيل وكانت بالطبع ممتعة للناس.

الليلة الماضية قدَّم الشيخ يوسف شيئًا من الترفيه والتسلية، ذبح خروفًا وأخذ يقرأ من سيرة الرسول، كانت ليلة الإسراء للرسول.. وهي ليلة عظيمة في الإسلام. آسفة لأني لم أكن بصحة جيدة بما يكفي لأذهب، الآن لأن القاضي غائب فعلى الشيخ يوسف كثير من الأعمال، جاء إليَّ وقال "اشرحي لي قوانين الزواج والميراث عند المسيحيين حتى لا أرتكب أخطاء في إدارة شؤون الأقباط، إنهم لا يريدون الذهاب إلى القسيس ليحكم بينهم بما جاء في الإنجيل، كما أنني لا أجد في الإنجيل أي قوانين أو أحكام عدا ما يخص الزواج"، حدثته عن بعض النصوص وقلت له أن يحكم بقوانينه هو الخاصة لأن المسيحيين ليس لديهم قوانين أخرى غير التي في البلاد التي يعيشون فيها. يوسف المسكين كان مرتبكًا جدًّا في قضية طلاق، رفضتُ أن أشرح له شيئًا وقلت له إن كل القانونيين في إنجلترا لم يُقِرُّوا حتى الآن أي نصٍّ يمكن اتباعُه.

هل تتذكر القصةَ الألمانية عن الفتى الذي سافر لتعلم الذعر؟

حسنًا.. أنا، التي لم تشعر بالذعر من قبل أصابني شيء منه منذ عدة ليالٍ.. كنتُ أجلس هنا في هدوء أشرب الشاي، ومعي أربعة أو خمسة رجال ثم جاء قِطٌّ إلى الباب.. قلت "بِس بِس" وقدمت له لبنًا لكن القط بعد أن تطلع إلينا هرب.. قال رجل هادئ حساس- تاجرٌ هنا "حسنٌ ما فعلتِه يا سيدتي، لقد كنتِ عطوفة على القط، أستطيع أن أقول إن أباه فقير لا يستطيع أن يطهو طعامًا لأبنائه كل يوم".. ثم قام بالتفسير للأصحاب.. "كان هذا يوسف بن علي الناصري، لا بد أنه يوسف لأن توأمه إسماعين مع بغلته في نجادة".

ذعرتُ.. أعترف، ليس لأني لم أسمع ما يوازي هذا من السادة والسيدات المحترمين في أوروبا، لكن مبالغة أصحاب "القفطان" لها تأثير مختلف تمامًا عنها من رجل في معطف سهرة، سألتُ وأنفاسي لاهثة "ماذا يعني أن يكون صبي الجزار الذي يحضر لي اللحم قطة؟"، أجاب "بالتأكيد هو يعرف جيدًا أين يجد قطعة من الطعام الجيد كما رأيتِ.. كل التوائم تخرج في المساء في شكل قطط إذا ناموا جائعين، بينما أجسادهم تستلقي في البيت كجثث نائمة خلال ذلك، لكن يجب ألا يلسمهم أحد وإلَّا ماتوا، حين يكبرون ويصبحون في العاشرة أو الثانية عشرة يكفون عن ذلك، صبيك أحمد يفعلها.. يا أحمد! هل تخرج في الليل مثل قطة؟"، قال أحمد في هدوء "لا. أنا لست توأمًا، ابْنَيْ أختي يفعلانها"، سألت ما إذا كان الناس لا يخافون مثل هذه القطط.. "لا. لا يوجد خوف، إنها تأكل فقط قليلًا من الطعام، لكن إذا ضربتِها ستخبر والديها في اليوم التالي (فلان الفلاني ضربني في بيته أمس) وتُظهرُ آثار الضرب، لا. ليسوا عفاريت، إنهم "بني آدمين"، فقط التوائم من يفعلون هذا، وإذا أعطيتهم حساء بصل ولبن الأبل عند ولادتهم لن يفعلوها أبدًا. قال عمر إنه لم يسمع بهذا من قبل لكني متأكدة أنه سمع، فقط خاف أن أضحك منه. واحد من المبشرين الأمريكان حدثني بشيء مثل هذا عند الأقباط، فالحكاية مصرية الأصل وشاعت في العقائد الأخرى. سألت أقباطًا عدة فأكدوا لي أن هذا حقيقي، وحكوا الكلام نفسه، هل هذا ما تبقى من عقيدة تناسخ الأرواح؟ على أي حال فالفكرة محل اعتبار بسبب الرعب الذي يشعر به الناس عند قتل قطة.

حاج فقير أسود من بلد إفريقي كان مريضًا أمس في قرية على بعد ستة أميال من هنا، يستطيع الحديث فقط بكلمات عربية قليلة وتوسلَ أن ينقلوه إلى العبابدة، وَضَعَهُ شيخ البلد على ظهر حمار وأرسله هو وابنه الصغير إلى بيت الشيخ حسن، نادى الشيخ حسن وطلب إليه أن يعتني بابنه وأن يرسله إلى عمٍّ له في مكان ما بالقاهرة، قال حسن "أوه.. ستكون بخير إن شاء الله

وستأخذ الولد معك"، قال المهاجر الأسود "هل أستطيع أخذَهُ إلى القبر معي!"، في الليل مات الرجل فذهب الولد إلى حسن النائم على الحصيرة وقال "يا حسن أبي مات"، نهض عدد من الناس وجلسوا مع الولد حتى الفجر لأنه رفض أن ينام أو يترك جثة أبيه، مع طلوع النهار قال الولد "خذوني الآن وبيعوني واشتروا قماشًا جديدًا لأبي يدخل به القبر"، بكى كل العبابدة حين سمعوا ذلك وذهب حسن واشترى القماش وبعض الحلوى للولد الذي بقي معه. هكذا الموت على قارعة الطريق في مصر. إنني أحكي القصة كما حكاها لي عبد حسن وكلنا بكينا من جديد من أجل الولد الفقير الصغير الذي وقف جوار أبيه الميت وقال "هيا بيعوني وكفِّنُوا أبي"، هؤلاء الحجاج السود الغرباء دائمًا يشغلونني. كثيرون يمضون أربع سنوات في الطريق إلى مكة والعودة إلى بيوتهم ويولد لهم أطفال في الرحلة ويتعلمون قليلًا من الكلمات العربية.

إلى السيدة روس

الأقصر - 5 ديسمبر 1866

جانيت الأَعَزّ..

أكتب ردًّا على خطابكِ لأرسله بالباخرة الذاهبة شمالًا. لا أستطيع الصمت أمام حديثك عن إيطاليا، أنا أكره العودة إلى أوروبا.

القاعدة القديمة الجيدة
من يملكها هو من يملك القوة
ومن يحافظ عليها هو من يستطيع

شكري كبير على الصحف، أنا مشتاقة لأسمع عن الأعمال في كانديا. كل جيراني مرضى بالقلب. الصبي الأسود الذي تركه بَالجْرِيف معي ولد رائع جدًا، فقط لا يستطيع أن يحافظ على نظافة ملابسه، لم يضايقني شيء مثل هذا من قبل، لقد صار حنونًا جدًّا لأني لم أضربه حين كسر نظارتي الوحيدة. أتمنى ألَّا يجبرِه الاحترام -الذي بلا معنى- للرأي العام على ارتداء جلبابٍ أزرق وطربوش، أرى ذلك بائسًا له؛ إنه آكل لحوم بشر مهذبٌ جدًّا.

كنت على غير ما يرام حقًّا وما زلتُ ضعيفة جدًّا لكن أتمنى أن أكون في طريق التحسن. خَصِيٌّ هنا يُعَدُّ رجلًا ورعًا يقول لي إنه رأى في منامه مركبي يرحل محملًا بحمول كثيرة مما يشير إلى رحيلٍ جيد، أتمنى أن يكون صديقي الموقر على حق. إذا بعتِ أيًّا من أشيائك حين تغادرين مصر دعيني آخذ بعض البطاطين من أجل القارب، إذا تركتِها لترجمانٍ صديقٍ سيعرض كل المَعيب خارج (كانتينه) الخاص، لكن إذا تركتِها لواحدٍ "لا يعرف يوسف" أخشى أن يتم طلب أشياء كثيرة عن طريق المسافرين البريطانيين العقلاء وسيُتْرَك التقدير للريس ليشتريها لهم. أتمنى أن تكون كل "الفتة" التي طُهِيَت لنجاح رحلة "أورانيا" قد جاءت بأثر طيب. هنا نحن نعتمد كثيرًا على فضل أبو الحَّجاج في مثل هذه الأمور،

البراءة التي يتضرع بها الناس هنا من أجل المال ممتعة جدًّا.. رغم أني حقا لا أعرف لماذا لا يرجو الواحد هنا ستة بنسات يوميًّا كما يرجو الخبز يوميًّا.

امرأة بلهاء كتبت لي أنْ أجد لها مكانًا كَوْنِي حاكمةً في "منطقة أوروبية أو مصرية قرب طيبة"، وباعتبار أنها قضت ست سنوات في مصر كما تقول فستكون مناسبة للعمل بالتعليم. لقد تعلمت جيدًا صناعة "الجلّة" وغزل الصوف. الأمريكان الشباب الذين أرسلهم مستر هيل Hale كانوا جيدين جدًّا، الشماليون "اليانكيز" دائمًا هم المسافرون الأحسن تربية وتعليمًا في من رأيتهم هنا.

-97-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 31 ديسمبر 1866

أَلِيك الحبيب..

اهتممت بأن أرسل إليكَ حكاية طويلة مع المركب البخاري الذي ذهب لكني كنت في سريري. الطقس أبرد مما شعرت من قبل هنا، وكنت في حالة سيئة لبعض الوقت، الدكتور عثمان إبراهيم -صديق لي مسن درس في باريس أيام محمد علي- يريدني أن أقضي الصيف جنوبًا من هنا وأستلقي في حمَّامات رمل..أُدفَنُ كاملة حتى ذقني في الرمال الحارة وويدفنني عبدٌ من دونجلة. درويش فاتن جدًّا من إسنا أعطاني النصيحة نفسها وأرادني أن أذهب وأعيش قريبة منه في إسنا وأتركه يعالجني. أتمنى لو تستطيع أن ترى الشيخ سليم، هو نوع مما بقي من بكوات المماليك.. شركسي ورث أملاكه الكبرى جنوب إسنا وتزوج بابنة سيده، سيده كان واحدًا من البكوات وأيضًا عبدًا ورث عن سيده. صار حسنَ السلوك بعد أن كان شيطانًا في الشرب والنساء.. إلخ. تاب سليم وأصبح رجل الحج والصلاة ودائم الصوم، لكنه احتفظ بالكياسة الرائعة والجاذبية في السلوك التي جعلته لا يُقاوِم أيام شيطنته، وأيضًا طريقته الرقيقة الجميلة في ملابسه.. جبة في لون الحمامة فوق جلباب من الأزرق الخفيف، وعمامة بيضاء مثل قمة الثلج تحتها يتهدل الشعر الحريري واللحية، واليدان البيضاوان الرقيقتان تحت كُمَّيْ جلباب من الموسلين مما يصنع صورة وابتسامة واستعدادًا للحديث الرشيق.أحضره لي الشيخ يوسف كنوع من الأطباء وأيضًا ليجرب أن يشفيني في مرة واحدة. بعض المسيحيين جعلوا الشيخ يوسف بائسًا تمامًا بإخباره بالمذهب الذي يقول إن كل الأطفال غير المُعمَّدين سيذهبون إلى النار الخالدة، ولأنه يعرف أنني فقدت طفلًا صغيرًا استقر في

عقله أني قلقة لهذا.. ومن ثم لا يستطيع أن يمتنع عن محاولة إقناعي بأن الله ليس قاسيًا ولا ظالمًا، وبأن القساوسة النصرانيين كما غيرهم وأن كل الأطفال مهما جرى هم تمامًا مثل كل الجاهلين سيتم إنقاذهم. قال "هل بهذا أستطيع أن أخرج الخطأ القاسي من عقول المئات والآلاف من أمهات المسيحيين البؤساء اللاتي لا بد تعذبن كثيرًا به؟ وأن أجعلهن يفهمن أن أطفالهن الميتين هناك مع الله، هو الذي أرسلهم وهو الذي أخذهم"، أعترف بأني لم أَسْتَأْ من هذا التدخل في عقيدتي الأرثوذكسية خاصة أنني أعرف أنها المرة الوحيدة التي حاولها يوسف.

دكتور عثمان محاضِرٌ في مدرسة القاهرة للطب، من الأشراف وجنتلمان حقيقي مكتمل. جاء في مركب بخاري ودعاني وقضى كل وقته المتوفر معي، أحببته جدًّا أكثر من الدرويش الفاتن سليم، هو أيضًا أحبَّ حبي القديم لدون كيخوته، كان مسرورًا ومبتهجًا لما سمعه هنا عني، وقال بالفرنسية "أوه سيدتي.. الناس يحبونك كأخت لهم ويحترمونك كملكة، هكذا يكون كل الناس الشرفاء حين ينتهي التعصب". تحدثنا حديثًا لا نهاية له.. عثمان هو المصري الوحيد الذي عرفته قد قرأ كثيرًا جدًّا من الأدب والتاريخ الأوروبي وكان قادرًا على المقارنة، قال -وكان الحديث بالفرنسية- "وحدكِ في كل مصر تعرفتِ على الشعب وقارنتِ بين الحاضر والماضي، كل الأوروبيين الآخرين لا يعرفون مطلقًا ما هو خَفِيّ، لا يوجد غيرك أشعل الثقة التي يحتاج إليها المرء لمعرفة الحقيقة".

بالطبع يا أَلِيك هذا الحديث فيما بيننا، فأنا لا أريد التباهي بما يعتقده الناس هنا عني، ببساطة لأني متحضرة معهم.

في مصر أَكَلَتْنا الضرائب، لا يوجد بنس مع أحد، الضرائب تتم جبايتها عن السنة كلها قبل موعدها بثمانية أشهر وإلّا يتم ضرب وعقاب الشعب البائس! رأيت في يوم راقصة شابة فقيرة -هناك ثلاثة في الأقصر- وأخبرتني كم هي قاسية الضريبة الجديدة

عليهن، لقد تُرِكَت لتقدير الموظف الذي يديرها ليجعل كل امرأة تدفع وَفقًا لمكسب افتراضيٍّ بناءً على شكلها الحلو مثلًا. وهكذا فالتَّعِسَات من النساء معرضات لكل نزوات وابتزازات رجال البوليس، هذه الضريبة الجديدة عليهن أثارت كل القرف أكثر من غيرها.. "نحن نعرف اسم حاكمنا" قال فلاح ممن سمعوا عنها.. "إنه موَّاس باشا"[93].

لا أريد أن أترجمها لكنها كناية مرعِبة حين تُلفظ بإيقاع يعطيها معناها الحقيقي، أكثر منها حين تُنْطَق بالطريقة الشائعة لإهانة الحمير أو عبدٍ صغير أو أي بهيمة. أجورالدعارة دنسة وهذه الضرائب تجعل كل رواتب الحكومة حرامًا أيضًا وَفقًا لنصوص الشرع، الضريبة على الفرد -التي أُلغيت منذ ثلاث سنين حين تولى الباشا منصبه- وكانت مفروضةً على أهل القاهرة والإسكندرية ودمياط ورشيد عادت من جديد. علي عمر الآن دفعُ 8 جنيهات ضرائب مستردة (معادة) وكان قد تخيل أنه أُعفي منها. يمكن أن تتخيل اليأس الذي يسببه هذا بين الحرفيين وغيرهم من الذين أنفقوا أموالهم ونَسَوْا هذا، يشعرون بأنهم خُدعوا بالرحمة التي ظنوها في الحاكم وقتها وسينزِلون عليه باللعنات.

كان هنا لقاء منذ أيام بين القاضي وشيخ البلد وبعض المشاهير لتثبيت كمية الضرائب التي يجب أن يدفعها كل فرد في اتجاه الزيادة في الضرائب على الخفر، وفي نهاية الاجتماع تحدث الشريف العجوز وقال إنه سمع أن رجلًا سألني أنْ أقرضه بعض المال، وإنه يتمنى ألَّا يتكرر هذا ثانية. الجميع يعرفون أنني أنفقت كثيرًا هذا العام، والكثيرون مثلي ليس لديهم مالٌ كثير، قلبي رقيق.. ولو استمعت لكل واحد لانفجرَ رأسي من الصداع، وباختصار ليس من الرجولة أن يحاول أي شخص أن يحمِّلَ امرأةً وحيدةً مأزومةً أزماتِه، كنت قد قدمت جنيهين لرجل حتى لا يُضطرَّ إلى الهرب إلى الصحراء لكنه رفضهما وقال "الأفضل أن أذهب الآن في الحال وأسرق هناك وألَّا أكون محتالًا تجاهك؛ لن أستطيع أبدًا إعادتهما". الناس يهربون في كل الاتجاهات.

حين أتى مولد الشيخ أبي الحَجَّاج استطاعت كل عائلة أبي الحَجَّاج أن تجمع ستمائة وعشرين قرشًا فيما بينهم لشراء بقرة كالعادة، بقرة قوية كما هو في تراث الميديين والفرس، ويجب ذبحها من أجل الغرباءالقادمين، والبقرة الآن تساوي ألف قرش، ومن ثم الشريف العجوز الهادئ -87 عامًا- أخذ فريقه والستمائة وعشرين قرشًا وقام برحلة إلى أرمنت ليرى ماذا يمكن أن يرسل الله لهم، أعطتهم امرأة خيِّرة في أرمنت بقرة بالستمائة وعشرين قرشًا وعاد بها العشرين ميلًا سعيدًا.

كان هناك حادث سطو في الجرنة.. حادث لم يُسمَع به من قبل. بعض الناس اخترقوا بيتَ جابي ضرائبَ قبطيٍّ وسرقوا صندوق المال وفيه نحو ستين صرة (أكثر من مائة وخمسين جنيهًا)، جاءني الجابي مريضًا بالرعب الذي أصابه باليرقان (مرض الصفراء) وتم الاشتباه في نحو ثمانية رجال قُيِّدوا بالسلاسل إلى قنا. حاجي بابا قواسٌ تركيٌّ جاءني مريضًا بالمرارة، يقول إنه "مريض من ضربه للناس"، هذا بلا فائدة وأنتَ لا تستطيع سكَّ العملة بضرب الناس على ظهورهم وأقدامهم، إنهم لا يملكون "بارَةً" واحدة، الناس جميعًا مكتئبون وفي يأس كبير، لم أرَ قطُّ مظهر الناس يتغير كما يحدث هنا هكذا.

1 يناير 1867.

بارك الله فيك حبيبي أَلِيك وأتمنى لك عمرًا مديدًا طيبًا. عليَّ أن أنهيَ هذا الخطابَ ليذهبَ غدًا بالمركب البخاري، إنني أشتاق كثيرًا جدًّا لرؤيتك مرة أخرى، لكن متى سيكون ذلك؟

-98-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 12 يناير 1867

أَلِيك الحبيب..

فقط منذ يومين استقبلتُ خطابين منك، أحدهما مكتوب في 17 سبتمبر والآخَرُ في 19 نوفمبر. أتعجب كيف تم فقدهما طويلًا وأين؟ أعطتني جانيت آمالًا في زيارة لأيامٍ في مارس، ووعدتني بكلب صيد صغير ما جعلَ عمر يرقص فرحًا. لم أضع خطة بالمرة.. لم أشعر بأني بصحة جيدة تكفي للقدرة على السفر، الطقس يتغير إلى الأفضل وليس باردًا الآن، سنرى ماذا سيفعل الدفء بي. لقد جعلتَ أحشائي تتحرك بقصتك عن ريني، ليت لدينا بساطَ الأمير أحمد[94] وتأتون جميعًا إلى هنا أشهرًا قليلة.

كنا مثارين كثيرًا هنا الأسبوع الماضي، أصيب صبي بطلق ناري في حقول القصب.. كان معه أربعة أقباط، وفي البداية بدا الأمر سيئًا للأقباط، لكن المعاون أخبرني بأنه واثق من براءتهم، وأنهم فقط ارتبكوا من الخوف، إنهم اللصوص هم من قتلوا الطفل المسكين. ما صدمني وأدهشني في المسألة هو الرعب الشديد والذعر الذي أنتَجَتْهُ؛ لم يكن هناك قاتل في منطقة نفوذ المعاون قطُّ خلال ثماني سنوات. ملأت الحشود من النساء النائحات السوق، عمر مريض طوال اليوم، والمعاون هزيل مرهق. الرعب من القتل يبدو عظيمًا هنا عن أي وقت رأيته، قال بَالجْرِيف الأمر نفسه عن العرب الأعراب في كتابه، إنه ليس تصور الفرد عن المشاعر الشرقية.. لكن لأن القتل في إنجلترا يبدو نكتة حقيقة مقارنة بالمشهد هنا. أخشى أن يكون هناك لصوص بسبب هذا الخراب، والذين يفرون من أرضهم لعجزهم عن دفع الضرائب. لا تخف عليَّ، لدي حارسان لمنزلي كل مساء، الحارس المعتاد ومتطوعٌ، رجل كنت أخذت ابنه معي إلى القاهرة ليدرس في

الجامع الأزهر.

أرسل بَالجْرِيف إلى روس طالبًا عودة مبروك. أنا آسفة جدًّا.. مبروك كان مرعوبا "أريد أن أبقى معكِ.. لا أريد العودة إلى نصراني"، وقال الصبي الذي سمعه "لكن السيدة نصرانية أيضًا"، فصفعه مبروك بقوة شديدة على وجهه؛ سوف يكون مزعجًا إذا رفضنا طلبه، وهو الشخص الذي يمكن أن يدار فقط بالرقة، إنه طيب وهادئ معنا، لكن الإرادة العنيدة موجودة وهو جاهل جدًّا بطرق تعقلها.

14 يناير..

اليوم غيَّر الأقباط الأربعة قصتهم، وبعد أن أقسموا على أن اللصوص غرباء اتهموا رجلًا كان يصطاد الطيور لي طوال هذا الشتاء، وأُخذ الشيطان التَّعِسُ إلى قنا مكبلًا بالأغلال. الطقس يبدو مستقرًا على التحسن، أتمنى قريبًا أن أخرج لكن حماري صار عجوزًا هالكًا وأنا أيضًا واهنةٌ غير قادرة على المشي، ومن ثَمَّ بقيت مستقرة في البلكونة.

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 14 يناير 1867

أمي الحبيبة..

لدينا شتاء شديد البرودة وأنا مريضة بشكل مستمر، لحسن الحظ أن السعال تغير من الليل حتى الآن وحصلت على شيء من النوم الجيد. اليومان الأخيران كانا أكثرَ دفئًا وأتمنى أن تنصلح الأحوال. بدأتُ في تناول زيت كبد السمك لأننا لا نجد لبن الناقة في أي مكان.

دهبيتي متروكة في القاهرة بحالة جيدة ويُتوقع قدومها هنا كل يوم، الرجال المحترمون يصيحون ويخبرون الطاقم بألا يتشاجروا، وباختصار "خدوها بسهولة"، وأنا أعطيهم جنيهين في كل مكان ولو لم أفعل ذلك لفسدوا، تصوري كم هو سعيدٌ طاقمي.

جاء القنصل الإنجليزي العام في المركب البخاري مع الدكتور باترسون ومستر فرانسيس، تعشيت معهم يومًا، تمنيت لو رأيتِني محمولةً عاليًا على مقعدي ذي الجوانب على أكتاف أربعة من الرجال مثل المرشَّح الناجح أو أكثر.. مثل فرعون في نحت قديم مسبوقةً بحاملي المشاعل وحضور آخرين وتابعين، موكبي كان ملكيًّا تمامًا. أتمنى أن أُريكِ صديقي الجديد- عثمان إبراهيم الذي درس الطب لخمس سنوات في باريس. مال قلبي إليه مباشرة، لأنه مثل كل المصريين ذوي التربية العالية، وهو أيضًا مثل دون كيخوته في مشاعره تمامًا.. النوع البريء الممتلئ بالعواطف، ومطبوع تمامًا على حب اللغات الجميلة وذو مشاعر لا يصل إليها أي أوروبي.. باستثناء الإسبان فيما أعتقد. إنه أبدًا لا يشبه القول الإيطالي المزخرف أو الكلام العاطفي الفرنسي ،أرى أن هذا تافه بالنسبة إلى الأوروبيين، لكنني اعتدت أن أبكي حين تهزم الحمولُ الثقيلة عظماءَ النبلاءَ من الفرسان حين كنت

صغيرة وأقرأ في "دون كيخوته". الآن أشعر كما لو أن هذا مثل سانشو حين أنصت إلى عثمان يردد قطعًا من الشعر البطولي أو حِكَمًا شائعة أو أمثالًا معاصرة، مع امتزاج خاص مع الحس القوي بالبهجة الذي طبعه "دون" العظيم[95]

لن أعيد كل ما سمعته منه عن الدولة أو الأوضاع هنا، والإهانة التي يشعر بها ليبقى ويستمر رجلًا شريفًا ومتعلمًا أمام الباشوات الأتراك الأفظاظ، إنها الحمول الثقيلة الزائدة من جديد. أخبرني بأنه كثيرًا ما يبكي مثل النساء في غرفته الخاصة ليلًا بسبب البؤس الذي أُجبر على أن يشاهده ولم يستطع فعل شيءٍ ليخفف منه. كل الذين أحببتهم على نحو خاص هم - كثيرون أو قليلون- من تلامذة الشيخ الباجوري الذي توفي الآن، والذي يبدو أنه كان يملك نعمة الإلهام بالشعور بالشرف. معاوننا المحترم واحد منهم، ليس بساحر لكنه يتمتع ببطولة الأمانة والصلاح التي تقود رجلًا ليكافح بخمسة عشر جنيهًا في الشهر حيث لا يكون الغِنَى إلا بالنهب[96]

الحرب في كريت تحزن كثيرًا من العائلات هنا، الشيخ يونس أخو الشيخ يوسف يخدم هناك وكثيرون غيره، بدأ الناس يقولون "نتمنى ألَّا يحارب الفرنسيون والإنجليز من أجل السلطان إذا أراد الروس أن يأكلوه، لا شيء طيب سيحدث لنا حتى يُكْسَحَ الترك"، كل الانتماءات الدينية للسلطان تبدو قد ولَّت.

البائس مصطفى مريض جدًا وأعتقد أن صيامه رمضان أصابه ببعض المتاعب وأمرته بألا يصوم فذلك فيما أعتقد أفضل له، الإمام والمفتي أيضًا يؤيدان منعي مرضاي الصيام، العجوز إسماعين مات وعمره فوق المائة، كان يخدم بلزوني وحين أصابه الخرف كان دائمًا يريدني أن أذهب معه إلى بلزوني في أبي سمبل. لم يكن مريضًا بالمرة، فقط انطفأ مثل شمعة، حفيده أحضر لي قطعة من اللحم طُهيت في جنازته ورجاني أن آكلها حتى أعيش عمرًا مديدًا لأصبح عجوزًا جدًّا وَفقًا للأساطير هنا.

حين ذبحوا البقرة للشيخ أبو الحجَّاج فإن الرجل الذي كانت الكوارع من حقه أعطاها بلطف إلى عمر الذي أراد أن يطهو شُربة الكوارع لي، كان لديَّ شعور بانتهاك الحرمات كما لو كنت آكل نسلَ العجل أبيس.

أقرأ الآن رسائل مدام دي ديفوند [97] Mme du Deffand [يا لها من صورة منفرة للمرأة! لا أعرف من أكره أكثر.. هوراس وَالْبُول Horace

[98] Walpole [أم هي! صراع الأنانية.. والغرور.. والملل، كله

مُستنكَرٌ كعاطفةٍ وكريهٌ جدًّا، بالنسبة إليها تيرجو [99] Turgot [كان حيوانًا أحمق أكثر أمام هداياها الكبيرة.

اذكريني بلطف لويليام وأخبريه كم أتوق إلى رؤية "تجديداته"، عمر يهدي سلامه أيضًا إليه وشعورَه الطيبَ كتابع أمين، لست بحاجة إلى أن أقول إنه يقبل يدكِ بإخلاص.

-100-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر -22 يناير 1867

أَلِيك الحبيب..

كان الطقس جميلًا الأسبوعَ الماضي ولذلك أنا بشكلٍ ما أحسن. وصل مركبي اليوم والرجال جميعًا في حالة عالية من السرور، أخبرني عمر بأن الجميع كانوا يعملون بشكل جيد، فقط حسدها أهل القاهرة فانكسر الجزء الحديدي من الدفة وكان عليهم إصلاحه في بني سويف. في الأيام القليلة الماضية كان هنا مستر لير Mr: Lear وكان ذاهبًا إلى الشلال الثاني، قام برسم لوحة صغيرة لبيتي من أجلك.. رؤية جديدة له، إنه رجل دمث ولقد كنت سعيدة لرؤيته.

في يوم آخر جاء إلى هنا شخص عجيب من هولشتاين . طويل قوي البنية

أعتقد أنه في الخمسين، وكان لأربع سنوات في السودان وسِنّار.

وكَونَهُ مفلسًا جاء مشيًا عبر النوبة يتسول في طريقه، لم يكن وحده الأقل حظًّا وكان يتكلم بحماس عن كرم ورقة من ادّعى السِّير صامويل بيكرز أنهم كالنمور الكاسرة[100]، قال لي "نعم هؤلاء هم الأشخاص المناسبون وهذه هي الحياة السعيدة"، تقديره أنه إذا التحقتَ أنتَ بجماعة مسلحة فالسُّود بالطبيعة يصارعون، فالرجال المحملون بالسلاح في عيونهم دائمًا صائدو عبيد، لكن إذا كنتَ وحدكَ وفقيرًا سيذبحون ثورًا لكَ إلا إذا كنت تفضل شاة، سيعطونك كوخًا لتسكنَ وبشكل عام أي شيء يمكن أن يقدموه، الخمر لتسكرَ كما لو كنت لوردًا، وفتيات يصببنها لك، ولا تحتاج إلى أن ترتدي أي ثياب، إذا استمعت إليه ستذهب إلى هذه البلاد في الحال. قدمت له غداء وزجاجة من النبيذ

العادي أفرَغَها.. وقليلًا من الشلنات وأخذ طريقه فرحًا إلى القاهرة. لا أعرف ما الذي فكر فيه النوبيون حين رأوا خواجة يتسول! لقد قال إنهم جميعًا كانوا طيبين وإنه كان متأكدًا أنه غالبًا أكل مما هم في حاجة إليه وأجبروا أنفسهم على تقديمه له.. "عيش درة" وبلح.

في المساء كنا نتحدث عن حكايات هذا الرجل وحكايات آكلي لحوم البشر، أولئك الذين تنمو رؤوسهم إلى ارتفاع استثنائي وتبدو كهياكل مصنوعة من شعرهم وأشياء أخرى غريبة، حدثني حسن بحكاية أسَرَتْنِي بشكل خاص.. قال "أبي الشيخ محمد الذي كان أطول وأكثر أناقة مني، سافر مرة بعيدًا جدًّا في بلاد السود، هو والرجال الذين كانوا معه كان لديهم القليل جدًّا من الطعام، ولأيام كثيرة لم يصطادوا شيئًا ليذبحوه ويأكلوه، سمعوا صوت نحيب من فجوة في صخرة فذهب بعض الرجال إليها وسحبوا منها مخلوقًا لم يعرفوه ولا عرفه أبي.. هل هو ابن آدم أم حيوان! لكنه كان مثل امرأة مشوهة وقذرة المنظر ولها ست أصابع في كل قدم، رغب الرجال في ذبحها وأعلنوا أن الشرع يسمح لهم بذبح البهيمة وأكلها، لكنها حين رأت السكين بكت حزينة وغطت وجهها بيديها في رعب فقال أبي "وحياة ربنا الأعلى لن تذبحوا هذه "المرأة/الحيوان" التعسة التي تتوسل إلينا لحياتها، أقول لكم إنه ليس قانونيًّا أن تأكلوا مخلوقًا يشبه كثيرًا بني آدم"، تعلقت به المرأة/الحيوان واختبأت تحت عباءته فحملها أبي خلفه فوق الحصان لبعض الوقت حتى رأوا مخلوقات شبيهة بها، فتركها أبي بينهم لكن كان عليه أن يبعدها عنه بالقوة لأنها تعلقت به. هل تعتقدين يا سيدتي أنها كانت بهيمة حقيقية أم نوعًا من بني آدم؟"

قلت في ورع "الله وحده يعلم، لكن بحق الله الكريم كان والدك رجلًا نبيلًا حقًّا".

انسجم الشيخ يوسف وأعطى رأيًا لا جدال فيه.. أنَّ مخلوقًا قادرًا على إدراك صورة السكين ويتصرف هكذا ليس من الشرع أن

تذبحه من أجل الأكل.

انظُر كيف كان دون كيخوته مصريًّا! إنها صورة تليق به- الرجل الطويل نبيل المنظر من العبابدة الذي يحمي المرأة / الحيوان المسكينة شبيهة الغوريلّا أو الشمبانزي، ويحملها خلفه على الحصان.

-101-

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 26 يناير 1867

أمي الحبيبة..

سأخونُ ثقة العزيز الشيخ يوسف وأحكي لكِ قصة حبه.. هرب شابٌ بعيدًا مع فتاة أحبها من وقت قصير.. أَخبَرَتْهُ بأن والديها يريدان تزويجها بشخص آخر.. وبأنها لذلك ستُغرق نفسها في النيل وعليه أن يأتي على حصانه ويضربَها ويحملَهَا بعيدًا (الضرب ينقذ العذرية)، حسنًا.. فعلها الفتى وحملها إلى السالمية حيث تزوجا ثم ذهبا إلى الشيخ يوسف ليأخذاه لاسترضاء العائلة، وفعل ذلك. حدثني بالقصة ورأيت أنه كان متعاطفًا جدًّا مع الهارِبَيْن. قال "سيدتي، إنه الحب.. وهذا مرعب، أستطيع أن أقول لكِ إن الحب أكثر رعبًا من أن نتحمله"، ثم تردَّدَ واحمرَّ خجلًا وتابع الحديث.. "شعرتُ به مرة يا سيدتي، كانت إرادة الله أن أحبها، هي التي صارت الآن زوجتي، منذ ثلاث عشرة سنة أحببتُها وتمنيت أن أتزوجها لكن أبي وجَدَّها عمي الشريف تشاجرا وجعلها أهلُها تتزوج بشخص آخر، لم أتحدث قطُّ لأحد عن الموضوع لكن كبدي كان يحترق وقلبي يقترب من الانفجار لثلاثة أعوام، وحين قابلتُها وضعت عينيَّ في الأرض حتى لا ترى حبي لها وقلت لنفسي "يا يوسف لقد ابتلاك الله فاحْمَدْهُ، هلا تذكرت دمك الشريف وكنتَ مثل بني عذرة الذين حين نُكبوا اختاروا الموت على الخطيئة لأنهم كان لديهم الشغف الأكبربالحب، وأيضًا الشرف الأكبر". ولم أمت.. بل ذهبت إلى القاهرة إلى الجامع الأزهر ودرست وتزوجت بعدها مرتين -كما تعرفين- لكني لم أحب غيرها قط، وحين ماتت زوجتي الأخيرة طلقها زوجها ليتزوج بأخرى أصغر وأجمل ورغب أبي وقتها في أن آخذها.. لكني كنت نصف خائف لا أعرف ما إذا كانت ستحبني أم لا.. لكن الحمد لله

والشكر له وافَقَتْ وتمسكتُ بها، الشيء الصعب أنها أيضًا أحبتني بنفس طريقتي". حين ذهبت إليها رأيتها متألقة بسعادة الزواج الجديد، وتحدثت هي مع "الشيخ" بفخر وبهجة ثم حضنتني وسمَّتْني "أمي" بعاطفة عميقة من قلبها، أليست هذه قطعة حلوة من رواية عربية دائمة.

تحرك قاربي اليوم وفيه إنجليزيان لطيفان، ترجمانهما المالطي الشاب في الرابعة والعشرين من العمر، والده كثيرًا ما يتحدث عن "المفوضين" وما فعلوه وكيف تحولت الأمور في الجزيرة إلى الأحسن، كل شيء روحيٌّ ودنيويٌّ قد تم فعله لأمن القارب في الشلال- خطاب سريع لمعاون البداري ولمعاون أسوان ليراعي الرجال، وكثير من الصلوات والنذر لأبي الحجاج ليحمي "مُلك السيدة"، أو باختصار "قاربنا" كما هو شائع في الأقصر.

نحن هنا في مصر نشهد الجانب البائس من مسألة " كانديا " أي الحرب في كريت.

في أوروبا بالطبع الشيء الواضح هو معاناة الكريتيين، لكني حقيقةً آسفة كثيرًا للشباب الفلاحين الفقراء الذين يُخطفون للقتال في معركة لا يدَ لهم فيها ولا تعاطف لديهم معها، جريدة التايمز تقترح أنَّ على السلطان التخلي عن الجزيرة، ولقد قيل هذا كثيرًا في بيوت مصرية من قبل. السلطان مُنهك والمسلمون هنا يعرفون ذلك ويقولون إنه سيكون أحسن يوم للمصريين يوم يُطرد الأتراك بعيدًا، لأن فوق كل شيء.. التركيُّ لم يكن قطُّ أمير مؤمنين حقيقيًّا. فقط في أوروبا يتحدث الناس ويكتبون كما لو كان كل المسلمين في مواجهة مع المسيحيين، وأن كل المسيحيين مضطهَدين وأن المسلمين كلهم هم المضطهِدون، أتمنى لو رأَوْا استبداد اليونانيين والمالطيين كمسيحيين، إنَ الإنجليزي يستبد كرجل حر وبريطاني.. وهذا يختلف، هذا هو سبب رغبة المصريين في الحكم الإنجليزي.. خوفهم من المسيحيين الشرقيين لهم حق فيه لأنه إذا امتلك اليونانيون إسطنبول فإن معاناة المسلمين ستُرضي المتعصبين المشتاقين بعمق والذين دائمًا يلعنون ما هو

نِدٌّ!
لا أعرف شيئًا عن تركيا، لكني رأيت وسمعت الكثير لأدرك أن هناك الكثير من العناصر الأخرى إلى جانب المسيحيين والمسلمين، الأمر مختلف في مصر بما يكفي، إنه المصري في مواجهة التركي، والقبطي في صفِّ الأقوى لما له من منفعة بينما هو متعاطف مع أخيه الفلاح. في كل الأحداث لا يريد القبطي أن يمتلك المسيحيون الآخرون القوة، إنه يريدها للمسلم لا للحاكم الهيراطيقي وعلى رأس الجميع اليوناني المكروه، الإنجليزي يبدو كأنه صنف آخر من المسلمين فهو، يغتسل وليست لديه صورٌ في كنيسته، لديه أساقفة متزوجون وفوق كل شيء لا يصومُ نصف العام طوال حياته ولا يُزعَجُ إلا إذا حاول أن يتحول عن الدين.
أبناء الباشا مبحرون جنوب النيل، أمروا بقراءة القرآن عند قبر أبي الحجاج وأعْطَوا ستة بنسات لكل عالِم. لم يتركوا لنا قشَّة -كما يقول موريس-، والشيخ علاء الدين المؤذن وآخرون متفرقون بسبب هذا البقشيش الكبير وفقيّ عجوز لم يعرف هل يضحك أم يبكي أم يشتم حين سألته أن يريني الشال والطربوش اللذَيْن اشتراهما من هدية الباشا، يوسف والقاضي أيضًا تمت دعوتهما للمساهمة بسِلالٍ من الخبز للباخرة، ومن ثم ضاعت الستة بنسات لكل منهما عبثًا.
الصبي الصغير الذي مات أبوه ظل مع العبابدة، الذين لن يتركوه يسافر إلى القاهرة إلا إذا تحسن الجو وصار أكثر دفئًا، ولقد وجدوا شخصًا أمينًا يمكن أن يكون طيبًا معه، قال رحمة "أرجوك يا رب دعه يذهب إلى الست"، واساه حسن بعُودٍ من القصب وبعض التدليل، وإذا فقدتُ مبروك وجاء الصبي الصغير لي سيرمي بنفسه بين يديَّ كما فعل أحمد، سمعت أنه ولدٌ جيد لكنه بدائي تمامًا، وهذا أجده لا يشكل فارقًا عندي، في الحقيقة أعتقد أنهم يتعلمون بسرعة أكثر من أولئك الذين لديهم عاداتهم الخاصة في الحياة، ومن ثم أرى أن تيرينس Terence كان زنجيا[101]

سأخبر رحمة بذلك إذا استطعتُ أن أجعله يفهم مَن كان تيرينس، وأنه -رحمة- في حاجة إلى أي تشجيع، رغم أن الولد المحترم لا يتخيل أبدًا أن لون جلده يقلل منه عندي بأي طريقة .

-102-

إلى السير ألكساندر دوف جوردن

الأقصر - 3 فبراير 1867

أَلِيك الحبيب..

غدًا سيرحل القارب شمالًا ولَدَيَّ قليلٌ لأضيفه إلى خطاب أمي، أنا في حال أفضل.

هنا رجل من جرجا يقول إنه متزوج من أميرة جِنِيَّة، طلبتُ أن أراها لكنني شككت في أنه ستكون هناك بعض العقبات للقاء ستنتهي كما فعل ألِكسِيس.

"ارحلي سيدتي أنتِ شكاكة جدًّا"[102]

غير المعقول هو الدافع إلى ادعاء هذه العجائب والمعجزات هنا دون أن يحصل مُدَّعُوها على أي نقود عن طريقها! الحقيقة غالبًا يدفعون، مثل الوليِّ الهندي الذي حدثتك أنه أعطاني أربعة دولارات والذي كانت معجزاته كلها مجانية، ما كان الشيء الأكثر إعجازًا من كل المعجزات عند الولي.

وُعِدْتُ بأن الجنيّة ستأتي إليَّ عبر الحائط، إذا فعلَتْ ذلك فسأكون مضطرة إلى الإيمان بها إذ لا توجد اختراعات ميكانيكية في الأقصر، كل الحريم هنا يصدقن وجودها، والزوجة البشرية للرجل تقسم أنها تخدمها مثل جارية وتؤكد كذبة زوجها أو أوهامَه كاملةً، لم أرَ الرجلَ بعدُ لكن لن أتعجب إذا كانت كذبة، فالإيمان بالرؤى وكشف المستور أمر شائع.

الجن والعفاريت والشياطين تنتشر في إنجلترا، والشيطان إبليس هنا وصل عدم الاهتمام به إلى درجة بائسة؛ إنه لا يُذكر أبدًا على منبر الوعظ أو في الحوار الديني بالاحترام الذي يتمتع به في البلاد المسيحية، أعتقد أننا يجب أن نسلي أنفسنا بأمنية أنه سوف يعاقب المسلمين على إهماله في الآخرة يومَ الحساب.

لا أستطيع أن أصف لك البؤس هنا الآن، حقّا إنه لمتعب حتى أن نفكر فيه. كل يوم ضرائب جديدة.. الآن كل بهيمة أو جمل أو بقرة أو شاة أو حمار أو حصان لا بد من الدفع لها، الفلاحون لم يعودوا يجدون الخبز.. يعيشون على وجبة من شعير ممزوج بالماء والأعشاب لبرية.. إلخ. وهذا مفزعٌ للناس الذين اعتادوا أن تكون الوجبة طعامًا جيدًا، وأرى كل معارفي يزدادون بؤسًا وغضبًا وقلقًا. يوسف كان بلا ديون؛ دينه يحفظه من الاقتراض لكنه يريد أن يبيع جاريته الفتاة الصغيرة، وباع حماره، وهو أحسن الجميع. السياسة الضريبية تجعل الحياة تقريبًا مستحيلة- مائة قرش على كل فدان، ضريبة على كل محصول،على كل فاكهة سنوية، ومرة أخرى حين تباع في السوق، على كل رجل، على الفحم، والزبد والملح، على الفتيات الراقصات. أنا مندهشة من أن أحدًا لم يرهقني بطلب النقود! ليس أكثر من ثلاثة أشخاص حاولوا التسول مني أو الاقتراض.

الزنجي الذي عندي صار ضخمًا، وصار له صوت الرعد، إنه من فصيلة الفيلة أكثر مما هو من جنس النمور، متوحش صغير للغاية، سأكون آسفة حين يأخذه بَالجْرِيف. حاولت شراء جارية يوسف الفتاة الصغيرة الجميلة من قبيلة الدِنكا لتحل محله، لكن فتاةً وحيدةً ضربٌ من الاستحالة حيث لا توجد حريم بانتظام. في القارب أحمد تحت طوع عمر لدرجة كافية لكن في هذا البيت المترب الكبير وفي وجود مهمات تُقضى وقادمين ومرتادين للعناية بهم.. تدخين وقهوة وما أشبه..يحتاج الأمر إلى ولدين ليكون مريحًا، مبروك أيضًا يغسل الملابس جيدًا جدًّا.. إنه لأمر مدهش كيف يتعلم الصبية بسرعة هكذا. إن أحمد الصغير جدًّا سيكون خادمًا كافيًا لأي رجل وحده، يستطيع الطهو، وتنظيف الغرف، وتجهيز الأسرَّة، وكل خدمات المائدة، وتنظيف الأطباق والسكاكين، كل شيء يقوم به جيدًا وأعتقد الآن أنه يستطيع أن يعمل وحده حتى دون تعليمات عمر. مبروك أبطأ.. لكنه يملك نفس الميزة التي كان يملكها حسن المسكين.[103]

مبروك لا ينسى أبدًا ما طَلِبَ إليه، ونظيف في عمله، رغم أنه - مع الأسف- مهمل في تنظيف ملابسه، لم يعتَدْ نظافتها، ويتدحرج في التراب أو يرتكن إلى حوائط قذرة غافلًا عن جلبابه الأزرق. أحمد أكثر سرعة، لكن كليهما ولدان جيدان ومغرمان جدًّا بعُمَر.. "عم عمر" هي ما يخاطبانه بها، رغم أنه يسخر منهما كثيرًا إذا أساءا التصرف، ولاحظت المراوغة الكبيرة.. التزويغ الذي يظهر حين أكون في الطريق أو حين يذهب عمر إلى السوق أو الجامع، العفريتان الصغيران وَجَدَا أن ضحكهما لا يؤثر على أعصابي وغالبًا يطلبان إليَّ المشاركة في النكات، كم أود أن ترَى ريني هؤلاء الأطفال، سوف يسرونها، فتاة يوسف "مير النزيل" Meer en Nezzil

طفلة فاتنة وماهرة جدًّا، طريقتها الواثقة في شرح كل شيء لي وإيماءاتها سوف تبهجك، ابن عمها وزوجِها المستقبلي عمره خمس سنوات -هي في السادسة- كَسَر "العروسة" التي أعطيته إياها وكان وصفُها لذلك دراميًّا جدًّا، انتهى الحديث إلى نظرة متملقة منها إلى الخزانة ثم قالت "طبعًا لا توجد عرائس أخرى هنا.. أوه.. لا، لا مزيد"، إنها مخلوق صغير جميل، مصرية أكثر مما هي فلاحة، شيطانة تمامًا كما يقول عنها أبوها؛ تأتي للمجتمعين لعمل كعك العيد وتعرض خدماتها "أوه يا خالتي لو أردتم أي شيءٍ أستطيع أن أساعد"، تقول وهي تشمر أكمامها.

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 6 مارس 1867

أمي الحبيبة..

حل الطقس الدافئ، وأنا كالعادة أفضل معه. داهمتني أزمة خفيفة، ليست كالتي كانت في سودن Soden لكنها تباطأت، ومن ثم لُذْتُ بسريري في حذر. الشيخ العزيز يوسف كان معي في المساء الذي داهمتني فيه الأزمة وبقي معي طوال الليل ليعطيني دوائي كل ساعة. عند صلاة الفجر -ساعة ونصف قبل طلوع الشمس- سمعت منه التضرعات إلى الله من أجل حياتي وصحتي، ولكِ ولكل عائلتي، وفكرت في ما قرأته مؤخرًا.. كيف ذبح اليونانيون مواطنيهم لأن الأتراك تسامحوا معهم! أتمنى أن تستنير المسيحية الغربية بهذا، وما يتوقعه المسلمون إذا ساعد "مسيحيُّو الغرب" مسيحيي الشرق على أن تكون لهم اليد العليا.

كان يوسف يسألني عن السيدة ليدي هربرت التي منذ أيام تحولت إلى الكاثوليكية، "شيء بائس" قال.. "القساوسة لعبوا بدماغها لا شك، لكن لا خوف فقلبها خيِّرٌ وأعمالها الخيرية عظيمة، واللهُ لن يتخلى عن هؤلاء الذين يعبدونه بقلوبهم رغم أنه أمر محزن أنها ستركع أمام الصور. انظُري إلى العبد مبروك.. هل يمكن أن يفهم واحدًا في المائة من أفكارِكِ؟ وبالرغم من ذلك يحبك ويطيعك مسرورًا مبتهجًا، وهل تعاقبينه لأنه لا يعرف كل شيء؟ وهل الله الذي هو أعلى منا جميعًا -كما أنتِ أعلى من العبد- أقلُّ عدلًا منك؟"، وافقتُه في الحال وأردت أن أعرف شيئا من معرفته بالعقيدة الأرثوذكسية، لكنه استشهد بالقرآن وقرارات العلماء ليوضح أنه لم يصل إلى أي نقطة مما يهتم به اليهود أو المسيحيين تُدِينُهم، وحتى الوثنيون لا يجب إدانتهم من قِبَل الناس، يريدني يوسف أن أكتب ملخصًا قصيرًا عن الحق والدين

من إملائه. هل يمكن لأي شخص أن ينشره؟ يضايقه لدرجة الرعب أن يسمع أن المسلمين باستمرار متهمون بالتعصب، وهو على حق؛ هذا ليس صحيحًا، إنهم يُظهرون ثقتهم بأن دينهم هو الأفضل في العالم، بالبراءة نفسها التي أراها في كل امرأة إنجليزية بريئة وجاهلة. في الحقيقة هو إظهار لنوع من الغرور الديني، لكنه ليس غالبًا عنيفًا أو شرًّا، رغم حماسهم الشديد .

سأكتب إلى بَالجْريف أطلبُ إليه أن يتركني أرسل صبيًّا آخر أو مالًا من أجل مبروكَ الذي لا يستطيع أن يتعامل مع فكرة أنه سيتركني. أحمد الذي كان تائقًا إلى أماكن المتعة في الإسكندرية وجد بعض الناس في القوارب يعدونه أن يأخذوه معهم، وجاء إلى البيت وأثار شِجارًا ورحل.. غلام صغير مسكين، لقد حاول شيخ البلد أن يوقف عجلته بإعلامه أنه قد يُؤخَذ لأعمال الباشا ويجب ألا يغادر مكانه.. لكن دون جدوى.

منذ ذهب أحمد يعمل مبروك بروعة ويقوم بعمله وعمل أحمد برضًا عظيم، يقول لي إنه يحب الوضع الآن، يحبه جدًّا. إنه يناسبني تمامًا وأنا أناسبه، إنه أمر حقير أن أكتشف كم أنا كبيرة في ذوق المتوحشين أكثر مني عند "الدوائر المهذبة".

طلبَتْ زوجةُ المعاونِ العجوزُ أن تأتي إليَّ لكني لا أريد لها أن تترك بيتها، ففي هذا مغامرة لها. أعرف أنها ستتعجب وتنوح عليَّ وتقول كل دقيقة "آه يا كبدي.. آه يا عيني! يا رب كُن معها وارعَهَا! بكرة يا ربي -من فضلك- اجعلها أحسن".. وهكذا. أرسل الناس لي أطباقًا من الطعام عجيبة، بعضها جيد جدًّا، أرسلَتْ زوجةُ يوسفَ كارِعَين في مقلاتين مع أعشاب موسمية ومطهوة مع الخبز في الفرن وكانت النتيجة رائعة. أيضًا طهت لي نوعًا من المكرونة وكانت جيدة تمامًا.. الآن نستطيع أن نحصل على اللبن من جديد، وصنع عمر قشطة ولبنًا رائبًا.

أرسلي لي طبعة جيدة من "الليالي العربية" باللغة العربية، وسأحب جدًّا أن أعطي يوسف معجم إدوارد وليم لين العربي؛ إنه مشتاق جدًّا لامتلاكه.

لا أستطيع أن أقرأ "الليالي العربية"، لكنه ممتع أن أجعل أحدًا من أصحابي يقرؤها بصوت عالٍ، نسخة ضالة من "قمر الزمان" و"الست بدور" طافت الأقصر وكانت مطلوبة جدًّا في أماسي القرية، لكن مالكها رحل وتركنا نندب خسارته.

عليَّ أن أخبرك بمعيار أسودَ للاحترام.. إنه مشابه تمامًا للإنجليزي المزعج أو الإفطار بلحم الخنزير، كنت أتداول الحديث مع صديقي الزنجي رحمة حول مبروك، وحثني على شرائه من بَالجْرِيف، لأنه رأى أن الولد يحبني حقيقةً. قال "أكثر من ذلك.. الولد من عائلة محترمة فقد أخبرني بأن أمه ترتدي ذيل بقرة نازلًا حتى كعبيها (الذيل مثبت في حزام ومئزر جلدي صغير هو كل ملبسها) وبأنها كانت تضربه حين يكذب أو يسرق البيض من جيرانه"، امرأة مسكينة.. أتمنى لو أن تجارة العبيد البشعة تركتها وتركت ابنها. سخيفٌ منعُ تجارة الرقيق الشراكسة في الوقت الذي تُترك فيه تجارة زنوج إفريقيا كما هي، ورغم ذلك فالشراكسة يأخذون أطفالهم إلى الأسواق كطريقة تمدهم بالسخاء، وكلٌّ من الأولاد والبنات يحبون أن يُبَاعوا إلى الأتراك الأغنياء، لكن السود والحبشيين يقاتلون بشدة من أجل حريتهم ومن أجل أولادهم. يقسم مبروك أنه كان هناك أوروبيان في فريقٍ هاجم قريته ولا يعرف عدد من قتلوهم.. وحملوه وغيره بعيدًا. لم يتم خطفُه من قِبَل العرب أو "الـبرابيّة" Barrabias مثل حسن، لكنه أُخِذَ في حرب من منزله القريب من شاطئ البحر في مكان يسمى بوكي Bookee وحُمِلَ في سفينة إلى جدة ثم أُعيد إلى القصير ثم قنا حيث اشتراه بَالجْرِيف، عليَّ أن أقول إن العبيد هنا سعداءٌ وراضون، لكن فقدان الحياة والبؤس الناجم عن التجارة كبيران. يأتي العبيد من الجنوب إلى شمال النهر بالمئات كل أسبوع، وأسعارهم بخسةٌ جدًّا- من اثني عشر جنيهًا إلى عشرين للصبي الحلو، وتسعة جنيهات وأعلى قليلًا للبنت، سمعتُ أن "جلّاب" عرضَ امرأة وطفلَها بأي مبلغ يدفعه المشتري ثمنًا لهما باعتبار أزمة وجود الطفل، وبالمرة

فإن مبروك يُظْهِر موهبة الأطفال الزنوج. الآن وقد ذهب أحمد الذي كان يوبخهم ويطردهم، فأطفال محمد الصغيرين دائمًا يخرجون وراء "مابو" -كما ينادونه- وهو يتحدث معهم باستمرار. ذلك يذكرني بجانيت وحسن المسكين، لكن مبروك ليس كحسن.. إنه واحد من أبناء "أَنَك" Anak في التوراة ضخم وقوي مثل رجل وبصدر وأطراف استثنائية.[104]

لا تقلقي بشأن العناية بي، يعرف عمر ما عليه عمله بالضبط منذ أن رأى ذلك من قبلُ حين مرضتُ، لقد أطلعته على الدواء وأعطيته التعليمات ومِن ثمَّ لا يتركني حتى أتكلم، وإذا كنت مريضة أكثر -مما يستدعي مساعدة أكبر- فيوسف يأتي ويجلس الليالي معي، لكن هذا ليس ضروريًّا. المصريون لا يشكون أمراضَ الصدر، إنهم لا ينامون على السرير بشكل خاص، لكن ينامون أرضًا بنصف ثيابهم ولديهم سعادة في النوم في الأوقات الغريبة وبأي طريقة مما يعطيهم قدرة على العمل ليومٍ نهارًا وليلًا دون أن يُحزِنوا أنفسهم كما يحدث لنا.

الخميس..

وصلتني برقية تعلن أن جانيت ستغادر القاهرة صباحَ غدٍ على المركب البخاري ولذلك ستكون هنا -إن شاء الله- هذا الأسبوع. لدي ملحوظة من صبي قبطي سَتَسُرُّكِ.. إنه يتلعثم في الحديث بالإنجليزية وأعَلِّمه حين أكون قادرة، أجد متعة مع كل الشباب الصغير فهم لا يتحدثون كثيرًا أمام الرجال الأكبر، ومن ثم يأتون ويجلسون على الأرض حول قدمي ويسألونني أسئلة ويطلبون إليَّ نصائح ويمتعون أنفسهم بسرور.

إنهم يهتمون في وقت مبكر بقضايا العاقل الناضج، ومتطلعون جدًّا ومهذبون، لكن يحتاجون إلى فرح الحيوانات الذي عند أولادنا.. الفتيات أكثر فتوة من الأولاد وأكثر حركةً وفرحًا.

الجو دافئ جدًّا الآن، أخشى أن تصرخ جانيت مرعوبة من الحرارة، لقد تأخرت رحلتهم بسبب "الشمس الكبيرة" التي

بدأت، أنا التي أعبد آمون رع أحب أن أشعر به في مجده. مضى وقت طويل لم أتسلم فيه أي خطاب، ومن ثم أريد أن أسمع كيف حالكم جميعًا.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

7 مارس 1867

أَلِيك الحبيب..

كتبتُ حكايةً طويلةً لأمي ثم تعبت ومن ثم أكتبُ فقط لأقول إني أفضل، استقرت الحرارة وبالطبع معها تتحسن صحتي لكني منهكة قليلًا وأخشى أن أرهق نفسي، فوق ذلك أريد شيئًا من التمريض وسأكون أقوى الثلاثاء القادم المتوقع حضور جانيت وروس فيه.

يا لها من سمكة عجوز متعبة "أنتيكتك" التي من دبلن، التي تريد أن توضح جمال مِس رامبسينيتوس -مِس رمسيس- Miss Rhampsinitus وتمزجها مع محبوبة سليمان (أو سَليم). مخي يدور وأنا أقرؤها، هل عليَّ أن أجيبه أم تجيبه أنت؟

أعطاني الترجمان مقعد سفر قديمًا وجلس يوسف على مقعد له أذرع لأول مرة في حياته.. "لعل روح الصانع الذي صنع هذ الكرسي تجد لها مكانًا في الجنة" كان هذا تعبيره عن الإعجاب، مما أذهلني كمتخصصة في تفضيل الجلوس على المقعد ذي الأذرع المريح جدًّا. يوسف كان ممتلئا بالشكر للرحمات الصغيرة في هذه الحالة.

أخشى أن تشعر جانيت بالضجر من تَحَضُّرِ الناس الذين سيصرون عليه لعمل عشاءات عظيمة وحفلات لها.. أنا متأكدة من هذا، أتمنى أن تذهب إلى أسوان وتأخذني معها، التغيير سيجعلني أحسن وأحب رؤيتها كثيرًا بقدر ما أستطيع قبل أن تغادر مصر.

حال العمل هنا مقلق؛ القوانين الجديدة أوقفت كل قروض المال والسجون مملوءة بشيوخ البلاد الذين تعجز قُراهم عن دفع الضرائب، رجال محترمون جدًّا عرضوا عليَّ مشاركتهم في

محصول القمح الذي سيتم حصاده بعد ستة آسابيع.. إذا فقط دفعت ضرائبهم الحالية سيكون لي نصف المحصول ونصف الضرائب التي دفعتها وفائدة 30% من عائد نصف محصولهم كل شهر. السجن ممتلئ بالرجال ويرسلون إليهم طعامهم بالدَّوْر. في أحد الأيام ذهبت امرأة وعلى رأسها وعاء خشبي مليء بما طهته من أجلهم ومعها زوجها، كان هناك خليل أفندي الوكيل الجديد هنا.. قال "عايزة إيه من هنا يا قحبة؟".. قال زوجها "إنها زوجتي يا أفندم وليست قحبة"، بعدها ضُرِبَ الزوج حتى أُغميَ عليه ثم كانت مناحة، حملوه إلى أمام منزلي مع زحام من النساء يصرخن جميعًا كالمجنونات وبصفة خاصة زوجته التي كانت تصيح وتصرخ وتلطم رأسها وتُهيل التراب عليها كما ترى في المقابر.

إن هزل هذا البلد يتجلى في جمع ضرائب لا يمكن دفعها، وهذا هو شعار النبالة الخاص بعظمة الفارس الجديد الذي ابتهجت الملكة بالتشرف به. القواس يصفق، الفلاح يثور، وبكاء الفلاحة يمكن أن يكون المشهد الصحيح . الحزن في إنجلترا مرعب لكنه على الأقل ليس نتيجة الابتزاز، كما هو هنا حيث كل شيء من الطبيعة وفير وعظيم، ورغم ذلك فالناس تعساء مساكين. إنه ليس الجوع فقط.. لكنه الاضطهاد العنيف الذي يعصف بعقول الناس الآن، إنهم لم يشكوا من قبل.. لكن الآن كل القرى صارت مهجورة. السفينة ستبحر صباح غد وعليَّ أن أقول وداعًا.

-105-

إلى السيدة أوستِن

الأقصر - 12 أبريل 1867

أمي الحبيبة..

الآن استقبلتُ خطاباتك شاملةً خطابًا لعُمَر، قرأته له فقبَّلَهُ وقال إنه سيحتفظ به كحجاب! أعطيته توصية لممثلي شركة "كوتس" ليحصل على المال عند وفاتي، اقترح عمر أن ننتظر حتى نذهب إلى القاهرة ونشتري هناك منزلًا صغيرًا أو طابقًا في منزل، سأحتفظ بكل النقود حتى نجد المنزل ومن ثم لن تكون هناك طريقة لإغرائه بفعل أي شيءأحمق بها. أتمنى أن توافقي!

زيارة جانيت كانت عيدًا كما قال الناس، حين استيقظْتُ في الصباح كانت على وشك الوصول، وجدتُ المنزل قد زُيِّنَ بفروع النخيل وزهور الليمون، والأعلام الدينية لأبو الحجاج تطير فوق شرفتي، أحضرها أهل الجامع قائلين إن كل الناس سعداء اليوم لأنه يوم حظ لي. أفترض أنه لو كان لي عقل يقدم شهادته على ذلك لكنتُ مزقتُ الأعلام ساخطة لأنها تحمل شعار "لا إله إلا الله.. محمد رسول الله"، لكن بَدَا الأمر لي أنه إذا كان الأئمة والمؤذنون أرسَلوا أعلامهم ليزينوا منزل مسيحي فعلى المسيحي أن يتعامل مع الأمر برقة. ثم كان هناك حفلٌ على ظهور الخيل وذهب كل المشهورين ليقابلوا المركب، وترحيب عام وابتهاج. في اليوم التالي ذهبتُ مع هنري وجانيت في المركب البخاري، وأنفقنا وقتًا جميلًا إلى أسوان وعدنا، وبقيا يومًا آخر هنا واستأجرت دهبية صغيرة لتأخذهما إلى قنا شمالًا حيث بقيا يومًا، بعده أبحرنا أنا والشيخ يوسف من جديد إلى الأقصر، لسوء الحظ لم نحظَ بطقس مثل أيام الأسبوع الذي أبحروا فيه من هنا.. فبعدها صار الجو باردًا تمامًا.

تركَتْ عندي جانيت كلبَها الصغيرَ الذي لونه بين البني والأسود،

كلب صغير جميل جدًّا لكن لم أستطع أن أنافس عمر في عواطفه نحوه، إنه ينام في حِضن عمر.. وعمر يدللـه ويلاطفه طوال اليوم، ويتباهى أمام الناس بكيف يشرب الكلب القهوة ويأكل أكلًا لذيذًا، والناس يرددون"ما شاء الله!"، بينما كنت أتوقع أن يلعنوا أبا الكلب.
يومًا عاد رجل موسوس مليء بالحذر، وخلال ذلك كان الكلب يحملق إليه وفَوْرًا يقفز بين فخذي الشيخ يوسف، يتعلق بهما بقوة وينبح في تحدٍّ لمن بَدَا أنه يعترضه. لم أضحك من قلبي مثل اليوم، وانفجر يوسف في ضحك مجنون، فم الكلب فقط لم يكن نظيفًا ويوسف أعلن أنه كلب متدرب جيدًا جدًّا ولا يحاول أن يلحس، وفقًا لذلك آنَسَهُ وأعطاه الشاي في صحن الفنجان وليس في الكوب.
سأرث صغيرًا أسودَ آخر من وكالة هنري روس في قنا..أجمل غلام صغير. لا أعرف لماذا ذهبتُ متوقعة أن مَن يسمونهم متوحشين مختلفون عن بقية الناس، يتحدث مبروك ببساطة عن قريته وعن الحيوانات والمؤن، وكيف أن الرجال من القرى المجاورة سرقوه ليبيعوه من أجل بندقية (ثمن البندقية صبي) لكن تم منعهم "برزية" -غارة- من الأتراك، الذين قتلوا المعتدين أولًا وأخذوا كل الأطفال.. ما أبهجني أنه كان يحكي كل ذلك كطفل إنجليزي يحكي عن صيده للعصافير من أعشاشها، إن لديه نفسَ التصور العام عن الحق والضلال، ولم تعرف رحلته الخبزَ ولا أي نوع من الثياب، لا الجبن ولا الزبد ولا حتى شرب اللبن ولا الجعة الإفريقية، وكان المطر لا ينقطع في الطريق والبرد مميتًا في الليل، ودون نيران يشعلونها كان يمكن أن يموتوا. كان معهم مُنتجَيْنِ من الحضارة هما الدخان والبنادق، ويدفعون ثمنها من الصبيان والبنات الذين سرقوهم. أندهش وأسأل أين يقع هذا البلد إنه يُسمَّى سواحيلي Sowaghli والشعب التالي لهم هم الماساي Mueseh على ساحل البحر الأحمر.. وهو ليس حارًّا جدًّا كمصر. لا بد أنه في نصف الكرة الجنوبي. الصبي الزنجي الجديد من دارفور، إذا لم يُسَرُّ موريس بالحاضرين هنا فصبي دارفور

سيجري وراءَهُ باعتباره قادرًا على أن يطلق النار وينظف البندقية. يبدو موريس راغبًا في الحضور وأتمنى أن يتركه أَلِكساندر يأتي ليمضي الشتاء هنا وسوف آخذه جنوبًا إلى الشلال الثاني، أعتقد حقيقةً أنه سيستمتع به.

أعتقد أن مركبي لن يعود لستة أسابيع أخرى. مستر إيتون ومستر بيرد Mr.Eaton and Mr. Baird من الناس الجميلين! ترجمانهم المالطي بَدَا يكره الإيطاليين بضراوة؛ قال إن كل الناس اللطفاء في مالطة ينتمون عشراتِ المراتِ إلى المحمديين عنهم إلى الإيطاليين.. بعد كل الدماء التي تجرِي. إنه شاب محترم جدًّا ولكونه ترجمانًا ابن ترجمان فقد رأى العالَم، والمسلمين بشكل خاص. أعتقد أنه البابا هو الذي جعل الإيطاليين كريهين إلى هذا الحد بالنسبة إليه.

البريد هنا مخيف، لا يشغلني أن يقرؤوا خطاباتي ما داموا سيرسلونها، يرجوني عمر أن أقول إنه وأطفاله سيدعون لك طوال حياته ويشكرون الله، ليس بسبب المال فقط لكن دائمًا بسبب الكلام الجميل والثقة به. لكنه قال "لا أستطيع قول كثير من "البولوتيكا"، من فضلك يا رب إنها سترى، فقط أقبِّلُ يدها الآن"، سوف تسمعين من جانيت عن رحلتها القصيرة، ما أحببته أكثر كان الانطلاق في الشلال في قارب صغير، كانت فانتازيا جميلة.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 19 أبريل 1867

أَلِيك الحبيب..

مؤخرًا صرتُ مسرورة جدًّا بتعارف جديد، هو مَن في روايات القرن الماضي يمكن أن يسمى "الحكيم العربي"، الشيخ عبد الرحمن.. يسكن في قرية على بعد نصف يوم، وجاء ليزورني وليعالجني وفقًا لعلم جالينوس وابن سينا، طويل هو ولافت للنظر، نحيل، رجل رشيق ذو لحية رمادية وعينين لامعتين، منغمس في دراسات عفا عليها الزمن- دكتور لاهوت، قانون، طب وفلك. أمضينا ثلاثة أيام نقاشًا وأسئلة، وافقتُ على أن أبتلع جرعةً أو اثنتين مما أعده أمامي من مواد غير مؤذية. صديقي لا هو مشعوذ ولا هو أسطوري، ومنذ مائتي عام كان يمكن أن يكون طبيبًا جيدًا أفضل من كثير في أوروبا، حقًّا أريد أن أبتلع علاجه الآن أكثر من علاج كثير من الأطباء المحدثين.

وجدته مثل كل رجال اللاهوت المتعلمين الذين عرفتهم، متحررًا تمامًا ومتسامحًا، تستطيع تصوُّرَ أنه لا شيء أكثر تسلية وإثارة من المحادثة مع رجل متعلم وذكي، وجاهل تمامًا بكل عِلمنا الغربي الحديث. وإذا كنت سُرِرْتُ معه فلقد فُتِنَ بي، وأقسَمَ بالله إنني كنت "مفتيًا" حقيقيًا، وأن رجلًا لا يمكن أن يقضي وقته في أي مكان بمثل هذه البهجة في النقاش معي. قال إنه سبق له أن تعرف إلى إنجليزيين أو ثلاثة أسعدوه جدًّا، لكن لو كانت كل النساء الإنجليزيات مثلي ستكون القوة في أيدينا لأن عقلي أعلى بكثير جدًّا من عقول الرجال الذين عرفهم، إنه يعترض على أدويتنا ويراها مجرد مسكنات ويحتقرها لأنه يهدف دائمًا إلى العلاج الجذري، أخبرته بأنه لو قرأ في علم التشريح سيعرف أن العلاجات الجذرية صعبة التنفيذ وسوف ينتهي إلى النواح لجهله

اللغة الإنجليزية أو بعضَ اللغات الأوروبية، وبأنه لم يتعلم "عِلمنا" أيضًا. ثم تحولنا إلى العواطف والشخصيات الصوفية والفضائل الغامضة للأحجار.. إلخ. وابتلعتُ المزيج الذي أعده لي (المكون من العرقسوس والكمون والصودا) حين بدأت الشمس تدخل بيتها في ناحية والقمر يظهر من الأخرى. مدح لي صديقَهُ اليهودي المتعلم في القاهرة، كنت متوهجة كأني أستمع إلى أبو سليمان من قرطبة في زمن كنا فيه برابرة وكان العرب هم الجنس المتعلم. هناك شيء ساحر في السلوكيات المهذبة والمشرِّفة لكل الرجال المتعلمين الذين رأيتهم هنا، ملابسُهُم وعاداتهم اليومية تجعل ذلك مدهشًا دائمًا. اشتقت إلى تصوير شيخي وهو جالس في الديوان -المقعد الكبير- يمسك بالمخطوطات أمام صدره ليقرأ لي كلمات لقمان الحكيم أو ليهزمني بسلطة بعض الأطباء الذين لم أسمع أسماءهم قطُّ.

يد الحكومة قوية مخيفة لنا، طوال هذا الأسبوع الناس يعملون ليل نهار في قطع محصول الذرة الذي لم ينضج، لأن ثلاثمائة وعشرة رجال عليهم الذهاب غدًا للعمل في خطوط السكة الحديد شمال أسيوط. هذه الذرة الخضراء بلا شك لا قيمة لها عند البيع ومؤذية عند الأكل، ومن ثم فالمحصول الأعظم لهذا العام يتحول في آخر لحظة إلى وجع ومرارة، من قرية مجاورة ذهب كل الرجال، وسبعة آخرون يريدونهم في العمل سُخرَةً. تعداد سكان الأقصر عادة هو للذكور من كل الأعمار، ومن ثم يمكن أن تخمن كم بقي من الرجال الأقوياء بعد أخذ ثلاثمائة وعشرة.

لا أحب أن أفكر كثيرًا في رؤيتك وموريس في الشتاء القادم خوفًا من خيبة أملي، إذا بقيتُ مريضةً جدًّا ومتزعزعة ستكون الرغبة في حضوركم صعبة، لأني أعرف أي إزعاج يكون في الوجود مع شخص يسعل كثيرًا ويلهث، وليس بقادر على العمل مثل الآخرين. لكن إذا حدث أن صرت جيدة هذا الصيف سأكون حقًّا سعيدة لرؤيتكَ وموريس مرة أخرى.

حزينة لأن هذا المنزل يغرق في العفن الذي يُنْتِج الثعابين والعقارب؛ أرسلت في طلب "الحاوي" الذي يصطاد الثعابين لكنه لا يستطيع أن يستحضر العقارب من جحورها، واحد من معارفي الأتراك السِّمان سقط ضحية، وأنا في خوف على الكلب الصغير؛ هو دائمًا في ذراعَيْ عمر.

أعتقد أنني وصفت لك الاحتفال بالشيخ جبريل- العشاء، والشعراء المجيدين. هذا العام حظيت بخطبة قصيرة جميلة على شرفي، مصيبة حقيقية حدثت لمعاوننا المحترم سليم أفندي، طلب إليه المدير من مركبه البخاري أن يذهب بسرعة إلى قنا دون أي أسئلة، تمنينا له حظًّا طيبًا وكذلك للتركي. تقرَّرَ له العمل كمشرف على الناس التعساء في أعمال السكة الحديد وأن يحصل فقط على جنيهين وخمسة شلنات إضافية في الشهر، عليه أن يحتفظ بحصان وحمار، وأن يشتريهما وأن يستأجر سائسًا وهو ليس ممن يبتزون مال الفلاحين، هذا حقيقي "البصلة تبقى في إيدك وتقسم لغيرك"، إنها تعني أن أتعس الشياطين في العمل يمكن ضربهم ليقدموا أكثر، لكن عزيزنا سليم -باركه الله- سيخرب ويكون بائسًا بهذه الترقية، تلقيت خطابًا محزنًا منه أمس.

-107-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون.

الأقصر - 15 مايو 1867

ألِيك الحبيب..

كل المسيحيين في مصر العليا في حالة من السعادة لوصول بطريرك القاهرة الذي هو في الأقصر الآن، جاري ميخائيل يحتفل به، وقام عمر بشغف وهِمَّةٍ بتزيين منزله ونظَّم إضاءات الحديقة واليوم ذهب ليطهو الحلوى، لقد ظهر كشخص تعرّف على العادات لدرجة عظيمة. الليلة الماضية أرسل البطريرك في طلبي، وذهبت لأقبِّلَ يده لكنني لن أذهب مرة أخرى؛ لقد كان اللقاء صورة كاريكاتيرية مضحكة من صخب الفاتيكان. كان ميخائيل البائس قد خطط لأن أتناول العشاء مع البطريرك واستعار ملاعقي الفضية وغيرها من الأدوات لذلك، لكن ممثل سانت مارك كان مرعبًا ضد المبعوثين الأمريكان الذين حوَّلوا نحو عشرين قبطيًّا في قوص عن مذهبهم الأرثوذوكسي، ولم يستطع أن يقدم نفسه كمتحضر رقيق إلى البروتستانت. وجدتُ رجلًا ذا مظهر خشن يجلس على كنبة عالية يدخن "البايب" التركي، وإلى يمينه يجلس بعض القساوسة على كنب منخفض، تقدمتُ وقبلت يده وكنت على وشك الجلوس جوار القساوسة لكنه أمرَ القواس بخشونة أن يضع مقعدًا خشبيًّا خارج السجادة إلى يساره على مسافة منه، وطلب إليَّ أن أجلس هناك، نظرت حولي لأرى ما إذا كان أي من جيراني حاضرًا، ورأيت الذعر على وجوههم أيضًا، غير راغبة في مضايقتهم فعلت ما أراد دون اكتراث بالإهانة وجلستُ وتحدثتُ لنصف ساعة إلى القساوسة ثم مشيت. علمت أن الكاثوليك كانوا ناسًا مساكين وأن المسلمين على الأقل أصحاب عقيدة قديمة، لكنهم -البروتستانت- هم من يأكلون اللحم طوال العام "مثل الكلاب" قال عمر أو "المسلمين"، وكان

عمر يقف خلف مقعدي ولم يستمتع بذكر الكلاب و"العقيدة الإنجليزية" في جملة واحدة. حين ذهبت إلى البطريرك مدعوة إلى العشاء بدا أنه قد قال لميخائيل إنه لا يود أن يأكل معي، إنه "حُكمٌ" واضح من شخصية هامة كبيرة بأنه لا بد من ازدرائي بسبب جرائم المبعوثين، لكن هذا أثار دمي. الآن.. القاضي والشيخ يوسف والباقون الذين كانوا قد نَوَوْا أن يكونوا متحضرين مع البطريرك، لا يريدون أن يقتربوا منه بسبب فظاظته معي. لقد جاء في مركب بخاري على نفقة الباشا مع حرس من القواسين وبالطبع مدح الحكومة كثيرًا رغم أنه فشل في جعل المدير يرسل كل البروتستانت إلى قوص للعمل العام أو في الجيش.

مما قاله أمامي عن الأحباش وهناك الكثير باقٍ.. ومما قاله للآخرين عن المساجين الإنجليز هناك.. اقتنعت بأن المكان الذي يخيم عليه الفشل هو البطريركية في القاهرة، وأن القساوسة في قاع مهمتها[105]، لقد تباهى -بقوة وبكل طاقته- بطاعة وتقوى أهل الحبشة.

السبت..

سمعت أمس همسًا قليلًا متبرمًا عن النقود التي طلبها "أبونا"، أحد جيراني الأقباط أُجبر على بيع كل احتياطه من الزبد لي ليدفع حصته. هذا الفتور عن الابتهاج برؤيته سببه تفاخره جدًّا بأفندينا، أحد الرجال الذي سمعه يقول عن المبعوثين الأمريكان إنهم "متسولون" زأر في وجهي في ضيق "صحيح هم متسولون.. متسولون صحيح.. لم يتسوَّلوا مني أي نقود!".

أعتقد حقيقةً أن هناك شيئًا في هذا الخوف من حركة البروتستانت، وواضح أن الباشا يدعم البطريرك الذي يحتفظ بكنيسته بعيدة عن كل الكنائس المسيحية الأخرى وتحت وطأة الأتراك، مثير أن تسمع القساوسة يتحدثون بأدب شديد جدًّا عن الإسلام ويلعنون بحدة البروتستانت.

كنا دخلنا في نقاش حول المرأة التي تحولت من قبلُ إلى

مسلمة لتتخلص من زوجها القبطي العجوز الأعمى الذي كان مجبَرًا عليها وافترضت أنها ربما تفعل ذلك لتتخلص من الزوج المسلم بدوره، على أي حال لقد قال زوجها القبطي "لا يهمني ذلك، إنها أم لطفليَّ الاثنين وسواء أكانت مسلمة أم مسيحية فهي زوجتي ولم أطلقها، لكني سأرسلها إلى الكنيسة في الوقت الذي تحبه"، عند ذلك ترك الكهنة المشاحنة النقاشية واستغاثوا بالشيخ يوسف الذي لاذت المرأة بمنزله بعد أن تركت الكنيسة، والذي كان خائفًا أن يُستدرج إلى النزاع.

طفلي الصغير من دارفور لطيف جدًّا وذكي جدًّا وأتمنى أن يصبح أحسن، إنه يميل إلى المساعدة جدًّا أكثر مما يبدو كسولًا، تشاجر مبروك مع صبي مقيم قريبًا منا بسبب طائر وغادر كلاهما المكان، الصبي المصري ما يزال مفقودًا لكن تمت إعادة مبروك بالقوة منتفخًا بالغضب وثيابه ممزقة، إنه عادة متعطش للدماء، وَبَّخَهُ الشيخ يوسف بوقاحته مع أهل الحي وأنهيت أنا الحديث قائلةً "أوه يا ابني! هل تريد الرحيل؟ لا أستطيع تركَكَ تدور مثل متسول بملابس ممزقة وبلا نقود لأن البوليس يمكن أن يقبض عليك ويأخذك إلى التجنيد بالجيش، قُل لي إلى أين تحب أن ترحل وسوف نتحدث فيه بمحبة وتعقل"، على الفور أحس داخله بأنه لم يرغب في الذهاب إلى أي مكان، وقال "أنا نادم.. أنا ثور، هاتوا الكرباج واضربوني ثم اتركوني أذهب لأنهي طهي عشاء الست"، خففتُ موضوع الضرب بالتهديد بأنه إذا أرهب الجيران مرة أخرى سوف ينتهي إلى البوليس وليسمن قِبَل عمر غير القادر على شيء، في نصف ساعة كان سعيدًا كما هو دائمًا. لقد كان ذلك استعراضًا سخيفًا لانفعال الزنجي وكله حَوْل لا شيء بالمرة، وبينما كان يقف أمامي كان ينظر بمأساوية كبيرة وأَقْسَم أنه أراد فقط أن يهرب بعيدًا ويموت.. هذا كل شيء.

أتمنى لو كنتَ معنا تسمع مناقشاتي في "جلساتي المسائية تحت ضوء القمر" مع الشيخ يوسف والشيخ عبد الرحمن، كيف نتجادل أنا وعبد الرحمن وكيف يضحك يوسف ويحثُّنا على

الاستمرار،كان عبد الرحمن غاضبًا لحاجتي إلى الإيمان بالطب جملةً وتفصيلًا ويقول إني أتحدث مثل الملحدين، ويسألني.. ألم يقل الله "وجعلنا لكل داء دواء؟"، وأقول "بلى، لكنه لم يقل إنه أخبرَ الأطباء بأي دواء يكون وفي نفس الوقت أقول إنها حكمة الله التي لا يمكن تسميتها بكلام الملحدين"، ثم ندخل في علوم الكيمياء، والفلك، والسحر وبقية العلوم ويوسف يغيظ صديقه ويروي قصصًا واضحةَ العبث. يشير عبد الرحمن إلى أن الشيخ يوسف يسخر من "عِلم المسلمين" لكن يوسف قال "ما علمُ المسلمين؟ لقد كشف الله عن عقيدته عن طريق الأنبياء ولا يمكن أن نتعلم شيئًا جديدًا في هذه المسألة، لكن العلوم الأخرى تركها لذكاء الإنسان وقال النبي محمد إن "كل العلم من عند الله حتى علم عَبَدةِ الأصنام"، لماذا إذن نحن المسلمين نغمضُ عيوننا عن النور ونريد أن نظل إلى الأبد جهلة كالأطفال؟ إن علم الفرنجة شرعي كأي علم آخر". وكان عبد الرحمن حساسًا في هذه النقطة لا يستطيع أن ينازع فيها لكنها أغاظته.

أنا متعبة من الحديث عن كل المآسي السوداء لأهلنا الفقراء، وكيف تم جرُّ ثلاثمائة وعشرة من الرجال في عيد الفصح -شم النسيم- ومعهم خبزهم وأدواتهم للعمل سُخرةً وكيف في أربعة أيام أُعيدُوا من قِنا لأنه لم يكن هناك أوامرُ بأخذهم أصلًا، وكان عليهم أن يدفعوا أجرةَ القاربِ الذي أعادهم، ثم بعد خمسة أيام اقتِيدُوا مرة أخرى! وبينما محصولُ القمح يتمُّ جَنْيُهُ أخضرَ ويظل مَرمِيًّا بلا دَريسٍ وتأكله الطيرُ والفئران، وخبز الرجال يُفقَدُ ويفسدُ وهو يُنقَلُ إلى السفن أو منها. اضْطُرِرْتُ إلى إرسال الجِمالِ عشرين ميلًا للحصول على الفحمِ لأن العبابدةَ لم يعودوا يرسلونَهُ إلى الأسواق فالضرائب ثقيلة جدًّا. الزُّبدُ أيضًا علينا أن نشتريه في السر ولا أحد يجلبه إلى السوق. حين أتذكر الفضاء الواسع الجميل المحبوب الذي رأيته أول مرة من نافذتي مزدحمًا بالرجال ومحاصيل البقول وأنظر إلى الخراب والجفاف الآن.. أشعر بأن قدمَ الأتراك ثقيلةٌ حقًّا؛ حيث كان يوجد خمسون حمارًا تجدُ الآنَ واحدًا

فقط، ذهبَتْ الحمير واختفَتْ الجِمالُ والخيل والقطعان، ليست القطعان ذات القرون فقط لكن أيضًا الكلاب هلكت والصقور والنسور صارت قليلة، والإنسان لم يعد يجد الطعام ليخزنه ليوم جوع. الحمير بيعت والجِمال صُودِرَتْ والكلاب ماتت -وهذه هي الميزة الوحيدة- اللحم رخيص جدًّا لأن على كل شخصٍ أن يبيعَ ليدفعَ الضرائبَ، لكن لا أحد يملك النقود ليشتريَ. إنهم يناشدونني أن آخذ الشّيِاهَ والدجاجَ مقابلًا لما سوف أفعله.

-108-

إلى السيدة أوستِن.

الأقصر - 23 مايو 1867

أمي الحبيبة..

لديَّ وقت فقط لكلمات قليلة سأُرسلها مع جعفر باشا الذي يسافر مبكرًا هذا الصباح، وصل مركبي بخير ومعهُ الطرد الذي أرسلتِهِ، الكتب واللعب جميلة جدًّا.. الأخيرة أبهجت الدارفوري الصغير للغاية وأصبح عيبًا ألَّا يلعب مع "الست" بدلًا من أن يلعبَ وحده، أخشى أني سأُفسِدُهُ بتدليلي فهو مفتونٌ جدًّا كطفل، ما زالت أسنانه تتبدل فلم يَزِد على الثامنة، في البداية لم آمِل إليه وخشيت أن يكون عنيدًا لكن كان عناده هذا نتيجة الخوف العادي الذي اختفي الآن وصار دائمًا يأتي متمنيًا أن يلعب معي. إنه ذكي جدًّا، وله وجهُ طفلٍ زنجي جميل، أهل دارفور -كما تعرفين- مستقلون وشجعان جدًّا وليسوا أبدًا متوحشين، أفكر كم ستكون ريني مسرورةً مع هذا الطفل، طلب إليَّ أن أقطع صورة السلطانة الإنجليزية من صحيفة لندن نيوز المصورة وأعطيها له، أخفاها داخل صندوقه.

أنا بخير كالعادة، منذ بدأ الطقس الحار منذ ستة أيام. أعتقد أنني سأغادر الأقصر بعد أسبوع وسيذهب مصطفى ويوسف معي إلى القاهرة، سَعِدَ يوسف بملاحظاتك عنه، اتسعَتْ عيناهُ وأخذ الخطابَ ليحتفظَ به بعناية، قال عمر إن هذا الخطاب مثلُ الحِجاب، وقال الشيخ يوسف "حقًّا هو كذلك، ولن أحصل على شيء أكثر بركة من الفضائل التي جاءت من السيد المسيح، وإذا حصلت على واحدة منها لن أبتعد عنها أبدًا".

كان لدينا احتفالٌ جميلٌ بالشيخ الذي لديكِ صورةٌ لضريحِهِ، وأمضيت مساءً سارًّا جدًّا مع الشيخ عبد المتولي الذي اعتاد أن يكون عابسًا معي لكننا الآن مثل أخوَيْن، وجدتُه ماهرًا جدًّا ولديه

معلومات أكثر من أي عربي قابلته ممن هم بعيدون عن الإفرنج. كنت مندهشة لاكتشافي أنه مقدِّرٌ جدًّا مشاعري عند خِلافي في النقاش مع الشيخ عبد الرحمن، وقال إنه من الواجب على المسلمين أن يتعلموا بقدرِ ما يستطيعون مِنَّا وألَّا يظلُّوا ملتصقين بالعادات القديمة.

يوم الأحد عاملني البطريرك بازدراء ولم يتناول طعامه معي، ويوم الاثنين قدَّمَ لي الوليُّ قطعًا من الحلوى بأصابعه ودخل معي الضريح. لقد ارتكبَ البطريرك خطأً فاضحًا بتصرفه، لقد أتى متفاخرًا باعتباره محميًّا وممثلًا عاليًا للباشا و"أكل" وضرب الفلاحين، كان على أقباط الأقصر أن يدفعوا خمسين جنيهًا لشرف حضوره، إلى جانب شياهٍ ودواجنَ وزبدٍ وأشياءَ لا حصرَ لها. لو كانت لي عقلية المبشّرين لقُمْتُ بعملية تحوُّلٍ للعديد من الأغنياء والوُجَهَاء، وسيفعلُ ذلك المبعوثون الأمريكان. بالطبع يتعاطف المسلمون مع المتحولين إلى ديانة لا توجد بها آلهة من تماثيل ولا رُهبان، والتي فيها الكهنة يتزوجون مثل بقية العوام ومِن ثَمَّ فهم الأقل خوفًا، أسمع أن هناك الآن خمسين بروتستانتيًّا في قوص وأن البطريركيةَ مرعوبةٌ لأنها لا تستطيع عقابَهُم أو ضربَهُم. طَهَا عمرُ عشاءً رائعًا الليلة الماضية لجارنا ميخائيل، ولم ينتهِ الأكل إلَّا في الثانية صباحًا. كان على حكومتنا أن تعمل على تقييده بسبب ما قاله عن مسجُونَيْنَا الحَبَشِيَّيْنِ، لا أستطيع أن أقولَ من حدَّثني بما قال لكنه كان رجلًا محلَّ ثقةٍ ومسيحيًّا حقيقيًّا، لقد أجابني البطريرك بحدَّةٍ حين سألته عن حالة الدين في الحبشة "حيث يوجد محبون للحق وأطفاله الطائعون".. حيث يكون هناك خطأٌ في قيادة الأقباط يكون الكهنةُ في القاع منه، لو اختارَ البطريرك فيجب إطلاقُ سراحِ هؤلاء الناس..هذا ما يجب أن يكون، لكنه يكره كل الأوروبيين بحدَّةَ.

أحب أن تكون لديَّ مجلةُ ريفيو دي دو موند Revue des Deux Mondes لكن لا أعرف كيف تُجلَبُ إلى هنا أو كم سيتكلف البريد، إنهم لا يرسلون شيئًا بالبريد غير الخطابات إلى جنوب القاهرة

وكل شيء يذهب على ظهورالرجال، "إن شاء الله آحمل الأخبار الطيبة" صاحَ ساعي البريد وهو يلقي بالخطاب أعلى السور، أنا سعيدة جدًّا لفرصةِ إرسالِ أخبارٍ إليكِ بسرعة بواسطة جعفر باشا الذي جاء وحده كرجلٍ محترم ودون حاشية، كان قادمًا بعد عامين قضاهما في السودان كباشا مطلق، إنه محبوب جدًّا ومحترم ويبدو حساسًا جدًّا ورجلًا مقبولًا لا يشبه مطلقًا أي تركي عظيم الشأن رأيته من قبل. حاكمٌ كبيرٌ هو لكنه جعل يوسف ومصطفي وعبد الله يجلسون معه ولا يقفون أمامه وكان متحضرًا جدًّا وبسيطًا في سلوكه.

إلى السير أَلِكساندر دوف چوردون

بني سويف - 30 يونيو 1867

أَلِيك الحبيب..

أكتبُ راجيةً أن يصلك خطابي بالبريد ناجيًا من الضياع فلا تظنَّ أنني ضِعتُ، تركتُ الأقصر في 31 مايو ووصلتُ إلى أسيوطَ -نصف الطريق- في أسبوع، حينها كنا في معركة مخيفة مع الرياح الشمالية والشمالية الشرقية، شعرت كما لو كنت أوديسيوس كثير السفر لكن رأيت "قُرًى ورِجالًا" ولم أكن مثله، ورَغمَ ذلك لم يتذمر رفاقي، ولا هجروني -على صعوبة ذلك العمل عليهم- بعد أن حصلوا على نقودهم المناسبة لنحوِ عشرين يومًا التي بها عليهم أن يصلوا بي إلى القاهرة، إنهم يأكلون كلهم وهم الآن مضطرون إلى التوقف وصنع الخبز هنا، لكنهم يتصرفون بشكل جيد كما لو كانوا جميعًا بخير. أسطولي يتكون من دهبيتي -الباخرة الرئيسية- وقارب شحن وسفينة خدمات لحصاني والسائس وأيضًا أخذنا أرملتين بائستين ذابلتين عجوزَيْن ذاهبتين إلى القاهرة لرؤية أبنائهما في موقع الحامية هناك، والكثير من الخبز الجاف والقمح، والذرة وأواني الزبد، وبصل وعدس لكل الأولاد من "عائلتي" الذين يدرسون في الجامع الأزهر،إلى جانب أنه في مخزني بعض الأموال البسيطة من أجل أولئك المجاورين (في الجامع الأزهر)، ألا ترغبُ في أن تُمِدَّ موريس بكيسٍ من الخبز وسلة من البصل وجنيهٍ وستة عشر شلنًا؟

أراد الأسمرُ الأنيقُ شيخُ العرب حسن أن آخذه معي، لكني أعرف أنه رجل يحافظ على الصيام وسألت يوسف كيف أتجنب أخذَهُ معي دون كسر قواعد الضيافة، فقال "أبي" (الشريف العجوز لحسن).. إنه لم يختَرْ ابنته لتسافر مع مدمنة خمر، وخسر صحبتها.

في حماية قافلتي أبحرَ مركبانِ صغيران أو ثلاثة بها تجمعات عائلية، واحد منهما كان جميلًا جدًّا تدير دفَّتَهُ فتاةٌ صغيرة سمينة قليلًا في الخامسة من عمرها. كل هؤلاء تمنَّوا الهربَ بالإبحار معي لخوفهم أن يتم خطفُهُم أو إرهابُهُم في الطريق، وكانوا ينزلون في قراهم المختلفة. أنا في حالة جيدة أفضل مما كنت في بداية الرحلة رَغم أنف الرياح.

الريس محمد المسكين أصابه التهابٌ في عينيه وجلس على كومة طوال الطريق يزأر ليلًا ونهارًا غاضبًا "أنا مسلم". في أحد الأماكن عرفوني وحضر إليَّ عديد من المرضى لأراهُم وذَبحَ رجلٌ مهذبٌ شاةً وأمتَعَنا جميعًا باللحوم والفطير، في الجزء الذي نحن فيه من النيل حيث كانت الرياح عالية.. كانت النساء مختلطة بالرجال بِحُريَّةٍ كما في أوروبا، واستمتعتُ تمامًا بوجوه الفتيات الجميلات والثرثرة بين النساء اللاتي جئنَ يملأن "زِلَعَهُنَّ" بالماء ويناديَنَنَا بأصوات هامسة من نوافذ الكابينة وكُنَّ يطلبنَ أيضًا الرحيل. أعطاني شيخ الهوَّارَة خروفين كانا في سفينة الشحن مع أربعةٍ آخرين كلها هدية.. ويدعوكَ عمر لأكلها في القاهرة. كان الشيخ مشتاقًا جدًّا إلى تقديم احتفالٍ لكَ في قصرهِ إذا أتيتَ إلى أعلى النيل، وفيه ركوب الخيل والولائم والفتيات الراقصات. في الحقيقة أنا مشحونة برسائل عديدة للكبير! (السيد العظيم)[106]

-110-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

القاهرة - 8 يوليو 1867

أَلِيك الحبيب..

وصلتُ اليومَ بعد رحلةٍ لثمانية وثلاثين يومًا، وشهر أو أقلَّ من الريح المرعبة. رجالي البؤساء تساقطوا بسببها ورغم ذلك أشعر بأنني أفضل مما كنت حين غادرت الأقصر.

أحضر عمر كل خطاباتك، الأخير كان في 26 يونيو.. دعني أعرف خططك، إذا استطعت صعود النهر سأرسل القارب سلفًا إلى المنيا حيث توجد خطوط حديدية الآن ستُنهي الجزء الممل من الرحلة بالنسبة إليك إذا لم يكن لديك الوقت، عليَّ أن أرسل هذا الخطاب في الحال لِيُلحَقَ بالبريد المبكر صباحًا. اغفر لي تسرعي فأنا أكتب تحت تأثير تعب الوصول.

-111-

إلى السيدة أوستِن

بولاق - 28 يوليو 1867

أمي الحبيبة..

أعرف أني لا أستطيع أن أكتب شيئًا يسُرُّكِ أكثر من أن أقول لكِ إني أفضل كثيرًا، الجو حار بكثافة، والريح مقلقة، لكن سعالي خفَّ كثيرًا ولم أعُد أشعرُ بالوَهَن الشديد كما كنتُ، أنا راسية هنا في النهر في مَأوَايَ القديمِ ولم أخرج إلى الشاطئ بعدُ بسبب الحرارة والتراب.. وهما بلا شكٍّ أقلُّ إثارةً للأزمات هنا فوق النهر. رأيت قليلًا جدًّا من الناس وجارًا واحدًا في مركب رَاسٍ على مقربة، شركسية خلابة جدًّا وجارية سابقة لباشا غني متزوجة الآن بترجمان محترمٍ وباقيةٌ في قاربه لأسبوع أو اثنين. إنها صغيرة وجميلة ومحبوبة جدًّا ويزور بعضنا البعض ونقضي وقتًا طيبًا حقًّا، إنها سيدةٌ صغيرة ومتدينة جدًّا وكانت مرتاحةً كثيرًا وأنا أُؤَكِّدُ لها أنه ليس من عبادتي اليومية أن ألعَنَ النبيَّ وأُهينَ القرآن النبيل.

أنا سعيدة تمامًا لأن الإنجليز قدموا ترحيبًا خالصًا من القلب لأمير المؤمنين، سيكونُ لهذا تأثيرُه الكبيرُ في كل بلاد المسلمين. الهندي الصغير البسيط من دِلْهي.. الذي تحول إلى الإسلام وأمضى أربع سنوات في مكة يعمل كمترجم لرجال بلده، استقر الآن في الكرنك، أرسلت إليه ليأتِيَنِي، جاء يرتعش في حذائيه، سألته لماذا كان خائفًا؟ أجاب "أوه.. ربما كنتُ غاضبًا من أحد ما، لقد كان هو علمي ودليلي وكان عليَّ أن أضربه". صرخت فيه "اطلُب الصفح إلى الله يا رجل! كيف أضربكَ وتضربني؟ ألا يوجد قانون لدينا؟ ألسنا أخوة تحكمنا ملكة واحدة!.

"ما شاء الله!" هتف الستة أو الثمانية فلاحين الذين كانوا ينتظرون العلاج في إعجاب ودهشة كبيرَيْن وأضافوا "ألم نخبركَ بأن وجهَ الست يجلب الحظ الحسن ويبعد المصائب والمرض؟"،

عرفتُ أن الهندي الصغير كان خادمًا في مستشفى في كَلْكُتَّا ومارَسَ قليلًا من العلاجات بطريقته الخاصة ومن ثم أعطيته بعض الأدوية خاصةً لأمراض العيون التي يعرف الكثير عنها. وأصبحنا صديقين عظيمين، كان بائسًا حين تركتُ المكان وكان يود أن آخذه معي كخادم متطوع.

صارت لي سمعة طيبة كبيرة، جماعات مختلفة من العرب الحقيقيين من كل نوع يأتون بمرضاهم فوق الجِمال من الصحارى جنوب إدفو، أسألهم ما الذي أتى بهم يقولون إن شاعرًا ذهب إلى هناك يغني بمديحي وكيف أن بنت الإنجليزي وردة على رؤوس العرب، وأن على كل المرضى أن يذهبوا إليها ويتنشقوا رائحة الوردة ويسعَدُوا وسط تألق نورها. صار اسمي "نورين"، صرت بديلًا للطريقة الشائعة في العلاج بالسحر ولا يشعر أحد بأن الإنسان يرتكب حماقة في حق نفسه حين يكون رومانتيكيا في حديثه حتى ولو عن امرأة عجوز.

لا معنى للحديث عن الحالة هنا، كل الطبقات تعاني برعبٍ الضرائبَ المخيفة، الخراب التام للفلاحين، وخراب التجارة الذي سببه هذا الباشا المعظم جدا. بقّالي خربت نصف أعماله بسبب "التحسينات والإنشاءات" التي جرت في القاهرة تحت شعار "مثل باريس"، شوارع طويلة عسكرية صارت تخترق قلب القاهرة، صودِرَتْ أملاك المُلَّاكِ وانتهت. ومَالِكُو البيوت الصغيرة أُجبِرُوا على هدمها وبناءِ منازلَ جديدةٍ بواجهات جديدة على الشارع على الطريقة الفرنسية، لا يسكنونها ولا يبيعونها.

أهل النيل مندهشون للوفود التي تذهب إلى باريس، خوفًا من أن تحتجزهم السلطانة الفرنساوية. وأكدت لهم أنهم جميعًا سيعودون إلى بلادهم آمنين وسعداء ومعهم بقشيش كبير، العديد منهم ظنوا أنه نوعٌ من الانحلال أن يُؤْخَذُوا إلى الباريسيين ليحملقوا إليهم كأنتيكات، وهي الكلمة التي تعني هنا "تحفة".

ما زلتُ بخير مع صَبِيَّي الاثنين، مبروك يغسل جيدًا جدًا ويعمل "كمرمطون". دارفور خادم وسَاقٍ بطريقته البسيطة جدًّا، إنه

يتأزم فقط حين تتسخ ملابسه في وقت قصير جدًّا غير معقول، حديثه عن النظام المدرسي لدارفور يثير الفضول؛ كيف حين يكتسب الولد الصغير مهارة يتم حمله إلى منزله انتصارًا لأبيه الذي يقيم احتفالا للمدرس والأولاد، أعتقد أنك ستندهش حين تسمع أن زنوج دارفور يستطيعون كلهم القراءة والكتابة، الدارفوري الصغير المسكين اعتذر لي عن جهله فلقد خُطف كما قال وهو يبدأ في الذهاب إلى المدرسة. أتمنى لو يسمع الخادم الإنجليزي أو الفرنسي التعليمات التي تُعطى هنا من العلماء -علماء الدين- للخدم من الرجال.. كم سيمتعض منها! "حين تتعب من الحِمْل لا تهمله. تذكر أنه ليس عليك الطاعة فقط لكن أن تشكر سيدك الذي تأكل خبزه".. وكلام كثير مثل هذا. نوع الطاعة الدينية والإخلاص يناسب جدًّا الفكرة الكاثوليكية الأرقى عن "الحياة الدينية" بين القليلين الباحثين عن التعليمات يكون لها أثر (وأنا على ثقة بأن عمر ينظر إلى خدمته كواجب ديني) لكن طبعًا هم قلة، وأولئك الذين لا يبحثون عنها بأنفسهم لا يحصلون على شيء. أمر مثير للفضول كيف أن كل الأطفال هنا تُركوا تمامًا دون أي تعاليم دينية، ولا أعرف ما إذا كان نتيجة ذلك أنهم يكبرون غير وَرِعِين.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بولاق - 29 يوليو 1867

أَلِيك الحبيب..

أراحني خطابك كثيرًا لكن فقط أخشى ألا تكون في حالة جيدة، إذا أراد موريس أن يرى النيل فدعه يأتي، لكن إذا كان فقط يريد أن يراني فلا؛ أنا أعرف أن صحبتي ليست جيدة الآن وصرت مثل مستر وودهاوس في رواية "إِمّا"[107]. عليَّ أن أقول "دعنا جميعا ننال بعض العقوبة ".

لا نعرف شيئًا هنا عن منع البارود، وفي هذه اللحظة يقوم بعض الأوروبيين بالفرقعات باستمرار في إمبابة على الناحية الأخرى من النيل. يريد الباشا بوضوح أن يؤسس حق البحث على النيل، الخطبة العبثية التي ألقاها في باريس عن العبيد توضح ذلك مع ثلاثة آلاف امرأة في الحرملك عنده وأفواج من العبيد وكثير من العصابات في كل مزارعه للسكر، فإن صفاقته مدهشة، إنه نفسه أكبر تاجر عبيد حي كما هو أكبر مالك للعبيد. صبياني يخافون إن يخرجوا وحدهم أن يخطفهم القواسون ويأخذوهم إلى الجيش أو إلى العمل في مزارع السكر. ستأسف كثيرًا حين تعرف أن صديقك القوي حسن قد نال خمسين ضربة على كل قدم وكان عليه أن يدفع ستة جنيهات؛ لقد أخذ حمارين إلى فندق شبرد قبل شروق الشمس من أجل رجل وسيدة فرنسيين محترمين للذهاب بهما إلى "الأهرامات" حين قابله القواس وأمسك بالحمارين، ولأن حسن رفض تركهما تشاجرا وسبَّهُ القواس بحريمه وأخذَ يضربه بالكرباج، فقد حسن صبرَهُ فأمسك بالقواس بين يديه وطرحه أرضًا ومضى، بسرعة لحق به أربعة قواسين وأمسكوا به وأخذوه إلى السبتِيَّة حيث يوجد مركز البوليس حيث أقسم الجميع أنه ضربهم كلهم، وأنه مزق

ملابسهم وسرق ساعة من الذهب لا يقل سعرها عن 24 جنيهًا. بعد ضربه حُمل إلى السجن مقيدًا بالسلاسل وهناك حكم عليه بأن يكون جنديًّا بالسخرة، تدخل صديق وأنهى الأمر بدفع ستة جنيهات. حسن يرسل إليك أحسن سلاماته.

كانت الليلة الماضية جميلة؛ كل السفن تحركت من أجل مولد السيد البدوي في طنطا. في كل قارب هرم من المصابيح والدرايش ينشدون والناس الكثيرون جدًّا يعزفون الموسيقا ويغنون، وجلست أنا أطالع وأستمع وأفكر كيف منذ آلاف السنين كان الشيء نفسه يحدث على شرف بوباستيس![108]

-113-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بولاق - 7 أغسطس 1967

أَلِيك الحبيب..

ذهب اثنان من بحارتي العام السابق إلى باريس في الدهبية التي حملت الإمبراطورة وعادا الآن، حين رأيتهما توقعت أنني سأجد شيئًا يُفرِح عن رحلتهما، أبو آدم المسكين مات حزنًا لذهاب ابنه ولا شيء أقنعه بأن ابنه آدم سيعود آمنًا. لحزنه من قلبه مات. الآن عاد الفتى آدم في حالة جيدة وملابس جميلة لكنه مصدوم جدًّا كما سمعتُ لموت أبيه. من فضلك أرسل لي صفارة ضخمة فصوتي ليس عاليًا بما يكفي لأوقظ عمر في الناحية الأخرى من الكابينة، صفارة ربان السفينة أو شيء شبيه بصوت البوق "يوم القيامة" هو المطلوب لإيقاظ المصريين النائمين.

عادت جارتي الجميلة إلى المدينة، إنها امرأة شابة جميلة أسعدتني كثيرًا جدًّا، أرى أن "حرملك" تركيا المحترم هو مدرسة رائعة للأعمال المفيدة- أشغال الإبرة، والطهو.. إلخ. لكنني لاحظت أنها لم تعد تهتم كثيرًا بالباشا الذي أنجبت منه طفلًا لكنه كان مغرمًا تمامًا "بسيدتها" كما تذكرها بأدب، وأيضًا مثل كل شركسي عرفته تعتبر بيعها قدرًا غير مكروه ولا تبدو آسفة على والديها كما يفعل الزنوج عادة.

الحرارة تزداد بدرجة مدهشة لكنني أفضل كثيرًا، أمس ارتفع النيل أعلى من عشرة أذرع ووصل إلى قطع الخليج، النهر جميل في امتلائه الآن لكنهم يقولون إنه سينخفض بسرعة هذا العام ولا أعرف لماذا. إنه يبدو جميلًا جدًّا، أحمر في لون الدم، وتعلو أمواجه بسبب الرياح الشمالية التي تصارع التيار السريع.

وداعًا عزيزي أَلِيك.. أتمنى أن أسمع الأفضل عن صحتك قريبًا.

إلى السيدة أوستِن

بولاق - 8 أغسطس 1867

أمي الحبيبة..

اثنان من بحارتي كانا في باريس ووصلا إلى الوطن اليوم، سمعت أنهما صُدِما تمامًا بالرقص وبنساء الطبقة الأدنى من النساء الفرنسيات بشكل عام، يجلسان في المقهى مثل الشعراء ويحكون عن عجائب باريس للمستمعين المعجبين، منبَهِرَيْن من عدالة البوليس الفرنسي الذي لم يضربهما حين دخلاَ في مشاجرة، لكن أهانَ الفرنسي بدلًا منهما وأعادهما إلى القارب بأدب تام. إن فرحة أنهما لم يُضْرَبا كانت كالخمر مسكرة تمامًا.

يوجد زحام مثير من الرجال يحملون أحجارًا كبيرة خارج القارب، الواحد يرى حقًّا كيف كانت الأحجار تُحمل في العصور القديمة، إنهم يميلون بأجسادهم جميعًا معًا كما لو كانوا حيوانًا رشيقًا ذا أرجل عديدة ويهمهمون بغناء منخفض ليتحملوا الوقت. هذا لا يشبه أبدًا حمل الأوزان الثقيلة في أوروبا.

الدنيا تظلم وشديدة الرياح لا تنفع معها المصابيح، ومن ثم سأقول وداعًا وأتناول العشاء الذي قدمه لي دارفوري مرتين أو ثلاثًا، إنه مخلوق سار جدًّا، حيوي ورقيق جدًّا. إنه يوم الغسيل، أتمنى لو رأيتِ مبروك الدارفوري مقرفصًا هناك يشطف الغسيل بيديه السوداوين البديعتين، إنه كابتن الغسل والطاهي الجميل لكنه متوحش تمامًا.[109]

-115-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بولاق - 7 سبتمبر 1867

أَلِيك الحبيب..

شكرًا كثيرًا على خطابك وعلى عبورك كل المآزق التي قابلتها، أتمنى أن تكون أفضل.

يوجد مجموعة من الرجال كلهم مرتبطون بعضهم ببعض في الإبحار الجديد- عمر، والريس، واثنان أو ثلاثة متطوعين، وبعض البحارة القدامى معي، ودارفوري الصغير. إذا متُّ أعتقد أن عليك أخذ هذا الزنجي الصغير، إنه مثل روح صغيرة مبهجة وأُومِنُ بأنك ستحبه فهو كائن مهذب جدًّا ولديه حمية مبهجة ويبدو صغيرًا جدًّا على أن يُترك وحده في هذا العالم.

أتمنى ألَّا يكون موريس من فصيل الضجرين من هذا الجيل، أنا مع فكرة عمر جدًّا الذي قال متنهدا بسرور بينما نجلس على الشاطئ تحت أشجار نخيل جميلة في ضوء القمر بعيدين كثيرًا عن أي تجمع من السكان "كم هي حلوة الأماكن الهادئة في العالم!".

أتعجب حين تقع أوروبا في الوهم العبثي عن المسيحيين المضطهدين من المسلمين، إنه الطريق الآخر على الإطلاق هنا في كل الأحداث، المسيحيون يعرفون أنهم دائمًا مدعومون بقنصل أو بآخر، وأن المسلمين هم الذين وُجُوهُهُم إلى الحائط في كل مرة، إن بهيمية البطريرك هي تصميم لاستمرار الاضطهاد للمتحولين، ولقد حمسني يومًا شيخ إلى الذهاب إلى شيخ الإسلام نفسه كي أطلب إليه أن يطلب حقوقًا متساوية لكل الأديان.. التي هي القانون في التعامل مع هؤلاء الأقباط البروتستانت. في كل مكان يقوم العلماء بما في استطاعتهم لحمايتهم، حتى في أسيوط حيث حدث بسبب المبعوثين

الأمريكان مضايقات كثيرة للعلماء في وقت سابق، لا أحد في أوروبا يمكن أن يتصور كيف أن للأقباط اليد العليا في القرى. إنهم مدعومون بالحكومة ويعرفون أن الأوروبيين سيكونون في صفهم دائمًا.

18 سبتمبر 1867

ربما تتخيل السعادة التي كنت فيها أمس وأنا أتلقى خطابك الأخير المحرر في 31 أغسطس الذي منه عرفت أن موريس قادم إلى هنا رغم أنك لم تقل شيئًا عن نفسك وموعد قدومك. ومن ثم -عمليًّا- إذا كان موريس حقًّا ومؤدبه ومعلمه البلجيكي قادمين فمن فضلك دعني أعرف على أي سفينة حتى أرسل عمر ليقابلهما لأني سأتذكر الأسف المرعب لوصولهما إلى الإسكندرية دون أن يكون أحد في استقبالهما. لم أعرف هل استقبلت خطابي أم لا لأنك لم تجب عن أسئلتي أو تتعرف عليها.

تصوري لموريس أن يرى كل القاهرة أولًا ثم يبدأ في الإبحار أعلى النهر لأربعة أو خمسة أشهر حتى يصل إلى وادي حلفا ولا يعود إليَّ بسرعة حتى إذا صرت قادرة سأذهب إلى لندن معه، لكن بالطبع سأفعل ما يريده هو وأنت فإذا كان يريد الرحيل بسرعة أستطيع أن أغادر الأقصر.

عُمر مجنون بالسعادة من فكرة أنه سيرى موريس عند وصوله والريس محمد يخطط أي الرجال سيحتفلون به. أعتقد أن موريس سيتسلى بدارفور الصغير. الآن مبروك يطبخ حقيقة بشكل جيد تحت رعاية عُمر لكنه يخفي خشونته وصوته عواء عالٍ متوحش وينمو الصوت قويا مثله. زد على ذلك أنه "لا يريد أن يكلمه أحد" كما يقول الخدم عندنا. لكنه أمين، نظيف، يعتني بالأشياء. لا أظن أن كائنًا بشريًّا يمكن أن يبقى متوحشا كاملا في مجتمع متمدين. أنا أيضا أحترم وحشيته المرتفعة خاصة حين تمتزج بالصدق والأمانة.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بولاق - الباخرة ماري لويس

17 أكتوبر 1867

أَلِيك الحبيب..

عليك ألَّا تقلق لأني لم أكتب منذ وقت طويل، كنت مريضة لكني الآن أفضل كثيرًا. سيذهب عمر إلى الإسكندرية لمقابلة موريس يوم الاثنين.

تم طلاء قاربي واقترب العمل من الانتهاء، حين ينتهي سأتحرك عائدة إلى طيبة، كنت سأتحرك في "صندل" صغير لكنه ممتلئ بالبَقِّ والدبابير وقذر جدًّا، ومن ثم تحركت أمس في قارب جيد يمتلكه الترجمان وأرجو أن أعود إلى قاربي يوم الأحد. لكن يا إلهي! وجدت الحلاق نفسه وقد أصبح عامل دهان ولأن صندلًا صغيرًا كان راسيًا إلى جوار المركب "أورانيا" لنقل كل الفُرُش، السجاد.. إلخ. كنت ضحيته. في البداية طلب الحلاق ثلاثة جنيهات ليشتري دهانًا، قال "لا شيء غير أفضل دهان يناسب شخصًا نبيلًا مثلكِ، وكما تعرفين هذا مكلف وأنا خادمك وأودُّ أن أشرفك"، قلت "حسنًا.. خذ النقود واهتم أيها الرجل بأن الدهان يجب أن يكون الأفضل وإلا سيكون البقشيش لك سيئا أيضًا".. "حسنا" بدأ الحديث ثم اندفع يقول "سيحدث يا بيه.. يا باشا.. وسترين بريق الدهان الأبيض مثل اللبن.. مثل الزجاج.. مثل البدر كاملًا"، قلت "ما شاء الله! لكن الآن كن مخلصًا لتنتهي بسرعة لأن ابني سيكون هنا خلال عدة أيام ولا شيء جاهز"، كانت ملاحظة قاتلة لكنه قال "ما شاء الله! بسم الله! ربنا يخليه، ربنا يطول عمره، دعيني أنصحك كيف تكون عينك عليه، بلا شك الابن جميل كمملوك يساوي ألف كيس، لا تنسَيْ أن تبصقي في وجهه حين يأتي على ظهر المركب وتلعنيه بصوت عالٍ حتى

يسمعك الناس وأرغميه على ارتداء الممزق والقذر من الثياب حين يخرج، وكم عدد أطفالك وسيدنا (سيدك/زوجك)، وهل هو بخير؟".. قلت "الشكر لله، كل شيء طيب معنا ولكن باسم النبي قم بالدهان جيدًا يا معلم ولا تكسر خاطري كثيرًا"، لكنني أُرغِمتُ على أن أقف على مسافة من لسان "الحاج على". اقرَأْ قصة الحلاق[110] وستعرف بالتمام ماذا يكون المعلم الحاج علي، ما أن خرجت من القارب حتى بدأ الدهان.

الدهَّان الذي كان معي العام الماضي والذي لم أكن راضية عنه ذهب إلى شيخ الدهانين وأقنعه بأن يسجن دهاني الجديد لأنه يعمل بسعر زهيد جدًّا، وأخذوه عند الفجر. أرسلت ريسي إلى الشيخ ليعلمه أنه إذا لم يعد دهاني في اليوم التالي سآتي بدهّان أوروبي وأجبر الشيخ على دفع الفاتورة. بالطبع عاد دهاني!

قائد دفتي حسن ورجل طيب اسمه حسين يمكن أن يغسل وبشكل عام جيد ويسر، وصلا من قرية البسطاوي[111] منذ عدة أيام وانتظرا هنا حتى احتجت إليهما. حسن الأسود قبيح الشكل قليلًا احترق منزله في قريته وفقد كل الملابس التي اشتراها بأجوره، كانت ملابس جيدة جدًّا وخسارتها كبيرة، إنه أخو ريّسي ورجل طيب نظيف ومعتنٍ بنفسه وهادئ أحسن من ريسي أحيانًا، إنهما عائلة محترمة. البدين القوي حساسين سينهي عمله، ومن ثم بقي عندي خمسة رجال وولد للعمل، أتمنى أن يأتي الولد الجميل الذي اسمه حدربي -السحلية-، إنهم لا يتقاضون أجرًا حتى اليوم الأسبق للإبحار باستثناء الريس وعبد الصادق الذي هو دائم العمل، حسن وحسين يتركان العمل فرحين إلى عمل آخر بعد أن يحصلا على أجرهما. يتذمر الناس من أجل البقشيش، لكن عليهم أيضًا أن يتذكروا كم من الخدمة يحصل عليه الفرد هنا دون مقابل، في أحد الأسابيع غيرنا المراسي خوفًا أن تُغطَّى بالطمي، وقام بالعمل ستة أو ثمانية

رجال لمدة ساعة ثم تم إنزال الصاري وعمل في ذلك اثنا عشر أو أربعة عشر رجلًا، ولم يتقاضَ أحدٌ نقودًا.

في أحد الأيام قابل عمر في السوق تاجرًا محبوبًا.. حبشيًّا جديدًا من بلدته التي تركها بسبب طغيان السلطان.

لقد أحضر التاجر زوجته ومحظياته ليعيشوا هنا، كانت فكرته أن غالبية الناس مبتهجون لأن يسمعوا أن الإنجليز سيأتون ليهزموا السلطان وحاشيته كما يتمنون، وأن كل فرد يكره الملك باستثناء مائتين أو ثلاثمائة من الأشقياء يقومون بحراسته. لقد رأى المساجينَ الإنجليزَ الذين -كما يقول- لا يُعامَلُون بقسوة لكنهم في خطر مؤكد لأن السلطان تم منعه بصعوبة من قتلهم بواسطة الأشقياء خوفًا من انتقام الإنجليز، وقال أيضًا إن هناك امرأة إنجليزية مسجونة مع المسجونات النساء من أهل البلدة. حسن سائس الحمار حين كان مرمطون في القاهرة عرف السلطان تودوروس هذا، لقد كان حسن الرجل الوحيد الذي وجدوه ليفسر الحديث بين سلطان الحبشة ومحمد علي باشا الذي جاء السلطان تودوروس هذا لزيارته. عبَّر التاجر أيضًا عن احتقاره الكبير للبطريركية وللمطران الذي تسميه الصحافة الإنجليزية "أبونا".. "أبونا" كلمة عربية. الرجل قبطي قاهري وكان عالة على اثنين مبعوثين إنجليزيين -كانا حقيقة ألمان- هنا، وأكثر من وغد ومنافق. أعرف يهوديًّا محترمًا سرق هذا المطران كل بضائعه، فقط الريّس علي أجبر المطران على التنازل عما سرقه.ما كل ذلك الكلام الفارغ من البطريرك الأرميني عن أورشليم الذي كتبه للسلطان تودورس؟ ماذا عليه أن يفعل به؟ البطريرك القبطي الذي هو في القاهرة يستطيع أن يفعله إذا أُجبر عليه .

أخيرًا انتهى العمل في قاربي وغدًا سيقوم عمر بتنظيف النوافذ ويوم السبت يضع الوسائد.. إلخ. ويوم الأحد سنذهب إلى الإسكندرية.

أسمع الصوت المرعب للحاج علي الدهّان في الخارج، وسوف أنام قبل أن يصل إلى باب الكابينة خوفًا من أن يزعجني ثانية.

آتمنى آن يستمتع موريس برحلته وكل مَن هنا مشتاق لأنْ يجعله مسرورًا. أرسل شيخ الهوارة أخاه ليذكرني بأن أتوقف عند قصره قرب جرجا، لأنه سيقدم وليمة لابني، ومن ثم سيرى موريس ركوب العرب الحقيقي ولعبة التحطيب وشيَّ لحمِ الضأن. الشيخ هو آخر رؤساء القبائل العظام في مصر، ولديه آلاف الفلاحين ودخل كبير. لقد فعل ذلك للورد سبنسر ولدوق روتلاند وسوف أرى حفًلا جيدًا بلا شك .

ربما في قنا يكون من الأفضل ألَّا يَرَى موريس الرقص، فزينب ولطيفة فاتنتان برعب، هما فتاتان جميلتان تسرَّان كما هما جميلتان رشيقتان، لكن أم الزين العجوز -كما تُنادَى باعتبار بشاعتها- تريدنا أن نتناول عشاءها الجيد.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

(أورانيا - بولاق) 21 أكتوبر 1867

أَلِيك الأعز..

شكرًا كثيرًا على الطرود وما فيها، ابتهجَ عبيدي بكل ما أرسله "السيد الكبير"؛ احتضن الدارفوري غطاء الفرس في متعةِ مَن لن يشعر بالبرد أبدًا في الليل بعد ذلك. السترات المطبوعة والقمصان الحمراء الخفيفة ذهبت لإعدادها، ومن ثم سيكون صبياني مثل الباشوات هذا الشتاء كما قالوا للريس. إنه قلق جدًّا من عين الحسود.. يقول "القارب -ما شاء الله- يجلبُ الحسد من عيون ناظريه، والآن حين يرون ابنك معك باسم الله باسم الله مثل الوردة! فأنا أخاف حقيقةً عيون الناس". اشترينا طنبورة -دفًّا صغيرًا- ودَرَبُكَّة، ونبحث الآن عن رجل يغني جيدًا حتى نقيم حفلا على سطح القارب.

22أكتوبر..

سمعت اليوم أن الباشا أرسل برقية باليد إلى قوص ووفقًا لها تم القبض على واحد من عائلة ستيفانوس.. قبطيٍّ عجوزٍ ذي مركز عالٍ خدم أعوامًا كثيرة في الحكومة، وُضِع في السلاسل وأسرعوا به في عشرين دقيقة إلى فازوجلو مع صديقين له، لا لجريمة غير أنه تحول إلى الكنيسة المشيخية Presbyterian[112] هذه فكرة جديدة تمامًا في مصر، ونحن جميعًا مندهشون لماذا يشتاق الباشا هكذا لتنظيف معطف بطريركية القبط! نسمع أيضًا أن الناس جنوبًا في الصعيد يهربون بالجملة لعدم قدرتهم على دفع الضرائب الجديدة أو أن يقوموا بالعمل المطلوب، حتى هنا فالعقاب مخيف. كان على ريّسي أن يرسل كل أجره الشهري لينقذ عمَّتَهُ وأخت زوجته الأرملتين من الجلد بالكرباج، إنه لم يفكر

كثيرًا في الضرب لكن في "العار"؛ إنهن نساء.. نساء وحيدات، من أين يمكن أن يحصلن على المال؟

إلى السيدة روس

بولاق - 3 نوفمبر 1867

جانيت الحبيبة..

وصل موريس يوم الجمعة وهو سعيد جدًّا، يقول إنه لم يشعر قطُّ بنفسه أفضل من الآن، ولم يمارس الصيد الجيد بالبندقية من قبل رغم سني عمره الثمانية عشر. وصل موريس يوم الجمعة سعيدًا جدًّا، لقد صار سمينًا، يقول إنه لم يشعر قط بتحسن ولم تكن له فرصة صيد الطيور من قبل. أخافه عمر كثيرًا من الضوضاء والنداءات ومن ثم عليه عدم الاستمرار مع مستر سوبر مؤدبه ومعلمه الذي صارت له صداقة مع العاهرات الصغيرات والفرنسيات اللاتي يجلسن حوله. يقول عمر "سأمسك الولد من رقبته ولا أدعه يذهب بالقرب من النساء القذرات، أجل سأفعل ما لم أفعله وأحضر له فلاحة نظيفة إذا لم أنجح في إبعاده ولكن كم هو أمر مثير للشفقة أننا لا نستطيع شراء حبشية جميلة له مثل كل الناس المحترمين"، ما أحبه في موريس أنه يقدر الآخرين ورقيق بقدر ما يمكن تصوره، أتمنى أن يكون له اهتمام بشيء آخر إلى جوار صيد الطيور. بالطبع موريس يحتاج إلى نقود ومصروفاتي تزداد. ولم يرسل لي معه ألكساندر ما قال إنه سيساعده. الحاجة إلى مال أمر صعب هنا.

سعادة دارفور الصغير بموريس بلا حدود؛ إنه يبتسم في وجهه طوال الوقت الذي ينتظر فيه على المائدة، يتعجب من قذارة حذائيه، من استحمامه، من مشيه الكثير في الخارج ليصطاد، ومن عدم معرفته باللغة العربية.

انفجر الحاجز في يوم آخر في بحر يوسف وكلنا انسحبنا بعيدًا من الخوف من المياه المندفعة، اختل قاربي الصغير بينما ثلاثة رجال يحاولون أن يربطوه بالمرسى، وكاد يغرق اثنان منهم رغم

آنهما يسبحان مثل السمك، الدهبية كلها اهتزت وامتلأت رعبًا، وفي وسط التطاحن -في الظهيرة- جرت باخرة بخارية متجهة إلينا.. كنت خائفة حين اصطدمت بنا الباخرة البخارية، وحملت بعيدًا الدعائم الحديدة للسقف، ولعنوا والدينا في المساومة التي أعتقد لا حاجة إليها. إن الإنجليزي يسقط في مثل هذا الازدراء هنا لأن لا أحد يحصل على معاملة مهذبة من أي عمل في الحكومة.

أعارَنَا أولاجنييه مركبًا صغيرًا جميلًا وقمت بإعداده ودهانه، ومن ثم استعدَّ موريس من أجل الصيد وركوب المركب، سمَّاه دارفوري بـ"ابن التمساح" لأنه يحب الماء وعامةً يبتهج معه كثيرًا وكل رجالي كانوا مبتهجين به.

-119-

إلى السير ألكساندر دوف جوردون:

19 نوفمبر 1867

أليك الحبيب:

ما زلنا في القاهرة وموريس معنا، أنا سعيدة أن أقول إنه يقترب من الشفاء رغم قلة الفرص للهرب من المرض الخطير، قال لنا الدكتور باترسون أن نذهب إليه في نهاية الأسبوع وعرفت منه أنه كان مريضا منذ أربعة أشهر بلا علاج. أقول لك هذا حتى إذا حدث له شيء مرة أخرى ترسله فورا إلى الطبيب.

على الناحية الأخرى موريس بحالة جيدة وسعيد جدا مثلي. ذلك أني أعتقد أن هذه بمثابة حياة جديدة لي أن يكون ابني العزيز معي، وأن أجده الابن الطيب البار بي، إنه لرقيق جدا وصاحب عقل.

إذا لم أجد إجابة من روس عن المال فعليَّ أن أذهب إلى مصرف تود وراثبون Todd And Rathbone لأرى أي إجراءات يمكن أن أقوم بها لأحصل على مال، أخاف أن أكون في حاجة إلى 400 جنيه. عليَّ أن أدفع لطبيب موريس وللبودرة والصيد والأحذية والبنطلونات.. إلخ. أيضًا مسيو سوبْر طماع شره فكل شيء بالنسبة إليه يحتاج إلى مال. عليَّ أن أقول إن اتفاقك معه مكلف جدًّا. لقد توقعت مؤدِّبًا ومعلمًا.. لكن مسيو سوبر لا يفعل شيئا غير إمتاع نفسه بما حققه في القاهرة من معارف ويعود ليأكل وينام ويعاملنا بفظاظة. أخلاقه ثقيلة علينا وإذا ما رفسه موريس أسفل بطنه لن أتعجب.

لم أتلقَ أمرًا من رجل في عمره قط.. وموريس لا يحب أن يسمع هذا. إذا كنتَ أرسلتَهُ ليكون رفيقًا فقط يمكن أن ندفع له ونتركه يذهب لأنني أعتقد أنه يكرهنا وبصفة خاصة موريس بنفس قدر كراهيتنا إياه. سأفعل ما أستطيع أن أقرأ مع موريس حين تصبح

رئتاي أفضل لكنا لا نستطيع أن نفعل ذلك بشكل جيد في وجود رجل يسخر منا ويعارضنا كل وقت. أقول لك هذا الآن لأني أخشى حين نصعد النيل جنوبًا أن يكون من الصعب جدًّا تحمله، في البداية رفض موريس أن يذهب معه ليتغدى في مكان الضيافة حيث مغنيات المقهى يتناولن غداءهن بين عاهرات ومكان للعب الرهان. سوبْر كان سليط اللسان كل لحظة ويريد لموريس أن يدفع لهما معًا.

أمس أخبرته بأن عليه أن يأخذ حمارا ويذهب إلى العباسية للمشاهدة لأن حصاني للبيع ويوم كامل دون طعام أو مياه يمكن أن يقلل من سعره. ذهب عمر وموريس إلى الدكتور باترسون وبعدها كان على عمر أن يأخذ الحصان للعرض لكن مسيو سوبْر ببرود أخذ الحصان من عند باب الدكتور باترسون وركبه ثم تركه مع نوبي عند منطقة سباق الخيول حيث أحضره عمر إلى البيت. خلال ذلك عاد مسيو سوبْر ونادى أسماء السُيَّاس وأحدث ضجة مع الجميع. كنت مريضة في سريري ومن ثم لم أستطع التدخل لكن هذا جعلني عصبية جدًّا.

باختصار إنه بلجيكي شجاع لكن ريسي لخص الأمر يومًا بينما كان يتكلم إلى موجه الدفة فوق رأسي قائلًا "أنا أسميه حمارًا لأنه لا يخجل وطمّاع وشديد العصبية وسلوكه مثل سلوك الحمير"، أظن أنه كان رائعا في سلوكه معك وإلا ما كنت أرسلته.

لا تغفل عن إرسال نسخة من عقدك معه لأنه يدفعنا إلى اليأس التام. يمكن أن أتحمل أي شيء إذا كان لا عمل له لكنه لم يفتح مرة كتابًا ولا رواية من روايات ألكساندر ديماس، ولم يأتِ هنا إلا من أجل الأكل الذي يطلبه لنفسه كما لو كان في فندق! لا أرى أي تعويض عن تكلفتنا.

مستر كوب الشاب جاء هنا وأخذ محمد غزاوي بناء على توصيتي وبدا مسرورًا معه. نتمنى أن نبحر معًا لكن لديه مستحقات عند شركة التجارة المصرية ولم يحصل على نقود منها، هو على سطح مركبه وسيبحر قريبًا، موريس معه وحده

الآن لأنه لا يتحمل وجود كوبر وسوبْر معا وكذلك كوبر لا يطيق سوبْر. سأفعل ما في وسعي لكنه أمر صعب أن تجد حشرة متوحشة غير مهذبة لها سلطة على الواحد. الدكتور باترسون يريد أن يركله بعيدًا فهو غث. دكتور باترسون يتمنى لي أن أمضي وقتا طويلًا في النوبة فهو مكان أفضل لي لكن أخشى أن يضايقنا مسيو سوبْر فيكون علينا العودة بسرعة إلى القاهرة. لقد استعرت كتابا فرنسيا من هكيكيان بيك وسأبدأ في القراءة والإملاء مع موريس اليوم. سأفعل أفضل ما في وسعي من أجل أنفاسي ليفارقني السعال.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - 20 ديسمبر 1867

أَلِيك الحبيب..

مسيو سوبر كان معزولا طوال الرحلة، رغم ذلك اختارالذهاب إلى قارب مستر كوب والجلوس للإفطار مع الرجال الأربعة -كوب وأصدقائه الثلاثة-. لم أعرف ماذا قال أو فعل لأني لم أرَ قط أصدقاء كوب الثلاثة من قبل لكن النتيجة كانت أنهم أرسلوا كوب يخبرني بأن أقوم أنا أو موريس بإخبار سوبْر بأنهم لن يستقبلوه ثانية.

كنت مريضة في سريري قلقة من النزيف لعشرة أيام قبل أسيوط ومما فعله مسيو سوبْر الذي ترك موريس وحده على الشاطئ في الليل بينما ذهب هو في قارب صغير ليلتقي بعض النساء الأمريكان اللاتي بعد كل شيء لم يتركنه في الكابينة، بينما نحن جميعًا في رعب من هذه الجيرة القذرة كان هو -مسيو سوبر- يأكل غداءه.. حسنًا.. لأعود إلى قصتي، أخبره موريس بأن أصدقاء كوب لا يريدونه ولا يريدون سوبْر بينما راح سوبْر يصيح بحماريته في موريس الذي جاء إلى كابينتي ليلتقط أنفاسه.

لم أستطع التحمل أكثر وسمعت مسيو سوبر يقول إنه سيرحل فأعطيت موريس ألفًا وخمسمائة فرنك ليعطيها له ويخبره بأني سأدفع سعر الفندق الذي سينزل فيه حتى يرحل. في اليوم التالي كتب لي بوقاحة يسأل عن شهادتي بحسن السلوك فكتبت له "أنا آسفة وغير قادرة أن أراه بقدر ما تمنيت. بقي أربعة أيام في الفندق وذهب اليوم في مركب يملكه بلجيكي كان في طريقه إلى القاهرة ومن ثم سيحصل على ستين جنيهًا ليعود إلى موطنه من هناك وإذا حاول أن يحصل منك على أكثر فلا تكن ضعيفا ولا تستجب له. لامَ مستر تولفري مؤدب ومعلم كوب موريس لإحضار مثل هذا الشخص في صحبتي، ما لا يجعل

موريس قادرا على مساعدتي.

لم أعتقد قط أنه حتى "البلجيكي الشجاع" يستطيع أن يتكلم مع امرأة في عمري كما تعود أن يتكلم سوبْر معي. أكثر من ذلك كنت في قلق دائم عن موريس وكان مسيو سوبْر دائمًا يذهب إلى النساء ويحاول إقناع موريس بأن يذهب معه، سمعت حديثه وأنا نائمة وقت الغداء في كابينتي وحدثت موريس بوضوح أني أخشى الأمراض المرعبة إذا دخل في المسألة وسوف أعطيه جنيهًا أو اثنين الآن لتكون معه فتاة رقص جميلة بدلا من النساء الرخيصات، أخشى أن يكون هذا غير أخلاقي لكن كان له أثر جيد وموريس يبدو متجليًا كزهرة الآن وازداد سمنة منذ الساعات الأولى ويعيش بهدوء.

أعتقد أن مسيو سوبْر كان مسرورًا بذهابه لأنه كان دائمًا يزأر لفكرة الذهاب إلى جنوب الأقصر بين البلاد المتوحشة حيث لا توجد هناك مسرّات، كان غير قادر تماما على حب أي شيء غير حياة المدينة، هل قرأت رواية "عشرة آلاف كل عام" لصامويل وارين؟[113] ربما تكون لديك فكرة صحيحة عن مسيو جوزيف سوبْر تحت اسم تيتلبات تيتماوس.. المتوحش قليل الأدب الصفيق الحشرة الصغيرة التي لم أرَ مثلها ويريد دائمًا أن يجرّ موريس إلى المومسات الرخيصات اللاتي يترددن على الأماكن من أجل الخدم والبحارة.

لقد أمسك الريس محمد بموريس في جرجا وأخبره بأنه سيريه فتيات أجمل مما يعرف البلجيكي وراح يدور به كثيرًا في الشوارع القاحلة حتى عاد إلى الدهبية متعبًا تمامًا. موريس لم يحدثني عن الريس محمد الذي احتال عليه وقال كنكتة "لا إله إلا الله". قال الريس لي في إثارة كبيرة "هل هذا الابن الصلب ابن الأب المحترق والأم غير الفاسقة ينتهي بأحشائهما بين العاهرات؟ ألا يوجد قوادون بما يكفي في مصر؟ سألت الله الصفح.. فمن دونه كانت القذارات ستأتي إلى مركبنا الذي كان دائما أشبه بالجامع".

الشكر لله "ذهب خنزير المعارك".. هكذا يقول الجميع

بالفرنسية. وهكذا كان دائمًا يسميهم. التقطوا الجملة دون فهم ونادوه بها أيضًا. دارفور لم يتكلم عن رحيل مسيو سوبُر من فرط الفرح.

أن تتخلص من القرصات والصفعات وخاصة من شخص يأمر عشرين مرة في اليوم أن تملأ البايب وتصنع القهوة.. إلخ، وهي التي يعتبرها الولد حقًّا من حقوقي أنا فقط كسيدة البيت.. لم يتأخر عن الصراخ بأن هذا التبغ هو تبغ السيدة وحينها يتم قرصه. كارفور رغم ذلك لا يعرف الاستسلام ويصر على الحديث في كل مناسبة عن شراهة البلجيكي وخسته فلا أقول شيئًا. لم أرَ قط مثل هذه الحالة من شقاوة الأطفال وحقدهم.

لم يحدث أن كان في حياتي صخب من قبل ولن أكتب لمسيو سوبْر بعد أساليبه المشينة لكن تم تحذيري من أنه يريدني أن أعطيه شهادة بالعمل والسلوك الطيب ليستخدمها ضدي! إذا أربكك فإن كوب وأصدقاءه وآخرين في القاهرة كلهم مستعدون للحديث عن سلوكه وأنهم نصحوني أن أحوله إلى المحاكمة في القاهرة. كنت مريضة جدًّا لعشرة أيام لكن أشعر باختلاف تام بسرعة ما دمت بعيدة عن الإزعاج.

أهم مكتسبات رحيل البلجيكي هذا هو عودة المركب إلى حلاوته ثانية، وكما يمكن أن تفترض فإن رجلًا لم يستحم منذ شهرين ويغلق كل النوافذ والأبواب لا يمكن قبوله وسط هذا الطقس. بالطبع لم يتعلم موريس شيئًا لكني سأبذل جهدي لأجد من يحل محل مسيو سوبْر وخلال ذلك يقوم موريس بعمله أفضل وحده معي. إنه الأكثر إحساسًا بالواجب والابن الأكثر طاعة لي وإذا لم يتعلم كثيرًا فأعتقد أنه يرى أن ما أخذ إليه من "مسرّة" يبدو سيئًا بما يكفي في النهاية.

يقول إنه سعيد للغاية ولم يكن مسرورًا ولا مستمتعًا كما هو معي! لقد بدأ في التقاط قليل من اللغة العربية ويجلس معي فرحا ليتعلم الفرنسية والتركية والعربية، لأسباب كثيرة صرت الشيء الأحسن له إذا استمر بثبات كما هو الآن، سيكون لدينا

وقت كاف لنفكر في ذلك في النوبة.

وصلنا جميعًا إلى هنا آمنين منذ ثلاثة أيام، أفكر في البدء في الإبحار إلى النوبة مباشرة بعد يوم الكريسماس الذي سنقيمه هنا. لدينا طقس جميل، ذهب موريس مع صديق من أصدقائي - بدوي- للصيد، أتمنى أن يفوز بين العبابدة بصيد الغزلان. سأقف في منطقة السيالة لأزور أم الشيخ ومعهم يستطيع موريس أن يذهب لعدة أيام في الصحراء، بالنسبة إلى التماسيح.. إن شاء الله سنأكل قلوبها وليس شيئًا آخر.

عليك أن تثق بأن موريس في عقل وعين كل رجالي ولن يُسمح له أبدًا بالاستحمام في أماكن غير نظيفة. لقد استضافه الريس محمد في جبل أبو فودا، ستبتهج حين ترى كيف اختلف مظهره، كل ثيابه ضاقت عليه الآن، يقول إنه سعيد جدًّا بحق وإنه لم يشعر بالسرور أكثر مما هو معي، اعتقدت أنه يداهنني.

نصف البيوت القديمة في الأقصر سقطت على المعبد خلال ستة أيام قبل وصولي، مِن ثَمَّ هذه نهاية للبيت الفرنسي كما أعتقد، يجب أن يعاد أفضل بتكلفة بسيطة لكني أعتقد أن القنصل لن يفعل هذا وبالتأكيد لن أحصل عليه مرة أخرى. لا شيء الآن يبقى صلبًا إلا الغرف الثلاث الأمامية الصغيرة والصالة الواسعة مع الغرفتين الخارجتين منها.. كل الجزء الذي عشت فيه ذهبَ حتى الدرجات، ومن ثم لا يمكن دخوله. من حسن الحظ أن الشيخ يوسف كان قد أخبر محمد بأن ينقل أثاثي إلى الجزء الصلب مرتابًا في الجزء الباقي. إن لدى الشيخ يوسف أروع طفل- صورة منمنمة له، الطفل في مكانة أخي في المعمودية باعتبار أن اسمه "نور الدين هشام أبو الحجاج"، فاسمه "نور" مثلي.

-121-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

على ظهر أورانيا - يناير 1868

أَلِيك الحبيب..

لحسن الحظ وصل خطابك المحرر في العاشر من ديسمبر إلى إدفو بواسطة القنصل الأمريكي العام الذي أخذنا على باخرته هناك لتناول الغداء. كان موريس كالعادة في مستنقع بعيد جالسًا على ركبتيه محاولًا صيد الإوز البري. الآن نحن نقترب من أسوان ولا توجد أهوار أو مستنقعات كثيرة لكن من ناحية أخرى يوجد طائر السمان وطائر القَطَا، والدجاج البري الصغير الجميل. آكل كل ما يصطاده موريس ولقد وجدته جيدًا جدًّا لي، وبالنسبة إلى موريس فلقد استعاد وجهه الصبياني المستدير القديم، إنه يأكل كما الغول، يمشي اليوم كله، ينام ملء جفنيه، يستحم في الصباح ويتمدد عاريًا لأن ثيابه ضاقت عليه. في إسنا نزلنا مع المحترم حسن الذي هو الآن شيخ العبابدة بعد موت أخيه الأكبر.. أعطانا خطابًا لأخيه في سيالة في النوبة، يأمره بأن يتيح صيد الغزال لموريس ولي زيارة زوجته، أعتقد أن هذا سيكون ممتعًا فالنساء البدويات لا ينتقبن أو يسكتن، وكي تكون محل اعتبار الرجال عليها أن تكون أنيقة جدًّا. كل من حسن وأبو جورد الذي كان معه يعظُ بنفس خطاب صديقي المتعلم عبد الرحمن في الأقصر.. يسألان "لماذا -باسم الله- تركتِ ابنك دون زواج؟" لقد صدما بمثل هذه اللا مبالاة بسعادة الابن.

أسوان - 10 رمضان

ليس لدي أي روزنامة لكن ستكون قادرًا على أن تعرف التاريخ بواسطة مفكرتك الحمراء التي تحدد أول يوم لشهر رمضان في الأقصر هذا العام. لقد استقبلوا برقية تحدد يومه الأول بالخميس، لكن الشيخ يوسف قال إنه على ثقة بأن الفلكيين في لندن

يعرفون أفضل وجعله يوم الجمعة. غدًا سنعقد اتفاقنا، وبعد غد سنذهب إلى الشلال إن شاء الله آمنين. الماء جيد جدًّا كما أخبرني عيسى القبطان الأسود، لقد ذهب إلى الشلال الثاني وعاد وأنوي البقاء شهرين تقريبًا في النوبة. الطقس هنا مناسب الآن ونحن محظوظون بهذا الشتاء اللطيف حتى اليوم، نحن مرتاحون جدًّا مع طاقم القبطان المكرس كله من أجل موريس، وَعَدَنا شيخ العبابدة أن يلحق بنا إذا استطاع لأنه مشغول بإرسال نحو 400 باشي بازوك Bashibazouks[114] إلى وادي حلفا. سيتم إرسالها لأن الإنجليز في الحبشة.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

الأقصر - أبريل 1868

أَلِيك الحبيب..

كنت أضعف من القدرة على الكتابة، لكن الحر بدأ في الثلاثة أيام السابقة وخلصني من السعال وأشعر بتحسن أكثر. موريس أيضًا يزدهر في الحر ويعترض على سفرنا ، يتحدث بقدر جيد من اللغة العربية وصديق لكل الناس.. إنها "السلام عليكم يا موريس" من كل ناحية. مات بلجيكي هنا وقابل عبداه (صبي أسود جيد جدًّا وفتاة حبشية) غلامي الصغير دارفور ليقنعني بأن آخذهما تحت حمايتي إذ ظهرَ احتمالُ ضمهما إلى قبطي نذل هو وكيل القنصل في قنا. أعتقد أن البلجيكي ترك لهما نقودًا لن يحصلا عليها أبدًا دون شخص يبحث عنها، وهكذا سآخذ رمضان الصبي معي وسوف آخذ الفتاة حين أبحر وأنقلهما إلى القاهرة أقضي لهما عملهما البسيط وأتركهما يقدمان كِتابًا مختومًا معهما إلى القنصل هناك -وفقا لرغبة سيدهما- ثم أُزَوِّج الفتاة برجل مهذب. تركتُ الفتاة بين حريم مصطفى حتى أذهب، استمتعت بالنوبة بعمق، واشتقت إليها ولأن أعيش مع نسل "الرأس" العظيم الذي دعاني إلى قرية أبريم، والذي قال بحميمية "لقد أتيتِ إلى منزل مهدم، ولم يأتِ من يخدمك"، إنه مكانٌ جنةٌ.. والنوبي له الأخلاق العظيمة للرجل النبيل الفخور القديم. كان معي خطاب له من الشيخ يوسف.

منذ كتبت ما سبق قد تغير الجو ليكون باردًا قارسًا من جديد، ومن ثم وافقنا على البقاء حتى تحلَّ الحرارة من جديد. موريس مفتون جدًّا بالأقصر لدرجة أنه لا يريد الرحيل، ونحن نهدف إلى ترك القارب وأن نعيش هنا الشتاء القادم، أعتقد أنه بعد أسبوع آخر سنبدأ التحرك شمال النهر.

قالت جانيت إنها ستصعد النيل معي العام القادم، مما سيكون ممتعًا. أنا أفضل قليلًا مما كنت في الشهرين الأخيرين، كنت في حالة أحسن في النوبة لكن أصابني البرد في إسنا. صرت بعيدة عن موريس.. ما أحزنني جدًّا. لا أستطيع أن أخرج أبدًا لحاجتي إلى التنفس، هل يمكن لك أن ترسل لي مقعدًا مثل الذي يُحمل فيه الناس بواسطة شخصين؟ المقعد العادي خطر على الرجال لأن جانبيه منحدران وأنا عصبية لذلك لن أخرج. أتمنى لو ترى ابنك عاري الساقين والقدمين في قميص وزوجين من السراويل العربية ينخرط مع الفلاحين، إنه "أخ" أو "ابن" لكل شخص.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

المنيا - مايو 1868

أَلِيك الحبيب..

أخشى أن تظن أنني مرتبكة حائرة لأنني أرسلت إليك الخطاب الذي وصلني من محمد غزاوي، حين أتى مستر كوب وفريقه أوصيت لهم بمحمد عزاوي حيث إنني عرفته دائمًا يسرُّ كل من استخدموه لست سنوات ومنهم دين ستانلي، نصحتهم بأن يتعاقدوا معه بأقصى ما يستطيعون دفعه.. بدلا من ذلك أجّروا مركبًا بثمانين جنيهًا في الشهر وهذا سعر عالٍ حيث إنه لا يوجد به مطعم (كانتين) يتم استخدامه. كانت هناك أوانٍ للطبخ وأوانٍ فخارية وأغطية من الكتان.. إلخ. استأجروا خادمًا ثم وافقوا على أن يمنحوه 15 جنيها في الشهر وأربعة جنيهات كل يوم من أجل طعامه وطعام أربعة خدم ولاستخدام الكانتين.. وقود.. شموع.. غسيل.. إلخ. أخبرني بما فعل وقال إنهم لم يحبوا كتابة ذلك أمام القنصل مما جعلني أتأكد أنه لم يحصل على شيء. بحماقة قلت "سوف أحدثهم" وها أنت ترى النتيجة.

يبدو أنهم وجدوا جماعة أو جماعتين يقومون بذلك بشكل أرخص، لكن لا يوجد سبب لأن يكسر الإنسان كلامه، لقد سمعت ملاحظات قوية جدًّا عن القضية من رجال إنجليز، قال أحدهم إنه نصحَ غزاوي بأن يسجل ذلك في الورق، بالنسبة إليَّ فإن استقبال خطابه جعلني مريضة حقًّا؛ شعرت بأن عليَّ أن أدفع المال.. ماذا عليَّ أن أفعل؟ أعرف أن ما يقوله غزاوي عن مهارة أعماله صحيح وأن الثمن -رغم ارتفاعه- فليس بأكثر من سعر المترجمين الممتازين الآخرين بل هو أقل من سعر البعض، إلى جانب أنهم لو لم يحبوا السعر كان عليهم الرفض، وكنت سأجد لهم من هو أرخص، لكن مستر كوبر لم يذكر الأجر قط وبدا

فقط يريد كل شيء ممتازًا. إذا ذهب شخص إلى فندق جيد فهو يعرف أنه سيدفع أكثر من بيوت الإقامة العادية، ولا يستطيع رفض الفاتورة لأن هناك شخصًا آخر عنده نُزُل أرخص! غزاوي هو واحد من أولئك الناس المعتدلين سيئي الحظ يخاف كلَّ شخص، وإنه لأمر قاسٍ بالنسبة إليه أن يخسر 120 جنيهًا. هل يمكن أن تحتج على مستر كوب .

القاهرة 5 يونيو..

أَلِيك الحبيب.. أنت تقول إن عليَّ أن أعرف أن غزاوي ليس لديه سمعة نظيفة حتى أوصي به لأصدقائك.. هذه تهمة خطيرة أشعر أنه لا أحد لديه الحق في أن يقولها في حقي؛ لقد أوصيت بغزاوي لأني أعرف أنه لم يقف من قبل أمام أيِّ محكمة أجنبية أو مصرية، ويمكن أن أرسل إليك نحو خمسين شهادة ثقيلة غير عادية. سأكتب أيضًا إلى دين ستانلي ليكتب إليك ما يعرفه عنه.

إذا كان صحيحًا أن ليدي هربرت قد كتبت أكاذيب عن غزاوي سأنصحه بأن يقاضيها بتهمة القذف في سمعته. عليَّ أن أحصل على كتابها وأرى كيف هو[115]. إنها لم تقابله قط وليس لديها أي ذكاء في الافتراء عليه، لن أترك الأمر حتى أنظف نفسي من الاتهام بالمشاركة في التوصية المتعمدة برجل سبقت محاكمته وإدانته أمام القنصلية.

لقد وصلنا في التو إلى المنيا حيث ستأخذ السكة الحديد الخطابات أسرع، تعشينا في قنا وكنا في أسيوط مع بعض الأصدقاء وفي قنا كان لدينا حفل. عمر يرغب في توصيل سلامِهِ المخلص إليك ويرجو أن تكون راضيًا عن عنايته "بالطفل". كم كنتَ ستستمتع وأنت تسمع الفتاة التي جاءت لترقص لنا في إسنا وهي تحدث موريس عن طرق الشر، لقد كانت صديقة قديمة لي وقدمت نصائح جيدة راقية.

الكل مبتهجون للأخبار عن الحبشة.. "الحمد لله الباشا بتاعنا سيخاف الإنجليز أكثر من ذي قبل والسلطان أيضًا"، وحين أظهرت

حزني من الثمن تعجبوا "لا تهتمي بالثمن، إنها تستحق أكثر من عشرة ملايين تُدفَعُ لكم، لقد تألق وجهكم وازدادت قوتكم أمام العالم، لكن لماذا لا تأخذينا معك عند العودة؟"

رأيت رجلًا مسليًّا في قنا، قبطي اسمه "فام " تحول إلى الكنيسة المشيخية! واستحث مائة آخرين في قوص لأن يفعلوا مثله. مبشر أمريكي هو كاهنهم.

أُرسِلَ فام إلى السودان عن طريق البطريرك لكن تمت إعادته، إنه عجوز رائع وشعرت بأني أنظر إلى وجه شهيد مسيحي، مشهد مثير في القرن التاسع عشر.. الهدوء، وعدم الخوف، والنشوة في التعبير مثل ما تشاهده في صور النبلاء الإيطاليين القدامى، ويغيب عنه ادعاء الورع مما يُظهر الصدق الحقيقي. هو والمفتي أيضًا نبيلان، يتحدثان في الدين بظرف وفكاهة وإيقاع أليف سيكون صعب الفهم علي رجال الدين في إكستر هول.

حين ذهب فام قال المفتي "أوه.. نحن نشكرهم لأنه رغم عدم معرفتهم حقيقة الإسلام فهم رجال خيرون يتحركون بلا خداع وسيموتون من أجل دينهم. إنهم مثال رائع، الشكر لله عليهم".

-124-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بولاق - 14 يونيو 1868

أَلِيك الحبيب..

أنا آسفة إلى حد كبير لمحمد الغزاوي لكن لا أستطيع عمل ما هو أقل من ذلك. دائمًا لديَّ قاعدة بألا أوصي بأيِّ ترجمان لكن عليك أن تتذكر أنك كتبت لي أنها رغبتك أن أفعل ذلك وأنا -لذلك وقد سُئلت عن الأفضل- أوصيت به. بالطبع إذا كانت الناس راضية أن تعيش مثلي سيدفعون ما هو أقل لكن الشعب الإنجليزي لا يحب الخبز الجاف.. ولا العدس ولا الملوخية، والأكل المثير مكلف. مستر ريد القنصل مستعد تمامًا أن يشهد بأن الأجر عادل جدًّا. الإنجليز قاموا بعمل فاشل في الدفع، أعرف أن عليَّ أن أتمسك بعربون حين أترك مركبي خوفًا أن أحصل على نقود أقل من حساب زجاجتَيْ شمبانيا ناقصتين في المخزون كما حدث هذا العام!

تم اختيار الدكتور باترسون ليدير مستشفى في مدينة جالاتا Galata في تركيا -إسطنبول-، قال إنه سيوفر لنا غرفًا في منزله هناك لو فكرنا في الذهاب. موريس أيضًا يرغب في ذلك بشدة، يريدني الدكتور باترسون أن أبتعد شهرين عن مصر حتى أعود في سبتمبر في جو مناسب. اقترحَ أيضًا بيروتَ أو إحدى الجزر اليونانية. أنا منهكة جدًّا قصيرةُ النفسِ لكنني سأدخل التجربة، لا تظن أنني أقترب من الموت السريع؛ دكتور باترسون يقول إن لديَّ قوةً جيدةً على التنفس وحتى الآن حيوية جدًّا. المكان الأول السيئ في رئتي اليمنى في الحقيقة شفيت منه، لكن اليسرى التي خربت في سودن صارت أكثر سوءًا وقلبي ضعيف مضطرب، لكن لا ألم وأستطيع النوم بخير، فقط أخشى الدمار أكثر وأبدو مثل عجوز شمطاء.

المناخ كريه هنا الآن، أن ترتعش من الرياح الباردة في يونيو على النيل أمر صعب. لقد ورث موريس قدرتي على التعامل مع الزنوج؛ كل الطاقم يقبّله على وجنتيه ويقسم لهم أنه سيعود مرة ثانية في الشتاء. وفي الريف سلم يده للفلاحين وأكل كثيرًا ما سمَّاهُ "زُبالة" بمتعة كبيرة، ويمشي ذراعه في ذراع الدرويش المجنون ويدخل "بيت العروسة" ليلًا ويقسم بقوة بالنبي. إن الأخلاق الطيبة للـ"حقراء" المصريين أزالت كل الدهان المغشوش عن الناس هنا، والذي عرفه في بروسيلز. هل يصدمك أن يعلِّم الزنجي موريس؟ الحاج دبوس الذي أعرفه كعالِمٍ عربي كبير يتكلم الفرنسية مثل الباريسيين والإيطالية أيضًا هو زنجي حقيقي، وهو كذلك أفضل قائد موسيقا في القاهرة. ما العمل؟ الأمر لا يجذب كما قالت الليدي مورلي، لكنني لن أهديك خِلاسِيًّا صغيرًا أكثر من أن أهديك بلجيكيًّا صغيرًا شجاعًا.. على أي حال ربما أجد شخصًا في بيروت. القاهرة في حالة من الفقر المدقع حتى إن كل الشباب المتعلمين هربوا منها. ليس عند موريس أي فكرة عن لماذا لا يجب أن يكون الزنجي جيدًا مثل أي شخص آخر، لكنه يعتقد أنه ربما لا توافق أنت على ذلك.

لا بد أنك اشتقت إلى رؤية العجوز أحمد أغا عبد الصادق (صديقنا الخيِّر جدًّا في أسوان) وهو يدلل ويربت على "الوِلد" حين تعشى هنا يومًا ما، ويضحك بلا توقف مما يقوله موريس من كلام بلا معنى. إنه واحد من رجال البرلمان في أسوان ورجل محترم وغني في الصعيد. القضية الإثيوبية شهدت فشلًا مرعبًا للباشا، لقد كانت حساباته من أجل شيء آخر ومخيف، رجال الدين الأقباط مستعدون لقتلنا، المصريون جميعًا في نشوة "ليبارك الله الجنرال الإنجليزي.. لقد أرعب الباشا".

جعفر باشا قدم لي عباءةً كبقشيش من الحرير القرمزي والذهبي، وأيضًا قدم لي سلة من القهوة، كنت مضطرة إلى قبولهما إذ أرسل ابنه بهما ورفضي سيكون إهانة، ولأنه تركي أفكر جديًّا ألَّا أتحداه، كان ذلك في الأقصر في طريقِهِ إلى

الخرطوم. لقد دعا أيضًا موريس إلى الخرطوم واقترح أن يرسل فريقًا لأخذه من قرية كروسكو النوبية على النيل. جعفر هو نائب الخديوي في السودان وهو رجل هادئ جدًّا "لا يأكل الناس".

حبي الكبير لجانيت، سأكتب قريبًا لها، لكني كسولة وموريس أسوأ مني. لقد بكى عمر حين ذهب موريس إلى الإسكندرية لأسبوع.. "أشعر بالملل الكبير من دونه" قال عمر وعبَّر دارفور عن نيته الذهاب مع موريس، هكذا عبر "يجب أن تقدميني للرجل الشاب كبقشيش لأن لديَّ كثيرًا من الإحساس وسأخبره ماذا يفعل"، كانت تلك صلة الوغد الصغير. عبيد تيرانس -تيرنتيوس- صادقون مع الحياة هنا.

-125-

الإسكندرية 3 يوليو 1868

ألِيك الحبيب..

استقر بنا الأمر على الذهاب إلى بيروت يوم السبت عن طريق باخرة روسية قيل إنها جيدة جدًّا، بالطبع أنا منهكة للغاية لكن ربما يجعلني التغيير أفضل. دكتور باترسون كتب لي من إسطنبول يشجعني. أخذت معي عمر ودارفور الصغير وكانا سعيدين جدًّا بالمقعد الذي أرسلته ويقولان إنهما سيحملاني كسلطان.

-126-

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بولاق - 22 أكتوبر 1868

ألِيك الحبيب..

كلفتني الرحلة التعسة إلى سوريا حياتي تقريبًا؛ المناخ سامٌّ تمامًا لمرضى السل. بعد وصولي بعشرة أيام حدثني الطبيب بأن أُنهي أموري لأنه من المحتمل ألا أعيش سوى عدة أيام، ومن المؤكد أنني لن أُشفَى. ورغم ذلك صرت أحسن وحُملت إلى المركب البخاري لكنني واهنة لعمل أي شيء، كنا في سفينة شبه محطمة تعود بنا بسبب القبطان الروسي الذي معه عروسُهُ ولا يهتم بسفينته، لقد اصطدمنا واحتككنا وتطوحنا تعساء جدًّا.في بيروت ممرضات الأعمال الخيرية لا يقمن بتمريض البروتستانت لأنهن -الممرضات- غير لوثريين. لكن عمر ودارفوري قاما بتمريضي أحسن من الأوروبيين.. دارفوري الأسود الصغير كان حاسمًا في العلاج كابن مولودٍ لطبيب في حين كان عمر يأخذ دورته في النوم. لم أحب السوريين القليلين الذين قابلتهم بالمرة.

-127-

إلى السير ألكسندر دوف چوردون

بولاق - 6 نوفمبر 1868

أَلِيك الحبيب..

أنا على ثقة بأنك ستفرح حين تسمع أني بخير حقيقة. من حسن الحظ أنني عثرت على زجاجتين من زيت كبد السمك وأخذت واحدة كان لها تأثيرٌ جيدٌ جدًّا وطعمها مثل البيرة، كنت منهكة جدًّا أفكر في أنني لم أكن من قبل في حالة أسوأ من هذه.. وهذا العلاج غير الأرثوذكسي جعلني جيدة وأوقف البلغم المرعب الذي كاد يقتلني في سوريا.

جعلت موريس يأخذ درسًا في الفرنسية كل صباح من مس ماثيوز -التي التحقت بي في بيروت- وحين نصعد النهر سأجد شيخًا له من أجل تعليمه اللغة العربية.

سأدفع للجميع هنا وأدفع مقدمًا ستة أشهر لمس ماثيوز من راتبها حتى تستثمرها بأمان ويكون لديها شيء في حال وفاتي، سأبدأ بـ 300 جنيه ستكون الأخيرة حتى شهر مايو أو يونيو. لكن يجب أن يتركني موريس مبكرًا ويقترض من روس لرحلته إلى الوطن لأني لا أستطيع إعطاءه ما يكفي للعودة إلى لندن. بالنسبة إلى عمر أنا مدينة له بأجره منذ أول أكتوبر.. أذكر هذا ليكون معروفًا في حال وفاتي.

أشعر الآن كثيرًا بأني أحب الحياة على لقمة واحدة أكثر مما أطلب إليكَ أن ترسل لي شحنة من الأدوية. لا أظن شيئًا يستحق أن أطلب إليكَ أن ترسله لي فكل شيء قد يرسلني إلى هاديس[116] لكن جسدي العجوز يبدو قويًّا وأنا مبتهجة لكوني ما زلت قادرة على الحياة.

أتمنى أن نبحر خلال أيام قليلة، موريس سيذهب إلى القاهرة

ومن ثم سأرسل هذا الخطاب معه، أمس كان يوم ميلاد ريني الصغيرة وشعرت باشتياق كبير جدًّا لها. أحب رسم ليفتون لجانيت جدًّا جدًّا.

-128-

إلى السيدة روس..

أسوان - 22 يناير 1869

جانيت الحبيبة

المناخ هنا هو الأفضل تمامًا لي، لكنني مريضة أكثر. أعتقد ذلك أكثر مما يمكن أن تفترضي. لا أحب أن يقلق والدك، ربما أستطيع أن أخبرك بأنني لن أستطيع البقاء طويلًا لكنه أمر صعب أن أقوله. حين يأتي أمير ويلز سأقابل طبيبه وأجعلك تعرفين ماذا قال، أظن أنه من الأفضل أن يعود موريس إلى البيت حالًا؛ صحته ممتازة ومن ثم ليس لدي أي خوف عليه في هذه النقطة وعليه أن يفعل شيئًا وليس لي نفوذ عليه إطلاقًا. أعتقد أنك الوحيدة القادرة على هذا المتمرد.

أتمنى أن أرى أيًّا منكما مرة أخرى لكن لا أرى أي إمكانية للسفر إلى أوروبا.. أنفاسي الآن مُجهَدة وتعاني بشدة لدرجة أنني لا أستطيع المشي على الدهبية دون التوقف للتنفس وأنا منهكة جدًّا لدرجة أنني لا أستطيع فعل شيء دون مساعدة. عمر صبور كثيرًا وشديد العناية بي أكثر مما يتصور أحد عن شخص يمكن أن يبذل كل هذا الجهد لإنقاذي، لا أعرف أين تعلّم كل هذه العناية العظيمة.. حتى لو تخلصت من مس ماثيوز وهدوئها سأكون مرتاحة جدًّا ولا تخافي ألا أحظى بالعناية.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

أسوان - 25 يناير 1869

أَلِيك الحبيب..

نحن هنا منذ عشرة أيام وأرى الجو الأفضل تمامًا لي، أسعل أقل بكثير، فقط واهنة ونَفَسي قصير. حصلت على أفضل شاب ماهر رَيِّسًا لقاربي وبحارٍ يغني مثل العندليب. حقيقةً هو ليس بحارًا بالمرة لكنه مُغَنٍّ قاهري محترف أتى معي للمتعة، إنه يجذب الحشود ليسمعوه. وفي مسجد إسنا ابتهلَتْ الجموع من أجلي لعل الله يكافئني على المتعة التي منحتهم إياها. كنت أرغب بقوة في أن تكون ابتهالات الجموع من أجل السيدة التي منحتني مغني الأوبرا هذا السبت الماضي. إذا كانت الدعوات ستشفيني فسأكون أفضل بسرعة. في الأقصر ذبح عمر الشاة التي نَذَرَها ومصطفى ومحمد ذبح كل منهما اثنتين كفدية "شكرٍ" على حياتي، وكل الدراويش تجمعوا في ذِكْرٍ كبير في خيمةٍ أقيمت خلف القارب وطبلوا وغنَّوا وابتهلوا إلى الله ليلتين كاملتين أن يشفيني، وكلُّ مَن في قاربي صام رمضان من أول عمر والطاقم إلى الصبية الصغار. أعتقد أن دارفور كان الأكثر استحقاقًا للتقدير لأنه كانت له شهية جارجانتوا في رواية رابليه لكنه صام الثلاثين يومًا بشجاعة، وحَكَّ أنفه في التراب بكل طاقته في الصلاة.

في يوم عيد الميلاد (الكريسماس) كنت في إسنا، الجو دافئ وجميل، وأقمت حفلًا (وليمة) وأحضرت الفتاتين للرقص.. زينب والهلالية اللتين تستهدفان أن تكونا الغزيتين الخاصتين بي، كما نقول راقصة الحجرة Ballerine da camera وقدمتا أفضل ما لديهما. كم سأطيل لأجسد المشهد كله أمام عينيك! كان رمضان يردد أغاني حب بكثافة ويعزف على دف صغير بينما ترقص زينب أمامه

على إيقاعات أغنيته، والبحارة، والفتيات، وتجار محترمون، كلهم جالسون في اختلاط في دائرة على ظهر السفينة وعازف الربابة يزفر منها نشيجًا كما لو كان لإيزيس بعد موت أوزوريس. أنا لا أعرف ما إذا كنتُ أنا الآن أم قبل أربعة آلاف عام مضت، أو حتى عشرة آلاف حين أكون في حفل مصري حقيقي؛ الأمر مثل حلم. لا شيء أقدم من الغوازي.. هن الفتيات الراقصات الحقيقيات. ما زلن يرقصن بنشوة دينية غريبة ولا شك أن هذا موروث عن أبعد العصور الماضية. اسأل أي عالِمٍ هندي أن يشرح لك الزار.. إنه حقًّا مثير وغريب.

الآن.. لإنني مريضة إلى درجة تمنعني الكتابة، فأنا آسفة لأني لم أستمر في الكتابة عن عقائد مصر -رغم خوفك من أن يوقفني المتعلمون عن الحديث- لاعتقادي الصادق أن المعرفة التي ستموت معي يملكها فقط القليل من الآخرين. لا بد أن تتذكر أن المتعلمين يعرفون الكتب وأنا أعرف الرجال وما ظلَّ صعبًا كثيرًا.. أعني النساء.

الشلال سيئ جدًّا هذا العام بسبب نقص المياه في النيل وللقيادة السيئة للمعاون هنا. رجال الشلال جاؤوا إليَّ وابتهلوا "لأعطيهم صوتي" أمام المدير، وسأفعل ذلك، علاء الدين بيك يبدو رجلًا ليّنًا، وربما يزيل الوغدَ صاحب السرقات سيئة السمعة للمسافرين وكذلك صاحب الاضطهاد القبيح للبدائيين الفقراء الذين يشدون المراكب.

مركبان خَرِبَا، وصديقي ريس السفينة كاتاراكت (الرجل الذي هددتُهُ بإطلَاق النار العام الماضي والذي يثق بي من وقتها) لا ينصحني بالذهاب إلى أعلى النهر، بل سيأخذني بالمجان إذا رغبتُ، وأقسمَ أن يفعل هذا. ومن ثم.. ما دام الطقس جيدًا هنا وموريس سعيدًا بأصحابه سأبقى هنا.

أفكر في إنهاء عمل رجالي لكني صرت مغرمة بهم أكثر؛ منحوني إبحارًا طيبًا لدرجة أني لا تطاوعني نفسي على توفير عشرين جنيهًا من أجورهم ونوقف الإبحار ونحن جميعًا سعداء

ومرتاحون، والرجال الفقراء يتزوجون بزوجات جديدة برواتبهم.

وداعا أَلِيك الأعز، اغفر لي عُجالتي وخطّي لأني متعبة في كل جسمي، أصابعي وكل شيء. أجمل المحبة لحبيبتي ريني. ثلاثة مراكب حولي على سطحها فتيات صغيرات من الخامسة حتى الثامنة وأنا أحسدهن، الأفضل أن يسافر موريس إليكَ حين نصل إلى القاهرة.. عليه أن يفعل شيئًا.

إلى السير ألكساندر دوف چوردون

بولاق - 15 يونيو 1869

أَلِيك الحبيب..

لا تفكر في القدوم إلى هنا، سيكون مؤلمًا لي جدًّا أن أرحل عنك ثانية، وكما هو الأمر.. أستطيع انتظار النهاية صابرة بين الناس الطيبين والمحبين لدرجة تريحني دون شعور قاسٍ بألم الفراق. كانت مغادرة الأقصر مشهدًا محزنًا لأنهم لم يظنوا مِن قبلُ أنهم لن يروني مرة أخرى.

إن عطف كل الناس كان حقًّا مؤثرًا، مِن القاضي الذي أعد لي قبرًا بين قبور عائلته إلى الفلاحين الفقراء. عمر يرسل إليكَ شكره من صميم قلبه ويرجو أن يظل المركب مسجلًا في القنصلية باسمك ليستعمله ويستفيد منه، عيَّنَه الأمير ترجمانًا له، لكنه حزين جدًّا.. تَعِس، كل ما اقتناه لا يواسيه في فقد "الأم التي وجدها في الدنيا"، في الأقصر بكى محمد بعمق وقال "أنا مسكين، أطفالي مساكين، مساكين كلُّ من في الدنيا".. وقبَّل يديَّ بحب عميق، والناس في إسنا طلبوا الدخول ليلمسوني "من أجل البركة"، وكل شخص أرسل خبزا لذيذًا وأحسن ما لديهم من زبد وخضراوات ولحم ضأن. إنهم الآن أرق من أي وقت رغم أني لم أعد ذات فائدة لهم.

إذا عشتُ هنا إلى سبتمبر سأذهب إلى إسنا حيث الهواء أكثر طراوة والسعال أقل؛ أريد أن أموت بين أهلي في الصعيد لا هنا.

اغفر لي هذا الخط الرديء حبيبي، ولا تفكر في أن ترسل موريس مرة ثانية إلى خارج إنجلترا فعليه أن يبدأ العمل الآن، وإلا لن يكون صالحًا لأي شيء.

هل يمكن أن تشكر أمير ويلز لما فعله لعمر؟ أم عليَّ أن أكتب إليه؟ لقد كان عطوفًا باعثًا على سرور كبير لي وكذلك كانت

الأميرة أيضًا، إنها أبسط الفتيات اللاتي قابلتهن وأجملهن سلوكًا؛ لم تحاول حتى أن تتظاهر بتحضر العظماء لكنها تسأل أسئلة مباشرة وتتطلع إلى الشخص من قلبها بعينيها الصادقتين الناصعتين فتكسب كل القلوب، لقد كانا محل اعتبار كبير أكثر من أي شخص رأيته، والأمير -إذا كان لي أن أقول- كان محترمًا في سلوكه أكثر من كونه رقيقًا، إنه عظيم التربية باعث على السرور ويملك عينين صادقتين تجعلان الشخص يتأكد أنه ذو قلب خيِّر.

كان لبحارتي الفخر بمنحهم شرف أن يجذفوا به على قاربنا وأن يغنوا له. إن لديَّ مغنيًّا جيدًا جدًّا في القارب. من فضلك أرسل هدية بسيطة لريِّسي؛ إنه رجل جيد، سيكون مسرورًا بأي شيء صغير منك، إنه نصف تركي ويبدو شخصًا مكتملًا، لا بد أن موريس حدثك بكل شيء عنَّا. وداعًا الآن أَلِيك الحبيب.

-131-

إلى السير ألكساندر دوف ﭼوردون

حلوان - أمام البدرشين

9 يوليو 1869

أَلِيك الحبيب..

لاتبتئس، ولا ترسل إليَّ ممرضة، ميس ماثيوس تعمل هنا بمهارة، وفوق كل شيء لا تفكر في الحضور. يتم تمريضي بأقصى ما يُستطاع، الريسان الخاصان بي (رمضان ويوسف) قويان وعطوفان، وعمر جدير بالإعجاب كما هو دائمًا، تشملني متاعب في الجسد فلا أحب أن يراني أحد آخر. السيئ هو أني ما زلت قوية في بعض الأحيان.

لقد شاهدت موتي منذ يومين وعدت من جديد بعد أن أمضيت الليلة كلها في حساساية شديدة.

أكرر أنه لن تتم العناية بي في أي مكان أفضل من طاقمي من البحارة الخيِّرين المُحِبِّين. أخبر موريس كيف بَكَوْا كلهم لفراقِهِ وبأن عبد الحليم لم يعد يشرب الخمر أو يدخن الحشيش.. إنه رجل صالح الآن. لكن ريّسيَّ الاثنين لا يُقارَنان. بارك الله فيك يا أعز الأحباب.. كم هو مُحزن تأخر حضورك. قَبِّل لي أحبابي كلهم وشارلي الحبيبة. أنني حزينة مما جرى لعينيها. أنا لا أكتب جيدًا لأن النوم يغالبني والاختناق فأغفر لي أخطائي. أتمنى أن أرى وجهك العزيز مرة أخرى لكن ليس الآن..

النهاية

عن المترجم

إبراهيم عبد المجيد كاتب وروائي مصري من مواليد الإسكندرية، ويعيش في القاهرة. نشر أعماله في صحف ومجلات مصرية وعربية ودور نشر كبيرة وحاز على جوائز عدة وترجمت كثير من أعماله إلى لغات أخرى.

أوّلا: الروايات:

في الصيف السابع والستّين.
ليلة العشق والدم.
المسافات: تُرجمت إلى الأنجليزيّة.
الصيّاد واليمام: "حوّلت إلى فيلم سينمائيّ بعنوان "صيّاد اليمام"، بطولة أشرف عبد الباقي.
بيت الياسمين: تُرجمت إلى الفرنسيّة والإيطاليّةوالأنجليزيّة.
البلدة الأخرى:تُرجمت إلى الفرنسيّة والأنجليزيّة والألمانيّة.
قناديل البحر: حوّلت إلى مسلسل تليفزيونيّ، بطولة اثار الحكيم ومحمود قابيل.
لا أحد ينام في الإسكندريّة: حوّلت إلى مسلسل تليفزيونيّ، بطولة ماجد المصري ومادلين طبر وسهير المرشد: تُرجمت إلى الفرنسيّة والأنجليزيّة والإسبانيّة.
طيور العنبر: تُرجمت إلى الأنجليزيّة.
برج العذراء.
عتبات البهجة: تُرجمت إلى الفرنسيّة واليونانيّة.
شهد القلعة.
في كلّ اسبوع يوم جمعة: تُرجمت إلى الألمانيّة.
الإسكندريّة في غيمة: ترجمت إلي الإنجليزيّة.
هنا القاهرة.
أداجيو: تُرجمت إلى الأنجليزيّة والفرنسيّة.
قطط العام الفائت.
قبل أن أنسي أني كنت هنا .

"لا أحد ينام في الإسكندريّة – طيور العنبر – الإسكندريّة في غيمة" هي ثلاثية الإسكندرية.
السايكلوب .

ثانيا:المجموعات القصصيّة:

مشاهد صغيرة حول سور كبير.
الشجرة والعصافير.
إغلاق النوافذ.
فضاءات " مختارات من قصص المجموعات القصصية "
سفن قديمة.
ليلة أنجيلا. كلّها الآن في مجلّد واحد بعنوان "أشجار السراب".
حكايات ساعة الإفطار.

رابعا:كتب متنوّعة:

مذكّرات عبد أميركي – ترجمة عن الإنجليزية – تأليف فريدريك دوجلاس.
24 ساعة قبل الحرب(مسرحيّة).
أين تذهب طيور المحيط(أدب رحلات).
ما وراء الخراب (مقالات في الدين والآخر والهويّة والنهضة والتراث).
السبت فات والحد فات (مقالات).
أيّام التحرير(سيرة أيّام ثورة يناير).
من الذي يصنع الأزمات في مصر(مقالات).
ماوراء الكتابة - تجربتي في الإبداع.
أنا والسينما.
الولد الذي يحب المطر - مقالات

خامسا: الجوائز:

الجائزة الأولى في القصّة القصيرة –نادي القصّة بالإسكندريّة 1969.
جائزة نجيب محفوظ في الرواية عن رواية "البلدة الأخرى" –

الجامعة الأمريكيّة –1996.
جائزة الدولة للتفوّق في الآداب عام 2004.
جائزة الدولة التقديريّة في الآداب عام 2007.
جائزة ساويرس في الرواية لكبار الكتّاب عام 2010عن رواية "في كلّ أسبوع يوم جمعة".
جائزة كتارا عام 2015 عن رواية "آداجيو"
جائزة الشيخ زايد في الآداب عام 2016عن كتاب "ماوراء الكتابة– تجربتي في الإبداع".

للاتّصال بالكاتب:
Twitter: @ibmeguid
Facebook: Ibrahim Abdel Meguid
E.Mail: ibrahimabdelmeguid@hotmail.com

-18-

إلى جين أوستن

1 أكتوبر 1863

أمي الحبيبة..

وجدت الناس غاضبين جدًّا في فرنسا مما يحدث ضد عمال السخرة في مصر ويرجعون ذلك كله إلى مؤامرة إنجليزية ضد قناة السويس.. الحرية.. الإخاء.. المساواة، يجب أن يرتفع صوتها على الكرباج الذي ينزل على ظهور الفلاحين! قلت لرجل فرنسي إني هكذا أكون متآمرة كبيرة إذا كان هذا تصوره عن المؤامرة. إنهم مقتنعون بأن حمل الأرض في سلال إلى السادة الفرنسيين هو التحضر! فكرة مضحكة.

أنا بشكل عام في حال جيدة لكن في "كاليه" سعلتُ كثيرًا بقوة بسبب السل وكنت في أسوأ حالاتي. لا أستطيع القول إنَّ لديَّ أفكارًا كثيرة عن العلاج لكن في حالتي فالأفضل أن أفعل أقصى ما أستطيع لأقلل الألم وأعتقد أن هذا أقل مما يريده أليك الذي يريد عودتي إلى البيت حين أصبح في حال جيدة ولدي فرص للشفاء. مؤلم وليس طيبًا أن تضعي الآخرين أمام المشهد المتعب للمرض الذي طال والموت الذي يجب أن يأتي. مثل هذا الغياب سيكسر عنف الألم ونحن نعرف أن كل ما يجب فعله يمكن فعله.

يا له من طقس! نحن نغرق هنا. ماذا سيكون في نهر الرون! الفيضانات تبدو طبيعةً ونظام النيل الأب العجوز وكل الأنهار. كم كان لطيفًا خطاب جانيت منذ عشرة أيام، إنها تقوم بعملها بامتياز. كتبت إليها أن تقول إني قادمة يوم الاثنين على القارب ومن ثم يقابلنا عمر ويأتي بالحمالين ليحملوا حقائبنا. هنا شتاء الآن.. هادئ وليس باردًا ولا رطبًا جدًّا.

---

[1]- ملاحظة: الهوامش من وضع المترجم، والهوامش الموجودة أصلاً وهي قليلة سنشير إليها باسم صاحبتها.

[2]- هوراس والبول، أديب إنجليزي من القرن الثامن عشر، ومدام دي سيفينيه أديبة فرنسية من القرن السابع عشر.

[3]- سيلين إلهة القمر في الميثولوجيا اليونانية.

[4]- اسم البلدة التي كانوا يعيشون فيها في إنجلترا.

[5]- لورد بروجهام، مصلح وسياسي بريطاني كبير وكاتب في الفلسفة والعلوم والتاريخ.

[6]- جيمس ميل وجيرمي بنتام، فيلسوفان إنجليزيان، الأول مؤرخ أيضًا والثاني مؤسس المدرسة النفعية في الفلسفة الذي تأثر به الأول، أما ميل الصغير فهو جون ستيوارت ميل الفيلسوف الشهير فيما بعد وهو ابن جيمس ميل.

[7]- السيدة جروت، هي هارييت جروت الكاتبة الإنجليزية وزوجة چورچ جروت مؤرخ الفكر والعصر اليوناني، وكانا يعيشان قريبًا منهم.

[8]- كلهم كُتَّابٌ وفلاسفة إنجليز.

[9]- تقصد فرانسوا جيزو السياسي والمؤرخ الفرنسي.

[10]- حركة عمالية بريطانية نشطت في القرن التاسع عشر على أساس مبادئ وضعها الزعيم الراديكالي وليم لوفيت.

[11]- تقصد الروائية الإنجليزية چين أوستِن.

[12]- مسرحية لهاينريش هاينه عن الأيام الأخيرة للأندلس تنتصر للمسلمين.

[13]- ماري سومر فيل 1780-1872 كانت باحثة وكاتبة في علوم الفلك والرياضيات وسميت بملكة العلوم، أما إليزابيث براوننج 1806-1861 فكانت شاعرة وزوجة الشاعر روبرت براوننج.

[14]- هي ابنتها وسيأتي اسمها كثيرًا في الرسائل، وكانت مراسلة لجريدة التايمز البريطانية في مصر أثناء وجود أمها. أما روس فهو زوجها هنري روس وكان معها في مصر وكيلًا لشركة تجارية مقرها في لندن وسيأتي اسمه كثيرًا في الرسائل أيضًا.

[15]- لم أتوصل إلى من كانت هذه الرسالة وهي موجودة في طبعة الكتاب الأول الذي صدر عام 1865.

[16]- أندريا ديلسارتو 1486-1530، فنان إيطالي اشتهرت لوحاته ورسومه في عصر النهضة.

[17]- السان سيمونيين، هم أتباع الفيلسوف والاقتصادي الفرنسي سان سيمون 1760-1825، وهم جماعة تؤمن بالطبقة العاملة كسلطة وكانوا بدايات الأفكار الاشتراكية والشيوعية، واستعان محمد علي بالكثير منهم في بناء مصر الحديثة وكذلك أبناؤه، بل هم وجدوا في مصر مجالًا لمشروعاتهم الصناعية وغيرها وكان من بينهم فرديناند ديليسبس، وكذلك فعلوا في أمريكا. ولفظ "نبيل" هنا تعبر عنه كلمة Ci -Devant التي أطلقت على كل من ظل متمسكا بأفكاره السابقة بعد الثورة الفرنسية.

[18]- جون البولوني، رسام ونحات إيطالي 1529-1608، صنع تماثيله من البرونز والرخام وكانت شهيرة بتجسيد الحركة، وميركيوري هو أحد الآلهة الرومانية.. إله التجارة وحراس المخازن والمسافرين وناقلي البضائع واللصوص والمحتالين!

[19]- راشيل، مغنية مذكورة في الإنجيل.

[20]- حكاية نورالدين مع ابنة الوزير من حكايات ألف ليلة وليلة.

[21]- تقصد ماريا فيليسا ماليبران، مغنية الأوبرا الإسبانية الشهيرة في القرن التاسع عشر.

[22]- السيدة هاجر، هي زوجة النبي إبراهيم عليه السلام.

[23]- بوعز، شخصية من التوراة.

[24]- مِريام.. كما في التوراة، تعد نبية وهي أخت موسى وهارون وكانت معهما في مصر وهربت معهما وغنت أغنية النصر بعد غرق الفرعون.

[25]- مقابر الخليفة، سميت كذلك لما كان فيها من مقابر للخلفاء والملوك اللذين حكموا مصر في العصر الإسلامي.

[26]- عبادة سرية قديمة للإله مِثرا في فارس.

[27]- هو الأمير هرمان فون بوكلير موسكاو الذي اشتُهِرَ برحلاته في إفريقيا ومصر.

[28]- سمعان العمودي، الذي كان أول من ابتكر التنَسُّك على عمود حجري في سوريا، عاش في منطقة حلب في القرن الرابع الميلادي ومنها انتشرت طريقته، وهناك في جبل سمعان يوجد دير القديس سمعان.

[29]- بوليفيموس، هو إحدى شخصيات الميثولوجيا اليونانية، وهو أشهر كائنات السيكلوب ذات العين الواحدة، وهو ابن بوسيدون والحورية ثيبسا، وكان يعيش في كهف جنوب غرب صقلية ويملك قطيعًا كبيرًا من الحيوانات، ضخم الجثة وله عين واحدة وسط جبهته، ويلتهم لحم البشر ولا يقيم وزنًا لقانون إلهي أو بشري.

[30]- حاولت العثور على أصل هذا الغناء باللغة العامية فلم أنجح -مع الأسف- ومن ثم لم أشأ أن أصوغه شعرًا عاميًّا.

[31]- جوفينال، شاعر روماني عاش بين القرنين الأول والثاني الميلادي، اسمه "ديكيموس جونيوس جوفيناليس" نُفي إلى أسوان بسبب شِعره التهكمي.

[32]- فازوجلو، مكان للنفي في السودان الحار مثل سيبيريا الباردة التي

كانت مكانًا للنفي في روسيا ذلك الوقت.

[33]- خالتها التي أحيانًا تسميها تشارلي في الرسائل.

[34]- والاشيات wallachian، من إقليم رومانيا.

[35]- تقصد الأمير عبد القادر الجزائري.

[36]- "منزل طيبة الذي تحدثت عنه أمي في الخطاب التالي، تم بناؤه قرابة عام 1815.
فوق المعبد القديم (لخم) بواسطة مستر سالت القنصل العام الإنجليزي في مصر، لقد كان عالم آثار ودارسًا للهيروغليفية وحين أتى بيلزوني إلى الإسكندرية أدهشته قدراته فأرسله أعلى النيل إلى طيبة ليدير إزالة قاعدة التمثال الكبير لممنون الذي هو الآن في المتحف البريطاني. بيلزوني -فيما أعتقدُ- عاش بعض الوقت في منزل مستر سالت الذي أصبح فيما بعد مُلكًا للحكومة الفرنسية وعُرف باسم "منزل فرنسا". لقد تم هدمه عام 1884 حين اكتشف ماسبيرو معبد الأقصر الكبير، صديقتي فيما بعد الآنسة أ.ب. إدوارد كتبت وصفًا لعمله في جريدة لندن المصورة ومنه اقتُطفت بعض المقاطع"
"المعبد مستقر في الميدان مثل سرب من الأبنية العالية والأذى الذي ارتُكب قد يكون قد تجمع من حقيقة أنهم رفعوا مستوى الأرض المحيطة إلى مستوًى أخفى المسلاتِ والتماثيلَ الضخمة والبوابات العالية وتم دفنها بعمق أربعين قدمًا، بينما ارتفاع القرى كان نحو خمسين قدمًا فوق المستوى الأصلي. منذ سبعة أشهر كانت القاعة الأولى تحتوي ليس فقط مسجدًا محليًّا ولكن متاهة مذهلة من الأبنية الطينية، نحو ثلاثين مسكنًا وثمانين كوخًا من القش إلى جانب الحظائر والإسطبلات وأبراج الحمام وكلها بينها تقاطعات بأزقة لا تحصى. قصران كبيران -القصور الحقيقية واسعة وعلى الطراز العربي الأقصري- سدًّا الطريق على الأعمدة العظيمة لحوريمبيبي، بينما القاعة الثانية وكل الأماكن المفتوحة والأجزاء الخربة في الجزء العلوي من المعبد كانت مثقلة بحظائر الخراف والماعز وعشش الفراخ وحظائر الحمير وزحام من البيوت الطينية الخربة وأكوام القمامة وأكوام الفخار المكسور. أعلى سقف الرواق وقف منزل قديم متهالك خرب مملوك للحكومة الفرنسية ومعروف بمنزل فرنسا، بين حيطانه عاش شامبليون الشهير وحليفه روسيلليني وعملا معًا في 1829 بعض الوقت خلال إقامتهما الطويلة في طيبة. هنا أُرسِل ضباط البحرية الفرنسية من فرنسا في عام 1831 لنقل المسلة التي تزين ميدان الكونكورد الآن، وهنا

من المسلي جدّا للقراء الإنجليز أن ليدي دوف چوردون تسكعت وبقيت خلال بعض فصول الشتاء الأخيرة لها وكتبت معظم "رسائل من مصر" الجميلة. "بلكونة" صغيرة لها شرفة مكسورة وجزء من حاجز تزخرفه خطوط محفورة تظهر فوق بعض الحوائط الطينية في نهاية المبنى. في البلكونة كانت تجلس في برد المساء تراقب القوارب في النهر والأثر الساحر للغسق على الجبال الليبية المواجهة لكل هذه الأبنية: منزل فرنسا، المخازن، الحظائر،إلخ.. راحت واختفت" (چانيت روس)

[37]- إدوارد وليام لين، المستشرق الذي عاش في مصر في القرن التاسع عشر وكتب كتابه الشهير "المصريون المحدثون" وترجم "ألف ليلة وليلة" وغير ذلك من كتب.

[38]- "فيدرا" مسرحية لجان راسين، كاتب المسرح الفرنسي في القرن السابع عشر، وهي أسطورة يونانية عالجها أكثر من كاتب مسرحي.

[39]- مس هارييت مارتينو، مؤرخة ولغوية ومترجمة وعالمة اجتماع في القرن التاسع عشر في إنجلترا.

[40]- كارستن نيبور، عالم رياضيات وخرائط شارك في البعثة الدنماركية إلى العالم العربي بين عامي 1761-1767 وكتب عن رحلاته إلى العالم العربي والشرق، أما جيمس كوك فهو واحد من أهم المستكشفين في رحلاته حول العالم في المحيطات والبحار في القرن الثامن عشر.

[41]- بارتولمي استيبان موريللو، رسام إسباني من القرن السابع عشر.

[42]- من قصص العهد القديم كان سيدنا إبراهيم يريد زوجة جيدة لابنه إسحق ولا يريده أن يتزوج من الكنعانيين لعبادتهم آلهة لا يعترف بها، فقال لخادمه "أريدك أن تذهب إلى حاران حيث أقاربنا وتجد امرأة لإسحق". ذهب الخادم وقام برحلة طويلة على جمله وتوقف في المساء عند بئر تأتي إليها النساء، أتت ربيكا أو -رفقة- لتحصل على بعض المياه فسألها الخادم عن اسم أبيها وإذا ما كان يمكن له أن يرى بيتهم. عرف اسم أبيها وكان ابن أخي إبراهيم ناحور فشكر الرب لأنه التقى بأقارب إبراهيم، وفي الليل في بيتهم أخبرهم لماذا جاء وبأنه يطلبها لإسحق، ووافق الأب وأخوها لابان وسعد بها إسحق.

[43]- حكاية قائد المائة الروماني المذكورة في أحد الأناجيل عن هذا القائد الذي كان خادمه -عبده- مريضًا جدًّا وأتى إلى السيد المسيح مهمومًا يطلب إليه شفاءه وأراد المسيح أن يذهب معه ليراه لكنه رفض، فغير مسموح له أن يترك المسيح يدخل بيته وهو القائد العسكري الذي فوقه قيادات أخرى تمنع ذلك، فقال له المسيح اذهب ولك ما أردت، وتم شفاء الخادم.

[44]- السبت الإسكتلندي، هو السبت الحزين وفيه تُمنع الموسيقا والغناء إلا ما له علاقة بالدين، باستثناء الويسكي وهو عادة يهودية قديمة تم إحياؤها في إسكتلندا في القرن السابع عشر ومنها انتشرت.

[45]- هي جين إليزابيث ديجبي أو ليدي إلينبورو، أرستقراطية إنجليزية اشتهرت بقصص الحب والزواج، كان أول أزواجها "إدوارد لو" بارون إلينبورو، وآخرهم شيخ العرب "ميجول المزراب" شيخ قبائل عنيزة في الشام، وبينهما أحبت وتزوجت بمشاهير من بافاريا وميونيخ واليونان. وُلدت في بريطانيا عام 1807 وتُوفيت في دمشق عام 1881.

[46]- بالميرا، الاسم القديم لمنطقة تدمر الحالية في سوريا.

[47]- ربيكا، هي زوجة إسحق فيما بعد، وهي أم يعقوب والأخت الصغرى لميلكا أخت سارة وناحوم أخي إبراهيم.

[48]- سفر راعوث بالعبرية، وهو السفر الوحيد المسمى باسم امرأة، وراعوث هي زوجة بوعز.

[49]- اسم أُطلق على الفتاة الجميلة التي اقترن بها سليمان في التوراة، أو التي هي من قرية شولم الفلسطينية في بعض الدراسات، وكانت فائقة الجمال.

[50]- جيوفاني باتيستا بلزوني، مستكشف ومغامر إيطالي استقر في طيبة وقام بحفريات وكشوفات في الكرنك والواحات وغيرها، وكان أيضًا من لصوص الآثار.

[51]- راعوث، هي زوجة بوعز في التوراة التي أشرنا إليها من قبل والكلمات من كلامها، وكانت تعمل في الحقول وفيها رآها بوعز.

[52]- ناعومي أو نُعمي، هي امرأة إسرائيلية، وقد ارتحلت هي وزوجها وابناها إلى أرض موآب ثم ذات يوم مات زوجها. وفيما بعد تزوَّج ابناها بفتاتين موآبيتين هما راعوث -قبل أن تتزوج بوعز- وعُرفة أختها، ولكن بعد نحو عشر سنوات مات ابناها. فشملها الحزن والفتاتين.

[53]- هو الروائي البريطاني هنري فيلدنج، من القرن الثامن عشر، له كثير من المسرحيات وروايات الخيال والمغامرات مثل "تاريخ مغامرات جوزيف أندروز وصديقه السيد إبراهام آدامس" و"تاريخ توم جونز" التي صارت فيلمًا شهيرًا بعنوان "توم جونز"، وكان قاضيًا وكتب الشعروالمقالات.

[54]- الميديون، قبائل كانت تسكن منطقة كردستان وكانوا جزءًا من الإمبراطورية الفارسية.

[55]- تقصد القراءات السبع للقرآن الكريم.

[56] - المقصود بدين هو آرثر ستانلي، وكان قسيسًا من رجال الدين وأستاذًا لتاريخ التربية في جامعة أكسفورد وعميدًا لدير وستمنستر، اختارته الملكة فيكتوريا ليصحب ابنها وليّ العهد في رحلته إلى صعيد مصر عام 1862 وكان المصريون يذكرونه بالشيخ ستانلي.

[57]- هذه ليست رسالة واحدة بل مجموعة من الرسائل إلى: الزوج والأم والابنة جانيت، متتابعةً تصف الأزمة التي كانت فيها لوسي دوف چوردون بسبب علاقة سالي خادمتها مع عمر أبو الحلاوة خادمها والتي شغلتها هذه الشهور. لذلك نشرت على هذا الشكل في كتاب حفيدها، ربما لتصوير الأزمة بشكل مؤثر.

[58]- كابينة قوية في مؤخرة السفينة.

[59]- الفريسيون، حزب سياسي ديني برز خلال القرن الأول داخل المجتمع اليهودي في فلسطين، يعود أصل المصطلح إلى اللغة الآرامية ويشير إلى الابتعاد واعتزال الخاطئين.

[60]- تقصد حماتها والدة زوجها ألكسندر دوف چوردون

[61]- هو ابن النبي سليمان الذي أعلن نفسه ملكًا على إسرائيل بعد موت أبيه، ورفضه الأسباط فانقسمت مملكة إسرائيل إلى مملكتين في الشمال والجنوب كما جاء في التوراة.

[62]- غير العمل سخرةً كان الفلاحون يَدفعون غصبًا تكاليف العمال والجمال المصادرة منهم وطعامها.

[63]- في سِفر الملوك بالتوراة كان نابوث يملك أرضًا قريبة من قصر الملك آحاب الذي أراد أخذها ليزرعها أو يجعلها حديقة، رفض نابوث بيعها لأنها ميراث عن أبيه كما أن القانون يمنعه بيعها، صار آحاب محبطًا فسألته زوجته جيزابيل "ألستَ الملك!"، وقررت أخذ الأرض؛ أرسلت لأكابر بلدة نابوث أن يدبروا له مكيدة وأن يأتوا بشاهِدَيْ زور أن نابوث لعن آحاب.. وهذا يكفي، فقتلوه وألقوا بجثته للكلاب خارج المدينة.

[64]- جون سميث مستكشف بريطاني في القرن السادس عشر، وتوماس براون مدافع عن العبيد في القرن التاسع عشر.

[65]- هذه عدة رسائل إلى ابنتها ريني أضافها حفيدها مجتمعة على هذا النحو بدون تاريخ ولكن تاريخ ما قبلها وما بعدها في كتاب حفيدها يجعلني أضعها في هذا المكان.

[66]- تقصد أنهم يبدأون من اليمين إلى اليسار

[67]- أسطورة حب ألمانية من العصور الوسطى صارت أوبرا شهيرة لفاجنر.

[68]- الباناديت اسم أُطلق على الطغاة الإنجليز في الهند.

[69]- إرنست فيدو -أو إرنست إيميه فيدو- كاتب وأثري فرنسي من القرن التاسع عشر.

[70]- الأسرار المقدسة في المسيحية، هي مجموعة من الطقوس الغاية منها نوال نعمة سرية غير منظورة بواسطة مادة منظورة، فهناك سر المعمودية ويستخدم فيه الماء، وسر الشكر أو القربان المقدس ويستخدم

فيه الدقيق أو الحنطة رمزًا لجسد المسيح ودمه، وسر التوبة ويوضع فيه الصليب على الرأس كمادة منظورة لغفران الخطايا.. وغيرها وغيرها.

[71]- **بنيامين، هو الأخ الشقيق الوحيد للنبي يوسف من أمه راشيل وأبيه يعقوب في التوراة.**

[72]- **الزواويون، كانوا فريقًا من الجيش الإنكشاري التركي يتميزون بملابسهم التي فيها البنطلون ضيقٌ من أسفل وواسعٌ من أعلى.**

[73]- **راجع هامش ص261**

[74]- **تقصد المؤلف البريطاني ماثيو چيمس هيجينز 1810-1868 الذي استخدم اسمًا مستعارا هو جاكوب أومنيوم.**

[75]- **الميثودية أو المنهاجية، هي طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر في المملكة المتحدة على يد جون ويزلي، وانتشرت في بريطانيا ولاحقًا -من خلال الأنشطة التبشيرية- في المستعمرات البريطانية حتى الولايات الأمريكية.**

[76]- **منطقة قبائل الدِّنْكَا في جنوب السودان.**

[77]- **مذبحة سبتمبر عام 1792، التي استمرت من 2 إلى 6 سبتمبر وقُتل فيها آلاف المساجين في باريس، وتُعرَفُ أحيانًا بأنها أول مظاهر الرعب في الثورة الفرنسية.**

[78]- **هو وليم جيفورد بالجريف 1826-1888 كان قسيسا ومبشرا ومستشرقا ورحالة يطوف كثيرًا من بلاد العالم العربي وإفريقيا، استقر في مصر موظفا في القنصلية الإنجليزية ونشر عام 1865 كتابه "رحلة عالم في وسط إفريقيا وشرقها"، وهو الكتاب الذي تتحدث عنه.**

[79]- **الدبور، ريح تأتي من المغرب إلى المشرق.**

[80]- **هذه حكاية تقال عن الرسول الكريم وأحد الصحابة، وأحيانًا عن**

الرسول وعليّ بن أبي طالب وليس بين نبيين كما قالت أو قيل لها. هكذا وصلت الحكاية إليها وهي من طرائف الحكايات لا أكثر.

[81]- **إيمانويل جولي برين، معماري فرنسي ولد في باريس عام 1836 وتوفي عام 1886.**

[82]- **دير أوغسطيني شهير في نوتنجهام شاير بإنجلترا، وتحول إلى منزل بعد حلِّ الأديرة. معروف الآن باسم منزل الأجداد للورد بايرون.**

[83]- **ميريت باشا باحث فرنسي في الآثار عينه سعيد باشا أمينا للآثار المصرية وله كشوفاته فيها.**

[84]- **الجمعة الكبيرة أو الجمعة العظيمة ذكرى صلب المسيح وتتعدد فيها الصلوات طوال النهار وتكون يوم الجمعة السابق على عيد القيامة وتسمى أحيانًا بجمعة الصلوات.**

[85]- **هو الأنبا باخوميوس صاحب الدير المشهور باسم "دير الشايب" في الأقصر.**

[86]- **الأمير عبد القادر الجزائري.**

[87]- **الآن أعتقد أن الدوسة انتهت، شيخ دراويش الصعايدة ذهب إلى الجامع بعد قضاء جزء من الليلة وحده يردد الصلوات وآيات من القرآن، ألقى خطبة وأمَّ صلاة الصبح ثم ركب حصانه إلى الأزبكية، عديد من الدراويش صاحبوه حاملين أعلامهم إلى منزل شيخ كل الدراويش حيث بقي بعض الوقت، بينما تابعوه مندمجين في ربط أجساد أولئك الذين رغبوا في أن يداسوا تحت أقدام فرس الشيخ ووضعوهم في منتصف الطريق، نحو ثمانين أو مائة أو أكثر تمددوا بعضهم جوار البعض منبطحين على الأرض على بطونهم يرددون "الله.. الله"، ولمعرفة ما إذا كانوا قد جمعوا متقاربين بما يكفي يجري نحو عشرين درويشًا على ظهورهم يدقون الطبول الصغيرة ويصيحون "الله"، ثم يتوقفون هنا وهناك لتنظيم ذراع أو ساق، ثم ظهر الشيخ يقود فرسَه سائسان بينما اثنان آخران يضعون أياديهم على كَفَلِه، بدفعٍ وجذبٍ كثيرٍ صَهلَ الفرس، الحيوان خائف من المشي بسرعة على صف الرجال المنبطحين، في اللحظة التي مشى فيها الفرس ظَهَرَ الرجال وتابعوا الشيخ في المشي على أجساد الآخرين. لقد قيل إنه في اليوم**

السابق للدوسة يعيدون هم والشيخ أدعية معينة تمنع أظلاف الفرس من إيذائهم، والذي يغلبه الحماس الديني يلقي بنفسه تحتها مع الباقين غير مهتم بالأذى الخطير أو حتى بالموت. (لوسي دوف چوردون)

[88]**- إقليم في جنوب شرق بريطانيا.**

[89]**- يوسف النجار.**

[90]**- إدوارد جون إيار Edward John Eyre مكتشف أستراليا، وكان مديرًا للمستعمرات وحاكمًا لجامايكا ولقد وقع التمرد عام 1865.**

[91]**- مارجريت دي نافار (1492- 1546) أميرة فرنسية وملكة إقليم "نافار"، وكان لها إسهام عظيم في النهضة الفرنسية ولديها صالون زاره أدباء أوروبا وكتبت الشعر والمسرح وقصصًا قصيرة.**

[92]**- محمد علي باشا، الذي كان حارسًا أُمِّيًّا لمقهى في سالونيكا، جاء إلى مصر أول مرة على رأس فرقة ألبانيةٍ وتعاون مع الإنجليز ضد الفرنسيين. بهذه القوة والذكاء غير العاديين أصبح حاكمًا لمصر السفلى ونجح في جذب بكوات المماليك في صفه. لكنه وجد أنهم بدؤوا يسخطون من حكمه القوي، دعاهم في 1811 إلى عشاء كبير في القلعة في القاهرة، أغلقت الأبواب وفجأة أُشعلت النيران فيهم من كل ناحية، فقط رجل واحد (الألفي بيك) استطاع أن يركب حصانه ويقفز من أعلى السورإلى الميدان تحته (مسافة ثمانين أو تسعين قدمًا)، مات حصانه وانكسرت رجله هو لكنه استطاع الزحف إلى بيت صديق وتم إنقاذه. وتكرر ما جرى مع الألفي بيك عندما مات عباس باشا ففُتِحَتْ القلعة لابنِهِ إلهامي ضد عمه سعيد باشا، وكان هذا بتدخل القنصل الإنجليزي العام الذي ركب إلى القلعة تحت تأثير حكاية الألفي للاعتراف بسعيد واليًا على مصر. (لوسي دوف چوردون)**

[93]**- مواس، تشير إلى حامل سكين يقطع بها من اللحم الحي كنايةً عن النهب.**

[94]**- بساط الريح في ألف ليلة وليلة.**

[95]**- سانشو بانثا، رفيق دون كيخوته في رحلته.**

[96]- الشيخ إبراهيم بن محمد بن أحمد الشافعي الباجوري، كان شيخًا للأزهر ومن أشهر رجاله توفي عام 1859.

[97]- مدام دي ديفوند، أديبة فرنسية (1696-1780).

[98]- هوراس وَالْبُول، أديب إنجليزي (1717-1797).

[99]- آن روبير جاك تيرجو (1727-1781)، شهرته تيرجو، اقتصادي وسياسي فرنسي، وقفَ وراءَ محاولة قصيرة الوقت لتغيير السياسات الاقتصادية لفرنسا في القرن 18، كان لفكره تأثير كبير على آدم سميث الذي ألَّفَ كتاب "ثروة الأمم".

[100]- صامويل بيكر (1821-1893)، رحالة وكاتب وخبير في التاريخ الطبيعي، له محاولات ناجحة في اكتشاف منابع النيل وحمل لقب لواءٍ وباشا في مصر، وأنشأ على منابع النيل مديرية جديدة بمصر عُرفت بـ"مديرية خط الاستواء" في عهد إسماعيل، وكان من دعاة تحرير العبيد.

[101]- بابليوس تيرنتيوس -معروف في الإنجليزية بتيرنس- كاتب مسرح روماني من القرن الثاني قبل الميلاد، أصوله بربرية من مدينة قرطاجة، اشتراه تيرنتيوس لوكانوس السيناتور الروماني فحمل اسمه وأحضره عبدًا إلى روما وعلمه وفيما بعد حررته قدراته وتعليمه، مات صغيرًا وترك خلفه ست مسرحيات.

[102]- أَلِكْسِيس، كان مُنَجِّمًا أثارَ الحياة في لندن منذ نحو خمسين سنة، في إحدى الأماسي في لانسداون هاوس كان يقرأ أفكار الناس ويصف بيوتهم من خطوط أيديهم ومن أسئلة قليلة تقوده، الماركيز العجوز طلب إلى أمي أن تترك أَلِكْسِيس يقرأ أفكارها، وأعتقد أنه تأثر بمظهرها العظيم وجمالها المنحوت -شبيه بجمال التماثيل- متخيلًا أنها لا بد تفكر في بطل عظيم من الأزمنة القديمة، قال أَلِكْسِيس بعد أن فحص بعناية يدها "مدام.. أنتِ تفكرين في يوليوس قيصر"، ضربت رأسها وقالت له أن يحاول ثانية، وكان تخمينه الثاني الإسكندر الأكبر.. ابتسمت وقالت "لا يا سيدي، أنا أفكر في خادمنا الزنجي المؤمن حسن"، بعدها وصف بيتها كشيء قريب من لانسداون هاوس- حجرات واسعة، لوحات رائعة.. إلخ. ضحكَتْ وقالت له إنها تعيش في "منزل متواضع جدًّا ومناسب للبرجوازية الصغيرة "، ما أثار دهشته الغاضبة كونها لم تكن صادقة بما يكفي وأنها لم تُعِنْه. (چانيت

روس)

[103]- تقصد الخادم حسن الذي كان في بيتهم في لندن والذي ورد اسمه في المقدمة.

[104]- أُنَك Anak كلمة عبرية أُطلقت على عملاق وجاء نسله عمالقة مثله .

[105]- وَفقًا للتاريخ فإن أول كنيسة بُنيت في مصر تم بناؤها بواسطة سانت مارك المُبَشِّر وصاحب أحد الأناجيل في بوكاليس Baucalis قرب الإسكندرية، وقُدِّمت المسيحيةُ إلى الحبشة تحت أثناسيوس بطريرك الإسكندرية في القرن الثالث الميلادي. سلطة البطريرك القبطي المصري ما تزال شاملةً الحبشةَ فأنصارُه هناك بالملايين. (لوسي دوف جوردون)

[106]- تقصد زوجها.

[107]- "إما" رواية لچين أوستِن.

[108]- مدينة بوباستيس، واحدة من أكبر المدن القديمة في مصر، خارج منطقة الزقازيق وتعرف الآن بـ"تل بسطة". كان بها معبد الإلهة باستيت - بوباستيس- القطة الرشيقة إلهة الحب والخصوبة، وكانت الاحتفالات بها تشهد مئات الآلاف من المصريين يَفِدُون إليها يغنون ويرقصون احتفالاً بالإلهة الجميلة ويقدمون إليها القرابين ويستهلكون كميات كبيرة من النبيذ.

[109]- الخطاب السابق وصل إلى إنجلترا في اليوم التالي لوفاة جدتي (مدام أوستِن)، مما كان صدمة لأمي كبيرة وجعلها مريضة وتعسة، ومن ثم قررتُ أن على أخي موريس أن يذهب ويمضي الشتاء معها على النيل. (چانيت روس)

[110]- حكاية حلاق بغداد من ألف ليلة وليلة.

[111]- هي قرية الكوبانية، بها ضريح وليّ الله أبي يزيد البسطامي وتسمى عند العامة بقرية البسطاوي.

[112]- المشيخية أو "النظام المشيخي" يشير إلى عدة كنائس مسيحية تتبع تعاليم العالِم اللاهوتي البروتستانتي جون كالفن.

[113]- رواية لصامويل وارين الذي كان روائيًّا ومحاميًا، نشرت عام 1841 في إنجلترا في ثلاثة أجزاء وفي أميركا في ستة أجزاء، وهاجمها في أمريكا إدجار آلان بو باعتبارها رواية ركيكة مليئة بالعار لكنها انتشرت جدًّا وتعددت طبعاتها وشخصيتها الرئيسية هو تيتلبات تيتماوس، وكل شخصياتها لهم مقابل في الحياة وقتها من الشخصيات الشهيرة في القانون والحياة في إنجلترا.

[114]- عساكر غير نظاميين

[115]- كتاب ليدي هربرت عنوانه "Cradle Lands" أي "بلاد المهد" أو "الأراضي الأولى"، منشور عام 1867، ويقول چوردون ووترفيلد إنها اتهمت غزاوي بالنصب على المسافرين رغم أنه حصل على مقابل طيب من أمير ويلز في رحلته، وأنه أُدين بذلك أمام القنصلية بعد عودتهم إلى القاهرة وتم تهديده باصطحابه إلى الباشا فأُكره على إعادة جزء مما حصل عليه بالنصب.

[116]- هاديس هو حارس العالم السفلي (عالم الموتى) في الأساطير الإغريقية.